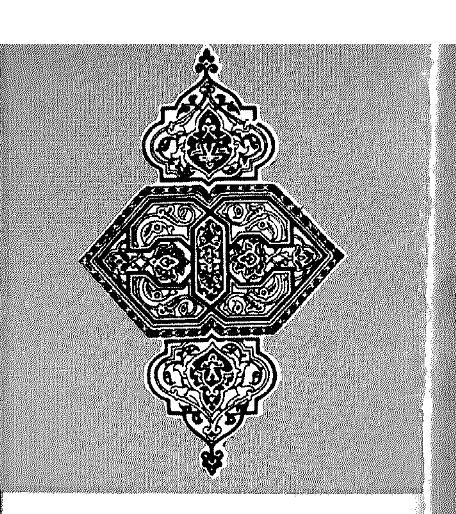
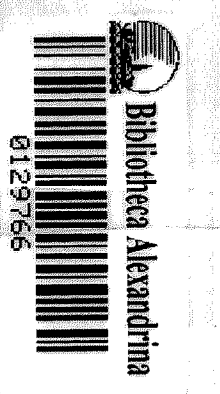
محمد رسول الله ﷺ

سيرته وأثره في الحضارة





جلال مظهر

الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة



محمد رسول الله ﷺ

سيرته وأثره في الحضارة

رقم الإيداع بدار الكتب
٣٥٧٣ لسنة ١٩٧١

محمد رسول الله ﷺ

سيرته وأثره في الحضارة

تأليف

جلال مظهر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



مقدمة

عكفت على دراسة حضارة العرب والإسلام أكثر من عشر سنين ، كتبت فى خلالها ثلاثة كتب فى أثر الحضارة العربية الإسلامية فى الحضارة الأوربية . والحق أنى كلما ازددت معرفة بتاريخ حضارة العرب والإسلام وبتاريخ العلم ، ازداد يقينى بالأثر الجوهرى الذى أحدثته هذه الحضارة فى إبان ازدهارها فى القرون الوسطى فى حضارة أوربا ، ومن ثمة فى الحضارة الحديثة .

ولما كان محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤسس هذه الحضارة ، أصبح لزاماً علىّ أن أربط سيرته بها ، وأصبح ضرورياً ، بل لقد أصبح من واجبى ، أن أعود إلى النبع الذى انبثقت منه هذه الحضارة .

ثم إننا لا نستطيع فى واقع الأمر أن نعى حقيقة الدور الذى أدته حضارة الإسلام للتقدم الإنسانى عامة من غير أن نبحث فى أحوال العالم الذى ورث الحضارة القديمة ، والذى استولى عليه المسلمون فى ذلك الوقت وأثروا فيه ، وهو عالم الرومان والمسيحية فى المقام الأول . يستتبع ذلك أن نعقد مقارنة بين المفاهيم التى أرستها المسيحية فى هذا العالم — والتى دعت إلى ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أو إلى احتقار العلم والعلماء ، أو إلى غير ذلك من المفاهيم التى أدت فى نهاية الأمر إلى انهيار الحضارة القديمة والقضاء على كل مظاهر العلم — وبين المفاهيم التى أرستها حضارة الإسلام فى هذا العالم ذاته بعد أن استولى عليه المسلمون ، وكيف قلبته رأساً على عقب ، وكيف نتج عن المفاهيم التى شاعت فى دولة الإسلام ، مثل القول بأن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة ، والتى تبناها خلفاء الإسلام وحكامه وأمراؤه ، نهضة حضارية علمية عظيمة الشأن ، كانت سبباً مباشراً فى إنقاذ العلوم القديمة من الضياع ،

فضلا عن ابتكار علماء المسلمين لعلوم جديدة تكمن فى أساس الحضارة الحديثة بشهادة جِلّة من العلماء الأوربيين المحدثين أنفسهم ،

هذه النهضة الكبيرة التى أحدثتها دولة الإسلام فى التاريخ الدينى ، والاجتماعى ، والعلمى ، والحضارى عموماً فى القرون الوسطى ، إنما يرجع الفضل فيها إلى رجل عربى أمى كانت أمه تأكل القديد ، عاش فى صحراء العرب ، وخرج يوماً ما من مسقط رأسه طريداً يقاتله قومه أشد القتال ، فكافح كفاحاً بطولياً ، ثم انتصر عليهم ، وأسس فى النهاية ديناً يدين به الآن مئات الملايين من البشر فى جميع أنحاء العالم ، ودولة انبثقت عنها أكبر إمبراطورية عرفتها القرون الوسطى ، بل ربما لا نكون مغالين إذا قلنا إنها كانت أهم إمبراطورية فى تاريخ الحضارة الإنسانية العلمى على الأخص .

من هنا بدأت أكتب سيرة هذا النبى الأمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وانحصرت الخطة التى انتهجتها فى كتابة هذا التاريخ فيما يلى :

حافظت بقدر الإمكان على سياق النصوص القديمة التى وصلتنا عن أئمة كتاب السيرة ورواة الأحاديث . ذلك أن هذه النصوص لا تزال فى الحقيقة من حيث سلاستها وسهولتها وكأنها بنت اليوم ، فضلا عن جمالها اللغوى وبيانها . ولم أدخل عليها إلا بعض تعديلات قليلة إذا اقتضى الأمر تغيير كلمة مهجورة بكلمة حديثة . ولم أحاول أن أدخل على السيرة من الخطابيات والحماسيات والنظريات التى تحتمل القيل والقال شيئاً ، بل إنى تعمدت أن أترك السيرة كما وصلتنا عن القدماء بكل جلالها وروعتها تعبّر تعبيراً صادقاً عن مختلف الأحوال والملابسات والعقائد والأفكار التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، وبما تنطوى عليه من عبقرية الشعب وعبقرية القائد فى إطارها البدوى الساذج . ثم وضعت هذا كله فى إطار من أفكارى وتعليقاتى . ولم آخذ عن أحد من المحدثين شيئاً يستوجب الإشارة إليه ،

وإن كنت قد استنرت بكتبهم ولا شك . ولذلك لم أشر فى هوامش الصفحات إلى المراجع ، وإنما أشرت إليها جملة فى نهاية الكتاب .

ثم إنى مِلْتُ مع ميزان الفكر الحديث ، وبينت بجلاء كيف أن الشعب الذى ظهر فيه محمد عليه السلام كان شعباً يتمتع بكثير من المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عُظْمى ، وإن عابته بعض المثالب التى نهاه عنها الإسلام ، فأصبح به خير أمة أخرجت للناس . ولا غرو فإن محمداً ذاته كان دائم الفخر بعروبته وببيته الهاشمى .

ولم أحفل بالرد على مهاترات أعداء الإسلام الذين أرادوا الانتقاص من النبى بالشرشرة الفارغة حول بعض تصرفاته ، أو بالطعن فى بعض مفاهيم الإسلام ، واكتفيت بإظهار فكرة كبرى ، هى أن الإسلام ونبى الإسلام قد أحدثا ثورة هائلة فى القرون الوسطى فى تاريخ الفكر الإنسانى عموماً ، والفكر العلمى بخاصة ، وأنقذا العالم من عصور الظلام ، ووضعاه على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . ماذا جنت البشرية من ظهور محمد والإسلام ؟ هل تقدم العالم تحت نظام الإسلام أم تأخر ؟ هل كان الإسلام نظاماً تقدمياً بالنسبة للأنظمة الموجودة فى عصره أم لا ؟

وهنا أعتقد أنه ينبغى للكثيرين من الذين يجنحون فى مناقشاتهم إلى استعمال بعض العبارات الحديثة مثل « الدين أفيون الشعوب » أن يدركوا تمام الإدراك أن الدين الإسلامى لحسن الحظ لم يكن ولا ينبغى أن يكون فى أى وقت من الأوقات ، ولا تحت أى ظرف من الظروف أفيوناً للشعوب . لأن الدين الذى يحض على الاستعلاء فى هذه الدنيا ، ويمجد الحرية ، ويشيد بالعلم والعلماء — الدين الذى تأمر روحه العام خليفة المسلمين بأن يقف فى الناس فيقول لهم كما قال أبو بكر : « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى . . . إن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » أو كما قال عمر : « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقوّمه » وهذه هى روح الإسلام الحقيقية ، لا يمكن أن يكون أفيوناً

للشعوب . وتاريخ الإسلام فى عصر ازدهاره وقوته ، أى فى عصر الرجولة الإسلامية ، مليء بمواقف لعدد كبير من الخلفاء ، والحكام ، والقضاة ، تعبر أحسن تعبير عن هذا المتجه ، وعن هذه الروح . ويكفى الإسلام أو أى نظام اجتماعى آخر فخراً أن يكون فى عصره نظاماً تقدمياً لا انتكاسياً . ومن هنا ينبغى لكل المفكرين وللتقدميين على الأخص أن ينظروا الإسلام باعتباره نظاماً تقدمياً من النظم التقدمية التى أحدثت فعلا وحقيقة تقدماً رائعاً فى تاريخ الإنسان الحضارى ، فى عصر كانت فيه الحضارة فى أمس الحاجة إلى دفعة نورانية تزيح عنها الظلمات التى خيمت عليها .

ثم إنى شرحت فى الفصل الأخير جميع هذه الأفكار ، وتعرضت للحقائق التاريخية التى حكمت عالم الحضارة فى القرون الوسطى ، وبينت كيف أن حضارة الإسلام كانت فى حقيقة الأمر ، وبما ليس فيه مجال للقيل والقال ، واعتماداً على أوثق المصادر العلمية والتاريخية الحديثة ، الأساس الجوهرى الذى ترتكز عليه الحضارة الحديثة . ونحن إذ نقرر هذا التقرير لا نلقى القول على عواهنه ، وإنما يكفى أن نذكر هنا الآن أقوال عدد من كبار علماء الغرب ، تفصح أيما إفصاح عن هذه الحقيقة التى شغلتنى أكثر من عشر سنين ، حاولت فيها بكل طاقتى وبما وصل إليه علمى أن أبثها ، وأثبتها ، وأعممها فى أفكار بنى جلدتى ، وأهدى بها الجيل الجديد من أبناء العرب الكرام إلى حقيقة تاريخية هامة جداً ينبغى لهم أن يعوها تماماً ، وأن يعملوا على نشرها .

يقول الأستاذ همبولد : ينبغى لنا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية فى عصرنا هذا .

ويقول الأستاذ ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الأدبية عدة قرون .

ويقول الأستاذ كارا دى فو : إن مكتشفات العرب فى الرياضيات تكمن فى أساس الحضارة الحديثة .

ويقول الأستاذ نيكاسون : إن مؤلفات العرب التى اتصفت بالدقة وسعة الأفق قد استمد منها العلم الحديث — بكل ما تحمل هذه العبارة من معان — مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض .

أبادر بالاستشهاد بهؤلاء الأساتذة ، وهم من كبار الباحثين الأوربيين ، حتى أكون أقرب إلى عقول أبناء وطنى العربى الذين بلبلت أفكارهم دعايات المستعمرين والمبشرين والشعوبيين ، وحتى لا يظن البعض أنى أجرى وراء أوهام ، أو أنى أنساق فى دوامة من العاطفة الوطنية المتأججة . كلا ثم كلا ! فهذه حقيقة تاريخية كبرى ، إن لم يقتنع بها اليوم إلا فئة ممتازة من المثقفين الذين ألموا بتفاصيل هذا التاريخ ، واستطاعوا أن يخرجوا من الكماشة التى ضربتها الدعاية الغربية ضد العرب والإسلام ، فإنى على يقين من أن الأيام كفيلة بتحقيق ما أرمى إليه .

القاهرة فى ٢ من أغسطس سنة ١٩٧٠ — جلال مظهر



الفصل الأول

الجاهليـــة

أو

فترة ما قبل الإسلام

يراد بالجاهلية زمن الفترة التي مرت قبل الإسلام والتبشير به . وفي الحديث : إنك امرؤ فيك جاهلية ، أي أنك لا زلت متأثراً بالحالة التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع دينه ، فضلا عن تمسكك ببقايا بعض العادات التي كانت متفشية بين العرب في الجاهلية ، والتي نقضها الإسلام . ولقد ورد ذكر الجاهلية في القرآن أربع مرات في الآيات : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية[1] » و « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون[2]» و « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية[3] » و « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى[4]» . وأما المقصود بالجاهلية الأولى فأمر اختلف فيه المفسرون كثيراً ، وأعتقد أن المقصود بالجاهلية الأولى إنما هو الزمن الموغل في الجهل بالأنبياء والرسل ، أي الزمن السابق على الأنبياء والرسل المعروفين . ونحن على أية حال لا نستطيع تحديد فترة الجاهلية على وجه الدقة ، إلا بالقول بأنها الفترة التي مرت على العرب وهم يجهلون الإسلام ، أي ما قبل الإسلام على إطلاق القول .

يعبر لفظ الجاهلية في عقول الناس عن حالة من الفوضى والاضطراب

---

(١) آل عمران ١٥٤ . (٢) المائدة ٥٠ .

(٣) الفتح ٢٦ . (٤) الأحزاب ٣٣

والهمجية والانحطاط عاشتها بلاد العرب قبل الإسلام . ولقد درج المؤرخون المسلمون الورعون الأتقياء ، الذين يريدون إظهار الإسلام فى ثوب من الإعجاز ، أو الشعوبيون الذين رموا إلى الانتقاص من شأن العرب ، أو المستعمرون المحدثون ، على تثبيت هذا المفهوم وترسيخه ، كل فئة تخدم أغراضها . ولكن الحقيقة التاريخية تدلنا قطعاً على غير ذلك ، مما يجعلنا نقرر مع عدد من الباحثين أن الجاهلية تعنى أول ما تعنى الجهل بالدين الإسلامى وشرائعه ، فضلا عن بعض العادات السيئة التى نقضها الإسلام لا غير . ذلك أننا لا نستطيع أن ندعى أن الإسلام هدم المجتمع العربى الجاهلى هدماً تاماً وكاملا وشاملا من أساسه ، وأقام بين ليلة وضحاها مجتمعاً آخر ليكون « خير أمة أخرجت للناس » . هذا لا يمكن أن يحدث فى عالم الاجتماع . فإن حضارة الأمم لا تولد فجأة وبلا مقدمات ، وإنما هى فى واقع الأمر نتيجة لتطور طويل جداً ، ولمفاهيم أخلاقية تترسب فى نفسية الجماعة جيلا من بعد جيل ، وتؤهلها للقيام بدور حضارى معين .

والحق أننا لا نقع فى واقع الأمر لا فى القرآن ولا فى الحديث على شىء نستشم منه عيباً فى شأن العرب باعتبارهم أمّة ، بل على الضد نقع فى أحاديث كثيرة على ما يفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفخر دائماً بالعرب جملة وبالبيت العربى الذى ولد فيه بخاصة . فقد جاء فى صحيح مسلم أنه قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وجاء فى البخارى أنه قال : « بُعِثْتُ من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً ، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » . وقال الإمام أحمد إن النبى صعد المنبر فقال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى

خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً » .

غير أنه من أعجب الأشياء حقاً أن الكتاب المسلمين القدماء ، وكثيراً جداً من المحدثين تناولوا بعض العادات السيئة التى كان يمارسها عرب الجاهلية ، وأخذوا ينسجون من حولها هيكلا ضخماً من السباب والشتائم فى هؤلاء العرب ، ظناً منهم أنه طالما حرّم دينهم مثل هذه العادات ، فإن الهجوم عليها وعلى الشعب الذى مارسها ضرورة يحتمها عليهم الورع الدينى . ولكن ما شأن الصفات الحميدة ؟

لقد تغاضى هؤلاء الكتاب تماماً عن الصفات الحميدة والخلقيات العليا التى اتصف بها الشعب الذى ظهر فيه محمد فكان بالإسلام « خير أمة أخرجت للناس » ، وتمسكوا بالقشور دون اللب والجوهر مستخدمين بعض المفاهيم الدينية التى أساءوا فهمها . لقد نسى أمثال هؤلاء الكتاب أو تناسوا ما اتصف به العرب الذين ظهر فيهم محمد من صلابة أخلاقية ومن مكارم نفسية هى فى واقع الأمر الأساس الذى يقوم عليه تقدم الشعوب ، وتتأسس به الإمبراطوريات والدول القوية والمجتمعات الناهضة الفتية .

ومن هنا أتت تلك البلبلة العجيبة التى أحدثها هؤلاء الكتاب فى مفهوم الناس عبر القرون لخلقيات الشعب العربى قبل الإسلام وإبان ظهور الإسلام . ولقد استمرت هذه المفاهيم الخاطئة بصورة أو بأخرى حتى أيامنا هذه . ولكنى أعتقد أن ميزان الفكر قد تحول فى السنين الأخيرة تحولا واضحاً نحو رفض الأقوال القديمة والنظريات الشعوبية والاستعمارية التى تسيء إلى عرب الجاهلية ، وبدأت الصورة الحقيقية لهؤلاء العرب الكرام اللذين كان محمد من خير بيوتهم ، تتحيز بشكل واضح فى كتابات كثير من الكتاب المحدثين .

أريد أن أقول بمنتهى الوضوح إن هؤلاء العرب الذين ظهر فيهم الرسول

إنما كانوا يملكون كل الأسس الأخلاقية الجوهرية اللازمة لبناء دولة قوية ، ولتأسيس مجتمع يستطيع أن يحافظ على سلامة هذه الدولة . ولا مرية أن كل من ينظر نظرة ثاقبة فى أحوال هؤلاء العرب ، لا يسعه إلا التسليم بهذا القول : فإن الدولة القوية ، كدولة الإسلام ، لا تقوم إلا على أكتاف أفراد أقوياء أخلاقياً وروحياً ، على أكتاف أفراد منتصرين بداءة . لا على أكتاف أفراد منحلين متخاذلين منهزمين نفسياً . ولقد انتصرت الدولة التى أسسها محمد بهمة رجالات مثل أبى بكر ، وعمر ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم من أبناء الجاهلية أتراب محمد وأصحابه .

لقد كانت القيم الأخلاقية التى اتصف بها هذا الشعب الأساس الأول الذى بُنيت عليه دولة الإسلام القوية . أمّا القيم الأخلاقية والنفسية التى اتصف بها هذا الشعب وهيأته للقيام بالدور الذى قام به فى التاريخ فكثيرة جداً ، نذكر منها شيئاً على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : قيمة العزة وشرف النفس ، قيمة الصدق ، قيمة الشجاعة ، قيمة الكرم ، قيمة الدفاع عن الحق ، قيمة التفاخر بصالح الأعمال ، قيمة التضحية فى سبيل الأهل والوطن والشرف ، قيمة حب الدين ، قيمة نصرة المظلومين ، قيمة حب البطولة ، قيمة حب العدل ، إلى آخر ما اتصف به هذا الشعب من قيم أخلاقية يفيض بها الشعر الجاهلى ويعبر عنها أحسن تعبير .

مما لا مرية فيه أن العصر الجاهلى عصر من عصور القوة الأخلاقية ، ومصداق كلامنا هذا الانتصارات التى حققها هذا الشعب فى مختلف مجالات النشاط الإنسانى عندما أتيحت له الفرصة الكاملة للعمل الحضارى البناء بعد أن تناوله الإسلام بالتهذيب والصقل . والحق أن هؤلاء العرب بعد أن خلصهم الإسلام من الصفات السيئة التى كانت تقف عقبة فى سبيلهم ، قد حققوا مجداً لم يطاولهم فيه أحد فى القرون الوسطى . ولقد يخيل إلينا أنهم كانوا يطيرون على أجنحة من الريح ، خفافاً لا يصدهم صاد ولا يعوقهم عائق عن بناء

دولة قوية صامدة ، تستطيع بصلابة أخلاق أفرادها أن تواجه التحديات التى تقابلها .

لقد كان العرب الذين هيأهم محمد عليه السلام للدور الذى قاموا به أعزة كراماً مقدامين لا يقبلون الضيم مهما كلفهم ذلك حتى ولو كلفهم حياتهم ؛ لم يكونوا أمة جريحة . ذلك أن الأمة الجريحة فى كرامتها ، المغلوبة على أمرها ، لا تستطيع أن تنتصر ولا يمكنها بحال من الأحوال أن تكون دولة كالدولة الإسلامية فى القرون الوسطى . إن الأمة الجريحة فى كرامتها تكون دائماً وفى جميع الأحوال والملابسات أكثر استسلاماً ، وألين جانباً ، وأميل إلى الخضوع ، وأرضى بالذل ، يسوقها إلى ذلك انحلال أفرادها ورضاهم بهذا الذل واستكانتهم حفاظاً على حيواتهم وأموالهم وما فى أيديهم مهما صغر ومهما قلت قيمته . فهل تغير الإسلام أو تبدل ؟ كلا ثم كلا ! وإنما تغير الرجال الذين يقيمون فى دولة الإسلام .

لقد ظلت الدولة الإسلامية قوية صامدة طالما كان رجالها قادرين على المضى قدماً فى العمل بالأخلاقيات العربية التى باركها الإسلام وقواها ، وطالما استمسكوا بها مهما كلفهم ذلك من تضحيات قد تصل بعض الأحيان إلى الموت . ثم انحدر المسلمون وضعف الإسلام عندما بدأت تتراجع مثل هذه الخلقيات ، وعندما بدأ الناس يتخاذلون ويستكينون ويستسلمون للعدوان عليهم وعلى كرامتهم وعلى رجولتهم ، وعلى كل القيم التى اتصف بها آباؤهم ، ونسوها هم ، والتى من شأنها أن تجعل منهم أناساً لهم قيمة فى الحياة . انحل المسلمون وانحلت الدولة الإسلامية ، وأصبح المسلمون فى الحضيض عندما تخلفت هذه المقومات ، ولم تعد جزءاً من مكنونات النفوس ، وعلى الأخص مقوم العزة وشرف النفس : فحرص الناس على ما فى أيديهم وما يلقيه إليهم الطغاة مهما قلت قيمته ، وتكالبوا على الدنيا بغض النظر عما يستباح من حرماتهم وما يخدش من كرامتهم .

عندئذ انحل المجتمع الإسلامى وغرق فى هوة من الذل والاستخذاء والاستكانة من شأنها أن تكبت فيه كل معانى الخير والحرية والجمال . أمّا عرب الجاهلية الذين نعرف ، والذين أسسوا المجتمع الذى ظهر فيه محمد وأصحابه ، فقد اتصفوا بكل الصفات وملكوا كل المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عظمى ، وإن انحصرت حياتهم فى الحقيقة فى إطار البادية وما توحى به البادية من مفاهيم تناقض مفاهيم الحضارة الثابتة الراسخة . وتدلنا الحقيقة التى يشير إليها تاريخ العرب الاجتماعى والسياسى والتجارى والثقافى دلالة واضحة على أن هؤلاء العرب كانوا منظمين تنظيماً اجتماعياً عظيماً منذ أبعد الأزمان ، وإن تأثر هذا التنظيم فى واقع الأمر بضرورات الحياة فى بادية شاسعة مترامية الأطراف ، مختلفة المناخ ، متباينة الأوضاع .

نرفض إذن القول بأن العرب الذين ظهر فيهم الإسلام كانوا قوماً من الهمج رفضاً باتاً ، ذلك أن القول بأن الشعب الذى ظهر فيه الإسلام والذى حمل رسالته التمدينية إلى العالم بكل أمانة وحكمة ، كان قبل ذلك شعباً همجياً ، وأنه ترقى فى عشرين سنة ، وأخذ على عاتقه ترقية شعوب أكثر منه حضارة ، أمر ضد الطبع وضد المنطق وضد سياق التاريخ . وأما الحقيقة التى يحدثنا عنها التاريخ فتشير بكل وضوح إلى أن العرب الذين خرجوا من جزيرتهم واستولوا على العراق والشام ومصر وشمالى أفريقيا والأندلس ، قد نهضوا فعلا بهذه البلاد ، فازدهرت شعوبها ونشطت فيها ضروب من الفكر والفلسفة والأعمال العامة لم تعهدها من قبل ، أو قل إنها كانت قد تسييت مثيلاتها منذ قرون وقرون .

إذن أريد أن أقول بمنتهى الوضوح أن العرب الذين ظهر فيهم محمد كانوا فعلا قد ربّبوا قيماً أخلاقية واجتماعية أهلتهم لأن يقودوا العالم فى العصور الوسطى فى مختلف فروع النشاط الإنسانى ، وأن يصبحوا رعاة الأدب والعلم والفن : والحق إن الحضارة لا تزدهر إلا فى جو من الرقى

الاجتماعى والأخلاقى . ومما لا شك فيه أن هؤلاء العرب كانوا أرقى أخلاقياً من جميع الشعوب التى فتحوا بلادها و حتكوا بها فى القرون الوسطى. لذلك أصبح ممكناً أن تنهض هذه الشعوب من جديد وأن تزدهر فيها ضروب الحياة الحضارية التى كانت قد انحلّت تحت وطأة العسف الرومانى والأفكار المسيحية التى سادت فى إبان عصور المسيحية الأولى ، مما سيأتى بيانه فيما بعد .

لقد يخيل إلى البعض أن الإسلام هدم المجتمع الجاهلى هدماً تاماً . كلا ثم كلا ! الدين الإسلامى دين ودولة . أمّا من حيث هو دين فإن الدعوة الإسلامية قائمة فى جوهرها على أساس أن الدين الإسلامى ليس ديناً جديداً ، وإنما هو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق وموسى وعيسى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[1] » . هو دين الحق الذى أفسده أهله وأدخلوا عليه من الضلالات والبدع ما ليس منه ، فأرسل الله رسوله ليبلغ الناس كافة دينه الحق ويعيد الدين الصحيح إلى صفائه الأول . ولقد ذكّر القرآن الكريم العرب مراراً وتكراراً فى آيات كثيرة بأنهم إنما يؤمنون فى قرارة نفوسهم بكل الجوهريات الإلهية التى يحدثهم عنها .

أمّا من حيث هو دولة لها شرائع وأحكام فإنه كان فى واقع الأمر بمثابة تقنين . لقد أقر الإسلام كثيراً جداً من العادات والتقاليد والأحكام التى كان معمولا بها فى الجاهلية وأيدها ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من شريعته ، ورفض عادات وتقاليد أخرى وأنكرها فنسيت وبادت .

مثال ذلك أن كثيرين من مفكرى المجتمع الجاهلى وقواده كانوا قد بدأوا فعلا يرفضون كثيراً من العادات القبيحة ، ويؤيدون عادات أخرى ،

---

(١) البقرة ١٣٦ .

أو يضعون أحكاماً جاء الإسلام فأقرها . فأول من حرّم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم ، وحرمها أيضاً عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين عامر ابن جشم الجهمى ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من حرم القمار فى الجاهلية الأقرع بن حابس ، وقرر ذلك الإسلام . وكانوا يرجمون فى الزنا فى الجاهلية وقرر الإسلام ذلك فى المحصن . وأول من حكم أن الولد للفراش فى الجاهلية أكثم بن صيفى حكيم العرب ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قطع يد السارق المغيرة ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من سن الدية مائة من الإبل عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من أظهر التوحيد بمكة قبل محمد قُس بن ساعدة . ثم إنهم حرموا الجمع بين الأختين ، وكانوا يحجون البيت الحرام بمكة ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويرمون الجمار ويقفون مواقف الحج كلها . وكانوا يغسلون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة ، ويداومون على المضمضة والاستنشاق ، وفرق الرأس والسواك ، والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . وكانت قريش تصوم يوم عاشوراء . وكانوا فى الجاهلية أيضاً يعتقدون فى الله وفى أنه سميع مجيب ، وأنه يحيى ويميت ، وأنه ينزل الغيث ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وإن أشركوا به . أى أنهم كانوا موحدين ، ولكن كان توحيدهم مشوباً بالشرك :

وعندما استطاع محمد أن يوجه العرب نحو هدف واحد ، وأن يفرض قانوناً موحداً وعادات وتقاليد ومبادئ يؤمن بها جميع العرب ، ويعملون بمقتضاها ، وهى فى واقع الأمر لم تكن بعيدة عن مفاهيمهم ونفسياتهم وخلقياتهم وما جبلوا عليه ، تهيأ العرب عندئذ وصلحوا لأن يقودوا العالم فى ذلك العصر . والحقيقة أنهم كانوا — مهما قلبت أوجه الرأى والنظر — أرقى كثيراً جداً من جميع الشعوب التى فتحوا بلادها . بما فى ذلك الفرس

والرومان والمصريون وغيرهم . لا أقول أرقى منهم من ناحية المظهر والملبس والمعاش ، وإنما أقول بكل تأكيد إنهم كانوا أرقى من جميع هذه الشعوب أخلاقيا . وهنا يكمن سر انتصاراتهم فى القرون الوسطى ، وسر حضارتهم التى أنقذت العالم من عصور الظلام ، ووضعت الإنسان على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . وسوف يستبين القارئ الفاضل كل ما أرمى إليه من سطور هذا الكتاب .

والحق أن الترقى فى جزيرة العرب كان قديماً جداً . فإن نظمهم الاجتماعية فى الزواج والطلاق وفى مختلف المعاملات كانت نظماً راقية لا تقل عن نظم الأمم المتحضرة المجاورة لهم ، إن لم تفقها فى بعض الأحيان . ومما لا مراء فيه أنهم عرفوا قوانين وعادات وشرائع وعقائد وتنظيمات حضارية هامة جداً ، سواء الحضر منهم أو سكان الخيام . وتدلنا الحقائق التى نستطيع استجماعها من مختلف أحوالهم قبل الإسلام وفى صدر الإسلام ، دلالة أكيدة على درجة كبيرة جداً من الرقى الأخلاقى ، والتنظيم الاجتماعى المتقن .

لا شك فى أن وضع المرأة فى أى مجتمع وحالتها العامة فيه فى أى عصر من العصور ، معيار هام جداً نستطيع به أن نصدر حكماً صحيحاً على قوة هذا المجتمع الأخلاقية ، وعلى مقدار تماسكه وتوازنه واستعداده بكل طاقته للعمل المثمر المفيد ، ذلك أن المرأة عماد المجتمع ومربيته وهاديته ، وهى عموماً مفتاحه ، إن صلحت صلح بصلاحها ، وإن فسدت فسد أيما فساد بفسادها .

كيف كانت إذن حال المرأة فى هذا المجتمع ؟ هل كانت حقيقة تلك السلعة الرخيصة التى يلهو بها الرجال ؟ هل كانت هذا المخلوق الكريه الممقوت الذى يئده الرجال تخلصاً من عاره ؟

كلا ثم كلا ! ذلك أن وأد البنات لم يكن شائعاً بين كل العرب ، وإنما كانت قلة منهم هى التى ترتكب هذه العادة الشنيعة ، سواء من عابدى الأوثان أو المتنصرين على السواء . ثم إن الوأد لم يكن مقصوراً على الفقراء ، بل إن بعض أثريائهم وسادتهم وأدوا بناتهم . والحقيقة أن العرب الذين وأدوا

بناتهم لم يكونوا بدعة فى الدنيا القديمة . فإن كان بعض العرب قد وأدوا بناتهم ، فإن اليونان كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث على السواء . وإن كان بعض العرب قد أباحوا لنسائهم الاستبضاع فقد أباحه اليونان والرومان . وإن كان العرب قد عددوا الزوجات فقد فعل ذلك اليونان أيضاً .

غير أن المرأة العربية الجاهلية كانت على العموم أرقى منزلة وأرفع مكاناً فى مجتمعها من المرأة اليونانية أو الرومانية مثلا . لم يعتبر العرب المرأة وعاء للنسل فحسب كما فعل اليونان . ولم يعتبروها مخلوقاً أحط من الرجل ، أو أنها باب للجحيم ، أو أنها خطر ونحس ، أو أنها المضلل الأول والعائق الأساسى فى طريق الخلاص ، أو أنها أداة للشيطان ، أو أنها مخلوق شرير دنىء يباح ضربها والاعتداء عليها كما اعتبرتها المسيحية . بل إنها كانت نداً للرجل ، وأكبر دليل على ذلك ما جاء فى أمثال العرب قولهم : إن النساء شقائق الأقوام ، والشقائق جمع شقيقة ، وهى كل ما يشق نصفين ، أى أن النساء كن مثل الرجال . وفضلا عن ذلك امتازت المرأة العربية الجاهلية عن نساء العالم القديم بأنها كانت ترث نصيباً مما يترك والداها ، فى حين أن المرأة اليهودية أو البابلية أو الأشورية أو اليونانية لم يكن لها حق فى الميراث . ومما لا شك فيه أن المرأة العربية قد تبوأت مكاناً رفيعاً جداً فى المجتمع العربى الجاهلى لم تبلغ مثله النساء المعاصرات لها أو غيرهن من نساء الأمم القديمة ، فيما عدا النساء المصريات فقط فى مصر القديمة .

إذن فليس صحيحاً أن المرأة العربية كانت فى حضيض الذل تعامل معاملة الإماء والعبيد وتسام الخسف . بل إنها شاركت الرجل مشاركة فعالة فى جميع شئون الحياة ، واشتركت معه اشتراكاً بيّن القسمات فى جميع صفاته الخلقية الممتازة وفروسيته . فكانت نداً للفارس العربى فى المروءة والشجاعة والشهامة والعزة والنجدة ، وفى جميع القوى النفسية بأجلى معانيها .

فهى تموت ولا تذل ، شجاعة لا تتراجع ، تقول رأيها صراحة ولا تخشى

من شيء ، مستمسكة بعقيدتها ، صابرة على الأذى ، عزيزة النفس لا تخضع ولا تستخذى ؛ شماء أبية ؛ معتدة بنفسها ، حافظة لكرامتها ، حريصة كل الحرص على حسن الأحدوثة ، وعلى صيانة الأسرة وسمعتها وسمعة قبيلتها ، كريمة ، سمحة ، مضيافة .

لقد عاشت المرأة العربية الجاهلية عنواناً ساطعاً على صفات أخلاقية عظيمة . فقد كانت حرة مريدة صاحبة شخصية قوية استطاعت بها أن تفرض إرادتها فى كثير من الأحيان ، فقد كان لها مثلا حق ثابت لا ينازعها فيه منازع فى الموافقة على الزوج المتقدم لها . كما كان لها أيضاً الحق فى تطليقه إذا عاملها معاملة سوء ، أو أنكرت عليه فعلا لا يتفق والمثاليات التى تتطلع إليها . وهى كثيراً ما اتخذت موقفاً صارماً يخالف مواقف الرجال . فكم من روايات عن هذه أو تلك تجابه أباها أو زوجها أو أخاها بما يكره ، ولكن بما تعتقد هى أنه الحق والصواب . وإن فى قصة فاطمة بنت الخطاب مع أخيها عمر ، أحد صناديد العرب المهابين البطاشين لأكبر دليل على ذلك .

وكانت المرأة تستقبل الضيوف وتضيفهم وإن لم يكن زوجها حاضراً . وكانت حرّة فى أن تظهر سافرة متى شاءت ، ذلك أن الأصل فى التنقب إرادة المرأة ذاتها فى أن تخفى محاسنها وراء النقاب خشية أن يبتذلها الوصف . وكانت تجير من يستنجد بها كالرجال تماماً ، وقُبِل جوارها واحتُرِم .

أجارت ريطة بنت جدل الطعان دُرَيد بن الصِّمَّة عندما أسره بنو فِرَاس ؛ وأجارت أم هانئ بنت أبى طالب رجلين ممن أهدر النبى دماءهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة . فقد أراد على أن يقتلهما يوم الفتح ؛ فما ملك محمـــد إلاّ أن قال لها : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ . وأمّا أشهر قصة لعربية أجارت فارساً من كبار فرسان الجاهلية بحد السيف ، فقصة فُكَيْهَة بنت قَتادة خالة طَرَفة بن العَبْد . ويروى أنه عندما أسر جماعة من بنى مالك ، السُلَيْك بن السُلَكَة ؛ جاملهم وقصد إلى بيت من بيوتهم

ووبخه على فُكَيْهَة واستجار بها ، فنعته من آسريه وجعلته تحت درعها واستلت السيف تحميه ، فلما تكاثروا عليها ، كشفت غطاء وجهها وصاحت بإخوتها فجاءوها ودافعوا عنها حتى نجى السُّلَيْك من القتل . فقال فيها بعد ذلك أبياتاً جميلة منها :

من الخطرات لم تفضح أباها ولم ترفع لإخوتها ستارا
يعاف وصال ذات البذل قلبى ويتبع المُمنَّعة النَّــوارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

ثم إن المرأة كانت تتعاقد مع الرجال على ما يتعاقدون عليه . اشتركت عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف فى حلف الأحابيش ، واشتركت أم حكيم أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب فى حلف المُطيّبين .

وكان للمرأة حق التملك وحق التصرف بكامل حريتها فيما تملك ، وحق إدارة أموالها بطبيعة الحال . ثم إن أوضح مثال هو مثال السيدة خديجة أولى زوجات محمد . فإنها لم تعهد لمحمد بإدارة شئون تجارتها فحسب وإنما أعطته من مالها . ويروى أن عائشة غارت من خديجة إذ كان الرسول يكثر من ذكرها وإطرائها ، فقالت : هل كانت إلاّ عجوزاً ؟ فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب وقال : والله ما أبدلنى خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتنى وكذبنى الناس ، وواستنى فى مالها (أى أعطتنى من مالها) إذ حرمنى الناس » .

أمّا حياة المرأة وسيرتها فى الأدب العربى الجاهلى فكانت الشغل الشاغل للرجل . وإن شعرهم لأكبر دليل على ذلك . فإن الرجل لم ينظم شعراً إلاّ وكانت المرأة أول ما يجول بخاطره ، يحييها ويخشع لها ويناجيها ، ويذكرها ويذكر ديارها ويناديها ، وكأنها كانت مفتاح نفسه . فقد كان دائم الشوق إليها والفتنة بمحاسنها ، حتى لقد أصبح ذكر المرأة فى مستهل القصائد كالأمر الواجب المحتوم . على أنها نبغت هى أيضاً فى قول الشعر وفى نقده . ولا يخفى علينا بطبيعة الحال كثير من أخبارها فى هذا الميدان الثقافى الهام .

وإننا لنعلم أن امرأ القيس وهو من فحول الشعراء قد غضب من زوجته أم جُنْدب عند ما حكّمها بينه وبين عَلْقَمة الفَحْل أيهما أشعر فحكمت لعلقمة فطلقها . ويروى أن النابغة وكان حكم العرب فيما يقولون من شعر فى عكاظ ، قد أعجب بشعر الخنساء ، وقال لها لولا أن هذا الأعمى — يقصد الأعشى — أنشدنى قبلك ، لفضلتك على شعراء هذا الموسم . وكان الأعشى يعرض قصائده على ابنته لتنقدها . ونعلم أن أبا تمام ضمن ديوانه الشهير « الحماسة » شعر كثيرات من النساء . ولقد نبغت المرأة فى شعر الرثاء ، وفى ديوان رياض الأدب شعر نحو إحدى وستين شاعرة فى الرثاء فقط . وكانت عَمْرَة الجُمَحِيَّة امرأة جميلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار . وكان أبو دهبل لا يفارق مجلسها ، وكان يحبها وتحبه .

وكانت المرأة حريصة كل الحرص على الاقتران بالرجل الكفء لها . وكان الرجل يطلب فى زوجته أن تكون ذات مجد وحسب وحسن أحدوثة ، وأن تكون متصفة بمكارم الأخلاق . أوصى حكيم العرب فى الجاهلية أكثم ابن صيفى بنيه بقوله : لا يكفيكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن النساء الكريمة مدرجة للشرف . وكان الرجال يمتدحون فى المرأة لين العريكة ودماثة الخلق وعدم الثرثرة والكياسة وعدم التكلم فى التافه الذى لا يجدى ولا ينفع . وكان الرجل يفخر بحسن عشرته لزوجته وبدماثة خلقه . وكانت المرأة تشترط فى الرجل حسن الأحدوثة ، وحسن العشرة ، وأن يكون رفيقاً بها كريماً وفياً رضياً قنوعاً ، متحلياً بفضائل العرب المعروفة من شجاعة وعزة وقدرة وغلبة .

ولقد حظيت المرأة عند زوجها وأولادها بمكانة عظيمة جداً . فقد ناداها الرجل بألقاب التكريم ، وحرص على أن يفتخر أمامها بحسن فعاله ويشهدها على مفاخره . واعتذر لها أشد اعتذار إذا ما فر مضطراً فى الحرب . وحماها وأضرم الحروب الضروس إذا أهانها أحد أو استذلها .

وكان الأب يعتد برأى ابنته ويستشيرها فى زواجها وفى أموره الخاصة .
ونعلم أن بعض فتيات العرب المجيدات قد اشتهرن بحسن الرأى ، حتى لقد كان لقيط بن زُرَارة يرجع إلى رأى ابنته دختنوس ويصحبها معه فى غزواته . وكان عامر بن الظَّرِب يرجع إلى رأى ابنته عُمْرَة إذ تقرع له العصا إذا سها فى الحكم ، حتى لقد قال فيه المُتَلَمِّس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقْرع العصا — وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما

ولقد عبر كثير من العرب عن حبهم لبناتهم ، فكانوا يستشيرونهن وينزلونهن من قلوبهم مكاناً رفيعاً ، ويتكنون بأسمائهن .
يقول الشاعر :

فرَدَّ أبو ليلى طُفَيْل بن مالك — بمنعرج السُّوبان لا يتقصَّع

ويقول آخر :

فهلا أبا الخَنْساء لا تشتمنى — فتقرع بعد اليوم سنك بالندم

ولا غرو أن عُرِفت المرأة فى الجاهلية حكَماً ووسيطا للصلح وقاضية وقائدة جيش وملكة وشاعرة وحكيمة وناقدة أدبية يشار إليها بالبنان .
واشتهر العربى بشجاعته وعزته وأنفته ووفائه لعهوده وكرمه . وصف ابن المقفع العرب أحسن وصف فقال : « إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها ، ولا آثار أثرت ، أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم فى أنفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر » .
ومع أن العرب لم يكن عندهم علوم كالرياضيات أو الفلسفة أو ما شاكل ذلك من علوم الأقدمين ، إلا أنهم برعوا من ناحية أخرى فى علوم كان

لها أكبر الأثر فى تهذيب نفوسهم وإعلاء هممهم وإعدادها للدور الذى قدر لهم أن يقوموا به فى التاريخ . فقد برعوا أيما براعة فى علوم الأدب من نثر وشعر ولغة عبرت عن مكنونات نفوسهم أجمل تعبير . ثم إنهم وضعوا لغة من أعرق لغات البشر ، يكفيها فخراً أنها لغة القرآن وأنها لغة أحسن بيان . وهى اللغة التى قال فيها جورج سارتون أكبر مؤرخ لتاريخ العلم فى عصرنا هذا : « إن اللغة العربية كانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى كله ، حتى لقد كان ينبغى لكل من أراد أن يلم بثقافة عصره وبأحدث صورها ، أن يتعلم العربية » . وهذه اللغة التى أدت دورها كاملا فى التعبير عن مختلف الفنون والآداب والعلوم فى العصر الذى وضعت فيه أسس الحضارة الحديثة ، وكانت اللغة الارتقائية للجنس البشرى كله ، إنما هى اللغة التى وضعها هؤلاء العرب الجاهليون فى صحرائهم لتظل حتى يومنا هذا من أكمل اللغات وأكثرها استجابة لمطلوبات الشعوب ، لم تتغير ولم تتبدل . فيا له من شعب عظيم ذلك الشعب الذى درس على الطبيعة بقوة ذاكرته من غير قلم وقرطاس ، ووضع لغة كاملة كهذه اللغة ، كان لها شأنها العظيم فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، وقال شعراً يكفى أن نقول فيه إنه لا يزال درة فى جبين الأدب العربى كله ، مع ما نعلم من شأن الأدب العربى بين آداب الأمم ، وبخاصة فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية .

وكان العرب يستلزمون أن يباشر حكمهم النبغاء والحكماء من أبناء الأمة لا سفهاؤها وجهالها . وفى هذا معنى سياسى عميق يدل على أنهم كانوا منظمين تنظيما اجتماعياً حسناً ، ولم تكن أمورهم فوضى كما يتخيل البعض . وفى هذا المعنى يقول الأفوه الأودى أبياتاً بليغة معبرة :

والبيت لا يُبْتَنَى إلاّ على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمــع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذى كادوا

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

وإذا تولى سراة الناس أمرهم نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

كيف الرشاد إذا ما كنت فى نفر لهم عن الرشد أغلال وأقياد

أعطوا غوارهم جهلا مقادتهم فكلهم فى حبال الغى منقاد

كان إذن للعرب حكام كلامهم مسموع فيهم ، وأحكامهم مطاعة . على أن مفاهيم الديمقراطية فى هذا المجتمع كانت عند حدودها القصوى . فالمساواة بين الأفراد كانت تامة ، ومفهوم الملك والرياسة لم يتحقق فى نفوسهم إلا بالعدل وحسن السيرة والتقوى ، فكانوا يشترطون فيمن يرأسهم ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان . والحق أنه لم يحدث فى تاريخ العرب أن اتخذ ملوكهم أو رؤساؤهم فى أى وقت من الأوقات صفة الألوهية التى اتخذها ملوك وأباطرة بلاد غربية مثل الرومان .

لقد كان الرؤساء يعرفون عن يقين أنهم مساوون للباقين ، وأن الناس لم تسودهم إلا لعدلهم ومكارمهم . لذلك أوتى عامة الناس من فهم وحب للديمقراطية الحقيقية ما جعلهم يدافعون عنها بدمائهم وأموالهم . ملأت الأدلة على ذلك صفحات تاريخهم ، وقد لا تخلو صفحة واحدة فيه من التعبير عن حرية هذا الشعب وديمقراطيته الحقيقية . ولنسمع كلام أكثم ابن صيفى أحد حكام العرب يخاطب الناس : لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى زلة ، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتم غير ذلك قومونى أستقم . أى شىء أجمل وأى شىء أدعى لاستقامة الحياة فى مجتمع أن يدعو الحاكم محكوميه إلى تقويمه إن أخطأ . لا غرو فإن ذلك نابع من المجتمع ذاته ومن أهدافه ونفسيته وخلقياته .

أما تحاربهم ، فأى من الشعوب القديمة فى عصوره الأولى لم يكن شيعاً وأحزاباً ، ولم يكن تاريخه سلسلة من الحروب . ويكفى أن نذكر هنا مدن اليونان القديمة وعداواتها وحروبها الشهيرة . على أن بلاد العرب بلاد

شاسعة مترامية الأطراف ، ترتادها قبيلة هنا وقبيلة هناك . ولاتساعها تباعدت القبائل وأصبح النسب عندهم بمثابة القومية والوطنية ، يتمسكون بمعرفته وحفظه حفظاً لكيانهم ، بل قل تمسكاً باستقلالهم السياسى والسلالى . فالنسب عند العربى مرماه وغايته ، فهو يحدد إقامته وعمله وأخلاقياته واتجاهاته ، وبالجملة هو المسيطر الأول على حياته . ولذلك ينبغى لنا عند النظر فى أمور هؤلاء العرب فى صحرائهم المترامية ، أن نضع فى الاعتبار هذه الحقائق البالغة الأهمية . فهم وإن كانوا فى الحقيقة شعباً واحداً ، إلا أن اتساع البلاد واختلاف بيئاتها قد فرقهم وجعلهم وكأنهم شعوب مختلفة . وإذن فمسألة تحاربهم وقتلهم بعضهم بعضاً ، لا ينبغى أن تقوم فى الأذهان باعتبار أنهم جمعية واحـــدة تتشاحن وتتحارب وتتقاتل تقاتل اللصوص والأفاقين والقرصان لمجرد القتال والتشاحن ، ولكن الحقيقة أن معظم حروب القبائل لم تكن لشىء غير دفاع عن شرف أو مجد أن يذله أحد . وهذا مقوم نفسى من أعظم المقومات الدافعة نحو حضارة عليا . ثم إننا نراهم على أية حال فى أواخر العصر الجاهلى ، قد تقاربوا واستعدوا لإقامة حياة سياسية متحدة واتجهوا اتجاها واقعياً نحو الوحدة .

كانت سوق عكاظ من أهم العوامل التى مهدت لوحدة العرب ، فقد كانت المفرخ الذى تفرخ فيه أفكارهم وآمالهم وأمانيهم ، ثم تنتشر كالنار فى الهشيم من أقصى الجزيرة العربية إلى أقصاها عند انفضاض السوق ، وتصبح تلك الأفكار والمثل والمعنويات جزءاً من نفسية العرب هنا وهناك . وأكبر شاهد على ذلك شعرهم الذى أصبح يُؤَلَّف على نسق واحد فى جميع أنحاء الجزيرة العربية فوَحّد اللغة .

أمّا أن سوق عكاظ كانت سوقاً نافقة للأدب فأمر من أخص خصائصها ، ومن أهم الأمور التى أدت إلى خلودها . كان بلغاء العرب من مختلف القبائل يجتمعون فيها فينشد الشعراء ويخطب الخطباء فى المفاخرة وفى غير المفاخرة ؛

وكانت هذه الأشعار والخطب والحكم التي ينطق بها أدباء العرب وبلغاؤهم تعرض على النقد والتقييم وتحفظ عن ظهر قلب ، وتتناقلها الألسن في مختلف أنحاء الجزيرة العربيـــة إذا ما انفض السوق وعادت القبائل إلى أماكنها .

وكان العرب يستخدمون هذه السوق أيضاً ميداناً سياسياً يناقشون فيه شئونهم وخلافاتهم . فيدعون إلى الصلح حيناً ، والتعاون حينا ، والنظر في أمر الديات حينا آخر ، حسما للنزاع ومجلبة للخير ، وفيها أيضا سمعنا أن أحدهم وهو قُس بن ساعدة الإيادى كان يخطب فى الناس داعيا إلى إله واحد وإلى الدين الحق مبشراً بالحنيفية . وكان محمد يقصدها ليبشر بدعوته ويكلم القبائل المختلفة فى شأن الدين الجديد الذى يدعو إليه ، ويطلب منهم الدخول فيه من غير أنه يتعرض لأذى أو امتهان . وهذا يشهدنا على ما كان لعُكاظ من أهمية عند العرب ومن مكانة قدسية فى نفوسهم ، جعلت منه برلماناً للرأى والفكر والأدب والسياسة والفخر والصلح والمعروف ، وميدانا للهو واللعب وسوقا للتجارة .

أمّا مكة فكانت قبلة يتجه إليها العرب فى كل عام لزيارة البيت العتيق وإقامة مناسك الحج . وكانوا يعتقدون أن أباهم إبراهيم بنى البيت الحرام فى مكة امتثالاً لأمر ربه ليعبده الناس فيه ، وأن الله أمره أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال إبراهيم : ألا إن ربكم قد اتخذ بيتا وأمركم أن تحجوه ، فاستجاب الناس من كل فج عميق قائلين : لبيك اللهم لبيك . أى أنهم كانوا يدينون بدين إبراهيم وابنه إسماعيل ، غير أنهم لتباعد الزمن ولكثرة تفرقهم وترحالهم هنا وهناك ، قلت معرفتهم بأصل ديانتهم ، ودخل عليها كثير من الزيف والبطلان . فاتخذوا آلهة ثانوية كاللات والعزى ومناة ، إضافة إلى كثير من الأنصاب والأوثان . غير أن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم ظلت دائماً بيتهم الحرام يحجون إليه فى كل عام .

والحق أن العرب ، وبخاصة أهل مكة ، لم يكونوا بأية حال مجرد وثنيين كما يفهم من الوثنية . فإنهم لم يعبدوا الأصنام على أنها خالقة العالم ، وإنما عبدوها واتخذوها شفعاء لتقربهم إلى الله الذى كانوا يعرفونه تمام المعرفة . ويقول القرآن فى ذلك على لسانهم : « ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زُلْفَى »[1] . والحق أنهم آمنوا بإله واحد خالق الكون ، وأقسموا به ، وقصروا علم الغيب عليه وحده ، واعترفوا بأنهم لا يستطيعون معرفة ما وراء المحسوس من تصاريف القضاء . وكان بعضهم يؤمن بيوم البعث . وكانوا يؤمنون بأن الله لا شريك له ولا معين ، موصوف بصفات الكمال ، قادر على كل شىء ، سميع مجيب بصير ، عارف بالخفايا والأسرار ، وبما خفى وبما بطن ، يقول زهير :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وكانوا يؤمنون فوق ذلك أن الرزق بيد الله وحده ، وأن البلاد بلاد الله ، يقول عُرْوَة بن الوَرْد :

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

وقد ذكرهم القرآن بإيمانهم هذا فقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحىَّ من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله »[2] .

ثم إنهم ظلوا متمسكين ببعض مناسك الدين الحنيف ، فكانوا يعظمون البيت الحرام ويطوفون به ، ويقفون على عرفة والمزدلفة ويحجون ويعتمرون ، إلاّ أنهم أدخلوا على هذه المناسك ما ليس منها : وكان الناس من قبيلتى كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلاّ شريكا هو لك تملكه وما ملك . وفى هذا القول توحيد لله فى التلبية ، غير أنهم يشركون معه أصنامهم ويجعلون ملكها وما تملك بيده .

---

(١) الزمر ٣ (٢) يونس ٣١

ولقد ذكرهم القرآن باعترافهم وبإيمانهم بأن الله خالق السماوات والأرض : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون »(١) . كذلك ذكرهم القرآن بأنهم يؤمنون بأن الله هو الذى ينزل من السماء ماء : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون »(٢) وذكرهم بأنهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله »(٣) .

والحق أنهم آمنوا إيماناً عميقاً بقدرة الله عليهم وبتصريفه لشئونهم وبتدخله فى أحوالهم ، حتى لقد نسبوا شركهم أيضاً لإرادة الله ، فقالوا إنهم أصبحوا مشركين بأمر الله ومشيئته ، وأنه لو لم يشأ لهم أن يصبحوا مشركين لما أشركوا به شيئاً .

أمّا الأصنام فكانت عندهم بمثابة القديسين فى النصرانية ، وهم الشفعاء بين الله وعباده . وهذا ما رفضه محمد رفضاً باتاً . فهو لم يؤمن بنظام الرهبنة ، ولا بالقديسين ولا بالشفاعات ولا بأى أحد بين الله وعباده حتى هو ذاته . ولذلك حارب حرباً مريرة فى سبيل هذه المبادئ .

ويقال إن سبب اتخاذهم هذه الأصنام إنما يرجع إلى زعيم من زعماء خُزَاعَة هو عمرو بن لُحَيّ ، وكان يتولى حجابة البيت (أى تولى مفاتيحه) . فلما مرض عمرو بن لُحَيّ مرضاً شديداً قيل له إن بالبَلْقَاء من أرض الشام حَمَّة (أى عين ماء حار يستشفى به المرضى) إن أتيتَها برأت . فأتاها واستحم فيها فبرئ من علته ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فسألهم : ما هذه ؟ فقالوا : نستقى بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا ، فقدم بها إلى مكة ونصبها حول الكعبة . وتبعته خزاعة لمكانته فيها ، وتبعتهم العرب بعد ذلك ، فاتخذت كل قبيلة لها صنماً

(١) العنكبوت ٦١ (٢) العنكبوت ٦٣ (٣) الزخرف ٨٧

ظنا منها أنه شفيعها الذى تطلب منه نزول المطر أو مساعدتها فى أمر من الأمور . وكثرت الأصنام حول الكعبة حتى لقد قيل إنها بلغت ثلثمائة وستين صنما أو يزيد . وكانوا يقولون إنهم إنما يعبدون الأصنام لأنه لا أهلية لهم لعبادة الله بلا واسطة لعظمته فعبدوا الأصنام لتقربهم إليه . وقال بعضهم إن الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة ملائكة ليقربونا إلى الله . وقال بعضهم إنا جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله كما أن الكعبة قبلة فى عبادته . واعتقد قوم آخرون أن على كل صنم شيطاناً موكلا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

وعرف العرب صوراً عبادية أخرى . فقد كان للصابئين عبدة النجوم شأن كبير فى جزيرة العرب . غير أنهم لم يعبدوا النجوم فى بادئ الأمر ، وإنما كانوا يعبدون الله ويعظمون النجوم فقط على أنها مظهر من مظاهر عظمة الخلق . ثم انحدرت العقيدة مع الزمن إلى الإيمان بالنجوم ذاتها على أنها آلهة . ثم اعتقد الناس أن الحجارة البركانية هى حجارة سقطت من السماء على الأرض من بعض النجوم ، ومن ثمة قدسوها لهذه الصلة الإلهية ثم قدسوها لذاتها . ولا غرابة فى ذلك فقد عثر الإنسان فى باطن الأرض منذ أزمان موغلة فى القدم ، وفى أجزاء مختلفة من العالم على أعداد كبيرة من الحجارة غريبة الشكل ، بعضها خشن وبعضها مصقول . وقد اعتقد الناس فى بقاع مختلفة أن الحجارة الأكبر منها حجارة نيزكية ، والأصغر سهام حربية ، وكلها عبارة عن أسلحة قذفتها على الأرض الآلهة والكائنات السماوية الأخرى . ومن ثمة أُضْفِيَ عليها ضرب من القداسة ، فوضعت فى حوائط المعابد فى بلاد الكلدان ، واتخذت عقوداً حول أعناق الموتى فى مصر ، ولا تزال نماذج منها ترى حتى يومنا هذا على مذابح المعابد فى الهند يقدم لها المؤمنون الصلوات والقرابين .

ولقد نظر الناس فى أوروبا خلال القرون الوسطى إلى هذه الحجارة المصقولة نظرة تبجيل وتوقير باعتبارها أسلحـــة استعملت فى أثناء الحروب السماوية لطرد إبليس وأعوانه من الشياطين . وظلت مثل هذه المعتقدات تتجاوب أصداؤها فى عالم الفكر الأوربى حتى القرن التاسع عشر ، عندما أكدت بحوث علم الآثار قبل التاريخية أن هذه الحجارة المصقولة وغير المصقولة عبارة عن أدوات صنعها الإنسان واستعملها فى عصره الحجرى . فاعتقاد العرب إذن أن بعض الحجارة الغريبة الشكل قد أتت من السماء له ما يبرره إبان غرارة العقل الإنسانى .

كذلك عرف عرب الجاهلية الكثير عن الديانتين اليهودية والنصرانية ، اللتين انتشرتا بين كثير من قبائل العرب فى الجنوب وفى الشمال على الأخص . تعرض اليهود فى فلسطين ابتداء من القرن التاسع قبل الميلاد لعدة اضطهادات كبيرة ، نزح كثير منهم على أثرها إلى البلاد المجاورة . ولقد رحلت جماعات منهم بطبيعة الحال إلى بلاد العرب ، وعلى الأخص بعد هدم بختنصر فى القرن السادس قبل الميلاد لبيت المقدس ، وسبيه لأعداد كبيرة من اليهود ، واستوطنوا وادى القرى ويثرب وتيماء ، ولحق بهم يهود آخرون بعد اضطهادات أخرى ، وشيدوا فى هذه البقاع الحصون ، واستغلوا الأموال ، وزرعوا الأرض ، وأصبحت لهم مستعمرات كبيرة وعلى الأخص فى شمال يثرب .

وعاش اليهود جنباً إلى جنب مع العرب ، واختلطوا بهم اختلاطاً وثيقاً . فكان اليهود يعرضون بضاعتهم فى أسواق العرب ، وكان العرب يمرون بالمدن والقرى اليهودية وهم فى طريق تجارتهم إلى الشام وعودتهم منها . وفضلاً عن هذا الاختلاط التجارى ، كانت قبائل من اليهود تحالف قبائل من العرب فى كثير من الأحيان . ومما لا شك فيه أن هذا الاختلاط لم يقتصر

على مجرد البيع والشراء ، وإنما تخطاه إلى تبادل الأفكار والآراء وعلى الأخص فى مسائل الدين .

وجاء فى التوراة فى مواضع متفرقة وبمناسبات مختلفة ذكر لبلاد العرب منذ أقدم الأزمان . ثم إن اليهودية انتشرت فى قبائل العرب فى اليمن بعد غزو الأحباش فى سنة ٣٤٠ م ، بعد أن فر ملوك حِمْيَر إلى الحجاز ، وأصبحت بعد ذلك ديناً رسمياً لحِمْيَر . ونعلم فضلاً عن ذلك أن اليهودية كانت قد انتشرت بين قبائل نجران والبحرين . وانتشرت من ثمة بين العرب بعض تعاليم التوراة ، وبعض التفاسير والشروح والقصص والأساطير القديمة التى كان يتناقلها اليهود .

أمّا النصرانية فقد انتشرت فى شمالى بلاد العرب وعلى الأخص بين الغساسنة فى الشام والمناذرة فى الحيرة ، فضلا عن بعض قبائل البدو . ولقد دانت قبيلة تغلب بالنصرانية بعد انتصارها على اليمن ، إذ اعتنقها زعيمها كُلَيْب وبعض حلفائه من ربيعة ومضر وإياد وطىّ وقضاعة وقيس ابن ثعلبة . وبنى كُلَيْب كنيسة ينافس بها الكعبة . وانتشرت النصرانية فى فى بعض بطون تميم وغيرها . وكانت أَيْلَة (العقبة) نصرانية أيضاً . كذلك عرفت النصرانية فى مدن الحجاز التجارية ، إذ كان سكان هذه المدن على اتصال وثيق بالشام . ونعلم أن بعض القرشيين قد تنصر مثل عثمان ابن الحُوَيْرِث ، ووَرَقة بن نوفل . وكان بيثرب وبالبحرين نصارى أيضاً ، كما كانوا فى كثير من الأماكن الأخرى من جزيرة العرب .

وبدأت النصرانية تعرف فى اليمن ابتداء من أواسط القرن الرابع الميلادى ، وانتشرت على الأخص بعد غزو الأحباش لها فى سنة ٥٢٣ م . وتنصر باليمن قبائل طىء ومَذْحِج وبَهْراء وسليم . وكان القسس والرهبان يعظون الناس فى المجامع والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث

والحساب والجنة والنار ، ومنهم قُس بن ساعدة الذى سمع محمد إحدى خطبه ورواها .

هذه صورة عامة للأفكار والمعتقدات الدينية التى شاعت فى بلاد العرب قبل الإسلام .

ثم إن هولاء العرب لم يكونوا معزولين عن عالم الحضارة المحيط بهم . فقد اتصلوا بالأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين واليونان والفرس والرومان والهنود ، سواء فى غزوات أو حروب استعمارية ، ولكن على الأخص عن طريق التجارة . فقد حمل العرب منذ أقدم أزمان التاريخ تجارة العالم القديم الهامة . حملوا من الهند الذهب والفضة والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل بأنواعها . وحملوا من أفريقيا العطور وخشب الأبنوس وريش النعام والذهب والعاج . وحملوا من سومطرة العود والند ، ومن البحرين اللؤلؤ . هذا فضلاً عن غلات اليمن وحضرموت وأهمها البخور واللبان والمر والطيوب وبعض أنواع الحجارة الكريمة . وكانوا يحملون هذه البضائع الهامة إلى دنيا الحضارة القديمة فى حوض البحر المتوسط ، ويعودون من الشام بالحنطة والزيت والخمور ومختلف مصنوعات فينيقيا ، وما يستورد من آسيا كالمنسوجات الكتانية والقطنية والحرير والآنية الحديدية وسبائك الفضة وغير ذلك .

ظلت هذه التجارة قرونا طويلة بين أيدى اليمنيين إبان ازدهار ممالكهم القديمة ، ثم انتقلت إلى النبطيين فى البتراء فى الشمال . ولما ضعف هؤلاء وأولئك انتقلت إلى المكيين ، الذين أصبحوا عشية ظهور الإسلام سادة العرب ، وأكبر تجارهم وأعزهم جانبا وأكثرهم أموالا .

أقيمت مكة فى واد قاحل ماحل غير ذى زرع ، ينحصر بين سلسلة من الجبال الصُم الجرداء ، التى تبعد عن ساحل البحر الأحمر بحوالى ثمانين كيلو متراً . وتقع فى ملتقى طريق القوافل بين اليمن وشمال جزيرة العرب .

غير أن شيئاً على وجه التحديد لا يعرف عن الزمن الذى تأسست فيه هذه المدينة ، ذلك أن المؤرخين يختلفون كثيراً فى تحديد هذا الزمن . فمنهم من قال بأنها قديمة يرجع تاريخها إلى زمن سابق على زمن إبراهيم وإسماعيل ، ومنهم من قال بأنها لا يرجع بها العهد لأبعد من زمن قُصَىّ بن كلاب فى أوائل القرن الخامس الميلادى . هذا مع وجود البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل قبل القرن الخامس الميلادى بألف من السنين على الأقل . ولكن أصحاب الرأى الأخير يقولون بأن القبيلتين اللتين كانتا بجوار مكة وهما جُرهُم وخُزَاعة أبيتا أن يكون إلى جوار البيت الحرام بيوت للسكن ، فكانوا يتعبدون فى الكعبة نهاراً ولا ينامون إلى جوارها ليلا .

كان بناء الكعبة واعتقاد العرب فى إله إبراهيم وإسماعيل السبب الأول ولا شك الذى أدى إلى ازدهار مكة وإلى التفاف بقية قبائل العرب حولها وتقديسهم لها ، فضلا عن احترامهم لأهلها خدام البيت الحرام ، مما أدى فى النهاية إلى منزلة سامية لقريش بين العرب أجمعين . ثم إن احتكار القرشيين للتجارة بين الشمال والجنوب بعد انحلال النبطيين فى الشمال والحميَريين فى الجنوب ، جعلهم فى واقع الأمر فى وضع يؤهلهم لزعامة العرب . فإنهم عند ذاك لم يكونوا سدنة البيت الحرام الذى يحج إليه العرب فى كل عام فحسب ، وإنما أصبحوا فضلا عن ذلك أثرياء لهم كلمة مسموعة واحترام دينى ودنيوى فى قلوب العرب .

أمّا أشهر المكيين جميعاً فقُصَىّ بن كِلاب بن مُرّة ، واسمه زيد ؛ أما سبب تسميته قُصَيّاً ، فلذلك لأن أمه تزوجت بعد أبيه كلاب من ربيعة ابن حرام من عُذْرة ، فخرج بها إلى بلاده ومعها زيد صغير فسمى قُصَيّاً ، ثم علم قُصَىٌّ فى حداثته بنسبه ، فعاد إلى مكة ، وتزوّج فيها من حُبَّى ابنة رئيس خُزاعة حُلَيْل بن حُبْشِية ، فولدت له حُبّى أبناءه عبد مناف[1] ، وعبد العُزّى ، وعبد الدار ، وعبْد ، وبَرّة ، وتَخْمُر .

---

(١) مناف اسم صنم وأصل اسم عبد مناف المغيرة .

وكان أمر الكعبة مع حميه حُلَيْل ، فلما مات حُلَيْل ، وكان قد أوصى بولاية البيت لابنته حُبَّى ، تنازلت عن ذلك إلى سُلَيْم بن عمرو لعدم مقدرتها على فتح الباب وإغلاقه . وكان سُلَيْم سكيراً عربيداً فاشترى منه قُصَىّ ولاية البيت بزق من خمر وقعود ، فضربت به العرب المثل فقالوا : « أخسر من صفقة أبي غبشان » .

غير أن خزاعة نازعت عندئذ قُصَياً ولاية البيت . وكان قُصَىٌّ في قومه سيداً رئيساً مُطاعاً معظماً ، ذلك أنه استطاع أن يجمع قريشاً من متفرقات مواضعهم في جزيرة العرب . فلما نازعته خُزَاعة قاموا معه واستعان بمن أطاعه من أحياء العرب ، وجاءه إخوته لأمه رِزَاح بن ربيعة وإخوته ، وقام الجميع معه على خُزَاعة واقتتلوا قتالا شديداً ، وكثر فيهم القتل ، فارتضوا التحكيم ، فتحاكموا إلى يَعْمُر بن عوف بن كعب ، فحكم بأن قُصَياً أولى بالبيت من خُزاعة ، فأجلاهم قُصَىٌّ عن البيت . ومن ثمة تولى أمر مكة كله وجمع مناصب الكعبة ، وهي الحجابة أو سدانة البيت ، أي تولى مفاتيحه ، والسقاية وهي تقديم الماء العذب للحجاج ، وكذلك نبيذ التمر ، والرِّفادة وهي تقديم الطعام للحجاج ، يجمعه أهل مكة ويقدمه صاحب الرِّفادة ، والنَّدْوَة وهي رياسة الاجتماعات التي تعقد للمشورة والرأي ، واللواء وهي راية الحرب ، والقيادة وهي إمارة الجيش إذا خرجوا للقتال . وفيه يقول الشاعر :

قُصَىٌّ لعمري كان يُدْعى مُجَمِّعاً   به جَمَّعَ الله القبائل من فِهْرِ

فكان قُصَىٌّ أول بني كعب بن لؤي أصاب مُلْكاً أطاع له به قومه . أعاد تنظيم مكة فقطعها رباعاً بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة ، فأنزل بعض قبائلها أباطح مكة ، وأنزل البعض الآخر ظواهرها ، ومن ثمة كان يقال قُرَيش البِطاح ، وقريش الظواهر . وعاد البيت العتيق إلى قُرَيش ، ولكن بما كانت قد أحدثت خُزاعة من عبادة

الأوثان ونصبها حول الكعبة ، ونحرهم لها ، وتضرعهم عندها ، واستنصارهم بها ، وطلبهم الرِّزق منها ، فاستمرت قريش على ذلك .

ولما أصبحت جميع الرئاسة فى مكة لِقُصَىّ ، بنى داراً لرفع المظالم والفصل في الخصومات سماها دار النَّدْوَة ، بابها إلى المسجد الحرام ، كانت ملتقى قريش لا يقر أمر من أمورها إلاّ فيها . فكانوا إذا أعضلت قضية اجتمع رؤساء القبائل فيها فتشاوروا فيها وفصلوها . وفيها كانوا يتخذون القرارات الهامة ، ولا يعقد لواء ولا عقد زواج إلاّ بها ، ولا تبلغ فتاة أن تَدَّرِعَ فتَدَّرِعَ إلا بها .

وكان قُصَىٌّ أول من فرض الرِّفادة على قريش ، وهى أموال تجمعها فى كل موسم وتعطيها إلى قُصَى ليصنع بها طعاماً للحجاج فيأكله من لم تكن له سعة ولا زاد . قال لهم : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق بالضيافة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يرجعوا عنكم ، ففعلوا . وكانوا يخرجون فى كل عام من أموالهم خَرْجاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام مِنى ، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية حتى قام الإسلام ، فجرى فى الإسلام فكان طعام يصنعه السلطان كل عام بمنى حتى ينقضى الحج .

فلما كبر قُصَىّ فوّض أمر هذه الوظائف التى كانت إليه إلى ابنه عبد الدار ، وكان أكبر ولده . ثم تولى مناصب الكعبة بعد عبد الدار ابن قصى أبناؤه . غير أن أبناء عبد مناف بن قُصَى وهم هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، وكان أبوهم قد شَرُفَ فى قومه فوق شرف أخيه عبد الدّار ، لم يرضهم هذا الوضع ، ونازعوا أبناء عمهم فى هذه الوظائف . واختلفوا اختلافاً كبيراً ، وانقسمت بطون قريش ، فرقة بايعت أبناء عبد الدّار وحالفتهم . وفرقة بايعت بنى عبد مناف وحالفتهم ، ثم وضعوا أيديهم عند الحِلْف فى جفنة فيها طيب ، وقاموا فمسحوا أيديهم بأركان

الكعبة فسمُّوا لذلك حِلْف المُطيَّبين . وبعد صراع لم يطل ، خشيه وقوع الحرب بين أبناء العمومة ، تصالح الطرفان وأعطيت السقاية والرِّفادة لبنى عبد مناف ، وبقيت الحجابة واللواء والنَّدْوَة فى بنى عبد الدَّار .

تولى هاشم بن عبد مناف بن قُصَىّ السِّقاية والرِّفادة . وهاشم لقب له واسمه عمرو بن عبد مناف . ويقال بأنه عندما أصابت قريشا سنوات عجاف ذهبت بأموالها ، خرج عمرو إلى الشام وصنع هناك خبزاً كثيراً وحمله فى الغرائر إلى مكة . فهشم ذلك الخبز ، أى كسره وثرده ، ونحر الإبل التى حملته فأشبع أهل مكة فسُمِّىَ لذلك هاشماً . ويقال بأن أمية ابن أخيه عبد شمس حسده لهذا الصنيع ، وأراد أن يصنع صنيعاً كصنيع هاشم فعجز ، فشمت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة . فكره هاشم ذلك لسنه ولعلو منزلته فى أهله وبين قومه ، فلم تدعه قريش . فقال : إنى أنافرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكّة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضِىَ أمية بذلك وجعلا بينهما الكاهن الخُزَاعى حكماً ، فقضى لهاشم على أميّة ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها للناس ، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين . فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأميّة .

ثم إن تجارة مكة ازدهرت ، وأصبح من الضرورى تأمين هذه التجارة . وكان بنو عبد مناف قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة ، وكان يقال لهم المجبرون . وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش أماناً من ملوك الأقاليم ليدخلوا فى تجارتهم إلى بلادهم آمنين . فأخذ هاشم أماناً من ملوك الشام والروم وغسّان ، وأخذ عبد شمس أماناً من النجاشى الأكبر ملك الحبشة ، وأخذ نوفل أماناً من الأكاسرة ، وأخذ المطلب أماناً من ملوك حِمْيَر . ويقول الشاعر فى هؤلاء الإخوة المشاهير :

يا أيها الرجُلُ المُحَوِّلُ رَحْلَه   إلاّ نزلت بآلِ عبد منافِ

وكان هاشم أول من سن رحلتى الشتاء والصيف التجاريتين لمكة ، وفيه يقول الشاعر :

عَمرُو العُلى هَشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتُون عجاف
سُنَّت إليه الرحلتان كلاهما سَفَرُ الشتاء ورحلة الأصياف

أمّا أبناء هاشم بن عبد مناف فأربعة رجال وخمس نسوة ، هم عبد المطلب ، وأسد ، وأبو صيفي ، ونَضْلَة ، والشفّاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورُقَيَّة ، وحَيَّة ؛ وكان عبد المطلب أشهرهم وأبعدهم صيتاً ، واسمه شيبة لشيبة كانت فى رأسه ،ويقال شَيْبة الحمد لجوده . وأما سبب تسميته عبد المطلب فله قصة . ذلك أن هاشماً خرج يوماً فى تجارة إلى الشام ونزل بيثرب على عمرو بن زيد من بنى عَدِيّ بن النجّار الخَزْرَجيّ ، وكان سيد قومه ، فرأى ابنته سلمى فأعجبته فخطبها من أبيها ، فزوجها منه واشترط عليه مقامها عنده فى رواية ، أو ألاّ تلد إلاّ عنده بيثرب فى رواية . فلما رجع من الشام دخل بها وأخذها معه إلى مكة . ثم إنه خرج بعد ذلك فى تجارة ، وكانت حُبْلى فأخذها معه وتركها عند أبيها فى يثرب ، وذهب إلى الشام فمات بغَزَّة . ووضعت سلمى ولدها وسمته شَيْبَة . ويقال إن الغلام ظل مع أمه بالمدينة حتى بلغ سبع سنين . وعند ذاك مرّ رجل من بنى عبد مناف بالمدينة ، فإذا غلمان يتسابقون فى رمى السهام ، وكان شيبة بارعاً ، إذا أصاب سهمه قال : أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء ، فقال له الرجل : من أنت ؟ قال : أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف . فلما رجع الرجل إلى مكة أخبر المطلب بالخبر . فذهب المطلب إلى المدينة وأخذ الغُلام خفْيَة ورجع به إلى مكّة . ويقال إنه لما دخل المطلب مكة كان شيبة معه على عجز ناقته ، والناس فى أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحبون بقدوم المطلب ، وتصوروا أن الصبي عبد للمطلب ، وربما مازحهم وقال لهم عند ما سألوه عنه : هذا عبدى . فكان شَيْبَة إذا مرّ بقوم قالوا هذا عبد المطلب ، فغلب ذلك عليه .

ولقد ساد عبد المطلب فى قريش سيادة عظيمة وشَرُف شرفاً كبيراً . كانت له سيادتهم ، وكان جماع أمرهم إليه ، وآلت إليه السِّقاية والرِّفادة بعد عمه المُطَّلِب . وهو الذى جدّد حفر زمزم بعد ما كانت مطمومة من عهد جُرْهُم . وهو أول من طلى الكعبة بالذهب فى أبوابها من الغزالتين الذهبيتين اللتين وجدهما فى زمزم مع الأسياف القَلَعيّة عندما حفرهَا .

وكان عبد المطلب جسيما أبيض طويلا فصيحاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه . وكان تقياً ورعاً كريماً . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور . وكان يقول : لن يخرج من الدنيا ظَلُوم حتى يُنْتقم منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظَلُوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب فى ذلك . ففكر وقال : والله إن وراء هذه الدار داراً يُجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسىء بإساءته . ورفض فى آخر عُمْره عبادة الأصنام . ويؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السُّنّة بها ، منها الوفاء بالنذر ، والمنع من زواج المحارم ، وقطع يد السارق ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الخمر والزِّنا .

أما أولاده فعشرة رجال وست نسوة هم : الحارث ، والزُّبير ، وضِرَار ، وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وأبو لهب واسمه عبد العُزَّى ، والمُقَوَّم واسمه عبد الكعبة ، وجَحْل واسمه المغيرة ، والغَيْداق وهو كثير الجود واسمه نوفل ، وحمزة ، وعبد الله ، وأُمَيْمَة ، وأرْوَى ، وبَرَّة ، وصَفِيّة ، وعاتِكَة ، وأم حَكِيم .

وكان عبد الله وهو أصغر ولد أبيه ، ويسمى الذبيح الثانى المُفَدَّى بمائة من الإبل ، أجمل رجال قريش ، وأحب أبناء أبيه إلى نفسه . فلما بلغ عبد الله الخامسة والعشرين زوجه أبوه من آمنة بنت وهب . وأقام معها عبد الله فى بيت أهلها ثلاثة أيام كعادة العرب ، ثم انتقل إلى بيت عبد المطلب .

ولم يدم بقاؤه معها طويلاً ، ذلك أنه خرج فى تجارة إلى الشام وتركها حاملاً . فلما فرغ القوم من تجارتهم انصرفوا عائدين إلى مكة ، فمرض عبد الله فى الطريق ، فتخلف عند أخواله بنى عدىّ بن النجار بالمدينة . فأقام عندهم مريضاً . ولما علم عبد المطلب بذلك أرسل له أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفى ، فرجع إلى أبيه فأخبره ، فحزن عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً .

ثم وُلِدَ محمد عليه الصلاة والسلام بعد موت أبيه فى دار جَدّه عبد المطلب ، الذى كفله ورعاه وعطف عليه وأحبه أشد الحب . ولقد سماه جده محمداً ، فلما سُئِلَ فى ذلك ، ولماذا رغب عن أسماء آبائه ، قال : أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلقه . ولقد اختلف المؤرخون فى الساعة واليوم والشهر والسَّنة التى ولد فيها . والمشهور أنه ولد فى عام الفيل ، أى فى حوالى سنة ٥٧١ ميلادية .

أرضعته ثُوَيْبَة جارية عمه أبى لَهَب ، وكانت قد أرضعت عمه حمزة من قبل ، فأصبح أخاه من الرَّضاعة . وبالرغم من أن ثويبة لم ترضعه إلاّ أياماً ، فقد وصلها طوال حياته وحمل لها فى نفسه الكبيرة أعظم آيات الود . ثم أرضعته حليمة بنت ذؤيب السعدية . وأقام عندها وبين قومها فى الصحراء ، وكانت عادة أشراف مكة أن يدفعوا بأبنائهم إلى المرضعات يُربين أولادهم فى الصحراء حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، ابتغاء إجادة العربية والتفصح فيها ، والتعود على شظف العيش وخشونته . وكان بنو سعد شهيرين بفصاحتهم ، حتى لقد كان النبى يقول لأصحابه : « أنا أعربكم ، فأنا قرشى واسترضعتُ فى بنى سعد بن بكر » . ثم إنه ظل فى حجر حليمة قرابة خمس سنين عاد بعدها إلى أمه ترعاه وإلى جده يكفله .

وبعد عام ، أى عندما بلغ حوالى السادسة استأذنت آمنة من جده عبد المطلب أن تصحبه معها إلى يثرب لزيارة قبر أبيه عبد الله . فأذن لها فسافرا ومعهما

أم أيمن جارية أبيه تحضنه . وفى يثرب أطلعت آمنة ابنها الصغير على البيت الذى مات فيه أبوه وعلى المكان الذى دُفِنَ فيه . وبعد أن أقاموا جميعاً شهراً فى يثرب قفلوا راجعين إلى مكة . غير أن آمنة مرضت فى الطريق ، واشتد عليها المرض فاستودعت ولدها أم أيمن ، وتوفيت بقرية الأبواء ، إلى الجنوب من يثرب بحوالى خمسة وثلاثين كيلو متراً ؛ وعاد محمد يتيم الأبوين فى صحبة أم أيمن إلى مكّة .

عندئذ ضمه عبد المطلب إليه ورقّ عليه رقّة لم يرقها على ولده . وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه فى أى وقت إذا خلا أو إذا نام لا يصده ولا يمنعه أحد . وكان يجلسه على فراشه ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، بل كانوا يجلسون حوله : وكان محمد الصغير إذا أتى الكعبة يجلس على هذا الفراش ، فينحيه أعمامه عنه ، فيقول لهم عبد المطلب : دعوا ابنى ، ويجلسه إلى جانبه ويمسح ظهره بيده وكان يسره ما يراه يصنع . غير أن حياته مع جده الحبيب هذا لم تدم غير سنتين ، فمات عبد المطلب ، ومحمد لا يزال فى الثامنة ، فحزن على جده حزناً عميقاً ؛ قالت أم أيمن : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب .

عهد عبد المطلب إلى ولده أبى طالب بكفالة محمد من بعده ، فكان فى الحقيقة خير كفيل له وخير أب ؛ فقد أحبه حباً جماً ، حتى لقد كان يفضله على بنيه . وترعرع محمد الصغير فى كنف هذا العم الفاضل الذى رعاه وحماه طوال حياته ، لم يخذله فى أشد محنه ضراوة عند ما تألبت عليه قريش ، ولم يتخل عنه حتى عند ما كادت تنشب حرب بين بيت عبد المطلب وباقى قريش ، لما أصر محمد رسول الله على دعوته ومنعه منهم أبو طالب وحماه .

خرج أبو طالب فى تجارة إلى الشام ، وكان محمد فى ذلك الوقت فى الثانية عشرة من عمره ، فتعلق بعمه ولم يشأ أن يفارقه ، فقال أبو طالب : والله

لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبداً . فخرج به معه ، وكانت هذه أول رحلة يقوم بها محمد إلى الشام . وفى أثنائها بلغت مسامع الصبى أخبار الرهبان والأحبار ، واستمع إلى أحاديثهم وما يروون عن أنبيائهم . ولم يخرج أبو طالب بعد ذلك إلى الشام ، وعاد محمد الصغير إلى رعى الغنم لأهل مكة ، إذ كان يرعاها لهم بالقراريط .

ثم إن محمداً كان يشارك أعمامه فى الحياة العامة منذ صباه ، فاشترك فى حرب الفِجَار الرابعة ، وسميت بالفجار لأنها كانت تنشب فى الأشهر الحرام . وللعرب فجارات أربعة ، ويخبرنا بعض أهل السيرة أن محمداً كان يجمع السهام لأعمامه وهم يرمون أعداءهم ، ويخبرنا بعض آخر أنه اشترك فيها فعلا ورمى السهام . أما أن هذه الحرب دامت أربع سنين ، فلا يُستَبْعَد إذن أنه جمع السهام لأعمامه فى أولها وهو فى الخامسة عشرة أو نحو ذلك ، ورماها فى آخرها وهو قرب العشرين . ويروى عنه أنه قال : « وقد حضرته (أى حرب الفجار) مع عمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » وقال أيضاً : « كنت أنبل على أعمامى » أى كنت أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم به .

استمرت حرب الفجار هذه بين قريش وهوازن أربع سنين ، ذلك أنها كانت تتجدد كلما اجتمع العرب فى عكاظ . وانتهت بصلح دفعت فيه قريش دية عشرين رجلا ، وهو عدد القتلى الزائد فى جانب هوازن .

بعد هذه الحرب ، شعرت قريش — وكانت هوازن قد ساقتها فى أول سنة منها إلى أن لاذت بالحرم منهم فى الأشهر الحرام — ، بأن العرب قد طمعت فيهم ، وشعرت بما كان من خلافاتهم الداخلية ومنافساتهم من أثر على موقفهم العام بين العرب . عندئذ دعى الزُّبَيْر بن عبد المطلب إلى عقد حلف ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهْرَة ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو تَيْم فى دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتعاقدوا

وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا جميعاً على من ظلمه حتى تُرَد عليه مظلمته . وسمى هذا الحلف بحلف الفُضُول ، وقد حضره محمد وهو ابن عشرين سنة .

ولقد اشتهر محمد منذ صباه بالصدق والأمانة . فسمى الصادق الأمين . وكان شغوفاً بالتأمل رافضاً منذ بداية تأملاته وتفكيره لعبادة الأصنام . ثم إنه كان عزوفاً عن اللهو واللعب وأسباب المجون ، بعيداً عن الصغائر والتفاهات ، نقى القلب ، طاهر الروح ، عفيف اللسان ، كريم النفس .

يروى أن جماعة من أترابه صغار الرعيان أغروه مرة بالذهاب معهم إلى مكة يلهون فيها مع السُّمّار واللاهين . فعهد محمد بغنمه إلى أحد رفاقه الغلمان وتوجه إلى مكة مع أصحابه . غير أنه ما أن بلغ أول دار بمكة إذ سمع عزفاً بالدفوف والمزامير ، فوقف يستمع ويشاهد هذا العرس . وما لبث أن غلبه النعاس فنام ولم يستيقظ إلا على حرارة الشمس . كذلك ترك أغنامه مرة أخرى ، وأتى مكة لمثل هذا الأمر ، غير أنه سمع عزفاً وهو فى بعض الطريق ، فجلس يستمع ، وإذا بالنعاس يغلبه هذه المرة أيضاً فينام حتى الصباح . ثم إنه لم يعد قط بعد هذا إلى التفكير فى مثل هذا العمل .

ولما بلغ خمسا وعشرين سنة نصحه عمه أبو طالب ، وكان لا مال له يكفيه ويكفى عياله ، وقد اشتد عليهم الزمان ، بأن يعرض نفسه على خديجة ، وكانت قريش فى ذلك الوقت تعد قافلتها لرحلة الصيف إلى الشام ، مطمئناً نفسه إلى أنها سوف تسرع إليه وتفضله على غيره . فما أن سمعت خديجة هذا الحديث حتى أسرعت فعلا وأرسلت إليه ، وعرضت عليه أن تعطيه ضعف ما تعطى أى رجل آخر من قومه إذا قبل وقام بشئون تجارتها . فقبل وباركه عمه ، وخرج إلى الشام ومعه مَيْسرة غلام خديجة . ولقد أتاحت له هذه الرحلة التعرف برهبان الشام وأحبارها والحديث إليهم والاستماع عنهم

والتعرف على أحاديثهم ، أكثر مما أتاحت له رحلته الأولى بطبيعة الحال .

نجح محمد أيما نجاح فى تصريف شئون تجارة خديجة وربح لها ربحاً وفيراً ، ورجع مع القافلة رابحاً غانماً سعيداً . فلما بلغوا مكة فى ساعة الظهيرة ، كانت خديجة تنتظره فى علِّيَّة لها ، فلما رأته نزلت إلى فناء دارها واستقبلته . ولقد ربحت تجارتها هذه ضعف ما كانت تربح مثيلاتها ، فأضعفت له ما سمت له .

وكانت خديجة امرأة حازمة جَلْدَة شريفة لبيبة . وهى فوق ذلك أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالا . ولقد عرض كثيرون من سادة قريش وأشرافها الزواج منها وطلبوها فرفضتهم وفضلت عليهم جميعاً الصادق الأمين . قالت نفيسة بنت مُنْيَة إن خديجة أرسلتها تستطلع رأيه فى الزواج منها ، فأتته وقالت : ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى ما أتزوج به . قالت : فإن كفيتك ذلك ، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فمن هى ؟ قالت : خديجة . قال : وكيف لى بذلك ؟ قالت : علىّ ذلك ، فأنا أفعل . ثم إنها أخبرت خديجة بهذا الحديث ، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها . وحضر أبو طالب وأعمام محمد وعقد زواجه على خديجة .

كانت هى فى ذلك الوقت فى الخامسة والعشرين فى رواية ، أوفى الخامسة والثلاثين فى أخرى ، أو فى الأربعين على قول ثالث . وأغلب الظن أنها كانت فى الخامسة والعشرين فى مثل سنه . انتقل محمد إلى بيتها ، وبدأت مرحلة جديدة تماماً فى حياته . فهاهو يتعرف على المرأة ودفئها وحنانها لأول مرة فى حياته . وها هو ينتقل من حياة الفقر إلى حياة النعيم والثراء . ثم إن خديجة كانت بلسماً شافياً لكل جراحه ، ودواء لكل كروبه وآلامه . كفته كل شىء : حب المرأة وحنانها ، عطفها وبرها ، إيمانها به وتفانيها فى خدمته ، وحرصها على راحته ، وبذلها مالها فى سبيل رضائه وسعادته .

وما أروعه عند ما قال لعائشة يوماً عندما غارت من كثرة ذكره خديجة : « لقد واستني في مالها (أي أعطتني منه) ، إذ حرمني الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس » .

وكان محمد منذ صباه نزاعاً إلى التفكير والتأمل ميالاً إلى الوحدة ولا عجب أن يحدث في مجتمع نالت فيه المرأة كل هذه المنزلة العظيمة ، واستقلت فيه بشئونها وكانت نداً للرجل في كثير من الأحيان ؛ مثلما فعلت خديجة ، إذ كفت حبيبها محمداً مؤونة العمل وإرهاقه ومشاغله ، فقامت هي بشئون البيت وشئون تجارتها ، وتركت هذا المتأمل حراً كامل الحرية لا يحمل من هموم الدنيا شيئاً ، لينصرف إلى أفكاره وتأملاته التي كانت تشغل الجزء الأكبر من وقته

غير أن محمداً لم يصرف كل وقته في هذه الأفكار والتأملات ، وإنما كان يشارك أهل مكة في الأمور العامة أيضاً . فكان يحارب في صفوفهم كما رأينا في حرب الفجار ، ويحضر أحلافهم كما حضر حلف الفضول ، ويحكم بينهم كما حدث عند هدم الكعبة وبنائها . وكان أهل مكة قد أجمعوا على ضرورة هدم الكعبة وبنائها بعد أن انصدعت من السيول . ولما بلغ البنيان الجديد موضع الحجر الأسود اختصمت القبائل ، تريد كل قبيلة أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، وكاد القتال أن ينشب بينهم . فغمس بنو عبد الدار وبنو عدي بن كعب بن لؤي أيديهم في جفنة مملوءة دماً وتعاهدوا على الموت ألا يفعل ذلك أحد غيرهم ، فسموا لذلك لعقة الدم . وعندما تأزمت الأمور إلى هذا الحد ، مكثت قريش أربع ليال أو خمساً لا تتوصل إلى حل . وأخيراً اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا ، فقال أبو أُمَيَّة ابن المُغيرة ، وكان إذ ذاك أسن قريش كلها : يا معشر قريش ! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول داخل يدخل من باب هذا المسجد . فدخل عندئذ محمد ، فلما رأوه أجمعوا على الرضا بحكمه . فلما أخبروه بسط رداءه

على الأرض وأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال : ليأت من كل قبيلة من قبائل قريش الأربع رجل ، فجاءه أربعة رجال ، فطلب منهم أن يأخذ كل واحد منهم بزاوية من زوايا الرداء ، ثم يرفعوه جميعاً ، ففعلوا ، وتناول هو الحجر ووضعه فى موضعه . وفى هذه القصة دليل وأى دليل على المكانة التى بلغها محمد فى الحياة العامة فى قريش ، فهاهو ذا أصغرهم سنا ، ولم يكن فى رواية قد تجاوز الخامسة والعشرين ، وفى أخرى الخامسة والثلاثين ، فضلا عن أنه كان أقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم لعدله ورجاحة عقله فى أعز ما يقدسون ، وكانوا بالأمس على شفا الحرب يكاد يقتل بعضهم بعضاً .

وواقع الأمر أن شيئاً كثيراً لا يعرف عن محمد فى هذه الفترة التى مرت بين زواجه وهو فى الخامسة والعشرين إلى أن نادى برسالته وهو فى الأربعين . نعرف فقط أنه أنجب من خديجة فى هذه الفترة ابنيه القاسم ، وعبد الله ، وبنـــاته زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة . وأن القاسم وعبد الله توفيا وهما لا يزالان فى سن الطفولة . وأمّا زينب كبرى بناته فزوجها من أبى العاص بن الربيع بن عبد شمس وهو ابن خالتها . وزوج رقية وأم كلثوم إلى عُتْبَة وعُتَيْبَة ابنى عمه أبى لهب اللذين سرحاهما بأمر أبيهما بعد الإسلام . وأمّا فاطمة فكانت لا تزال طفلة ، وهى التى تزوجها علىّ بعد الإسلام .

ثم إن محمداً كان فى هذه الفترة يختلف إلى الأسواق والمنتديات يستمع إلى أحبار اليهود وكهنة النصـــارى ما يبشر به كل منهم فى أمر دينه ، وما يعارضون به العرب فى شأن الأصنام . وكان من عادة مفكرى العرب أن ينقطعوا إلى مكان بعيد منعزل يتعبدون فيه ويتأملون . وكانت العرب تطلق على هذا الانقطاع التَّحَنُّف أو التَّحَنُّث . وكان محمد يتحنف فى غار حِراء على شرع إبراهيم . ويقع هذا الغار فى أعلى جبل حِراء على فرسخين من شمال مكة . وبينما محمد نائم فى الغار ذات يوم وكان قد بلغ

الأربعين من عمره فى ذلك الوقت إذ به يسمع صوتاً يقول : اقرأ ، فقال محمد : ما أنا بقارئ ، فقال : اقرأ ، فقال :ماذا أقرأ ، قال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربُّك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم»[1] فقرأها محمد،ثم هب من نومه فزعاً .

وعاد إلى منزله مضطرباً وجلاً يرتعد كأنما أصابته حمى شديدة ، ودخل على خديجة ، وهو يقول زملونى ، فزملته . وبعد أن هدأت نفسه بعض الشيء نظر إلى خديجة وهو يرتعد . وأفضى إليها بمخاوفه أن يكون كاهنا وقال : يا خديجة ! مالى ؟ غير أنها لم تبد له خوفا عليه ولا وجلا مما حدث وطمأنته وقالت : « أبشر يابن عم واثبُت . فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . ووالله لا يحزنك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

عندئذ هدأت نفسه واطمأن باله واستسلم إلى النوم . واستيقظ ليبدأ كفاحاً نسيج وحده ، وليبشر برسالته ، وليضع أساس مجتمع غير تاريخ العرب ، بل تاريخ البشرية .

---

(١) العلق ١ — ٥ .

الفصل الثانى

التبشير بالرسالة فى مكة

كانت خديجة إذن أول من صدقه وأول من أسلم وعلم بأن ملاكاً اسمه جبريل يأتيه ويوحى إليه بالقرآن . وما أن هدأت حال محمد بعد عودته من غار حراء ، وإخباره إياها بقصة هذا الملاك ، حتى جمعت عليها ثيابها ، وأسرعت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، الشيخ الأعمى الحكيم . وكان ورقة قد تنصر فى أيام الجاهلية ، وقرأ الكتب الدينية النصرانية ، وسمع حكايات أهل التوراة والإنجيل ، وما فيها من تنبؤات بظهور نبى جديد . أخبرته بما قصه عليها محمد فقال ورقة : قدوس قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فَلْيَثْبُتْ .

رجعت خديجة إلى محمد وأخبرته بما بشرها به هذا الحكيم المطلع على كتب الأقدمين . ثم إن ورقة لقى محمداً بعد ذلك وهو يطوف بالكعبة ، فقال : اخبرنى يا بن أخى بما رأيت وسمعت ، فأخبره محمد ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولسوف يكذبك الناس ويؤذونك ويخرجونك من ديارك ويقاتلونك ، ولئن أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصراً يعلمه ، وأدنى رأسه منه فقبل يافوخه . ثم انصرف محمد إلى بيته ، لا يشك فى أنه رسول حبته السماء بعطفها وخصته برسالة يوحى إليه بها ملك من عند الله ، يأتيه فى نومه وفى يقظته .

ولكن هل ستضطهده قريش وتخرجه من مكة وتؤذيه ؟ أى نعم ،

وأين الرجل الذى خالف قومه فى أعز مقدساتهم وسفه أحلامهم واعتدى على دينهم ولم يضطهدوه ولم يؤذوه ؟ هذه طبيعة الأشياء لا عجب فى ذلك. ولا شك فى أن محمداً فكر فى هذا كله ، وأصر على أن يجابه وحده هذا كله . يجابه أهله وعشيرته والعرب الأقربين والأبعدين ، والناس كلهم ، بما يعتقد هو أنه الحق ، لا تلين قناته ، ولا يضعف إيمانه ، ولا تخور نفسه ، ولا تهن قواه . أصر وانتصر . وعاشت أفكاره من بعده حتى الآن أربعة عشر قرنا من الزمان . يا لها من قصة ، ويا له من كفاح ، ويا له من بطل !

سبق أن قلنا إن أهل مكة كانوا يعتقدون فى الله ، و أنه سميع مجيب ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وأنه حكيم عليم بصير ، ولكنهم أشركوا به فجعلوا الأصنام بمثابة شفعاء بينهم وبين الله . غير أن محمداً رفض هذه الشفاعة ورفض أن يكون بين الإنسان وربه أى شفيع فى هذه الدنيا ، ولا هو ذاته ، وفى ذلك يقول القرآن : « قل إنى لا أملك لكم ضراً ولا رشداً »[1] وقوله : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً »[2] . فالإنسان فى الإسلام تحت سمع الله وبصره وحده ، وهو العالم فقط بما يخفى وما يبطن . ولذلك رفض محمد رفضاً باتاً نظام الرهبنة ونظام القديسين ، فكان الإسلام من هنا نقيض المسيحية . وما الأصنام فى عبادة العرب الذين كانوا يؤمنون بالله إلا بمثابة القديسين فى المسيحية .

هذا إذن محمد يقول للعرب إنه يؤمن بالله الذى يؤمنون به ، ولكن الله هذا فريد بذاته : « هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »[3] . وأن الله لا شريك له ، وأنه لا يقبل شفاعة ، وأن هذه الأحجار

---

(١) الجن ٢١ . (٢) الفتح ١١ . (٣) الإخلاص .

لا تضر ولا تنفع . وإنما ينفع الإنسان ما قدم فى دنياه هذه من خير أو شر ، وأن العمل الصالح هو وحده شفيعه عند الله . وهكذا واجه مجتمعه أول ما واجه بهذه الأفكار .

كان على بن أبى طالب أول من آمن بالإسلام بعد خديجة ، وكان فى ذلك الوقت صبياً فى كفالة محمد يعيش فى بيته وتحت رعايته لم يجاوز العاشرة من عمره . وقصة ذلك أن أزمة شديدة كانت قد أصابت قريشاً ، وكان أبو طالب كثير العيال . فاقترح محمد على عمه العباس ، وكان من أيسر بنى هاشم ، أن ينطلقا إلى أبى طالب ليخففا عنه من عياله ، يأخذ العباس رجلاً ويأخذ محمد رجلاً يكفله عنه . فانطلق العباس ومحمد حتى لقيا أبا طالب ، فأخبراه بما يريدان من التخفيف عنه حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فوافق أبو طالب على أن يتركا له عقيلاً . فأخذ العباس جعفراً فضمه إليه ، وأخذ محمد علياً فضمه إليه .

وفى هذا الوقت المبكر من دعوة محمد لأهل مكة بدينه الجديد ، حصل على أول انتصار كبير ، إذ وعد عمه أبو طالب بحمايته إذا تعرض للاضطهاد وإن لم يشأ أن يتبع الدين الجديد . وكان معنى هذا بطبيعة الحال حماية بنى هاشم لمحمد .

وكان محمد إذا حضرت مواعيد الصلاة يخرج إلى شعاب مكة مستخفياً من عمه ومن الناس ، ومعه على الصغير . وذات يوم عثر عليهما أبو طالب وهما يصليان ، فقال لمحمد : يابن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ قال : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم ، بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه ، وأعاننى عليه . فقال أبو طالب : أى ابن أخى ، إنى والله لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شىء تكرهه ما بقيت .

أما ثالث المسلمين فزيد بن حارثة ، وكان هو الآخر يعيش فى كنف

محمد فى ذلك الوقت . وإن فى قصة زيد مع محمد لأبلغ دلالة على ما عرف عن محمد من حسن عشرته وجم أدبه وحلمه وعفوه وجوده وكرمه وسماحته وشفقته ورأفته وتواضعه وعدالته وطغيان النزعة الإنسانية فيه . فهذا زيد فى مجتمع لا يقدس شيئاً كتقديسه للحرية ، يؤثر العبودية مع محمد على الحرية مع أبيه وأعمامه وبين قومه . يا للعجب ! وكيف كان ذلك ؟

يروى أن حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق منه زيد ابن حارثة : فلما دخلت عليه عمته خديجة ، أهدى لها أى غلام اختارت ، فأخذت زيداً ، فلما رآه محمد استوهبه منها ، فوهبته له . وكان أبو زيد قد جزع على ولده جزعاً شديداً ، وأخذ يتقصى أخباره ، فلما علم أنه عند محمد قدم ومعه شقيقه كعب حتى بلغا محمداً ، وأخبراه أنهما إنما جاءا فى ابن لهما عنده ، وطلبا منه أن يمن عليهما فى فدائه ، قال : ومن هو ؟ قالا : زيد بن حارثة ، فقال محمد : فهلاّ غير ذلك ؟ قالا : وما هو ؟ قال : ادعوه فأخبره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارنى فهو لى ، فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً . قالا : قد زدتنا على النصف وأحسنت إلينا . فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هذا ؟ قال : أبى ، وهذا عمى . قال : فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى مكان الأب والعم ، فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى محمد ذلك خرج به إلى الناس فقال : يا معشر من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفساهما وانصرفا . ودُعى زيد بن محمد زمنا ، حتى أبطل الإسلام نظام التبنى فدعى زيد ابن حارثة .

انحصر الإسلام الآن إذن فى هؤلاء الأربعة ، محمد والذين آمنوا به من أهل بيته : خديجة وعلى وزيد . ولم يكن أحد من قريش يعلم بهذا الأمر غير ورقة بن نوفل وأبى طالب . غير أنه كان لزاماً على محمد بطبيعة الحال أن يدعو الناس لدينه ، ولكن كان الجهر بالدعوة وهو لا يزال ضعيفاً وحيداً أمراً محفوفاً بأشد المخاطر . لذلك عمد إلى أن يسر بما فى نفسه إلى من يثق فيهم من أهل قريش . ومن أكثر من أبى بكر حلماً ودعة وقوة خلق فى قريش ؟ والحق أن أبا بكر لم يخذل محمداً ، فما أن أسر له بما فى نفسه حتى أسرع إلى تصديقه والإيمان به . ولقد أثر عن محمد أنه قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما تأخر عنه حين ذكرته له وما تردد فيه » .

وظل محمد وأبو بكر يدعوان للإسلام سراً خشية إثارة قريش . ولقد استطاع أبو بكر فى هذه الفترة الأولى أن يقنع عدداً من رجالات قريش بالإسلام ، هم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عُبَيْد الله . وكلهم كان له شأن كبير فى تدعيم الإسلام أولاً وأخيراً . والحق أن فى أمثال هؤلاء إلى جانب محمد والإسلام ، قوة كبيرة ولا شك لا يستهان بها ، وعزة لها قيمتها . وانقضت ثلاث سنين ، ظل فيها أمر الدعوة سراً ، إلى أن بلغ المسلمون أربعين أو خمسين رجلا وامرأة . وكان المسلمون فى تلك الفترة يقيمون الصلاة سراً فى الشعاب بعيداً عن أعين المترصدين لهم من أهل مكة .

أمّا أن أتباع محمد قد بلغوا أربعين أو خمسين ، فأمر كان لا يمكن أن يخفى على أهل مكة . عندئذ بدأت أولى محاولات التصدى لمحمد وأصحابه . إذ تبع جماعة من المشركين سعد بن أبى وقاص وفاجأوه وهو يصلى مع نفر من المسلمين فى أحد شعاب مكة (الشِّعْبُ ما انفرج بين الجبلين) .

وعابوا عليهم ما يفعلون وأهانوهم وقاتلوهم ، ولم يكن سعد قد بلغ العشرين من عمره وقتذاك ، ولكن ماكان هذا الفتى الصنديد ، الذى وصفه عبد الرحمن بن عوف فيما بعد بالأسد فى براثنه ، والذى كان أول من ضرب بسهم فى الإسلام ، والذى فاخر به محمد وفداه بأبيه وأمه ، والذى هزم إمبراطورية الفرس ، ليرضى بهذا الضيم ، فتناول فى ثورته عظمة بعير من الأرض وضرب بها رجلا من المشركين فسال دمه ليكون أول دم أريق فى سبيل الإسلام . بعد ذلك جهر محمد بدعوته وتحدى العالم أجمع بهذه القلة المؤمنة .

لما جهر محمد بدعوته بدأ أولا بأقرب أهله . فدعاهم إلى طعام فى بيته ، وكلمهم فى أمر الوحى وأمر الدين الجديد ، غير أن عمه أبا لهب غضب وقطع حديثه وقام من مجلسه وحرض الباقين على مقاطعته . ثم إنه دعاهم فى اليوم التالى وأطعمهم ، ثم حدثهم مرة ثانية فى أنه قد جاءهم بخير الدنيا والآخرة ، وطلب منهم أن يؤازروه فى الدعوة للدين الجديد ، غير أنهم أعرضوا عنه جميعاً . عندئذ أخذت على بن أبى طالب الحمية وبلغ الحماس من نفسه مبلغاً كبيراً ، وتأججت فى روحه مروءة البطل الصغير ، وكان لا يزال دون الحلم ، فنهض واقفاً متحدياً وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على من حاربت » . كان أبو طالب حاضراً هذا الجمع ، ولسنا ندرى ماذا حدثته نفسه فى أمر هذا البطل الصغير .

لم تستمع له عشيرته الأقربون ، وظلوا على غيهم وعنادهم بقيادة عمه أبى لهب . غير أنه لم يهن ولم يضعف ولم ييأس . وذات يوم قرر مواجهة قريش دفعة واحدة ، فصعد على الصفا ونادى : « يا معشر قريش ! » فقال الناس إن محمدا على الصفا يهتف ، وأقبلوا عليه ، وقالوا : مالك يا محمد ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونى ؟ » قالوا : نعم ، أنت صادق ، وما عهدناك تكذب قط . قال : فإنى

نذير لكم بين يدى عذاب شديد ! يا بنى طالب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى تيم ، يا بنى مخزوم ، يا بنى أسد ، إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلاّ الله » فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ وانفض القوم .

تابع محمد دعوته هو وأصحابه ، بعضهم يجهر بها وبعضهم يسرها لمن يثق فيه من أهل مكة . غير أن قريشاً لم تتعرض لمحمد ولا لأحد من المسلمين بأذى ولم يرد عليه أحد من قومه ، إلى أن تعرض لآلهتهم فسبها وعابها . وهنا أخذت قريش حمى شديدة قلبتها رأساً على عقب ، وتبدل الهدوء السابق بحركة تزعمها كبار رجال قريش دفاعاً عن آلهتهم ، وما يعبدون وما كان يعبد آباؤهم ، ثم دفاعاً عن منزلتهم بين العرب أجمعين ، وحفاظاً على تجارتهم . غير أن الأمر لم يكن سهلاً هينا ، فكيف بهم يُسْكِتُون لسان محمد ويكفونه عنهم . لم يكن استخدام القوة مما ورد بخاطرهم ، ذلك أن القوة سوف لا تثمر إلاّ أمرّ الثمرات لقريش كلها . فهذا أبو طالب يحمى ابن أخيـــه بالمال وبالدم وبالولد ، وقس على ذلك كل رجل آخر من المسلمين ما كان أهله ليسلموه ، وما كانوا ليتغاضوا عن دمه إن قتل . وتلك كانت عوائدالعرب وسنتها .

موقف عصيب وأزمة تكاد تلقى بقريش كلها فى براثن فتنة لا يعلم أحد مداها . غير أن زعماء الفئة المناهضة لمحمد فكروا فى اللجوء إلى عمه أبى طالب ، فمشوا إليه وفيهم من أشراف مكة عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل وغيرهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضَلّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإمّا أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك لست على دينه مثلنا فنخلصك منه ، فترفق معهم أبو طالب وردهم رداً جميلا فانصرفوا عنه .

لم يهدأ محمد ولم يكف عن دعوته ، بل إنه اشتد فيها وتكاثر أعوانه شيئاً بعد شيء ، وإن كان تكاثرهم بطيئاً ، وإنما كان أكيداً . أسقط فى يد أولئك الأشراف الذين يناهضون هذه الدعوة إمّا حرصاً على التجارة ، وإمّا حسداً وضغينة أن يكون نبي من بيت غير بيوتهم ، وإمّا تدينا ، وهذا أضعف الإيمان .

فلما رأت قريش أن أبا طالب لن يسلم إليهم محمداً ولن يكفه ، وإن لم يدن بدينه ، وأن محمداً ماض فى نشر دعوته وفى تسفيه أحلامهم وشتم آلهتهم ، قرروا أمراً آخر يكون فيه تهديد ووعيد وإظهار للقوة واستعداد لاستخدامها ، فمشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك عنا فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين . ثم انصرفوا .

عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ثم إن نفسه لم تطب بتسليم محمد لهم ولا بخذلانه ، فاستدعاه وقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لى كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . فظن محمد أن عمه قد ضعف عن نصرته ، وأنه خاذله ومسلمه لهم ، فقال له : « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

قال محمد قولته الخالدة هذه ، ثم خنقته العبرة وتحادرت دمعات على خديه ، وقام . فما كاد يولى ظهره حتى أخذت هذه الإرادة القدسية بمجامع قلب الشيخ الكبير ، فما ملك إلّا أن ينادى ابن أخيه أن يقبل عليه ، فلما أقبل قال : اذهب يابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً .

أيقنت قريش أن أبا طالب لم يستجب للتهديد ولا للوعيد ، وأنه لن يستجيب ، وأنه ماض فى عزمه على حماية ابن أخيه ومنعه منهم ، وإن اقتتلوا وقامت الحرب بين قبائل قريش ، وأنه وأهله قد أجمعوا على فراقهم وعداوتهم إن هم تعرضوا لمحمد بالأذى ، وأن الحرب ستكون حرباً عوانا يهلك فيها الكبير والصغير إن هم قتلوه . عندئذ فكر أشراف قريش المناهضين لمحمد ولبنى هاشم فى أن يعوضوا أبا طالب عن محمد فتى من أشد فتيان قريش وأكملهم . فمشوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وعرضوا على أبى طالب أن يأخذه ويسلم لهم محمداً ليقتلوه به . غير أن أبا طالب غضب أشد الغضب ، واستنكر هذا المنطق الغريب الذى لا يجوز قبوله من شريف عظيم من أشراف بنى هاشم ؛ وقال لهم غاضباً : والله لبئس ما تسوموننى ، أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً . فقال المُطعم بن عدى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وبذلوا ما بوسعهم لتخليصك من الحرب ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . قال أبو طالب : والله ما أنصفونى ، ولكنى أراك قد خذلتنى وأعنت القوم علىّ ، فاصنع ما بدا لك .

فلما أيقن القوم أن أبا طالب قد غضب ، وأنه لم يرض بما اعتقدوا أنه إنصاف له ، قالوا : ارسل إليه وآتنا به ونحن نعرض عليه عرضاً منصفاً . فأرسل إليه أبو طالب فجاء فقال له : يابن أخى ، هؤلاء عمومتك . وأشراف قومك ، وقد أرادوا أن ينصفوك . فقال : قولوا أسمع ، قالوا : تدعنا وآلهتنا ، وندعك وإلهك . قال أبو طالب : قد أنصفك القوم فاقبل منهم . غير أن هذا الذى قال بالأمس « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه » ما كان الآن ليقبل شيئاً آخر ، قال : أرأيتم إذا أجبتكم ، فهل أنتم معطى كلمة إن أنتم تكلمتم بها ، ملكتم بها العرب ، ودانت لكم العَجَم ؟ فقال أبو جهل : إن هذه

لكلمة مربحة ، نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها . قال : قولوا لا إله إلاّ الله .

تحد رهيب ، وإصرار نفس لا تتراجع ، وإرادة لا يفلها الحديد ، وعزم تهون أمامه أشد الصعاب ، وجرأة يحسب لها ألف حساب ، وإيمان تتصاغر أمامه همم الصناديد والجبابرة ، وإقدام تهتز له القلوب . إيه يا محمد !

اشمأز القوم لهذا التحدى وثارت ثائرتهم فقاموا والغضب يتطاير من أعينهم ، والحقد يغلى فى صدورهم . ثم أجمعوا أمرهم على ألاّ يعودوا لمصالحته مرة أخرى ، وأنه لا مفر من اغتياله . فلما ترامى إلى سمع أبى طالب هذا الخبر مساء تلك الليلة ، خرج وعدد من عمومة محمد إلى بيته يطلبونه . فلما لم يجدوه فى بيته ، أمر أبو طالب فجمع فتيانا من بنى هاشم وبنى المطلب ثم قال : ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ، ثم ليتبعنى إذا دخلت المسجد فليجلس كل فتى منكم إلى عظيم من عظمائهم فليقتله إذا ما بلغنا أن محمدا قد قتل . فقال الفتيان : سمعاً وطاعة . وعندئذ دخل عليهم زيد بن حارثة . فبادره أبو طالب قلقا متلهفاً ملتاعاً : يا زيد ، هل رأيت ابن أخى ؟ قال : نعم ، كنت معه آنفا . قال أبو طالب وقد استرد أنفاسه وهدأت مخاوفه : لا أدخل بيتى أبداً حتى أراه . فخرج زيد مسرعاً حتى أتاه وهو فى بيت عند الصفا ، ومعه أصحاب يتحدثون ، فأخبره الخبر . فتركهم محمد وعاد إلى عمه فبادره أبو طالب قائلاً : يابن أخى ، أين كنت ؟ أكنت فى خير ؟ قال : نعم ، قال : ادخل بيتك . فامتثل محمد للأمر ودخل بيته . ارتاح قلب الشيخ المحب .

وفى صباح اليوم التالى ذهب أبو طالب إلى بيت محمد ، واصطحبه إلى حيث تجتمع قريش وأخذ بيده ومن حوله فتيان بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وقال : يا معشر قريش ، هل تدرون ما هممت به ؟ قالوا : لا . فأخبرهم

بما كان قد هم به فى مساء الليلة الماضية ، وقال للفتيان : اكشفوا عما فى أيديكم ، فكشفوا فإذا كل رجل فيهم معه حديدة صارمة . فقال : والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتى نفنى نحن أو أنتم .

وتعاهد بنو هاشم وبنو المطلب وعلى رأسهم أبو طالب على أن يمنعوا محمداً من قريش ويحموه ، ولم يخرج عن إجماعهم إلا عمه أبو لهب فقط ، فانحاز إلى صفوف المناوئين لبنى هاشم ، وكان أشد عداوة لمحمد من بنى أمية .

ماذا إذن ؟ هل ستنشب الحرب بين الفريقين ؟ هل يقدم هؤلاء على حرب بنى هاشم ؟ الحق أنه قامت حروب بين أحياء العرب لأسباب أوهى من ذلك كثيراً ، ولكن يبدو أن بنى أمية — وهم كانوا أصحاب المصلحة الكبرى فى تجارة مكة فى ذلك الوقت — قد فطنوا إلى ما قد تجره حرب كتلك من تخريب لهذه التجارة ، ومن إفقار لكل من فى مكة ، ومن إضعاف لنفوذ قريش فى جزيرة العرب بعد أن أصبحت تملك منزلة لا يطاولها فيها أى من قبائل العرب الأخرى . فكيف بهم يحطمون كل هذا ، ليبقى من يبقى منهم ودموعه على خديه ، يرثى مجداً زال ، وعزاً مضى ، وقبيلا فتك أفراده بعضهم ببعض .

لا شك فى أن المصلحة التجارية هنا كانت نصب أعين الجميع ، ولذلك لم تشهد مكة من أعمال العنف أو أعمال التهور ما اتسم بطابع العنف الشديد أو أخذ صورة تهجم يفوق حد الاحتمال وحد التسامح بين أبناء العمومة وأفراد القبيلة الواحدة . ولا جرم أن كل فريق حرص أشد الحرص على ألا يأتى عملا يكون من شأنه أن يفجر فى نفس الفريق الآخر حُمى الثأر وغضب الانتقام المر .

ثم إن محمداً لم يهدم دينهم من أساسه ، بل إنه أبقى على جوهر الدين وهو اعترافه بأن الله خالق السماوات والأرض ، وأنه سميع مجيب ، عليم

بصير ، وأنه هو الذى ينزل الغيث ، وأنه هو الذى يحيى ويميت . وكل هذه أمور كانت من معتقدات قريش . ولا أدل على ذلك من مخاطبة القرآن لهم فيها وتذكيره إياهم أنهم يؤمنون بهذا كله . إذن فمحمد لم يمس جوهر الدين ذاته . والحق أن عبادة الأصنام لم تنج من التعرض للنقد ، وللخضوع لأحكام العقل . ولقد أغنانا الشاعر العربى الناقد المفكر الحر الرأى الذى قال فى هذه الأصنام إذ رأى ثعلبا يبول برأس صنم منها :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ألا ذَلّ من بالت عليه الثعالب

ثم إنه لا ينبغى أن ننسى أن النصرانية واليهودية كانتا قد انتشرتا فى بلاد العرب ، وكانت قبائل عربية قد اعتنقتها ، فما حاربها أحد ولا عارضها معارض . فضلا عن أنه كان يوجد بمكة مبشرون بالمسيحية ، بل لقد كان من أهل مكة ومن بين بنى عبد مناف ذاتهم رجل حكيم عاقل فاضل تنصر ، وهو ورقة بن نوفل ، فما عارضه أحد ، وما اضطهده أحد ، وما أجبره أحد على الارتداد إلى دين الآباء والأجداد . كذلك يقال بأن قس بن ساعدة كان يخطب فى الأسواق داعيا العرب إلى إله واحد : فما مسه ولا اضطهده أحد . إذن لم يكن هناك فى واقع الأمر من سبب أصيل فى هذا الجو المثالى من حرية الفكر التى سادت فى بلاد العرب ، يترتب عليه أكثر من اضطهاد لا يبلغ حد القتل والأخذ بالثأر وإشعال نار فتنة كبرى لا تبقى ولا تذر .

بدأت قريش عصر اضطهاد لمحمد ولأصحابه من المسلمين ، ولكنه اضطهاد اتصف بكثير من التسامح وروح العطف ، ولم يرتق فى يوم من الأيام ليصبح اضطهاداً دموياً بما يفهم من معانى الاضطهادات الكبيرة التى حدثت فى التاريخ ، وراح ضحيتها آلاف وعشرات الآلاف من الأنفس ، وعذب فيها الناس عذاباً الموت أرحم منه : كلا ثم كلا ! فهنا اضطهاد من نوع خاص هو اضطهاد رجال لرجال يحرص كل منهم أشد الحرص

على ألاّ يدفع هذا الاضطهاد إلى درجة إسالة الدم ، أو إهداره . وتدلنا جميع الأحداث على أن كلا الطرفين قد حرص أشـــد الحرص على تجنب القتال فى هذه المرحلة من مراحل الصراع .

أخذت كل قبيلة تؤذى من أســلم منها بلغْوِ القول وهجر الكلام وفحشه ، وتقتصر على ذلك إن كان من أبنائها القرشيين الأشراف ، وتمتد اليـــد والعصا إن كان عبدا رقيقا من المستضعفين . ولم يحدث فى ذلك الوقت أن تشابكت الأيدى بين القرشيين إلاّ فى أحوال نادرة جداً ، أو رفع أحدهم عصا على آخر ، أو ضربه فأسال دمه ، كما فعل سعد بن أبى وقاص .

عذّب أميّة بن خلف عبده الحبشى بلالاً ليرجع عن الإسلام ، بأن كان يضع حجراً كبيراً على صدره ويتركه فى لهيب الشمس المحرقة ، وبلال لا يقول إلا « أحَد . أحَد » ولقد احتمل هذا العذاب المضنى ، حتى رآه أبو بكر يوما فاشتراه وأعتقه كما اشترى عدداً غيره من العبيد الذين أسلموا وأعتقهم . ولسنا نعلم أن أحداً من الرقيق مات من التعذيب غير امرأة واحدة .

وتطرف أبو جهل مرّة وألقى على محمد رحم شاة مذبوحة ضحية للأصنام وهو يصلى فى المسجد الحرام ، فاحتمل محمد هذا الأذى ، ولم يفعل أكثر من مغادرة المسجد فى هدوء إلى حيث نظفت ابنته فاطمة ثيابه . ونقع على حادثة أخرى تبين لنا أن جماعة من قريش أحاطوا بمحمد ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام لهم أبو بكر وهو يبكى ويقول « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ » وكانت امرأة أبى لهب تلقى النجس أمام بيتــه ، فلا يفعل أكثر من إزالته . وفضلا عن هذا فقد كان محمد إذا مر بقوم منهم سخروا منه وآذوه بفحش القول وهجر الكلام . هذه هى الصورة

العـامة لمجمل الاضطهادات التى نقع عليها وعلى قليل مثلها فى كتب السيرة .

أصرت قريش على عدائها لمحمد ودين محمد ، وهو لا يزداد إلا إيمانا بما يعتقد أنه الحق ، ويبالغ فى الاستهانة بهم والاستخفاف بأوثانهم ، لا يصده صاد ولا يمنعه أذى أو اضطهاد .

ولما حضر أول موسم للحج بعد هذه الأحداث ، وكان المسلمون قد جهروا بدعوتهم وسمعت العرب بها ، وخشيت قريش أن يُحدّثَ المسلمون العرب فى أمر هذا الدين ويدعونهم إليه ، اجتمع نفر منهم إلى الوليد بن المغيرة ، وكان ذا سن فيهم وشرف ، فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستفد عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضُه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا ، والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكُهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : فنقول مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنْقِه ولا تخالُجِه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزه وهَزَجه وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ولا عقده ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لَجَنَاة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر يُفرّق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

ولما حضر موسم الحج تفرق رجال قريش بين الذين قدموا الموسم يخوفونهم منه ويحذرونهم من أن يستمعوا إليه . غير أنه مهما يكن من أمر فإن وفود العرب لا بد وعت كثيراً مما كان يقول محمد لقومه ، ووقفت على فحوى دعوته وما يبشر به . ولا مرية فى أن خبر الدعوة إلى الإسلام ذاع فى طول الجزيرة وعرضها بعد هذا الموسم .

وفى تلك الأثناء أعز الإسلامَ رجلٌ اهتزت قريش لإسلامه ، هو حمزة ابن عبد المطلب ، عم محمد وأخوه فى الرِّضَاع . وقصة ذلك أن أبا جهل مرَّ بمحمد وهو عند الصفا فآذاه وشتمه ، وعاب دينه ، فلم يكلمه محمد ولا رد عليه وتركه وانصرف . وكانت مولاة لعبد الله بن جُدْعان بمقربة منهما قد سمعت ما قال أبو جهل . فلما أقبل حمزة بعد قليل وهو عائد من الصيد متوشحا قوسه ، وكان حمزة من أعز فتيان قريش وأشدهم شكيمة ، مر بها فقالت : يا أبا عُمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى جهل بن هشام ، عندما وجده هنا جالساً فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . فغضب حمزة ، وراح يبحث عن أبى جهل حتى وجده جالساً فى قومه فى المسجد ، فأقبل نحوه ورفع قوسه إلى رأسه فضربه ضربة شجته . ثم قال فى ثورته : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد ذلك على إن استطعت . فقامت رجال بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحاً . ولم يرجع حمزة عما قال ، وأعلن إسلامه إعلانا صريحاً ، فعز به محمد وامتنع .

وبلغت مضايقات المشركين للمسلمين مبلغاً كبيراً ، فلما رأى محمد ما يتعرض له أصحابه من البلاء والاضطهاد قال لهم : لو خرجتم إلى أ ض الحبشة ، فإن فيها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحد — وهى أرض صدق — حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه . وأغلب الظن أن تحريض الرسول أصحابه

على الهجرة إلى أرض بعيدة كالحبشة ، لم يكن لأسباب سياسية كما ظن البعض ، وإنما يلوح جليا بأنه كان حركة بارعة أراد بها استغلال العاطفة العربية الجياشة إزاء الأهل والأقرباء أحسن استغلال ، فتراود قريش نفسها فى أمر أهاليهم الذين تركوا ديارهم وهاجروا ، فربما يمتنعون عن إيذائهم . والحق أن هجرة من هاجر كان لها أثر كبير فى قلوب القرشيين .

وإن فى قصة عامر بن ربيعة وزوجته مع عمر بن الخطاب لأبلغ دليل على الأسف الذى داخل قلوب الكفار من مغادرة أهاليهم الذين هاجروا من ديارهم . مرّ عمر بن الخطاب بأم عبد الله بن عامر وهى تستعد للرحيل إلى الحبشة ، وكان زوجها عامر بن ربيعة قد خرج لقضاء بعض حاجته . فقال لها عمر : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ! فردّت عليه وذكرته بالأذى والبلاء والإهانات التى يتعرضون لها : نعم والله ، لنخرجن فى أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا ، حتى يجعل الله لنا مخرجا . فلم يزد على أن قال : صحبكم الله . فأحست رقّة فى نبرات عمر لم تكن تعهدها من قبل ، وقد عُرِف عنه قسوته على المسلمين . فلما عاد زوجها أخبرته بما بدا على عمر وقالت : يا أبا عبد الله ، لو رأيت عمر آنفا ، ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعتِ فى إسلامه ؟ قالت : نعم . قال : فلا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب !

كان أول من خرج من المسلمين من بنى أمية بن عبد شمس ، عثمان ابن عفان ومعه امرأته رقية بنت محمد ، ومن بنى عبد شمس أبو حذيفة ابن عتبة ومعه امرأته سهلة ابنة سُهَيْل ، ومن بنى أسد بن عبد العُزى الزبير ابن العوّام ، ومن بنى عبد الدار مُصْعب بن عمير بن هاشم ، ومن بنى زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ، ومن بنى مخزوم أبو سلمة ابن عبد الأسد ومعه امرأته سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة ، ومن بنى جُمح عثمان بن مظعون ، ومن بنى عَدىّ بن كعب عامر بن ربيعة ومعه امرأته

ليلى بنت أبى خثمة ، ومن بنى عامر بن لؤى أبو سَبْرة بن أبى رُهم ، ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن وهب بن ربيعة وحاطب بن عمرو بن عبد شمس . فكانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، وكانت هجرتهم أول هجرة فى الإسلام . ثم إنهم عاشوا فى أرض الحبشة من رجب سنة خمس من إعلان نزول الوحى ، إلى شوال من نفس السنة ، ثم عادوا .

وأما سبب عودتهم فترجع إلى أنه بلغهم أن الوليد بن المغيرة وأبا أُحَيْحَة سعيد بن العاص ، وهما من سادة قريش قد سجدا خلف محمد وهو يصلى ، فأيقنوا أن مكة عن بكرة أبيها قد سجدت خلفه بعد هذين ، وقالوا : عشائرنا أحب إلينا . وخرجوا راجعين إلى مكة ، حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار لقوا ركبا من كنانة ، فسألوهم عن قريش وعن حالهم ، فقال الركب : ذكر محمد آلهتهم بخير فتابعه الملأ ، ثم ارتد عنها فعاد يشتم آلهتهم فعادوا له بالشر .

وأما سبب رواية سجود الوليد بن المغيرة وأبى أحيْحَة خلف محمد ، فما يقال من أنه جلس يوماً فى ناد من تلك الأندية حول الكعبة وقرأ : « والنجم إذا هوى » حتى بلغ قوله تعالى « أفرأيتم اللات والعُزّى ومناة الثالثة الأخرى » فأضاف كما يدعون « تلك الغرانيق العُلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، فسجدوا من خلفه . غير أن هذه الإضافة لم يروها ثقة من ثقاة رواة الأحاديث ، وليس لها سند متصل يُعْتَمد عليه ، فضلا عن ضعف نَقَلَتِها واضطراب روايتهم ، مما يؤكد القول بأنها إضافة لا شأن لمحمد بها .

ثم إن هؤلاء العائدين لم يلقوا من قريش غير ما كانوا يلقون من عنت وتعسف ، فسمح لهم النبى بالخروج ثانية إلى أرض الحبشة . فخرج فى هذه الهجرة الثانية من الرجال ثلاثة وثمانون ومن النساء إحدى عشرة امرأة

قرشية وسبع غرائب . ونزلوا جميعا فى جوار النجاشى وأمنوا على دينهم وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد ولا يسمعون ما يكرهون .

فلما علمت قريش ذلك ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا إلى النجاشى رجلين من رجالهم الأشداء ذوى الرأى ، وأن يهدوا له هدايا ثمينة مما يُسْتطرف من متاع مكة . وكانت الجلود من أحسن بضاعتها ، فجمعوا له مجموعة من أفخر الجلود ، ولم يتركوا بطريقا من بطارقته إلا أهدوا له هدية . ثم بعثوا بذلك عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص . واتفقوا على أن يهدى الرسولان البطارقة هداياهم قبل أن يكلما النجاشى ، ثم يقدما له هداياه ، ويسألاه أن يسلمهما المهاجرين قبل أن يكلمهم .

فلما بلغا أرض الحبشة أعطيا كل بطريق هديته ، وقالا لكل واحد منهم إنه قد لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه لا نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فى أمرهم أشراف قومهم لنردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه أن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم .

ثم إنهما قدما الهدايا إلى النجاشى فقبلها ، ثم كلماه فى شأن المسلمين فقالا : أيها الملك ، إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه لا نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فى طلبهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم : فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

عندئذ قالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ، فأسلمهم لهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم .

فغضب النجاشي لهذه المقالة وقال : لاها الله ! إذاً لا أسلمهم إليهما ، ولا يُكاد قوم جاورونى ، ونزلوا بلادى ، واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم ، وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

وأرسل النجاشي إلى أصحاب النبي فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا أجبتموه . قالوا : نقول والله ما علّمنا وما أمرنا نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن . فلما جاءوا وقد دعى النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ، ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبى طالب : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به أحدا وأمرنا بالصلاة . وعدد عليه باقى أمور الإسلام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم الله علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأصنام ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، فخرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألاّ نُظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قال جعفر : نعم . قال : فاقرأ عليّ . فقرأ عليه صدراً من سورة مريم . فقال النجاشي : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . وأمر رسولى قريش أن ينطلقا فإنه لن يسلم المسلمين لهما ولا يكيد لهم .

فلما خرج عمرو بن العاص وصاحبه مخذولين من عنده ، قال عمرو : والله لآتينه غدا عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن ربيعة : لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا . قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ مثلنا . ثم قدم إلى النجاشي فى اليوم التالى فقال : يا أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيماً ، فأرسل إليهم عما يقولون فيه ، فاسألهم عنه . فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قالوا : نقول والله كما قال الله ، وما جاءنا به نبينا ، كائنا فى ذلك ما هو كائن .

فلما دخلوا عليه قال لهم : ما تقولون فى عيسى بن مريم ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاء به نبينا ، نقول هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

عندئذ ضرب النجاشى بيده إلى الأرض ، ثم أخذ منها عوداً ثم قال : ليس بين دينكم وديننا أكثر من هذا الخط . وخرج رسولا مكة من عنده مغلوبين ، وظل المسلمون فى أرض الحبشة حتى رجعوا إلى المدينة بعد الهجرة بسنتين .

وفى تلك الأثناء أى فى حوالى السنة السادسة من البعثة عزّ الإسلام بإسلام رجل خطير الشأن . كان عمر فى ذلك الوقت رجلا كامل الرجولة ، فى أوائل الثلاثينيات من عمره ، صعب المراس ، حاد الطبع ، صارما

عنيفا ، قوى الشكيمة مفتول العضل ، جريئا مقداما لا يخشى من شىء ، محبا للهو والخمر ، ولكنه كان باراً بأهله ، رقيقا أشد الرقة إذا أصاب أحدهم ضَرّ أو ألمّ به مكروه .

خرج عمر يوماً متوشحا بالسيف يقصد محمداً وعدداً من أصحابه علم أنهم قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا ، كانوا حوالى أربعين رجلا وامرأة ، وفيهم حمزة بن عبد المطلب وغيره من رجالات المسلمين . فلقيه نُعيم ابن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسبّ آلهتها فأقتله ، فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ! قال وأى أهل بيتى ؟ قال : ختَنُك وابن عمك سعيد ابن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما . فرجع عمر إلى أخته وزوجها ، وكان عندهما خبّاب بن الأرت ومعه صحيفة فيها سورة طه يُقرْئهما إياها . فلما سمعوا صوت عمر اختفى خبّاب فى غرفة داخلية بعيدة ، وأخذت فاطمة الصحيفة فوضعتها تحت فخذها خشية أن يراها عمر . وكان عمر حين دنا من البيت قد سمع قراءة خبّاب ، فلما دخل قال : ما هذه الهيْنَمة (أى ما هذا الصوت الخفيض) . وهذا الكلام الذى لا يفهم الذى سمعت ؟ قالا : ما سمعت شيئاً ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه . ثم هجم على سعيد وأخذه بعنف ، فقامت إليه أخته فاطمه لتكفّه عن زوجها ، فضربها فسال دمها . فلما فعل ذلك قالت له أخته : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، فارعوى وقال لأخته : اعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتبا . فلما قال ذلك ، قالت له أخته :

إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافى ، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها بعد أن يقرأها . فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه ، فقالت له : يا أخى ، إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة فقرأها ، فلما قرأ منها جزءاً قال : ما أحسن هـذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيّه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب » فالله الله يا عمر ، فقال له عمر : فدلنى يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم ، فقال له خبّاب : هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه فتوشحه وذهب إلى حيث يوجد محمد وأصحابه ، وضرب عليهم الباب ، فقام رجل ونظر من خلل الباب فرآه متوشحا سيفه . فرجع إلى محمد وهو فزع وقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه . فأذن له محمد بالدخول ، ونهض إليه وأخذ بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة ، وقال : « ما جاء بك يا بن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة » . فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله . وعندئذ كبر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم

هذه رواية تروق على أية حال لأسمى مشاعر الإنسان وأرق أحاسيسه ، ولما ينطوى عليه وجدانه من عاطفة دينية رقيقة . ولكن هل هى تصدق على واقع الحال ؟ هل يقدم عمر على التفكير فى الذهاب وحده ليقتل محمداً وهو يعلم أنه فى جمع من أصحابه منهم حمزة وغيره من صناديد العرب ، وهم يربون على الأربعين ؟ لا أعتقد ذلك ، وربما أراد عمر أن يذهب إلى

محمد لأى أمر آخر . على أية حال نقع على رواية أخرى فى إسلام عمر ، تروى على لسانه ، يقول : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ، فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجالسهم ذلك ؛ فجئتهم فلم أجد أحداً منهم ، فقلت : لو أنى جئت فلانا الخمار ، فخرجت فجئته فلم أجده ، فقلت لو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين ، فجئت المسجد أريد الطواف بالكعبة فإذا رسول الله قائم يصلى ، فقلت حين رأيته : والله لو أنى استمعت من محمد الليلة ما يقول لأروعنه . فدنوت منه متخفيا فى ثياب الكعبة ، فلما سمعت القرآن رق له قلبى ، فبكيت ودخلنى الإسلام فلم أزل قائماً مكانى حتى انصرف ، فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس بن عبد المطلب ودار ابن أزهر بن عبد عوف أدركته ، فلما سمع حسّى عرفنى ، فظن أنى إنما اتبعته لأوذيه فزجرنى ، ثم قال : « ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة » قلت : جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله ، فحمد الله رسول الله ثم قال : « قد هداك الله يا عمر » ثم مسح صدرى ، ودعا لى بالثبات ، ثم انصرفت ودخل رسول الله بيته .

وأيا ما كان الحق فى جانب أى من هاتين الروايتين فإن عمر قد أسلم ، واغتبط لإسلامه محمد والمسلمون ، ونصر الإسلام نصراً مبينا . وكان عمر إذا عزم على شىء لا ينثنى عنه ، ولا يؤخر رجلا ويقدم أخرى ، ولا يتردد ولا يتراجع . فما أن أسلم حتى أعلن إسلامه متحديا أهل مكة أجمعين . ذلك أنه سأل عمن هو أنقل الناس للحديث فى قريش ، فقيل له إنه جميل ابن معْمر الجُمَحِىّ ، فغدا عليه وقال له : أعلمت يا جميل أنى قد أسلمت ودخلت دين محمد ؟ فقام جميل مهرولا يجر رداءه وعمر يتبعه ، حتى إذا بلغ باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ ، فقال عمر من خلفه : كذبت ، ولكنى قد أسلمت وشهدت

أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فقام القوم إليه يصارعونه ويصارعهم حتى بلغ منه الاعياء مبلغاً كبيراً ، فقعد وهم وقوف على رأسه وهو يقول : افعلوا مابدالكم . وبينا هم كذلك إذ دخل العاص بن وائل وهو شيخ من شيوخ قريش له مقام وكلمة ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر ، فقال : فمه ؟ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بني عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلوا عن الرجل .

قوى الإسلام بحمزة وعمر وجلس المسلمون لأول مرة حول البيت الحرام وطافوا به ، وصلى عمر بهم فيه ، وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ هذا الكفاح العجيب ، الذى انطبع حتى الآن بطابع نسيج وحده من بين جميع المنازعات العربية فى الجاهلية .

فى غضون هذه الفترة التى أسلم فى أثنائها حمزة وعمر وازداد فيها المسلمون قوة ، وبدأت الدلائل تشير إلى أن محمداً مع الزمن سوف ينتصر ، وأن أعوانه يزدادون ، فكرت قريش فى طريقة أخرى غير إيذاء المسلمين وسبهم ربما تجدى فى إسكات محمد . وذات يوم ومحمد جالس وحده بالمسجد ، قال عتبـــة بن ربيعة وهو جالس فى نادى قريش : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليـــد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبه حتى جلس إليه وسلم فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، ثم قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا

حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك تابعٌ من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له محمد : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع منى ، قال : أفعل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ثم مضى محمد يقرأ السورة حتى آخرها : فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم ، فإن تقتله العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يغلب العرب فلكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم إن الإسلام انتشر فى قبائل قريش بين الرجال والنساء ، ولم يستطع سادات مكة المناوئين للإسلام ، لا بالتعذيب ، ولا بالوعد ، ولا بالوعيد ، أن يوقفوا هذا الانتشار . فاجتمع أشراف قريش من كل قبيلة ، وفيهم عتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل ابن هشام ، والعاص بن وائل وغيرهم ، بعد غروب الشمس عند ظهر

الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى لا تلاموا فيه ، فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم ، فجاءهم سريعاً ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان حريصا عليهم يحب رشدهم . فجلس إليهم ، فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسببت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرّقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك . فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك . وكلموه فيما عدا ذلك كما كلمه عتبه بن ربيعة . فقال لهم : ما بى ما تقولون ، وما جئت بما جئتكم أطلب به أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن اللهَ بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً ، فبلَّغْتُ لكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم . قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منّا ، فسل لنا ربَّك الذى بعثك به فليُسَيِّر عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجِّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يُبعَثُ لنا منهم قُصَىّ بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما نقول : أحق أم باطل ، فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك عرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال محمد : ما بهذا بُعِثْتُ إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم

قالوا له : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سَل ربَّك يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمس ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا ، والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن بك إلا أن تفعل . فقال : ذلك إلى الله ، إن شاء يفعله بكم فعل . قالوا : يا محمد ، أفما علم ربُّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه وما طلبناه منك ، فيتقدم إليك فيُعلمُك ما تراجعنا به ، ويخبرك بما هو صانع فى ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يُعلِّمُك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نُهلكك أو تُهلكنا . وقال أحدهم : نحن نعبد الملائكة ، وهى بنات الله ، وقال آخر : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله ، والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك قام محمد عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، وهو ابن عمته ، فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألوك أن تُعجِّل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك

بصَكّ ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك . ثم انصرف عن محمد ، وانصرف محمد إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه .

يئس المشركون من مهادنة محمد ، وأيقنوا أنه لن يكف عنهم وعن آلهتهم ، ولن يتراجع عن الدعوة لدينه ولما يؤمن بأنه الحق من عند ربه ، وزادهم غيظاً أن رأوا أصحابه وقد نزلوا بلداً أمنوا فيه على أرواحهم ودينهم ، وأن النجاشي قد منعهم ورفض تسليمهم ، وأن الإسلام ازداد منعة بإسلام صنديدين من صناديد قريش هما حمزة وعمر ، فضلا عن أنه بدأ يفشو في بعض القبائل . عندئذ تراود زعماء قريش واجتمع أمرهم وائتمروا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب الذين يمنعون محمداً ، على ألا يتزوجوا منهم وألا يزوجوهم . ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، وكتبوه في صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً لإصرارهم على هذا . . . حرب اقتصادية ومقاطعة ونبذ اجتماعي . . . وما ذا بعد ؟

يلوح بأن بعضاً من غلاة الكارهين لمحمد وللإسلام قد راودتهم فكرة مجنونة . . . اغتيال محمد . فلما ترامى إلى سمع أبي طالب ما يفكر فيه هؤلاء ، وكان شديد الحرص على ابن أخيه وعلى سلامته ، أمر بني هاشم وبني عبد المطلب أن يتركوا ديارهم في مكة وينحازوا له في شعبه ، وأن يتعاهدوا جميعاً على القيام دونه ومنعه من قريش . أذعن لأبي طالب مسلمهم وكافرهم . المسلم دفاعاً عن دينه ونبيه ، والكافر إيماناً منه بحق محمد في أن ينال حمايته إذعاناً لتقاليد العرب ، وحفاظاً على وحدة الأسرة ، وحفظاً لهيبتها أن تنال . ولم يخرج عن إجماعهم وطاعة رئيسهم غير عمه أبي لهب .

وكان من حرص أبي طالب على ابن أخيه أنه إذا آوى الناس إلى مضاجعهم أمره أن ينام في فراشه . حتى يرى ذلك من أراد به مكراً أو

اغتيالا ، ثم يأمر أحد بنيه أو بنى عمه أو إخوته إذا ما نام الناس أن ينام فى فراش محمد ، وينتقل محمد لينام فى فراش واحد منهم .

واستشرت حرب المقاطعة ، واستمرت زمناً طال سنتين أو ثلاثاً ، كانت شديدة الوطأة على المسلمين وعلى غير المسلمين من بنى هاشم ، حتى بلغ منهم الإعياء والضنك كل مبلغ . وكان إذا خرج أحدهم إلى سوق مكة يشترى شيئاً تعرّض له أبو لهب وصاح فى التجار : « غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً ، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى » . وكان التجار ولا شك ينصاعون لما يريد أبو لهب فيغالون على بنى هاشم ، حتى لقد كان يعود الرجل منهم إلى عياله وليس شىء فى يده . غير أن المشركين لم يقسوا جملة على بنى هاشم ، فقد كان منهم من وصل الرحم ولم يشتد اشتداد غيره من السفهاء . فقد كان هشام بن عمرو بن الحارث يحمل البعير حملا ثقيلا من الطعام ويسوقه حتى يبلغ به فم الشعب فيخلع خطامه من رأسه ويضربه على جنبه فيدخل الشعب عليهم . أو كان يحمله حملا ثقيلا من القمح ويفعل مثل ذلك .

ولقى أبو جهل بن هشام حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد إرساله لعمته خديجة بنت خويلد ، وكانت مع محمد بطبيعة الحال فى الشعب ، فتعلق به وقال : أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

تدخل أبو البَخْترىّ بن هشام بن الحارث بن أسد فقال : مالك وله ؟ قال : يحمل الطعام إلى بنى هاشم . فقال أبو البَخْترىّ : طعام كان لعمته عنده بعثت به إليه ، أتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل .

فلما أبى أبو جهل أخذ أبو البَخترى لَحْىَ بعير وضربه به فشجه وتضاربا ، واشتد عليه أبو البخترى ووطئه وطئاً شديداً .

لم تفت هذه المقاطعة وهذا النبذ فى عضد محمد ، ولا ألقى بالا لما يصيبه

وما قد يصيبه من قريش من أذى وإعنات ، وظل صامداً بإيمانه كالطود لا يهتز ولا يرتد ، ولا يتزعزع له إيمان بأنه منتصر لا محالة على حزب البغى والشرك . ظل يدعو قومه ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً، ينادى بما يؤمن أنه الحق ، لا يتقى فيه أحداً من الناس . هذا وقريش له بالمرصاد ، ولكن كيف تتقيه وكيف تتقى منطقـــه وبيانه ، وكيف تحول بين آيات بينات تخشع لها القلوب ، وتهتز لها الأفئدة ، وبين العرب هنا وهناك ، وهو لا يكف عن الدعوة لدينه ، وانتهاز كل الفرص لعرض دعوته على الناس الذين كانوا يفدون على مكة من كل فج عميق .

ماذا إذن ؟ أيحاربون محمداً وقوم محمد ومن تبع محمداً ؟ أيغتالون محمداً ؟

كلا ثم كلا ! فإن الإقـــدام على اغتياله أو حرب بنى هاشم وبنى عبد المطلب ومن معهم من المسلمين ، أمر من شأنه أن يدمر قريشا عن بكرة أبيها . وأن يدخلهم فى حرب يقتل فيها الأب ابنه ، أو الأخ أخاه ، أو ابن عمه ، أو ابن خاله . إذن فماذا ؟ يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه .

لما سمع أبو جهل بشجرة الزَّقُّوم قال : أتدرون ما الزقوم ؟ هو تمر يضرب بالزُّبد ! ثم قال : هلم فلنتزَقَّم . فنزلت الآية : « إن شجرة الزَّقُّوم طعام الأثيم »(١) .

وقال أُبَىّ بن خلَف لعُقبة بن أبى مُعَيْط : ألم يبلغنى أنك جالست محمداً وسمعت منه ؟ وجهى من وجهك حرام إلا أن تتفل فى وجهه . فلما فعل هـــذا الفعل القبيح نزلت الآية : « ويوم يعَضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا »(٢) .

وقدِمَ أُبَىّ بن خلَف على محمد ومعه عظم بال قد أرَمّ وقال : يا محمد

---

(١) الدخان ٤٣ — ٤٤ (٢) الفرقان ٢٧ — ٢٨

أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ! ؟ ثم فته بيده ، ثم نفخه فى الريح نحو محمد . فقال : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار . ونزلت الآية : «وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشـأها أول مرة وهو بكل خلق عليم»[1] . إلى آخر السورة .

ثم إنه لم يكن غريباً فى هذا المجتمع الذى بلغ فيه التكافل العائلى والاجتماعى أقصى مبالغة أن يجير مشرك مسلماً من المستضعفين وأن يمنعه من أذى قومه المشركين . أجار الوليد بن المغيرة عثمان بن مظعون ، وأجار عبد المطلب أبا سلمة بن عبد الأسد ، وأجار ابن الدَّغِنَة أبا بكر .

فلما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب محمد من البلاء وهو يروح ويغدو فى أمان من الوليد بن المغيرة ، قال : والله إن غُدُوِّى ورواحى فى جوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : يا أبا عبد شمس ، وَفَتْ ذمتك وقد رددت إليك جوارك .

قال : لم يابن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى ؟

قال : لا ، ولكنى أرضى بجوار الله عز وجل ، ولا أريد أن أستجير بغـيره .

قال : فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك عـلانية .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا عثمان قد جاء يردُّ على جوارى .

---

(١) يس ٧٨ — ٧٩ .

قال عثمان : صدق ، وقد وجدته وفياً كريم الجوار ، ولكن قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره .

وانصرف عثمان إلى مجلس من مجالس قريش كان لبيد بن ربيعه بن مالك فيه ينشدهم الشعر ، فجلس معهم فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقاطعه عثمان وقال : صدقت .

فأكمل لبيد البيت : وكل نعيم لا محالة زائل .

فقال عثمان : كذبت ، نعيم الجنة لا يزول .

فقال لبيد : يا معشر قريش ، والله ما كان يُؤذَى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم : إن هذا سفيه فى سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان ، فتطاول عليه الرجل واطم عينه فخضرها . وكان الوليد بن المغيرة قريباً يرى ما حدث لعثمان ، فقال : أما والله يابن أخى إن كانت عينُك عما أصابها لغَنِيَّة ، ولقد كنت فى ذمة منيعة .

قال عثمان : بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ! وإنى لنى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فقال الوليد : هلم يابن أخى إلى جوارك فعُد .

قال عثمان : لا .

أما أبو سلمة فانه لما استجار بأبى طالب وأجاره ، مشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا له : يا أبا طالب ، لقد منعت منا ابن أخيك محمداً ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : إنه استجار بى ، وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى .

فلما ألح القوم على أبى طالب قام لهم أبو لهب وقد أخذته النخوة الأسرية : يا معشر قريش ، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهن أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

قالوا : بل ننصرف عما تكره يا أبا عُتْبة . وكان لهم ولياً وناصراً على محمد وعلى دين محمد فأحبوا أن يبقوه فى صفوفهم .

أما أبو بكر فإنه عند ما ضاقت عليه مكة وأصابه فيها من الأذى ما لم تعد تحتمل نفسه الكبيرة ، ورأى من شدة قريش على محمد وأصحابه ما ينكر ، استأذن صاحبه فى الهجرة فأذن له . وما أن ابتعد عن مكة مسيرة يوم أو يومين ، حتى لقيه ابن الدَّغِنة فقال له : إلى أين يا أبا بكر ؟

قال : أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ .

قال ابن الدَّغِنة : ولم ؟ والله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع فإنك فى جوارى .

فرجع معه ، حتى إذا دخل مكة قام معه ابن الدَّغِنة فقال : يا معشر قريش ، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له أحد إلا بخير . فكفوا عنه .

فلما أمن أبو بكر بنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن علناً . فكان نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينه إذا ما قرأ القرآن . فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فقالوا لابن الدَّغِنة : إنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، ولكنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ، وأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن

يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نعتدى على جوارك ، ولسنا مقرين لأبى بكر أن يصلى علانية » .

عندئذ أتى ابن الدغنة إلى أبى بكر وقال : قد علمت الذى قد عاقدتك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد إلى ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أن رجلا أجرته قد أضير .

فقال أبو بكر : فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل .

فلما علمت قريش بهذا ، عادت إلى سابق عهدها معه . لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو فى طريقه إلى الكعبة ، فصب عليه تراباً ، وكان الوليد بن المغيرة ، أو العاص بن وائل فى رواية ، ماراً فقال له أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السفيه ؟ فقال : أنت فعلت ذلك بنفسك . فمشى أبو بكر وهو يردد قائلا : أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك ، أى رب ما أحلمك !

بعد سنتين أو ثلاث من تعاقد قريش على مقاطعة بنى هاشم ونبذهم تحركت بعض القلوب النبيلة ، وتعاهد عدد من سادات قريش على نقض الصحيفة . مشى هشام بن عمرو بن الحارث إلى زهير بن أبى أمية وقال له : يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتتزوج النساء ، وأخوالك حيث علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا يتزوجون من قريش ولا تتزوج قريش منهم ؟ أما إنى أحلف بالله لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً .

قال زهير : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها .

قال هشام : قد وجدت رجلا . قال زهير : من هو ؟ قال هشام : أنا . فقال زهير : ابغنا ثالثاً . فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق

لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنهم إليها منكم سراعاً .

قال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد .

قال : وجدت لك ثانياً . قال : من ؟ قال : أنا . قال : أبغنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية . قال ابغنا رابعاً . فذهب إلى أبى البَخْتَرِىّ بن هشام فقال نحو ما قال للمطعم بن عدى ، فقال له : فهل تجد أحداً يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبى أمية ، والمطعم بن عدى ، وأنا معك . قال : ابغنا خامساً . فذهب إلى زَمْعَة بن الأسوَد بن المطلب فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم . ثم سمى القوم .

وتواعد خمستهم وتقابلوا ليلا ، وأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على أن ينقضوا الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى مجالس القوم فى البيت الحرام ، وطاف زهير بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد : والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حتى كتبت .

وقال أبو البَخْتَرِىّ : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقربه .

ونهض المطعم بن عدى فقال : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها .

ولم يلبث أن نهض هشام بن عمرو أيضاً وأيد الجميع .

هنا فطن أبو جهل لما دبر القوم ، وقال : هذا أمر قضى فيه بليل وتشوور فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم إلى الصحيفة فانتزعها من جوف الكعبة لم يعترضه أحد ولم يقاتله دونها أحد . وإذا بالأرضة قد أكلتها ولم يبق من شيء فيها غير « باسمك اللهم » . وكان أبو طالب منتحياً ناحيـــة من المسجد وقد شهد ما حدث فقام يسعى إلى بنى هاشم فى الشعب يبشرهم بهذا الخبر السعيد .

تمزق الحصار الاقتصادى ، ورُفِضَ النبذ الاجتماعى ، وخرج المسلمون والذين ناصروهم من المشركين من شعب أبى طالب وعادوا إلى ديارهم . ومهما يكن من أمر هذه البلبلة التى حدثت فى صفوف المشركين ، وهذا الضعف المفاجئ ، الذى هز صفوفهم وفرط عقد تجمعهم ، فإن المسلمين لم يسلموا تماماً من إيذاء الكفار . فقد استمروا على غيهم وعلى موقفهم السابق من أولئك الذين هجروا دين الآباء والأجداد إلى دين محمد ، يحاولون أن يفتنوهم عن دينهم ، ويؤذونهم ويتسافهون عليهم . وظل محمد صامداً لا تلين قناته ولا يتزعزع إيمانه ، وظل الإسلام يفشو فى الناس رويداً رويداً . غير أنه حدث فى تلك الأثناء ، وبعد قليل من خروج المسلمين من الشعب أن أصابت محمداً فاجعتان أليمتان : لقد مات عمه أبو طالب وكان له عضداً ومانعاً ونصيراً ، ثم ماتت من بعده بقليل خديجة ، وكانت له له وزير صدق يسكن إليها عند البـــلاء . حدث هذا فى السنة العاشرة من المبعث أى قبل الهجرة بثلاث سنين .

لما ثقلت وطأة المرض والشيخوخة على أبى طالب ، وكان قد نيف على الثمانين ، واشتكى فى مرضه الأخير ، وبلغ قريشاً ثقله وأنه موشك على الموت ، تشاور أشرافها وأهل الرأى فيها ، وتخوفوا إن مات أبو طالب أن يحدث ما لا تحمد عقباه بينهم وبين المسلمين ، وعلى الأخص وقد بدأ الإسلام يفشو فى قبائل قريش ، وفى المسلمين صنديدان من أشهر البطاشين

الذين عرفتهم العرب ، حمزة وعمر ، لا يعرف أحد كيف يتصرفان عندما يختفي صمام الأمان ، ذلك الشيخ المهيب . مشى إلى أبي طالب زعماء قريش ، وهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجال من أشرافهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه ، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه .

فبعث أبو طالب إلى محمد فجاءه ، فقال : يابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك .

فقال محمد : يا عم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم .

فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات .

قال : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه .

ثارت ثائرتهم وصفقوا بأيديهم ثم قالوا : يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن أمرك لعجب .

وقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .

فقال أبو طالب : والله يابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً .

فلما سمع محمد هذا من أبي طالب طمع في إسلامه ، فجعل يقول له : أي عم ! فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فلما رأى أبو طالب حرص ابن أخيه عليه قال : يابن أخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي ، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها . لا أقولها إلا لأسرك بها .

ومات أبو طالب على دين عبد المطلب ، ومن بعده بقليل ألمت بمحمد

محنة أخرى . لقد ماتت خديجة فجأة . وفى خلال أيام معدودات فقد محمد للأبد هذا النصير والعضـــد المتين ، وهذه الزوجة الحبيبة الملائكية التى ملأت عليه حياته بهجة وحباً وحناناً خمســـة وعشرين سنة ، لم يعرف خلالها غير أسمى معانى العطف والثقة والبر التى يجيش بها قلبها الكبير ووجدانها الطاهر .

بعد أن هلك أبو طالب اشتد على محمد بعض سفهاء المشركين ، وآذوه إيذاء ما كانوا يطمعون فيه فى حياة أبى طالب . اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً . فتحامل على نفسه ومشى إلى بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكى ، وهو يقول لها : لا تبكى يا بُنيَّة ، فإن الله مانع أباك . وكان يردد قوله هذا ويقول بين ذلك : ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب . وبلغت ببعضهم الوقاحة أن كان يرمى فى برمته الأذى إذا نصبت له . فكان إذا فعلوا ذلك ، يخرج بذلك الشىء على العود فيقذفه على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا ؟ ثم يلقيه فى الطريق . وكان محمد بعد أن اجتمعت عليه هاتان المصيبتان قد لزم بيته وأقل الخروج .

فلما بلغ أبا لهب ما تنال قريش من ابن أخيه ، أخذته النخوة وثارت فى نفسه حَميَّة العرب ، وذكرى أخيه الشيخ العظيم أبى طالب وما كان يضفى على محمد من عطف وحماية ، فجاء محمداً وقال : يا محمد امض لما أردت ، وما كنت صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه ، لا واللات لا يوصل إليك حتى أموت .

ولما سب ابن الغيطلة محمداً ، أقبل إليه أبو لهب ينفه وينال منه ، فولى يصيح : يا معشر قريش صبأ أبو عتبة . فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبى لهب فقال : ما فارقت دين عبد المطلب . ولكنى أمنع ابن أخى أن يضام حتى يمضى لما يريد .

عندئذ قالوا : لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم . أى أن أبا لهب أجار محمداً وقبلت قريش هذا الجوار . ومكث محمد بعد ذلك أياماً يأتى ويذهب لا يعرض له أحد من قريش بأذى ، وهابوا أبا لهب . ولكن هل تسكت قريش على هذا ؟ ألا تستغل حمق أبى لهب ؟ أى نعم ، لقد استغلته أحسن استغلال ، إذ جاء عقبة بن أبى مُعيط وأبو جهل إلى أبى لهب فقالا له : أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك ؟ فأتى أبو لهب إلى محمد فقال له : يا محمد أين مدخل عبد المطلب ؟ قال : مع قومه . فخرج إليهما فقال : قد سألته فقال مع قومه .

فقالا : يزعم أنه فى النار !

فعاد إلى محمد فسأله : يا محمد أيدخل عبد المطلب النار ؟

فقال : ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب يدخل النار .

فقال أبو لهب : والله لا برحت لك عـدواً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار .

وعاد أبو لهب إلى سيرته الأولى واشتد على محمد عن ذى قبل واشتدت معه سائر قريش ، وكثرت مساءات سفهائهم . على أنه ينبغى أن نعلم أن أحداً لم يصب محمداً بأكثر مما سبق مما ذكرنا من مساءات ، فى أية حال وفى أى وقت ، ولا نعلم أن أحداً من قريش أصابه بشيء أشد مما صنعه به عقبة بن أبى مُعيط عند ما وضع ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً ذات يوم فى الكعبة ، فقام دونه أبو بكر وهو يصيح « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ».

مرت الآن عشر سنين على تبشير محمد بالإسلام ، وطال الصراع بينه وبين الوثنيين من قريش ، وهم لا يزدادون له إلا عناداً ومكابرة ، ويرفضون دعوته . غير نفر قليل ممن استنارت نفوسهم وصفت قلوبهم ، فآمنوا به وصدقوه . ونبذوا الشرك والأوثان . وبلغت الأحداث فى مكة ذروتها أو كادت تبلغ ذروتها بعد موت أبى طالب . فليخرج إذن محمد إلى ثقيف

يلتمس منها النصرة والمنعة من قومه ، رجاء أن يقبلوا منه وينصروا دينه .

خرج إلى الطائف وحده لا يحرسه ولا يعينه إلا ربه . وعمد إلى نفر من ثقيف هم سادتها ، إخوة ثلاث ، عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف ، فجلس إليهم فدعاهم إلى الإسلام وكلمهم فى شأن ما جاء لهم من نصرته والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله أحداً أرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك كلامك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك .

ثم إنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، يرمون رجليه بالحجارة حتى أدموه . فلجأ إلى بستان لعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه السفهاء الذين كانوا يتبعونه ، فعمد إلى كرمة فجلس تحتها ، وابنا ربيعة ينظران إليه .

فلما اطمأن وابتعد عنه السفهاء رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك » .

فلما رآه عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وشهدا ما لقى تحركت له صلة القرابة فدعوا غلاماً لهما وأمراه أن يأخذ قطفاً من العنب فيضعه فى طبق ، ويذهب به إليه ، فتناوله وأكل منه .

عاد محمد من الطائف حزيناً يائساً من خير ثقيف ونصرتها له ، آسفاً

لما فعله سادتها من إغراء سفهائهم به وخذلانهم ، فضلا عن بوحهم لأعدائه القرشيين بسر ودّ لو أنهم حفظوه وصانوه . ذلك أنهم عند ما ردوه رداً غير جميل كما سبق بيانه ، رجاهم ألا يكشفوا عما دار بينه وبينهم ، قال : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموه على . وكان يكره ولا شك أن يبلغ قومه ما أصابه من ثقيف فيجترئوا عليه ويشمتوا فيه .

على أن إيذاء مهما بلغت قسوته ، أو رجالاً مهما بلغ سفههم ، ما كان ليثني محمداً عن أداء رسالته . وما كان من شيء يثنيه عن هذا الإيمان الذي سيطر على جميع مناحي تفكيره ، واستقر في أعماق نفسه ، يهديه إلى أن في هذا الكون إلهاً واحداً ، ينبغي أن يخضع لمشيئته مجتمع واحد . واستمر يعرض نفسه في المواسم ، إذا حضرت ، على قبائل العرب يدعوهم إلى ربه عز وجل ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، جاء لهم بالبينات من عند ربه وبالهدى والإيمان ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به . فكان يغدو على القبائل في منازلها ، ويقول : يا بني فلان إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي ، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به » . وكان يجتمع إلى الناس في الأسـواق وينادي فيهم : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا » . وكان أبو لهب يتبعه حيث ذهب فيقول : « إنه صابئ كاذب ، فلا يغرنكم عن دينكم ودين آبائكم » .

وكان يكلم أشراف القبائل ، ولا يسألهم شيئاً أكثر من أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، من رضي منكم بالذي أدعو إليه فذلك ، ومن كره لم أكرهه . إنما أريد أن تحرزوني فيما يراد لي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي . وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء .

غير أن أحداً لم يقبل منه شيئاً . وكانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظره .

أتى كندة وحدّث بنى عمرو بن معاوية ، فقال : هل لكم إلى خير ؟

قالوا : وما هو ؟

قال : تشهدون أن لا إله إلا الله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله » .

فقالوا : إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ .

قال : إن الملك لله يجعله حيث يشاء .

فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتنا به .

وأتى بكر بن وائل فقال : كيف العدد ؟

قالوا : كثير مثل الثرى .

قال : فكيف المنعة ؟

قالوا : لا منعة ، جاورنا فارس ، فنحن لا نمنع منهم ولا نجير عليهم .

قال : فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم حتى تنزلوا منازلهم . وتستنكحوا نساءهم ، وتستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا لله » .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا رسول الله . ثم انطلق .

فلما ولى عنهم وكان عمه أبو لهب يتبعه ليقول للناس لا تقبلوا قوله ، قالوا له : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا فى الذّروة منا فعن أى شأن تسألون ؟ فقالوا : زعم أنه رسول الله .

قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولا ، فانه مجنون يهذى من أم رأسه .

قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر !

وأتى بنى عامر بن صعصعة فقال لهم : إنى رسول الله ، آتيتكم لتمنعونى حتى أبلغ رسالة ربى ، ولا أكره أحداً منكم على شيء .

قالوا : ومن أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد المطلب .

قالوا : فأين أنت من عبد مناف ؟ قال : هم أول من كذبنى وطردنى !

قالوا : ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك . فنزل إليهم والقوم يتسوقون ، فلما رآه بَيْحرَة بن فراس قال : من هذا الرجل الذى أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : محمد بن عبد الله القرشى . قال : فما لكم وله ؟ .

قالوا : زعم لنا أنه رسول الله ، وطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه . قال : وماذا رددتم عليه ؟

قالوا : بالترحيب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ، ونمنعك ما نمنع به أنفسنا .

قال بيحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشدّ من شيء ترجعون به . بدأتم لتنابذوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به ، أتعمدون إلى زهيق قد طرده قومه وكذبوه فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأى رأيتم .

ثم أقبل على محمد فقال : قم فالحق بقومك ، فوالله لولا أنك عند قومى لضربت عنقك .

فقام محمد إلى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بَيْحرَة شاكلتها فقمصت به فألقته على الأرض .

وأتى ومعه أبو بكر وعلى بن أبى طالب ، بنى شيبان بن ثعلبة ، فكلم أبو بكر مفروق بن عمرو ، وكان أقربهم مجلساً إليه ، وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً ، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره . قال له أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟ فقال له : إنا لنزيد على ألف ، ولن تُغلَب ألف من قلة .

فقال له : فكيف المنعة فيكم ؟ فقال : علينا الجهد ولكل قوم جد .

فقال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

فقال مفروق : إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله ، يُديلنا مرّة ويُديل علينا مرة ، لعلك أخو قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله فهاهو هذا .

فقال مفروق : قد بلغنا أنه يذكر ذلك . ثم التفت إلى محمد فقال : إلام تدعو يا أخا قريش ؟

فتقدم محمد فجلس وأظله أبو بكر بثوبه وقال : « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدّى عن الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميـــد » .

قال مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟

فتلا محمد : « قل تعالوا أتل ما حرم ربُّكم عليـــكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » إلى قوله « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »(١) .

فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه .

فتلا قوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون . »(٢) .

فقال له مفروق : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفِك قومٌ كذّبوك وظاهروا عليك .

وكان هانئ بن قبيصَة حاضراً . فأراد مفروق أن يشركه فى الكلام فقال : وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا .

---

(١) الأنعام ١٥١ — ١٥٢

(٢) النحل ٩٠

فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدّقت قولك ، وإنى أرى أنّ تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر ، لم نتفكر فى أمرك وننظر فى عاقبة ما تدعو إليه ، زَلّة فى الرأى ، وطيشة فى العقل ، وقلةُ نظر فى العاقبة ، وإنما تكون الزّلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً . ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر .

وكان المثنى بن حارثة حاضراً ، فأراد أن يشركه فى الكلام أيضاً ، فقال : وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمتَ به ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة ، وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ، وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَيْن (تثنية صرى وهو كل ماء مجتمع) أحدهما اليمامة والآخر السّماوة .

فقال محمد : وما هذان الصريان ؟

قال المثنى : أما أحـــدهما فطوف البرّ وأرض العرب ، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدثَ حدثاً ، ولا نؤوىَ أحداً . ولعل الأمر الذى تدعونا إليه مما تكره الملوك . فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنبُ صاحبه مغفور ، وعذره مقبول . وأما ما كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول . فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلى العرب فعلنا .

فقال محمد : « ما أسأتم الرّدّ إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه » . ثم قال : « أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشـــكم بناتهم ، أتسبحون الله وتقدســـونه ؟ »

فقال له النعمان بن شريك : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش !

فتلا محمد قوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »(١) ثم نهض ممسكاً بيد أبى بكر . والتفت إلى على وقال : يا على أية أخلاق للعرب كانت فى الجاهلية ، ما أشرفها ! بها يتحاجزون فى الحياة الدنيا .

كان الزمن فى تلك الأثناء قد لعب لعبته الخالدة فى لعق جراحنا . فبدأ الجرح الذى خلفته فى نفس محمد وفاة خديجة يندمل ، وأخذت ذكرياتها تبتعد شيئاً بعد شيء عن خياله ، وأصبح الزواج بامرأة يأنس إليها ضرورة تحتمها الأعباء التى ينوء بها كاهله . جاءته خَوْلة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون وقالت له : ألا تتزوج ؟ قال : من ؟ قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً . قال : فمن البكر ؟ قالت : أحب خلق الله إليك . . . عائشة بنت أبى بكر . قال : ومن الثيّب ؟ قالت : سودة بنت زَمْعَة ، قد آمنت بك واتبعتك . قال : فاذهبى فاذكريهما علىّ .

أتت خولة أم رومان امرأة أبى بكر وقالت لها : أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة . قالت : انظرى أبا بكر حتى يأتى .

فلما جاء أبو بكر قالت : يا أبا بكر ، أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة . قال : وهل تصلح له ؟ إنما هى ابنة أخيه .

فرجعت خولة إلى محمد فذكرت له مقالة أبى بكر ، فقال : ارجعى إليه فقولى له : أنا أخوك وأنت أخى فى الإسلام وابنتك تصلح لى .

فرجعت فذكرت له ذلك ، فقال : انتظرى ، وخرج . فقالت لها أم رومان : إن مُطْعِم بن عَدِى قد خطب عائشة لابنه ، ووالله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه .

فدخل أبو بكر على مُطعم بن عدى وعنده زوجته أم الصبى الذى خطب له عائشة . فبادرته المرأة فقالت : يا ابن أبى قحافة ، لعلك تخرج

---

(١) الأحزاب ٤٥ – ٤٦

ولدنا عن دينه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه إن تزوج ابنتك ؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدى : أتقول كما تقول زوجك ؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج أبو بكر من عنده ، وقد تحلل من الوعد الذى وعده .

فرجع إلى خولة فقال : ادعى لى رسول الله . فدعته فزوجها إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين . ولكنه لم يدخل بها إلا بعد ذلك بثلاث سنين ، وذلك بعد الهجرة ، وهى فى التاسعة .

ثم إن خولة أتت زمعة أيضاً وكانت أرملة واحد من أوائل المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة وقالت : أرسلنى رسول الله أخطبك إليه . قالت : وددت ، ادخلى إلى أبى فاذكرى ذلك له . وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه فحيته بتحية الجاهلية ، فقال : من هذه ؟ قالت : خولة بنت حكيم . قال : فما شأنك ؟ قالت : أرسلنى محمد بن عبد الله أخطب له سودة . فقال : كفء كريم ، ما تقول صاحبتك ؟ قالت : تحب ذلك . قال : ادعيها إلى . فدعتها فقال : أى بنية ، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله قد أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أتحبين أن أزوجك به ؟ قالت : نعم . قال : ادعيه لى . فجاءه محمد فزوجها إياه ، ودخل بها .

* * *

جلس محمد ذات صباح فى المسجد الحرام واجماً مطرقاً ، كأنه يفكر تفكيراً استغرق كل أحاسيسه وملك عليه كل مشاعره . فلما رآه أبو جهل كذلك قال : هل من خبر ؟ فقال : نعم . فقال : وما هو ؟

فقال : إنى أسرى بى الليلة إلى بيت المقدس .

قال : إلى بيت المقدس ؟ قال : نعم .

قال : وأصبحتَ بين ظهرانينا ؟ قال : نعم .

قال : أرأيت إن دعوتُ قومك لك لتخبرهم ، أتخبرهم بما أخبرتنى به ؟ قال : نعم .

فصاح أبو جهل : هيا معشر قريش ! فاجتمعوا إليه ، ثم قال له : أخبر قومك بما أخبرتني به .

فقصّ عليهم محمد خبر ما حدث وما رأى تلك الليلة ، وكيف أنه أتاه جبريل وهو نائم فأيقظه ، ثم خرج به إلى باب المسجد الحرام ، فأركبه البراق ، وهو دابة أبيض ، بين البغل والحمار ، وفى فخذيه جناحين يحفز بهما رجليه ، يضع حافره فى منتهى طرفه ، ثم حمله عليه ، ثم خرج معه لا يفوته . وأخبرهم كيف ذهب به إلى بيت المقدس ، وهناك ربطه فى الحلقة التى كانت تربط بها الأنبياء ، ثم دخل بيت المقدس فصلى فى قبته تحية المسجد . وكيف نصب له المعراج (وهو السلم) فصعد فيه إلى السماء ، وكيف صعد من سماء إلى سماء فى المعراج ، وكيف تلقاه فى كل سماء مُقَرَّبوها ومن فيها من الملائكة والأنبياء ، وما فعله وما رآه فى كل سماء حتى جاوز السابعة . وذكر لهم أعيان من رآه من المرسلين ، كآدم فى سماء الدنيا ، ويحيى وعيسى فى السماء الثانية ، وإدريس فى الرابعة ، وموسى فى السادسة ، وإبراهيم فى السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، وكيف فرضت الصلاة . وكيف شاهد فى جهنم مختلف صور التعذيب والتنكيل بالمذنبين الآثمين . ثم كيف نزل ثانية إلى بيت المقدس ، فركب البراق وعاد إلى مكة فى نفس الليلة .

وما أن انتهى مما قصه عليهم حتى صفق مصفق هنا ، وصفر مصفر هناك ، تكذيباً له واستبعاداً لما أخبرهم به . وطار الخبر فى مكة ، وأحدث هزة عنيفة فى الرأى العام وكذبه أكثر الناس ، حتى لقد ارتدت إثر ذلك طائفة من المسلمين .

وجاء الناس إلى أبى بكر فأخبروه أن محمداً يقول كذا وكذا .

فقال : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : والله إنه ليقوله .

فقال : إن كان قاله فلقد صدق . ثم إنى لأصدقه فى خبر السماء بُكرةً وعشية . أفلا أصدقه فى بيت المقدس ! ومن ثمة سمى الصِّدِّيق .

لاح فى ذلك الوقت أن الإسلام على وشك الضياع ، وأن محمداً انهزم .
فهاهم جماعة من أتباعه يرتدون عنه بعد ما تبعوه وآمنوا به ولاقوا فى سبيل دعوته ما لاقوا من عنّت قريش واضطهادها . وهاهى قبائل قريش تزداد عليه ضغطاً فتكثر من مساءاتها ، ويُكثِر سفهاؤها من عدوانهم ، وها هى قبائل العرب فى كل مكان تأبى اتباعه وتنكر دينه وترفض بإصرار رسالته ، بل إن منهم من أهانه واعتدى عليه وأساء إليه . فهل خارت قواه ؟ هل تزعزع إيمانه أو وهنت عزيمته ؟ هل تغير شيء من رضا نفسه وطمأنينتها إلى أن ربه عز وجل لا بد ناصره ؟ هل شك فى أن هذا الليل سوف ينبلج عن صبح مشرق وضاح ؟ كلا ثم كلا . ما تغير قيد أنملة ، بل مضى فى أحلك أيام كفاحه ثابت الجنان ، حديدى الإرادة ، مطمئن النفس . إنه منتصر لا محالة . إن مثله لا ينهزم .

مر الآن أكثرُ من عشر سنين . . . ليل طويل . . . ولكن ها قد أطلت تباشير صبح وضاء . فهذى خيوط الفجر تتهادى من بعيد لتفسح فى أفق هذا الظلام الدامس مكاناً للنور الأبلج . لقد أسلم الأوس والخزرج .

داوم محمد كما رأينا على الاتصال بالعرب الذين يفدون إلى مكة فى مواسمها وأسواقها ، ولم يكن يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى ، وعرض عليه دينه . فلما قدم سُوَيْد بن الصَّامت إلى مكة حاجاً أو معتمراً ، وهو أحد أشراف يثرب ، وكان يسميه قومه الكامل لشدته على المكاره وشِعْره وشرفه ونسبه ، تصدى له محمد فدعاه إلى الله والإسلام ، فقال له سُوَيد : فلعل الذى معك مثل الذى معى .
فقال له محمد : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان .
فقال : اعرضها علىّ . فعرضها عليه ، فقال : « إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا ، قرآن ، أنزله الله علىّ ، هو هدًى ونور » .
وتلا عليه محمد شيئاً من القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فأعجبه وقال : إن هذا القول حسن .

ثم انصرف عنه . ولما عاد إلى المدينة لم يلبث بها غير قليل حتى قتله الخزرج . وربما يكون سُوَيْد بن الصامت أول من أسلم من أهل المدينة ، ذلك أنه أثر عن قومه أنهم كانوا يقولون : إنا لنراه قتل وهو مسلم .

وقدم أبو الحَيْسَر أنس بن رافع إلى مكة ، ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على الخزرج . وكلنا يعلم العداوة التقليدية التى كانت بين الأوس والخزرج ، ويلوح أنه كان لليهود يد فى بث هذه العداوة ، عملا بحكمة فرِّق تسُدْ .

وكانت الحرب توشك أن تقع بين الفريقين ، وكان كل منهم يعمل على تعزيز جانبه بمحالفة قبيلة من هنا أو قبيلة من هناك تشد أزره . فلما سمع محمد بمقدمهم أتاهم فجلس إليهم فقال : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ قالوا : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علىَّ الكتاب . ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثاً : يا قوم هذا والله خير مما جئتم له . عندئذ أخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال : دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا . . . فتى تفتح قلبه للحق واشرأبت روحه لدين قويم . وشيخ صَلُبَتْ أحاسيسه ، وقسا قلبه ، وملكت الدنيا عقله .

قام محمد عنهم وانصرفوا إلى المدينة ، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، ووقعت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج . ويلوح أن هذه الوقعة كانت مقدمة تهيأت بعدها كل من الأوس والخزرج للمصالحة ، وللبحث عن زعيم قوى يستطيع أن يلم الشمل ويكبح جماح الشهوات ، ويحول دون ما فى نفوسهم من ثأر وعداوة وبغضاء . والحق أن النتيجة التى انتهت إليها هذه الوقعة كانت سيئة جداً على كل من الجانبين . فقد انهزمت الأوس بادئ الأمر ، ثم انهزمت الخزرج بعد ذلك شر هزيمة ، حتى لقد أراد

حُضَير رئيس الأوس أن يفنى الخزرج عن بكرة أبيها ، لولا أن تدخل أبو قيس بن الأسلت حفاظاً على قوة القبيلتين فى مواجهة اليهود جيرانهم ، بعد أن فرّقت هذه الوقعة ملأهم وقُتل فيها سراتهم . ولا عجب فإنهم فكروا فى ذلك الوقت جدياً فى تنصيب ملك عليهم ، فاختاروا عبد الله بن أُبَىّ بن سلول لمكانته فيهم وحسن رأيه ، واستعدوا فعلا لتنصيبه عليهم ، لولا أن وقعوا فى ذلك الوقت على من هو أفضل منه ، بل من هو أفضل من فى العرب جميعاً . . . محمد بن عبد الله .

فبينا محمد يعرض نفسه على القبائل إذا حضروا فى الموسم ، إذ لقى رهطاً من الخزرج فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن جيران اليهود ؟ قالوا نعم . قال : أفتجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا منه ما عرضه عليهم ، تذكروا ما كان اليهود يتوعدونهم به . فقد كان اليهود وهم أهـــل كتاب يفخرون على الأوس والخزرج بذلك ، ويقولون إن فى كتبهم خبراً عن نبى قد آن أوانه سوف يظهر ، وسوف يتبعونه ويعزون به فيقتلون الأوس والخزرج قتل عاد وإرم . ماذا إذن ؟ فها هو أمامهم أشرف قومه ، وأصدق قومه ، وأكثر العرب براً وصلاحاً وتقوى ، ينادى فى الناس منذ عشر سنين أو ينيف بأنه رسول الله إلى العباد ، وأن كل الدلائل تشير إلى أنه النبى الموعود الذى آن أوانه وأتى وقته ، فلماذا لا يصدقونه ويسبقون اليهود إليه ؟ قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنّكم إليه .

صدقوه وأجابوه فيما دعاهم إليه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالو : إنا قد تركنا قومنا وليس قوم بينهم من العداوة والشر مثل ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز

منك . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا به وصدقوا . وكانوا ستة نفر كلهم من الخزرج ، فيهـــم أسعد بن زُرَارة وعُبَادة بن الصّامت .

فلما عاد هؤلاء إلى المدينة ذكروا لجماعتهم ما كان من أمرهم مع النبي وما سمعوه منه ودعوتهم إلى الإسلام ، ففشا ذكر الإسلام فى المدينة حتى إنه لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها ذكر لمحمد وللإسلام . فلما أهل العام المقبل وحضر الموسم ، وفد إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأنصار ، منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، عازمين على لقاء محمد ، فلقوه فى مكان يقال له العقبة ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى . قال عُبَادة ابن الصامت ، وكان فيهم : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الأولى ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدّه فى الدنيا فهو كفارة له . وإن سُترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر .

فلما انصرفوا عائدين إلى المدينة أرسل محمد معهم مُصْعَب بن عُمير وهو من بنى هاشم ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين . فنزل مصعب ضيفاً على أسعد بن زُرارة ، وكان يُسمى بالمدينة المُقرئ . وكان أسعد بن زرارة يخرج بمُصْعب إلى أحياء الأوس والخزرج يدعوهم للإسلام . وذات يوم خرجا فأتيا بستاناً لبنى ظفر ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم .

وكان سعد بن مُعاذ وأُسَيْد بن حُضَير يومئذ سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما لا يزال مشركاً على دين قومه . فلما سمعا بهذا الجمع قال سعد لأسيد : لا أبا لك ! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن

زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مَقْدَماً .

فأخذ أُسَيْد بن حُضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب : هذا سيد قومه ، وقد جاءك فاصدق الله فيه . قال مصعب : إن يجلس أكلمه . فلما بلغهما قال غاضباً : ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال له مصعب : أوتجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره .

قال : أنصفت . ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب فى شأن النبي والإسلام وقرأ عليه القرآن .

فقال أسَيْد وقد عرف أسعد ومصعب فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين . قالا له : تغتسل فتَطَّهر وتُطَهِّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم تصلى . فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، هو سعد بن مُعاذ . ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه ، وهم مجتمعون ، فلما نظر إليه سعد بن مُعاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسَيْد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم . فلما بلغهم قال له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت . وقد علمت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك .

فقام سعد بن مُعاذ مغضباً متخوفاً مما ذكره له أسيد عن بنى حارثة . وأخذ الحربة فى يده ، وخرج إلى حيث أسعد ومُصعب . فلما رآهما

مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراده أن يسمع منهما ، فوقف غاضباً ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أُمامة ، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟

فقال أسعد لمصعب : جاءك والله سيد في قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك من قومه اثنان .

فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً رغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره .

قال سعد : أنصفت . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن .

فقال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين .

قالا : تغتسل فتطّهر وتطهّر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين .

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق ثم ركع ركعتين . ثم أخذ حربته ، وأقبل عائداً إلى مجتمع قومه ومعهم أسيد بن حُضير . فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

فلما بلغهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأرجحنا عقلا .

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

ولقد صدق أسيد في ظنه أن أحداً سوف لا يتخلف من قومه عن الإسلام إن أسلم سعد ، فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا ملسماً أو مسلمة . وانضم سعد إلى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير في دعوة الناس إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأوس والخزرج إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

كان طبيعياً إذن بعد أن نجح الإسلام هذا النجاح الباهر في صفوف

قبيلتين كبيرتين ، أن يفكر محمد تفكيراً جدياً فى الهجرة إلى يثرب حيث هؤلاء الأنصار ، وحيث يستطيع تحت حمايتهم ورعايتهم أن يقيم شعائر الدين بحرية لا يشوبها أذى أو إساءة . ثم إن فى الهجرة إلى يثرب ولا شك تقوية للإسلام ، إذ سوف يلتئم شمل المسلمين جميعاً ، ويعود الذين هاجروا إلى الحبشة ، وينضم الجميع تحت راية واحدة فى منعة وعزة وقدرة لم يعهدها الإسلام من قبل . وأى شيء أدعى للجهرة من هذه الظروف المواتية ! منعة وعزة ودولة توشك أن تقوم بين ظهرانى قبيلتين شهيرتين وفى مدينة من أشهر مدن العرب . ولكن كان لا بد لمحمد ولآل محمد أن يستوثقوا من مدى إيمان الأنصار بالإسلام ومدى حمايتهم لمحمد ، وفضلا عن ذلك كان محمد يتطلع ولا شك إلى إقامة دولة تستطيع أن تحمى التابعين لها حماية العزيز المنيع المقتدر ، فقد كفى المسلمين أكثر من عشر سنين عاشوها بين الذئاب ، تشردهم وتبعدهم عن ديارهم وتسيء إليهم وتنهشهم نهشاً . لقد آن الأوان لهم أن يعووا قليلا بين هذه الذئاب الكاسرة . حلف يدفع به المسلمون عن أنفسهم الأذى بالأذى والعدوان بالعدوان .

واعد الأنصار محمداً على اللقاء فى الليلة الثانية من أيام التشريق[1] بعد الحج فى شِعْب العَقَبَة . فلما فرغوا من الحج وكانت الليلة التى واعدوا فيها الرسول ، كره المسلمون من الأنصار ، وكانوا يكتمون أهلهم من المشركين أمرهم ، أن يعقدوا هذه البيعة وليس فيهم عبد الله بن عمرو ، وكان سيداً من سادتهم وشريفاً من أشرافهم ، فكلموه ودعوه إلى الإسلام فقبل منهم وشهد معهم العقبة وكان نقيباً .

نام المسلمون من الأنصار تلك الليلة مع قومهم حيث يقيمون حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد الرسول ، وهم يتسللون تسلل القطا مستخفين ، واجتمعوا فى الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ؛

---

(١) ثلاثة أيام بعد العيد .

وجاءهم محمد ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وكان لا يزال على دين قومه ، ولكنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له . أى أنه أراد الأمر أن يكون رسمياً كما نقول الآن ، أى بين بنى هاشم والأوس والخزرج .

وكان العباس بن عبد المطلب أول من تكلم قال : يا معشر الخزرج[1] ، إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عزة ومنعة من قومه وبلده .

فقالوا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتلا محمد القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام وقال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم .

فأخذ البراء بن مَعْرُور بيده وقال : نعم ، فوالذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه نساءنا . فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر . واعترض القول أبو الهيثم بن التَّيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل عَسَيْتَ إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبى وقال : بل الدَّمَ الدم . والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وهنا قام سعد بن عُبادة ، وكأنه يريد أن يشد العقد فى أعناقهم وقال : يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ! قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون

---

(١) كانت العرب تسمى هذا الحى من الأنصار الخزرج . خزرجها وأوسها .

أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتــلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة .

قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟

قال : الجنـــة .

قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقال لهم الرسول : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً[1] يكونون على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فيهم أسعد بن زُرارة ، وعبد الله بن رواحة ، وعبد الله بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، وأُسَيْد بن حُضَير . فقال لهم محمد : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى ، قالوا : نعم .

وما أن انتهوا حتى سمعوا رجلا يصيح بأعلى صوته منادياً قريش : يا أهل الجباجب — والجباجب المنازل — هل لكم فى مُذَمَّم والصُّباء معه قد اجتمعوا على حربكم ، ويلوح أن محمداً عرف صوته فقال : أتَسَمَّعَ يا عدو الله ، أما والله لا تفرغن لك . فقال سعد بن عبادة : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا . فقال محمد : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى مضاجعكم .

فرجعوا الى مضاجعهم وناموا . فلما أصبحوا غدت عليهم سادات قريش وجاءوهم فى منازلهم فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ،

---

(١) النقيب : كبير القوم .

وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا من أن تشب الحرب بيننا وبينهم منكم . فأنكر المشركون منهم أنهم يعلمون شيئاً عما يقولون ، والمسلمون سكوت ينظر بعضهم إلى بعض . فصدقهم القوم وعادوا عنهم . وتفرق الناس من منى عائدين إلى ديارهم . غير أن قريشاً لم يهدأ لها بال ، فظلت تتنطس الخبر حتى علمت بصحته ، فخرجوا فى طلبهم . فلم يدركوا غير سعد بن عُبَادة والمنذر بن عمرو وكلاهما كان نقيباً من نقباء المسلمين . غير أنهم لم يقدوا على المنذر ، وأما سعد فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه ، وعادوا به إلى مكة وهم يضربونه ويجذبونه من شعره وكان طويلا . ولم ينقذه من أيديهم غير جُبَيْر بن مُطْعِم والحارث بن حرب بن أمية ، إذ كان يجير لهما تجارهما ممن أراد ظلمهم إذا خرجوا إلى بلاده .

لما رجع الأنصار أظهروا الإسلام فى المدينة ، ولم يبق من بيت إلا وفيه مسلم أو مسلمة ، ولم يتخلف من سادتهم غير نفر قليل منهم . ومن أطرف ما يروى عن عمرو بن الجَمُوح ، وكان من سادة بنى سلمة ما فعله فتيان بنى سلمة المسلمون وفيهم ابنه معاذ ، ومعاذ بن جبل ، فى صنم من خشب اتخذه فى بيته يقال له مناة ، كان يعظمه ويرفع من قدره . كان هؤلاء الفتية إذا نام عمرو ، خرجوا فى آخر الليل ، وأخذوا الصنم وطرحوه فى بعض حفر بنى سلمة ، وفيها غائط من غائط الناس ، منكساً على رأسه . فاذا أصبح عمرو قال : ويلكم ! من عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطيّبه وطهّره ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزينه . ثم إنهم كرروا فعلتهم هذه عدة ليال ، وكان عمرو يعيد صنمه من حيث ألقوه فى الأذى بعد أن يغسله ويطهره ويطيبه . فلما أكثروا عليه ، استخرج الصنم يوماً من حيث ألقوه ، فغسله وطهره وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له : إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما أرى ، فإن كان فيك خير فدافع عن نفسك ، هذا السيف معك . فلما أمسى ونام عمرو

عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها غائط من غائط الناس . فلما أصبح عمرو لم يجد صنمه حيث تركه ، فخرج يبحث عنه ، فلما وجده فى تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت ، أدرك أنه لا يضر ولا ينفع . فلما كلمه من أسلم من قومه أسلم وحسن إسلامه ، وذكر صنمه وما أبصر من أمره ، وشكر الله على إنقاذه مما كان فيه من العمى والضلالة ، قال :

والله لو كنتَ إلها لم تــكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قَرَن
أفٌ لملقــاك إلهاً مُسْــتَدَنٍ ... الآن فتشناك عن ســوء الغبن
الحمــد لله العــلى ذى المِنَن ... الواهب الرزّاق ديان الدِّيَن
هو الذى أنقــذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمة قبرٍ مُرْتَهَن

* * *

كانت بيعة العقبة الثانية إيذاناً خطيراً بتحول حاسم فى موقف كل من المسلمين والمشركين فى مكة . لقد أصبح للمسلمين دار أصابوا فيها منعة ، وحلوا فيها عزازاً كراماً . وأما المشركون فقد أصبحوا ولا شك فى موقف لا يحسدون عليه ، وقد قبل سادات يثرب حماية محمد والمسلمين وعاهدوهم وتعاقدوا معهم ، واستقدموهم إلى ديارهم واستضافوهم . لقد جن جنون قريش عندما هاجر منذ بضع سنين نفر من المسلمين إلى الحبشة ، فكيف بهم وجميع المسلمين الآن وعلى رأسهم محمد ، قد عقدوا حلفاً مع قبيلتين من أقوى وأعز قبائل العرب ، على نصرتهم وحمايتهم ، والذود عنهم وحرب الأحمر والأسود من الناس معهم . أتصبح المدينة منافساً يهدد مكة ؟ أيؤسس محمد ملكاً فى المدينة ينازع به قريشاً ؟ أيعود محمد فى يوم ما على رأس هؤلاء الأتباع غازياً لقريش ، محطماً لأصنامها ، هادماً لعبادتها ؟ أيحاول محمد أن يعامل قريشاً معاملة العين بالعين والسن بالسن ، فينتقم لنفسه ولأتباعه مما لاقوا من عنت قريش وحصارها ، ونبذها لهم ومقاطعتها إياهم سنين طوالا ؟

أيمنع تجارة قريش إلى الشام ، ويسد عليهم الطريق ، ويحاصرهم حصاراً اقتصادياً ؟ أيجيعهم محمد أو يحاول ذلك ؟ أيهدم محمد هذا المجد العريض الذى يرفل فيه سادة قريش ؟

الحق أنهم أوجسوا خيفة من هذا كله ، ذلك أن تجاربهم مع محمد قد بينت لهم أنه ليس بالرجل الذى يستهان به . فإنه سيرد الصاع صاعين لا شك فى ذلك إن استطاع . ولقد بدأت الدلائل تشير إلى أنه سيستطيع . فماذا يفعلون إذن وهاهم المسلمون قد بدأوا يهاجرون إلى يثرب جماعات وأفراداً ، وقد ترك الأب ابنه ، والأخ أخاه ، والابن أباه ، والرجل ابن عمه وصديقه ؟ ثم إن المشركين أيقنوا ولا شك أن أحداثاً لا بد ستحدث بينهم وبين محمد وأصحابه من الأنصار الذين عاهدوه على حرب الأحمر والأسود من الناس .

أيقن المشركون فى قريش أن محمداً قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة ، وهى دار قُصَى بن كلاب جدهم ، وهى الدار التى لا تقضى قريش أمراً إلا فيها ، وراحوا يتشاورون فى أمر محمد بن عبد الله حين خافوه هذا الخوف .

اجتمع حشد غفير من قريش فى اليوم الذى اتعدوا له ، وسمى ذلك اليوم بيوم الزَّحمة . وأخذالقوم يتفاوضون ويتشاورون فيما بينهم . فقال قائل منهم : احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه باباً ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زُهَيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . غير أنهم خشوا إن فعلوا ذلك أن يعلم به أصحاب محمد وقد أصبح لهم شأن يذكر ، فتثور الحرب بينهم ، فرفضوا هذا الرأى . ثم تشاوروا وقال قائل منهم : نخرجه من بلدنا فننفيه فى البــلاد ، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وأُلْفتَنَا كما كانت . غير أن هذا الرأى أيضاً لم يرضهم ، ذلك أنهم خشوا من حسن حديثه وطلاوة منطقه وغلبته على قلوب

الرجال ، فربما يحل على حى من العرب فيتبعوه فيسير إليهم بهم . وأخيراً قال أبو جهل رأياً استحسنوه ، قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعها ، فلم يقـــدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالدّية وهم مجمعون له . واطمأن المجتمعون إلى هذا الرأى واستصوبوه وأجمعوا عليه .

الفصل الثالث

الهجـــرة

إذا كان فى تاريخ البشرية أحداث غيرت مجرى التاريخ ، فلسنا نعرف على التأكيد حدثاً بعينه غير مجرى تاريخ البشرية ، له من الأهمية والروعة والجلال ما لهذه الهجرة النبوية . خرج محمد من مكة ضعيفاً خائفاً متوجساً ليس معه غير رجل واحد ، ومن حوله مئات بل آلاف من الأعداء ، قد أجمعوا على قتله والتخلص منه ، فينجو من براثنهم بأعجوبة ، وفى أقل من ربع قرن يكون هذا الطريد المستضعف قد أسس أعظم دولة فى العالم فى القرون الوسطى ، وأقام أساس حضارة أنقذت الإنسان مما عُرف فى تاريخه بالقرون السود — حضارة قوامها العلم والعدل ومكارم الأخلاق ، لتكون فى واقع الأمر حجر الأساس فى الحضارة الحديثة برمتها(١) .

عندما نمى إلى علم محمد ما تآمرت به قريش ، وأمره ربه بالهجرة ، وعقد العزم على مغادرة مكة ، أمر علىّ بن أبى طالب أن ينام فى فراشه تلك الليلة ، ويتغطى ببرده الحضرمى الأخضر ، حتى إذا ما رآه المتآمرون خيل إليهم أن محمداً نائم فيطمئنون إلى أنه لم يفلت منهم . ثم إنه أمر علياً أيضاً أن يتخلّف فى مكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ، ذلك أنه لم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

وأتى محمد دار أبى بكر فاستأذن فدخل وجلس ، ولم يكن أحد حاضراً سواهما غير أسماء وعائشة ، فقال محمد : أخرج عنى من عندك . فقال

---

(١) انظر كتابينا « أثر العرب فى الحضارة الأوربية — نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة » و « الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمى الحديث » .

أبو بكر مستغرباً : يا رسول الله إنما هما ابنتاى ، وما ذاك فداك أبى وأمى ؟

حرص شديد من محمد ، فربما يكون مصير الدعوة كلها معلقاً فى هذه الساعات ، ثم ثقة ما بعـــدها ثقة من أبى بكر فى ابنتيه . والحق أنه كان مصيباً ، فعائشة الطفلة التى لم تتجاوز الثامنة فى ذلك الوقت قد قامت بدورها فيما بعد على خير ما يرام ، فعرف العرب أجمعون والمسلمون والتاريخ عفتها ، ورجاحة عقلها ، وبلاغتها محدثة وراوية عن محمد ، ومعلمة لأجيال من المسلمين . وأما أسماء وكانت فى حوالى العشرين ، والتى عهدا إليها بسر من أكبر وأخطر أسرار الحركة الإسلامية ، واستودعاه صدر هذه القديسة ، فما ناء عن حمله ، وما وجلت منه نفسها ولا خارت ولا وهنت . فقد أثبتت للدنيا جميعاً أنها أهل لهذه الثقة ، وأنها جديرة بهذا التقدير .

التفت محمد إلى أبى بكر وقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة .
قال أبو بكر : الصُّحبة يا رسول الله ! قال : الصُّحبة . فبكى أبو بكر .
وفى ذلك قالت عائشة : والله ما شعرت قط قبل ذلك أن أحداً يبكى من الفرح ، حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى .

وكان أبو بكر عندما نوى الهجرة إلى المدينة قبل ذلك واستبقاه محمد لعل الله أن يجعل له صاحباً ، طمع أن يكون هذا الصاحب رسول الله ، فابتاع ناقتين وحبسهما فى داره يعلفهما إعداداً لهذا اليوم ، اشتراهما بثمانمائة درهم . ثم إنهما استأجرا عبـــد الله بن أُرْقَط أو أُرَيْقِط ، وكان مشركاً ، ليدلهما على الطريق ، ودفعا إليه راحلتيهما يرعاهما لميعاد الخروج .

وجهزت أسماء وعائشة لهما زاداً صنعتاه على عجل ووضعتاه فى جراب ، ونزعت أسماء نطاقها فشقته شطرين ، جعلت واحداً ربطت به على فم الجراب ، والآخر عصاماً لقربة الرسول . فلذلك سميت بذات النطاقين . ثم خرجا من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ، وكان خروجهما ليلا فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة من المبعث .

فلما استقبل محمد الطريق ، اتجه بقلبه إلى خالق السماوات والأرض ، إلى ربه ورب العالمين ، وقال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئاً ، اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر ، ومصائب الليالى والأيام .

اللهم اصحبنى فى سفرى ، واخلفنى فى أهلى ، وبارك فيما رزقتنى ، ولك فذلّلنى ، وعلى صالح خُلُقى فقوّمنى ، وإليك رب فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى .

ربّ المستضعفين وأنت ربى ، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السماوات والأرض ، وكُشِفَت به الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الأولين والآخرين ، أن تُحِل علىّ غضبك أو تُنزِل بى سخطك ، أعوذ بك من زوال نعمتك ، وفجأة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك وجميع سخطك . لك العُتبى عندى خير ما استطعت ، لا حول ولا قوة إلا بك » .

ثم إنهما عمدا إلى غار بجبل ثور جنوب مكة ودخلاه واستخفيا فيه ثلاثة أيام حتى هدأت قريش عنهما . ذلك أن قريشاً عندما أصبحت وتبينت أن علياً هو الذى كان فى الفراش ، أخذتها حمى الغضب ، وهاجت وماجت بحثاً عن محمد ، لعلها تمنعه من الهجرة أو تقتله . وتفرقت قريش تبحث عنه فى كل مكان ، فأتى نفر منهم بيت أبى بكر وفيهم أبو جهل ، فوقفوا على الباب فخرجت إليهم أسماء فقالوا : أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت : لا أدرى والله أين أبى (وكانت صادقة ، فما كانت تدرى أين هو فى تلك اللحظة) ، فرفع أبو جهل يده ولطم خدها لطمة شديدة طرحت قرطها . ثم انصرفوا .

كانت أسماء عظيمة بكل معانى العظمة ، ومما يدلك على عظمة نفسها ورجاحة عقلها أنه لما جاءها جدها أبو قحافة يقول لها : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله فى نفسه (وكان أبو بكر قد احتمل معه ماله كله ، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم) . قالت : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً .

وأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت الذى كان أبوها يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، وكان كفيفاً ، فقالت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . والحق أنه ما ترك شيئاً ، ولكن ترى هنا أسماء وقد عبرت عن مكنون عواطفها وعن إيمانها بأبيها وبالرسالة التى يؤديها ، كما عبرت عن منتهى رقة إحساساتها ، إذ لم تشأ أن تؤلم هـــذا الشيخ الضرير ، فسكنت روعه وأرضت نزعاته بهذه الحيلة .

لم يعلم أحد بمخبئهما فى الغار غير آل أبى بكر ، ابنه عبد الله ، وابنتاه أسماء وعائشة ، ومولاه عامر بن فُهَيْرَة . فكانت أسماء تأتيهما من الطعام ما يكفيهما إذا أظلم الليل . وكان عبد الله يتسمع لهما ما يقوله الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما سمع فى ذلك اليوم من الخبر . وكان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبى بكر فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى عمد إليهما بها فاحتلبا وذبحا ، فإذا انصرف عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فُهَيْرَة أثره بالغنم يُعفّى عليه .

جدت قريش فى طلب المهاجرين ، وتفرقت جماعات من سائر الجهات تبحث فى كل مكان ، وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل . وأقبلت فتيان قريش من كل بطن منهم رجل ، معهم عصيهم وقسيهم وهراواتهم ، وإذا بدليلهم سُرَاقة بن مالك يفقد الأثر وهم قاب قوسين أو أدنى من الغار لصلابة الأرض . وليس بغريب أنهم مرُّوا على باب الغار مرّة ومرّتين أو أكثر ، فما فكر أحد منهم فى دخول الغار ، ذلك أن عنكبوتاً كان قد نسج نسيجه على باب الغار ، وفى رواية أخرى أن حمامتين وحشيتين عششتا على فم الغار .

فهذا قائل يقول : رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار ، فعرفتُ أن

ليس فيه أحد . وآخر يهتف بهم : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد .

وأبو بكر يقول لصاحبه : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميـــه .

فيقول له محمد : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما !

وكان أبو بكر كلما سمع أصوات المتآمرين المتلهفين على محمد خارج الغار ، وهم على قيد خطوات منهما ، يجزع وترتعد فرائصه وجلا وإشفاقاً ، ويقول لمحمد : هؤلاء قومك يطلبونك !

فيطمئنه محمد ويقول : يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا .

فيقول أبو بكر : أما والله ما على نفسي أحزن ، ولكن مخافة أن أرى فيك مكروها .

مضت ثلاث ليال وهما في الغار ، وسكن عنهما الطلب ، فأتاهما عبد الله بن أريقط الدليل الذى استأجراه ومعه بعيراهما وبعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بطعامهما وشرابهما للطريق . فلما قدم أبو بكر الراحلتين إلى محمد قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فداك أبى وأمى .

فقال محمد : إنى لا أركب بعيراً ليس لى ه

قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى .

قال : لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتهما به . قال : كذا وكذا .

قال : أخذتها بذلك . قال : هى لك يا رسول الله .

وفى قصة أن تلك الناقة كانت القصواء ، وفى قصة الجدعاء .

ركبوا وانطلقوا على بركة الله ، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما فى الطريق . وعمد بهما دليلهما ، وكان فارهاً يعرف جميع المسالك والدروب ، إلى اتباع طرق متعرجة ، تارة نحو الشرق ، وتارة نحو الغرب ، وتارة نحو الشمال ، حتى يضلل من قد يقتفى أثرهم من المشركين الذين يجدون فى طلبهم . وبعد أن حثوا السير يوماً وليلة ، وأشرقت عليهم

شمس اليوم الثانى وهم يجدّون فى السير ليبتعدوا عن خطر الباحثين قدر الإمكان ، لم يذوقوا نوماً ولا راحة ، وقد علت الشمس كبد السماء ، وأرسلت عليهم شعاعات من لهيب ، وتوهجت الصحراء من حولهم فى حر الظهيرة ، عندئذ أحسوا بأن لأبدانهم عليهم حقاً ، وأنه ينبغى لهم أن يطلبوا قسطاً من الراحة ، وإلا سقطوا إعياء منهوكين .

ضرب أبو بكر نظره ليرى ظلاً يحتمون فيه ويأوون إليه ، فإذا بصخرة إلى جانبها بقية من ظل ، فسوى مكاناً لصاحبه وفرش له فروة ، فما لبث أن أخذه النعاس من شدة التعب والإرهاق فنام .

ونقل أبو بكر بصره هنا وهناك ، فإذا براعى غنم فأتاه فقال : لمن أنت يا غلام ؟ فقال : لرجل من قريش . فقال أبو بكر : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم . قال هل أنت حالب لى ؟ قال : نعم . فحلب قليلا من اللبن ، فقدم به أبو بكر لصاحبه فرواه ، ثم هرعوا بعد راحة لا تغنى إلا قليلا ، ميممين شطر الشمال مسرعين .

وما أن ساروا بعض الطريق حتى أدركهم سُرَاقة بن مالك على فرس له . فنظر أبو بكر خلفه وليس بينهم وبينه غير قليل وهو يجد فى طلبهما ، وقال : يا رسول الله قد لحقنا . قال : لا تحزن إن الله معنا .

وكان سراقة كلما اقترب منهما جزع أبو بكر وأكثر الالتفات ، ومحمد ثابت كالطود ، ما اهتز وما تزعزع لا يلتفت وراءه . وتشاء الأقدار فى تلك اللحظة الحاسمة وسُرَاقة ليس بينه وبينهم غير رمية رمح أو سهم ، أن تعثر به فرســه فيخر عنها . فاستخرج من كنانته الأزلام واستقسم بها أيضرهم أم لا ، فخرج السهم الذى يكره . فركب فرسه وتبعهما ، وإذا بفرسه تعثر به مرة أخرى . عندئذ تطير سراقة كعادة العرب ، ودخل فى روعه أن الآلهة لا ترضى عما يفعل . فناداهم بالأمان وأخبرهم بما تريد قريش بهم ، وبما جعلوا فى محمد من الدية ، وعرض عليهم الزاد والمتاع . فلم يطلب

محمد منه شيئاً إلا أن قال : أخْفِ عنا . فطلب منه كتاب أمن ، فكتبه أبو بكر . ولما رجع سراقة عنهما ، أخذ يضلل الذين يجدون فى طلبهما ، ويقول : كُفيتم هذا الطريق ، ليس فيه أحد . وخلا الطريق إلى المدينة وتابع النبى سيره إليها فى أمان واطمئنان لا يصده صاد ولا يعكر صفو رحلته مطارد أو معتد أثيم .

وصل المهاجر البطل إلى المدينة بعد خمسة عشر يوماً ، وهى فترة أطول مما تستغرق الطريق عادة ، ذلك أنه قضى ثلاثة أيام بالغار ، وسلك طريق الساحل ، وهى أبعد من الطريق المألوفة ، وتخلف بقُباء أربعة أيام .

لما علم أهل المدينـــة بمغادرة محمد مكة ، وتوقعوا مقدمه بين يوم وآخر ، كانوا يغدون أول النهار إلى الحرّة بأطراف المدينة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة . وذات يوم من أيام الاثنين فى أواخر شهر ربيع الأول ، وبعد أن طال انتظار المسلمين وعادوا إلى بيوتهم ، هتف بهم يهودى كان ينظر شيئاً من أعلى حصن من حصونهم فرأى القادمين عليهما ثياب بيض قال : يا معشر العرب هذا صاحبكم الذى تنتظرون .

هرع المسلمون إلى السلاح وخرجوا زرافات ووحدانا ليستقبلوا الرجل البطل النبى ، الذى دعوه إلى بلدهم الأمين ، وليملؤوا عيونهم من محيا ذلك الذى تكلمه السماء ، وليثبتوا له وهم شاهرين السلاح أنهم رجال صدق فى وعدهم ، وأنهم فى مدينتهم عزاز كرام أقوياء ، وأنه أصبح بين ظهرانيهم منيعاً آمناً على نفسه وعلى دينه . تدفق نحوه مئات من الرجال والنساء والفتيات والصبيان ، يتدافعون فى غمرة حماستهم ولهفتهم متسائلين : أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ وكانت الشمس فى تلك الساعة التى وصل فيها الركب المبارك قد علت كبد السماء ، والوقت عند الظهيرة ، وحرارة يوليو تلهب الدنيا بلظاها ، فنزل محمد عن راحلته وجلس فى ظل نخلة يستريح . فلما تحولت الشمس وانكشف الظل عن محمد نهض أبو بكر يُظلله ، فلما رأى الناس ذلك عرفوه ، فتعالت

الصيحات والهتافات من هنا وهناك : الله أكبر ! جاء رسول الله . الله أكبر ! جاء محمد . الله أكبر ! جاء رسول الله . الله أكبر ! جاء محمد .

وبعد أن استراح فترة العصر ، وخف الهرج والمرج ، وسكنت أنفاس الناس ، واطمأن المسلمون على نبيهم ، وهدأت مخاوفهم عليه ، قام وعطف بهم ذات اليمين حتى نزل فى بنى عمرو بن عوف بقُباء بعد المغرب بقليل . ومكث عندهم من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة . وفى تلك الأثناء وصل على ابن أبى طالب من مكة بعد أن سلم الودائع التى كانت عند محمد لأصحابها ، وانضم لصاحبه .

أسس محمد مسجده بقُباء ، فكان أول مسجد بنى فى الإسلام ، بل أول مسجد جعل لعموم الناس . ونهض يوم الجمعة ومن ورائه جموع المسلمين ميمماً شطر المدينة ، التى استقبلته استقبالا لم تشهد مثله من قبل ، الرجال بسيوفهم يسيرون من حوله ومن ورائه ، تملأ نفوسهم حمية العرب ، ويملأ قلوبهم إيمان برسول الله لا يثنيهم عنه إلا الموت . والنساء والفتيات والصبيان من فوق البيوت وعلى جانبى الطريق يهللون وينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فلما أدركته صلاة الجمعة فى حى بنى سالم بن عوف ببطن الوادى المسمى بوادى رانوناء ، صلى بالمسلمين هناك ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ، بل أول جمعة صلاها بالمسلمين إطلاقاً ، ذلك أنه لم يكن يقدر على ذلك فى مكة . وخطب فيهم أول خطبة جمعة ، قال :

« الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفُرُه ، وأعادى من يكفُره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهُدَى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلّة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقُرْب من الأجل .

من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضلّ ضلالا بعيداً .

أوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروه ما حذّركم الله من نفسه ، ولا أفضلُ من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرى ، وإنه تقوى لمن عمل به على وجَلٍ ومخافة ، وعونُ صدقٍ على ما تبتغون من أمر الآخرة .
ومن يُصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية ، لا ينوى بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت ، حتى يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان سوى ذلك يودّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد .

والذى صدق قوله ، وأنجز وعده ، لا خُلْفَ لذلك فإنه يقول تعالى : « ما يُبدّل القول لدى وما أنا بظلاّم للعبيد » .

واتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية ، فإنه « من يتق الله يُكفّر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجراً » . « ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً » . وإن تقوى الله توقى مقْتَه وتوقى عقوبته ، وتوقى سخطه ، وإن تقوى الله تُبيّض الوجه ، وترضى الرب ، وترفع الدرجة .

خذوا بحظكم ولا تُفرّطوا فى جنب الله ، قد علّمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وسماكم المسلمين ، ليهلك مَن هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد الموت ، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .
أما اليهود ، وأما المشركون ، فإنهم ولا شك خرجوا أيضاً من ديارهم ،

وتجمعوا هنا وهناك ، ينظرون ويتأملون ويتفكرون ، وكأن تواها أخذ بعقولهم . اليهود تأكل الغيرة صدورهم ولا شك،أن يكون نبي ليس منهم ، وإن كانوا آمنين على أرواحهم وأموالهم وأبنائهم ودينهم . أما المشركون ، فإنهم توجسوا خيفة ، ذلك أن محمداً لم يقبل من أهل مكة ، وهو بعد لا يملك من القوة غير إيمانه بالله ، ونفراً قليلا عزلا من السلاح ، إلا أن يقولوا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فأى أمل لهم الآن فى التمسك بعقيدتهم القديمة ، ودين آبائهم وأجدادهم ، وهذى هى المدينة وقد خرجت جموعها ومقاتلوها يهللون ويهتفون للقادم الجديد ، ويلوح صناديدها بسيوفهم وحرابهم لأول مرة فى تاريخ الإسلام ؟ ماذا بعد أن أصبح سيد الخزرج عبد الله بن أبيّ بن سلول — وكانوا بالأمس يرشحونه ليصبح ملكاً عليهم — لا حول له ولا قوة ولا كلمة ولا طاعة ؟ ماذا إذن ؟ لقد انتصر الإسلام ، لقد ملك محمد المدينة وما فيها ، ولم يبق من أمل لهؤلاء المشركين إلا أن يشهدوا شهادة الحق . هذا منطق الأحداث . لقد بدأ التاريخ يتغير ، لا ، بل تغير .

امتطى محمد ناقته وأطلق زمامها تسير فى طرقات المدينة . وكان كلما مر بدار سيد من ساداتها رجاه أن ينزل عنده فى العَدَد والعُدّة والمنعة فيقول : خلّوا سبيلها (أى الناقة) إنها مأمورة . حتى إذا مر فى طريقه بعبد الله ابن أُبَيّ بن سلول ، وقف ينتظر أن يدعوه ، فما كان منه إلا أن عبس فى وجهه وقال : انظر الذين دعوك فانزل عليهم . فلما ذكر النبى ذلك لنفر من الأنصار ، قال سعد بن عُبادة يعتذر عنه : لقد منّ الله علينا بك يا رسول الله ، وإنا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملّكه علينا .

وأخيراً انتهت الناقة إلى دار أبى أيوب خالد بن زيد ، فبركت أمامها فى مربد (جرن تمر) لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار ، هما سهل وسهيل ابنا عمرو . فنزل محمد عن ناقته ودخل بيت أبى أيوب . واشترى المربد من الغلامين وبنى فيه مسجده ومساكنه .

كانت دار أبى أيوب طابقين ، فنزل محمد فى الطابق السفلى ، فقال أبو أيوب له : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنى أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال : يا أبا أيوب ! إنه لأرفق بنا وبمن يزورنا أن أكون فى سفل البيت . ثم إنه أقام على الرحب والسعة ، ولم تكن تمضى ليلة إلا ويقدم ثلاثة أو أربعة يحملون الطعام ، يتناوبون على ذلك . وقد نزل على أبى أيوب حتى بنى مساكنه .

وبعد أن استقر به المقام ، أرسل وهو نازل فى دار أبى أيوب مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ، ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ، ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجته . وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان ، وزينب عند زوجها بمكة أبى العاص بن الربيع ، وجاءت معهم أم أيمن امرأة زيد بن حارثة ، وخرج معهم عبدالله بن أبى بكر بعيال أبى بكر وفيهم عائشة ، ولم يكن محمد قد دخل بها بعد .

تمت الهجرة فى شهر ربيع الأول (يوليو سنة ٦٢٢ م) ، واتفق الصحابة فى سنة ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمانى عشرة على جعل ابتداء التاريخ الإسلامى من سنة الهجرة . واتفقوا على أن يكون شهر المحرم هو أول شهور السنة الهجرية ، لأنه الشهر الذى ينصرف فيه الناس من الحج ، وهو شهر حرام ، أى أن سنة الهجرة استهلت ومحمد لا يزال بمكة .

الفصل الرابع

بداية الدولة الإسلامية

أصبح محمد سيداً على قوم أشداء ، يطيعونه إن أمر ، ويتبعونه حيث رغب ، ويقومون دونه بأرواحهم وأبنائهم وأموالهم . والحق أنه بهرهم بصفات نسيج وحدها ، فاستطاع أن يكبحهم ويحكمهم ، ويخضعهم لإرادته ، ويؤلف بين قلوبهم ، وينسيهم حزازاتهم ، بل إنه كان أول عربى فى تاريخ هؤلاء العرب الشداد ، استطاع أن يجمعهم من أقصى جزيرتهم إلى أدناها تحت راية واحدة ، ويدفعهم نحو غرض واحد ، ويلقى بهم إلى رحاب العالم الفسيح فيغيرون وجهه .

أى رجل . . . أى بطل . . . أى نبى . . . !

كان معتدل الطول ، بعيد ما بين المنكبين ، خمرى اللون ، شعره لا جعد ولا ناعم ، يتدلى على كتفيه ، طويل العنق ، حسن الوجه ، مشرق المحيا ، معتدل الخلق ، حسن التقاسيم ، سواد عينيه شديد ، وبياضهما تشوبه عروق حمر رقاق ، طويل الأجفان ، فى صوته حدة وصلابة ، كث اللحية ، واسع الجبين ، مقوس الحاجبين طويلهما ، أقنى الأنف ، سائل الخدين ، غير مرتفع الوجنتين ، كبير الفم واسعه ، مفلج الأسنان ، شعر صدره دقيق سائل إلى بطنه ، ليس فى صدره أو بطنه شعر غيره ، عارى الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، غليظ الكعبين والقدمين صغيرهما ، إذا مشى كان فى مشيته قوة واقتدار ، يمشى هوناً ويتمايل إلى الأمام ، واسع الخطو سريعه ، يخيل إليك أنه إنما ينحط من موضع منحدر .

كان قليل الأكل لا يملأ بطنه قط ، أحب الطعام إليه ما أكله مع

الناس . لم يكن يسأل أهله طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه قبل ، وما سقوه شرب . لا يأكل على مائدة ، يعجبه ذراع الشاة ، ويحب القرع والحلواء والعسل ، خبزه من الشعير ، لا يشرب إلا الماء واللبن .

أما نومه فقليل ، ينام على جنبه الأيمن ، ولا يغط فى نومه ، ويؤثر عنه أنه قال : « إن عينى تنامان ، ولا ينام قلبى » . ينام فى أول الليل ، ويستيقظ عند السَّحَر .

إذا ضحك فأغلب ضحكه تبسم ، وربما ضحك بعض الأحيان حتى تبدو نواجذه ، ولكن من غير قهقهة ولا إسراف . كان حِلْمُه شهيراً ، فهو مع قدرته صبر كثيراً على ما تكره نفسه . وصل من قطعه ، وأعطى من حرمه ، وعفى عمن ظلمه . أبى أن يلعن أحداً مهما أصابه منه من سوء . كان سمحاً جواداً كريماً ، لا يحتفظ بمال إلا لقوت عام واحد ، من أيسر ما يجد من التمر والشعير ، ولا يبيت فى بيته دينار ولا درهم بعد ذلك إلا أعطاه لمن يحتاج إليه .

كان شجاعاً مقداماً ، شهد أصعب المواقف ، وخبر الكماة والأبطال يفرون ، وهو ثابت لا يبرح ، مقبل لا يدبر . صاحب صولة ونجده ، أول من يقتحم الصفوف ، وآخر من يرتد عن ميدان القتال .

كان كريم العشرة ، جم الأدب ، بسيط الخلق مع الناس أجمعين ، شديد الحياء ، إذا تحدث إليه أحد التفت إليه بكامل جسمه ، قليل الكلام ، كثير الإنصات ، وقور رزين فى صمته ، بهى فى كلامه ، متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، طويل السكوت ، لايتكلم فى غير حاجة . ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صياح ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح . يتغافل عما لا يُشتهى ولا يُؤنَس منه . يجيب من دعاه ، ويقبل أى هدية ويكافئ عليها . يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ،

ويجلسهم فى حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى القريبين والبعيدين ، ويقبل عذر المعتذرين . يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ويدعوهم بأحب أسمائهم إليهم إكراماً لهم . لم يُر قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد . يكرم من دخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته . لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته . كان يقول لأصحابه « إن دخلت عليكم وأنتم جلوس فلا يقومن أحد منكم فى وجهى ، وإن قمت فكما أنتم ، وإن جلست فكما أنتم ، فإن ذلك خلق من أخلاق المشركين » .

سأله علىّ عن سنته فقال : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

تخطت رحمته عالم الإنسان إلى عالم الحيوان . كان يُمرّض بنفسه ديكاً مريضاً ، ويمسح لجواده بكم ردائه ، ويقوم ليفتح لهرة تموء على بابه .

أحب الطيب ، وكان يتطيب بالغالية وبالمسك حتى يرى بريقه فى مفرق رأسه ، ويتبخر بالعود ، ويطرح معه الكافور . وكان يُعرف فى الليلة المظلمة بطيب ريحه .

كان أنيقاً فى ملبسه ، يتجمل لأصحابه ولأهله . لبس من الثياب الصوف والحِبَرَة[1] والقطن ، ولبس السندس والحرير ثم تركه . أحب من الألوان البياض ، والحمرة ، والخضرة ، والصفرة ، والسواد .

فراشه عباءة مثنية أو حصيرة ، ووسادة من أدم محشوة ليفاً . لا يرقد ليلا أو نهاراً إلا غسل أسنانه بالسواك بعد أن يستيقظ ، وقبل أن يتوضأ .

---

(١) نوع من الثياب القطنية أو الكتانية المخططة اشتهرت اليمن بصنعها .

مشطه من عاج ، وكان إذا سافر حمل معه المشط والمرآة والدهن والمكحل والمسواك والمقراض فى حقيبة من جلد . يكتحل ثلاثاً فى كل عين قبل النوم ، ويحتفظ بمنديل يمسح به وجهه من الوضوء .

هو ذا محمد بطل العرب ونور الدنيا .

لم يكن كل هذا التقشف وهذا الزهد الذى أحاط بهما محمد حياته من متطلبات الدين فى شيء ، بل على الضد فإن الدين الإسلامى يدعو الإنسان إلى أن يمتع نفسه فى هذه الدنيا ، وينبغى له أن يحصل منها على طيبات ما فيها ، ويحثه على ارضاء كل من شهوات الجسد والروح إرضاء تاماً .

ولكن محمداً ضرب أحسن المثل للناس ، فأصبحت سيرته وتصرفاته اليومية فى حياته ومعاشه ضابطاً ورابطاً أخلاقياً قوياً ينهاهم عن دنيات الأمور ، وعن التكالب الرخيص على هذه الدنيا ، ذلك التكالب الذى من شأنه أن يفسد العلاقات الاجتماعية ، ويحيل المجتمع إلى عصابات من الجشعين المفسدين من ناحية ، وإلى جماعات غفيرة من المحرومين الحاقدين من ناحية أخرى .

* * *

استقر محمد وأصحابه من المهاجرين فى المدينة بين ظهرانى الأنصار ، وأصبح الدين الإسلامى حقيقة واقعة يشعر بها العرب . وبدأ المسلمون يحسون بقوتهم ، وأخذوا يقيمون شعائر الدين لأول مرة علناً وبلا خوف وبلا تصد من أحد أياً كان . واستسلمت المدينة عن بكرة أبيها بما فيها من مشركين ويهود إلى هذا الوضع الجديد . وبدأت عندئذ حالة استقرار نسبى تقتضى تنظيماً لشئون المسلمين ، وتتطلب النظر فى مختلف الأحوال والملابسات التى تكتنف هذه الدولة الناشئة ، حتى تستقر فيها الأوضاع على أساس ثابت متين . وكان ضرورياً وطبيعياً إذ التأم شمل هذه الدولة الناشئة حول فكرة دينية ، أن يفكر قائد الدولة ومؤسسها أول ما يفكر ، فى بناء دار للعبادة يجتمع فيها أنصاره للصلاة ، وهى أكبر أركان الإسلام العملية .

ومن ثمة كان أول عمل قام به فى المدينة هو بناء المسجد ، فبناه فى مكان جرن التمر الذى اشتراه لهذا الغرض كما نوهنا من قبل .

عمل محمد بيديه فى بناء المسجد ، ليضرب للمسلمين مثلا ، وليرغبهم فى العمل فيه ، فتهافت المهاجرون والأنصار على العمل ، وكان محمد يحمل الطوب على صدره حتى يغبر من التراب . وقد ارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لاهمّ إن العيش عيش الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة

فيقول محمد : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

وكان المسجد عبارة عن فناء فسيح ، جـــدرانه من اللبن ، سقف جزء منه على عمد من جذوع النخيل ؛ وجعل سقفه من الجريد . وقد خصص هذا الجزء منه لإيواء الفقراء الذين لا سكن لهم ، وسموا أهل الصُّفَّة . ولم يكن المسجد يضاء ليلا إلا عند فترة صلاة العشاء فقط ، فكان يوقد فيه القش . غير أنهم استبدلوا شعل القش هذه — بعد تسع سنوات — بمصابيح علقوها فى جذوع النخل التى أقيم سقف المسجد من فوقها . ولم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، ولكن زاد فيه عمر . غير أنه بناه بنفس الطريقة التى بناه بها محمد . ثم زاد فيه عثمان زيادة كبيرة ، فبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والجص ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من خشب الساج .

أما مساكن محمد ، وهى عدة حجرات ، فكانت حول المسجد ، وكانت بسيطة قصيرة البنَاء قريبة الفنَاء ، على غرار المسجد ، ولم يكن لأبوابها حلق ، بل كان يقرعها الطارق بالأظافر . وقد أضيفت الحجر كلها بعد موت أزواج النبى إلى المسجد .

لم تكن هجرة محمد من مكة إلى يثرب نهاية الصراع بينه وبين قريش ، كلا ، فإنها وإن كانت فى الحقيقة نهاية للصراع السلبى ، فقد آذنت ولا شك

ببداية صراع ساخن تبدّى فى الأفق واضحاً جلياً . فمحمد يدعو الناس كافة للعودة إلى دين أبيهم إبراهيم ، وهو دين العرب ، والدين القويم ، وإن كانت العرب لبعد عهدهم به قد أدخلوا عليه من البـــدع والضلالات ما ليس منه ، فجاء محمد ليصححه وليطهّره وليعيده إلى صفائه الأول . أما مكة ففيها مقام إبراهيم ، البيت العتيق بيتهم المحجوج ، الذى لا بد للمسلمين أن يهرعوا إليه كل عام ليقيموا شعائر الحج الذى نادى به إبراهيم . إذن فقد أدرك محمد منذ البداية أن صراعاً عنيفاً سيحدث بين المسلمين وقريش ، لأن قريشاً على التأكيد سوف تمنعهم من إقامة شعائر دينهم فى الكعبة كما منعتهم قبل ذلك ثلاثة عشر عاماً .

من هنا كان لزاماً على مؤسس الدولة الجديدة وقائدها ، أن يعمد أول شيء إلى تثبيت دعائم المجتمع الذى هو قوام الدولة ، وإعطائه قوة روحية واجتماعية ، يكون من شأنها أن تحول دون تفكك عقدة التكافل فى المجتمع . وبذلك يستطيع أن يحمى الجبهة الداخلية ويصونها من عوامل التفتت ، إذا ما هبت عليها الأعاصير التى توقعها . ألقى محمد نظرة ثاقبة على هذا المجتمع الجديد ، وأيقن ببصيرته أن حياة المسلمين فى يثرب سوف لا تمر هنيئة مريئة لا يعكر صفوها معكر إذا ما تركت بغير رادع أخلاقى متين ، وتنظيم اجتماعى روحى قوى . فقد كان بين الأوس والخزرج خلافات وحزازات فرقتهم فى الماضى ومزقتهم شر ممزق ، وأقربها إلى الأذهان وقعة بُعاث التى قتل فيها كثير من أشراف الجانبين وسادتهم قبل ذلك بعدة سنين . هذا من ناحية ، ثم إنه كان يشوب العلاقات الاجتماعية فى صفوف المسلمين ذلك الفقر الشديد والعوز المضنى الذى أصاب معظم المهاجرين . فقد هاجر كثيرون منهم وتركوا ما يملكون أو أكثر ما يملكون فى مكة ، ذلك أن كفار قريش كانوا يضنون على المهاجرين أن يهاجروا بما يملكون أو حتى ببعض ما يملكون . فكانوا يحولون دون من يقدرون عليه أن يحمل شيئاً من ماله . كما فعلوا مع صُهَيْب إذ جردوه من كل ما يملك . ويروى أن

المهاجرين قاسوا فى أول عهدهم بالمدينة مقاساة شديدة ، حتى لقد ذهب حمزة بن عبد المطلب يوماً لابن أخيه وطلب إليه أن يجد له ما يقتات به . عندئذ اقتضت الظروف السياسية والاقتصادية ، وقبل ذلك كله روح الإسلام ، أن يتآخى المسلمون وأن يشعر كل فرد منهم أنه مكفول فى مجتمع المسلمين كفالة تامة ، وأنه لا ضياع له فيه ، وأن المسلمين جميعاً إخوة أخوَّة تامة يعطى غنيهم فقيرهم بالمعروف ، ويعين المقتدر منهم المعوز على الحياة . فأمر محمد المسلمين بأن يتآخوا فى الله أخوين أخوين،وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال هذا أخى ، فكان وعلى أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب[1] أسد الله وأسد رسول الله ، وزيد بن حارثة مولى النبى أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجى أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، وهكذا تآخى كل مهاجرى مع رجل من الأنصار .

على أنه لا ينبغى أن يفهم من هذه المؤاخاة أن يستكين المهاجرون ويكفوا عن السعى وراء الرزق . كلا ، فإنها كانت من هذه الناحية الاقتصادية درساً أخلاقياً واجتماعياً من أعظم الدروس فى التنظيم الاجتماعى ، مقتضاه أن يعين المسلم أخاه المسلم فى وقت الحاجة الملحة ، وليس معناه التواكل على الغير بلا سبب ولا ضرورة . ثم إن كثيرين من المهاجرين عملوا وأجهدوا أنفسهم فى طلب الرزق . يقال بأن سعد بن الربيع الذى آخى عبد الرحمن بن عوف ، قد عرض على عبد الرحمن أن يشاطره ماله،فرفض عبد الرحمن وطلب منه أن يدله على السوق ، وفيها تاجر وربح ما يغنيه . كذلك فعل كثير من المكيين وكانوا أهل تجارة مَهَرة . أما الذين لم يعملوا فى التجارة فقد اشتغلوا بالزراعة فى حقول الأنصار مزارعة .

---

(١) ينكر بعض العلماء صحة مؤاخاة النبى وعلى ، وحمزة وزيد قائلين بأن المؤاخاة قد شرعت لأجل أن يستفيد بعضهم من بعض ولتتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحد منهم ، ولا مهاجرى لمهاجرى آخر ، إلا أن يكون للمؤاخاة غرض آخر .

ثم إن هذه المشكلة لم تكن كل ما واجه محمد فى أعقاب استقراره الأول بيثرب ، ذلك أنه كان بها قبائل يهودية قوية ، كان ينبغى تنظيم علاقة المسلمين بها . فهل كان محمد ليأمن جانب اليهود بغير معاهدات ومواثيق ؟ وهل كان اليهود اعتباراً للناحية السياسية ، يشجعون حلفاً بين الأوس والخزرج أم يحاولون نقضه ؟ وهل يؤيد اليهود من الناحية الدينية قيام دين ينسخ دينهم وإن اعترف بأنبيائهم ؟ والحق أن اليهود مرّوا قبل ذلك عند ظهور النصرانية وانتشارها بتجربة قاسية لاقوا منها الأمرّين . فهل يقفون الآن مكتوفى الأيدى إزاء دين يتعصب له الأوس والخزرج هذا التعصب ، ويتعاهدون مع نبيه على حرب الأحمر والأسود من الناس دفاعاً عنه ؟ أيأمن اليهود على أنفسهم مثل هذا الدين ؟ ربما جالت مثل هذه الخواطر فى أذهانهم . ولكن الحقيقة التى بينها التاريخ تثبت أن محمداً لم يكن يفكر فى شيء من هذا ، بل إنه عاهدهم منذ أول مقامه بالمدينة وكتب معهم صحيفة ، هى ميثاق ما كان ليحل عقدته من شيء إلا أن ينقضه اليهود أنفسهم . وقد فعلوا .

عمد محمد إلى عقد محالفة بين المهاجرين والأنصار واليهود تحقق الأمان والحرية والحماية للجميع ، وكتب بذلك صحيفة . والحق أنها حققت تكافلا اجتماعياً رائعاً بين جميع سكان المدينة ، وجعلت منهم وحدة تتكافل فى سبيل حياة أفضل . جعلت من المسلمين أمة واحدة ، وحثتهم على أن يتعاونوا فى الحياة تعاوناً تكافلياً ، وطالبت المؤمنين بألا يتركوا مؤمناً من بينهم مثقلا بالدين أو كثير العيال إلا أعطوه بالمعروف ، وعانوه على المضى فى الحياة وخففوا عنه أعباءه فى فداء أو دية . وجعلت المؤمنين يداً واحدة فى رفع الظلم ورد العدوان وإقامة العدل . وأعطت لأضعف المسلمين الحق فى أن يجير عليهم وفى أن يقبل جواره ، وفى ذلك عزة وقوة للمسلمين صغيرهم وضعيفهم قبل كبيرهم وقويهم .

ثم إن هذه الصحيفة قد قررت لليهود الذين يسالمون المسلمين كامل الحرية فى العبادة والمعاملات ، طالما حافظوا على البنود الواردة فيها . وهى أيضاً معاهدة بين المسلمين واليهود فى الحرب ، فقد شرطت على المسلمين واليهود أن يحاربوا من ينقض هذه الصحيفة . وأعطت الحق للجميع ، مؤمنين ويهوداً ، أن يعيشوا جنباً إلى جنب فى إخاء وحرية تامة ، يحكم علاقاتهم النصح والنصيحة دون الإثم والعدوان . وأخيراً قررت الصحيفة أن من برّ واتقى فإنه فى جوار الله لا يُظلَم ولا يُعتدَى عليه . وهذا الجوار الأخير أقصى ما يمكن من ضمانات لمن يريد البر والتقوى .

وهذا نص الصحيفة : بسم الله الرحمن الرحيم « هذا كتابٌ من محمد النبى الأمى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رِبعتهم (الحالة التى أتى الإسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (يدفعون الدية شركة فيما بينهم) وهم يفدون عانيهم (دمهم) بالمعروف والقسط ، وبنو عوف على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم (دياتهم) الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين[1] .

وإن المؤمنين لا يتركون مثقلا بالدين أو كثير العيال بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (قوة) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعهم ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتُل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمةَ الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى (حلفاء) بعض دون الناس .

---

(١) ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار ، وأهل كل دار : بنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت .

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

وإن المؤمنين يمنع بعضهم بعضاً بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هَدْيٍ وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من قتل مؤمنا ظلماً ، قتلا عن بينة فإنه قَوَدٌ (قتــل القاتل بالقتيل) به إلى أن يرضى ولى المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدِثاً ولا يؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صَرْف (نقود) أو عدل (جزاء) وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم ، إلا من ظَلَم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهلَ بيته .

وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جُشَم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وجفنة وبنى الشُّطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، ولا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وبأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرِّ هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبرَّ دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مُضَار ولا آثم ، وإنه لا تجارُ حُرْمَةٌ إلا بإذن أهلها .

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدَث أو اشتجار يُخاف فساده : فإن مَرَدَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا تُجارُ قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دَهِم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قِبَلَهم .

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جارٌ لمن برَّ واتقى » .

نتبين من هذه الوثيقة أن اليهود الذين وقعوا عليها هم فقط الذين كانوا يعيشون فى أحياء العرب وكانوا حلفاء لهم ، وأما بنو النَّضير ، وبنو قَيْنُقاع ، وبنو قُرَيظة فلم يوقعوها ، بل وقَّعوا صحائف شبيهة بها فيما بعد .

وعندما استتب الأمن للمسلمين بيثرب ، واستقرت الأوضاع ، فكر محمد فى الدخول بعائشة ، وكان قد عقد عليها قبل الهجرة فى مكة كما سبق بيانه .

قال البخارى عن عائشة : « أتتنى أمى أم رومان وإنى لفى أرجوحة ومعى صواحب لى ، فصرخت بى فأتيتها ما أدرى ما تريد منى ، فأخذت بيدى حتى أوقفتنى على باب الدار ، وإنى لأنهج حتى سكن بعض نفَسى ، ثم أخذَت شيئاً من ماء فمسَّت به وجهى ورأسى ، ثم أدخلتنى الدار ، فإذا نسوة من الأنصار فى البيت ، فقلن : على الخير والبركة وعلى خير طائر . فأسلمتنى إليهن فأصلحن من شأنى ، فلم يرعنى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضُحىً ، فأسلمتنى إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » .

وسارت حياة المسلمين آمنة مستقرة ، واستحكم أمر الإسلام ، وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود شيئاً بعد شيء ، وفرض الحلال والحرام ، وآذنت الأحداث بأن الإسلام يتحول ليصبح ديناً ودولة لها شرائعها

وقوانينها ، وأخذ المسلمون يقيمون شعائر الدين علناً وبانتظام وعلى الأخص الصلاة ، وهى ركن الإسلام الركين ، وأهم مظاهره الخارجية . وكان الناس يجتمعون للصلاة عند مواقيتها بغير دعوة . وعندئذ دعت الضرورة إلى إيجاد طريقة لدعوة الناس إلى الصلاة دفعة واحدة . فاستشار النبى الناس فيما يتخذون ، فذكر بعضهم البوق كما يفعل اليهود ولكنه كرهه ، وذكر آخرون الناقوس كما يفعل النصارى فكره ذلك أيضاً بعد أن كان قد أمر بناقوس أن ينحت . وأخيراً استقر الرأى على الأذان ، وفى ذلك رواية تقول بأن عبد الله بن زيد بن ثعلبة قال للنبى : يا رسول الله إنه طاف بى هذه الليلة طائف ، مرّ بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : « الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

فلما سمع النبى هذا النداء أعجبه ، وقال : « إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك » . ويروى أيضاً أن بلالا أضاف فى نداء صلاة الفجر « الصلاة خير من النوم » مرتين ، فأقرها محمد . وكان بلال إذا وجبت مواعيد الصلاة يرتقى منزل امرأة من بنى النجار بجوار المسجد ويؤذن .

علت صيحة الإسلام وتجاوبت بها أصداء الدنيا ، وطارت الريح بشهادة الحق تلقيها فى آذان اليثربيين جميعاً ، مسلمهم وكافرهم ، خمس مرات كل يوم ، فيهْرَع المؤمنون زرافات ووحدانا نحو المسجد لإقامة الصلاة ، يؤمهم محمد . وكأنما كان بلال كلما نادى بهذا النداء ، يُسْمِع الدنيا جميعاً أن فى

الأرض نبياً اسمه محمد ، وأن فى السماء إلهاً اسمه الله ، وأن هؤلاء المسلمين أمة واحدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، هى خير أمة أخرجت للناس .

انتصرت المبادئ التى نادى بها محمد ، وأخذت جحافل البغى والظلام تتراجع رويداً رويداً أمام هذا النور الباهر الذى أشرق فى صحراء العرب . فسلام عليك أيتها الصحراء . سلام عليك أيتها البيد المترامية . سلام على رسول الحق والهدى . سلام على الأرض التى غذته وعلى السماء التى أظلته .

ولكن هل تمضى حياة هؤلاء التقاة الورعين هانئة وادعة لا يعكر صفوها معكر ؟ كلا ثم كلا ! وكيف يتأتى ذلك وبين ظهرانيهم وإلى جوارهم جماعات من اليهود العتاة المتعصبين ، الذين أنكروا بداهة صحة نبوة محمد ، لا لشيء إلا لأنهم يؤمنون بأن الله لم يرسل نبياً غير موسى ، وأنه ليس من نبى بعده . ومما لا شك فيه أنهم اعتبروا دين محمد بدعة وهرطقة لا تقبلها اليهودية . وماذا فعلوا مع عيسى بن مريم ؟ ألم يكذبوه ويضطهدوه ويعذبوه ؟ ولكن ما بالهم يعاهدون محمداً والمسلمين ؟ أما إذا كانوا قد وادعوا محمداً وعاهدوه وعاهدوا المسلمين ، فإن ذلك لم يكن مرده لشيء على أية حال ، إلا لغرض فى أنفسهم — مهلة يتدبرون فيها أمرهم ويعدون فيها كيدهم . فها هم أشراف المدينة وسادتها يبايعونه ويمشون فى ركابه ، ويعاهدونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فكيف بهم وقد فجأتهم الأحداث أن ينقلبوا بين ليلة وضحاها على الأوس والخزرج وكانوا حلفاءهم ؟ وهل من مصلحة اليهود أن يشهروا السلاح منذ اللحظة الأولى فى وجه الأوس والخزرج مع ما يعلمون من شدتهم وبأسهم ؟ إذن فليهادنوا المسلمين وليظهروا لمحمد صداقتهم ، وليدخل بعضهم الإسلام نفاقاً وليكونوا جواسيس وخونة ، ولينتظروا الفرصة السانحة للانقضاض على المسلمين بأسيافهم . ولكن حتى تأتى هذه الفرصة ، فحرب الفتنة والجدل والتشكيك يشنونها حامية الوطيس على الإسلام وعلى نبى الإسلام .

مرّ شاس بن قيس ، وهو شيخ يهودى عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ، على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه . فغاظه ما رأى من ألفتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَة بهذه البلاد ، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار ! ثم إنه أمر فتى من شباب اليهود كان معهم أن يعمد إليهم فيجلس معهم ، ويذكرهم بيوم بُعاث وما كان قبله من حروب بينهم ، ففعل وأنشدهم بعد الأشعار التى قالوها . عندئذ تنازع القوم وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الأوس والخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئتم عدنا إلى ما كنا عليه . وعلت صيحة الحرب بينهم ، وهموا بالقتال لولا أن بلغت مسامع محمد هذه الفتنة ، فأسرع إليهم ، فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ؛ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟ » . وأطفأ صوت محمد تلك الفتنة ، وبكى الرجال وعانق بعضهم بعضاً . وهو يتلو من آيات الله سورة « آل عمران » :

« قل يا أهل الكتاب لمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوَجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » إلى آخر الآيات .

ودخل أبو بكر يوماً المِدْراس ، وهو بيت تُدرس فيه التوراة ، وتجادل مع حبر من أحبار اليهود اسمه فِنْحَاص ، فأشار هذا إلى ما جاء القرآن : « وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم » قال : والله يا أبا بكر ، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ! ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه . ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربّا ! .

لم يتمالك أبو بكر على وداعته ولين عريكته . فقام إلى فنحاص وضرب وجهه ضرباً شديداً وصاح به : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك يا عدوّ الله . ولم يلبث فنحاص أن أدرك أنه تهجم على القرآن هذا التهجم القبيح ، فأسرع إلى محمد ينكر وينفى أنه قال شيئاً مما يقول أبو بكر . فنزل قوله تعالى : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق »(١) .

ولم يقتصر اليهود على إثارة الفتن بين المسلمين كما رأينا ، ولا على التهجم على القرآن ومجادلة كبار المسلمين هذا الجدال القبيح . وإنما عمدوا إلى محمد ذاته يحاولون إحراجه . ويلحون عليه بالأسئلة .

فهذا يسأله : أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبياً كما تقول ؟

فيجيب محمد من كلمات الوحى : « يسألونك عن الساعة أيان مُرْساها قل إنما عِلْمُها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفىّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٢) » .

وذاك يقول : يا محمد ، أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

فيرد عليه : أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

ويسأله سائل منهم : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

فيتلو عليهم : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد(٣) »

---

(١) آل عمران ١٨١
(٢) الأعراف ١٨٧
(٣) الإخلاص ١ – ٤

وبعضى آخر فى إلحاحه : صف لنا يا محمد كيف خلقه ؟ كيف ذراعه وكيف عضده ؟

ثم إن اليهود لم يكتفوا بمثل هذه المواجهة الصريحة ، وإنما عمد جماعة منهم إلى إظهار الإسلام ، واندسوا فى صفوف المسلمين مع جماعة المنافقين يشيعون جميعهم فيها قالة السوء ويشككون المسلمين فى دينهم وفى نبيهم . فهذا زيد بن الصُّلَيت يقول حين ضلت ناقة محمد : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ! وكثر المنافقون فى صفوف المسلمين حتى لقد بلغت بهم الجرأة أن كانوا يحضرون الصلاة فى المسجد ويسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بهم وبدينهم . وذات يوم اجتمع أناس منهم بالمسجد فرآهم محمد وهم يتحدثون فيما بينهم فى شيء من الهمس، وقد لصق بعضهم إلى بعض ، فأمر بهم أن يخرجوا من المسجد ، فقام المسلمون إليهم وأخرجوهم إخراجاً عنيفاً . فقام أبو أيوب إلى عمرو بن قيس وكان صاحب آلهتهم فى الجاهلية ، فسحبه من رجله حتى أخرجه وهو يقول : أتخرجنى يا أبا أيوب من مِرْبَد (جرن تمر) بنى ثعلبة . واستدار بعد ذلك إلى رافع بن وديعة وأمسك بتلابيبه وهزه هزاً عنيفاً ، ولطم وجهه وأخرجه من المسجد وهو يقول : أفٍّ لك منافقاً خبيثاً !

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو ، وكان طويل اللحية ، فأخذ بلحيته وجذبه منها جذباً عنيفاً حتى أخرجه من المسجد ، ثم ضربه ببطن كفه ضربة شديدة على صدره فخر منها وهو يقول : خدشتنى يا عمارة . وعمارة يقول : أبعدك الله يا منافق ، فما أعد الله لك من العذاب أشد من من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله .

وقام أبو محمد مسعود بن أوس إلى قيس بن عمرو ، وكان شاباً وليس فى المنافقين شاب غيره ، وأخذ يدفع فى قفاه حتى أخرجه .

وقام رجل من بنى خُدْرة إلى رجل يقال له الحارث بن عمر ، وكان

ذا شعر طويل متدل فأخذ به وسحبه سحباً عنيفاً على الأرض حتى أخرجه والمنافق يقول : قد أغلظت يا أبا الحارث ، فيقول له : إنك أهل لذلك ، أى عدو الله لما أنزل فيك فلا تقربن مسجد رسول الله .

وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَى بن الحارث فأخرجه خراجاً عنيفاً وقال : غلب عليك الشيطان وأمره .

وقد نزلت فى هؤلاء آيات من سورة البقرة ومن سورة التوبة .

الفصل الخامس

القتال ومشروعيته

لم تمض عدة أشهر على استقرار المسلمين فى يثرب حتى بدأ محمد فى توجيه سرايا متتالية للاستطلاع والإغارة على قريش . فلماذا تبدلت عندئذ المفاهيم التى نادى بها الإسلام فى مكة من مفاهيم سلام تام إلى مفاهيم تدعو إلى القتال ؟ ثم ما هى مشروعية هذه الحروب التى شنها الإسلام ؟

رأينا فيما سبق كيف أن العرب فى ذلك الوقت كانوا يتمتعون بقسط كبير من حرية الفكر ، الأمر الذى هيأ لأديان كثيرة ولعبادات مختلفة أن تعيش فى جزيرة العرب جنباً إلى جنب من غير أن يحدث صدام مسلح بين تابعيها . فقد عرفت جزيرة العرب إبان ظهور الإسلام الموحدين ، واليهود ، والنصارى ، وعبدة الأصنام ، وعبدة الشمس ، وعبدة القمر ، وعبدة الجن ، وعبدة النار ، وعبدة الكواكب ، والدهريين ، والصابئة ، والزنادقة ، والثنويين ، وكانت كل طائفة من هذه الطوائف حرة فى الدعوة لما تؤمن بأنه الحق . فكان رهبان النصارى أو أحبار اليهود أو الموحدون من العرب مثل قُس بن ساعدة أو غيره يغشون منتديات العرب ويطوفون بالأسواق ، كل منهم يدعو إلى ما يؤمن به من غير أن يتعرض من خصومه فى الدين إلا للمجادلة بالتى هى أحسن .

وهنا فى هذا الجو المثالى من حرية الفكر ظهر الإسلام . وبدأ محمد يدعو لدينه ويبشر برسالته .

دعاهم محمد إلى الحنيفية . دين أبيهم إبراهيم الذى تلقوه عن ولده إسماعيل أبى العرب ، وهو الدين الحق الذى كان يؤمن به آباؤهم وأجدادهم

فى سالف الزمن ، والذى دخلت عليه البدع والضلالات ، تلك البدع والضلالات التى أرسل الله رسوله محمداً ليطهره منها ، وليعيد الدين الحق إلى صفائه الأول . وقد رأينا فيما سبق عند الحديث عن أديان العرب فى الجاهلية ، كيف ذكرهم الإسلام مراراً وتكراراً بأنهم إنما يؤمنون بالله ، وأنهم يعرفون أنه يحيى ويميت ، وأن بيده الأمر ، وأنه سميع بصير مجيب ، إلى آخر مايتصف به جل شأنه . ولم يكن شيء من هذا غريباً على أسماعهم ولا مستهجناً ولا مستنكراً .

ثم إن الإسلام لم يشذ عن القواعد العامة التى كانت تحكم حرية الفكر فى بلاد العرب . فقد جاءت كل تصرفات محمد وكل أوامر الله فى آيات القرآن طوال العهد المكى تدعيماً لهذه الحرية الفكرية وإطلاقاً لها ، وانحصرت الدعوة فى هذا الإطار السلمى التام الذى بشرت به آيات القرآن الكريم كقوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر »[١] ، وقوله : « لكم دينكم ولى دين »[٢] . وقوله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[٣] . وقوله : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ »[٤] . وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[٥] .

ولكن مهما يكن من أمر الدعوة السلمية فى ذلك الوقت فى مكة وما انطوت عليه من أوامر ربانية ، دليلها ما جاء فى القرآن كما رأينا ، فإن روح الإسلام ذاته كانت واضحة جداً فى الإفصاح عن المتجه الذى لا بد أن يتجه إليه المسلمون إذا ما تمكن لهم الأمر . وهو هدم أصنام الكعبة لا مراء فى ذلك ، الأمر الذى لابد أن تعارضه قريش بطبيعة الحال معارضة صارمة .

---

(١) الغاشية ٢١ — ٢٢ .
(٢) الكافرون ٦ .
(٣) الكهف ٢٩ .
(٤) الشورى ٤٨ .
(٥) يونس ٩٩ .

ثم إن الحقيقة الماثلة التى نستطيع استجماعها من الأوضاع التى سادت فى مكة قبل ظهور الدعوة إلى الإسلام وفى إبانها ، تشـــير إلى أن موقف سادات قريش من دعوة محمد كان ذا شقين . الشق الأول دافعه الحسد والتنافس بين بنى هاشم وبنى أمية ، والشق الثانى وهو دعوى الدفاع عن دين الآباء والأجداد الذى هاجمه محمد . والحق أنه مهما يكن من أمر سُخْف فكرة دينية كسخف عبادة الأوثان ، فانه ليس من السهل قطعاً على الإنسان أن ينسى التقاليد التى نشأ عليها ونشأه فيها آباؤه وأرضعوه إياها منذ طفولته وصباه ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفسيته وقطعة من وجدانه لا يسهل نزعها عنه . وقد يكون فى قوله تعالى : « ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل »[1] تبيان لحقيقة المتجهات النفسية للإنسان إذا ما سيطرت عليها أفكار معينة ، يكون من شأنها أن تنأى به عن سواء السبيل .

ونحن إذا قلبنا أوجه النظر فى فكرة الإسلام الأساسية وهى أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الدين الإسلامى لا يكمل ولا يستقر له حال إلا إذا أقيمت شعائره فى البيت العتيق ، أول بيت أقيم لعبادة الله فى الأرض وأطهر بيت وأقدس بيت عند المسلمين ، إذن لاستطعنا أن نفهم تماماً كيف كان محمد والمسلمون ينظرون عندئذ إلى حقائق الأوضاع فى جزيرة العرب ، وكيف أنهم آمنوا إيماناً لا يتطرق إليه الشك بأنه من واجبهم المقدس أن يبذلوا المال والدم والعرق فى سبيل نصرة هذا الحق ، وفى سبيل إنقاذ بيت الله الحرام من أيدى المشركين إن استطاعوا ، أولئك الذين أدخلوا عليه هذه البدع وهذه الضلالات التى ينهاهم عنها ربهم ، وارتدوا من عبدة الله الموحدين إلى هذا الشرك القبيح .

---

(١) الأنعام ١٠٧ .

ونشأ النزاع كما رأينا فيما سبق واتسعت دائرته ، وتمسك محمد برسالته دائماً وفى كل الظروف ، وعندما كان رجلا فرداً ليس من حوله غير عدد قليل من الذين آمنوا به وبرسالته لا يغنون عنه شيئاً ، وأصر إصراراً على أنه لن يكف عن قريش حتى تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإن فى قولته : « يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك فيه ما تركته » لأبلغ بيان عن إيمانه وعن إرادته وعن نورانيته . ثم إنه كان فى هذا كله إنما يصدع بأمر ربه ، وبالفكرة التى سيطرت على جميع مناحى تفكيره . ومما لا شك فيه أنها كانت فكرة أرقى كثيراً من جميع الأفكار الشائعة فى عصره .

عارضته قريش أشد معارضة ، ولقد رأينا فيما سبق مراحل الصراع الذى نشأ بينه وبينهم فى مكة ، وكيف انتهى هذا الصراع باضطرار المسلمين إلى الهجرة من مكة ، وتآمر سادة قريش على قتله . فلما تطور النزاع إلى هذا الحد ، وأصرت قريش على مقاتلة المسلمين دون الكعبة ، وأجلتهم أخيراً عن ديارهم نزلت الآيات الكريمة :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »(١) .

ثم نزل قوله تعالى فى قتال قريش فى سورة البقرة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين(٢) . » .

---

(١) الحج ٣٩ — ٤٠ .

(٢) البقرة ١٩٠ — ١٩٣ .

فلما تمالأ على المسلمين بعض قبائل العرب من غير قريش ، واتحدوا مع قريش فى القتال ضد المسلمين ، أصبح قتال المشركين كافة أمراً لا مناص منه ، فنزلت الآية من سورة التوبة .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »[1] .

وحتى ذلك الوقت لم يكن قتال بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكن أثبتت الأحداث أيضاً أن اليهود قوم لا يحافظون على عهودهم ، إذ أنهم نقضوا العهود التى عاهدوا عليها المسلمين ، وانحازوا إلى المشركين فى الكيد للإسلام ، فنزل الأمر بقتالهم فى الآية الكريمة من سورة الأنفال :

« وإمّا تخافَنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »[2] .

ولما تمالأ النصارى أيضاً على المسلمين نزلت الآية الكريمة من سورة التوبة :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[3] .

ونزلت آيات كثيرة فى حض المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله وعلى القتال لجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الكفار هى السفلى :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون »[4] .

« تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله »[5] .

« يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »[6] .

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله »[7] .

---

(١) التوبة ٣٦ . (٢) الأنفال ٥٨ . (٣) التوبة ٢٩ .
(٤) الحجرات ١٥ . (٥) الصف ١١ . (٦) التوبة ٧٣ .
(٧) التوبة ٤١ .

« وجاهدوا فى الله حق جهاده »[١] .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وَعَدَ الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً»[٢] .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن»[٣] .

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »[٤] .

« يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »[٥] .

يبين جلياً مما سبق أن القتال لم يشرع فى الإسلام للعدوان على أحد ، فليس فى الإسلام حرب عدوانية بأية صورة من الصور ، فإن الله ينهى عن العدوان : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[٦] . ولم يحدث أن قاتل محمد أحداً على الدخول فى الدين غير مشركى جزيرة العرب بعد أن تأزمت الأمور ، وتألبوا على الإسلام ، وأصبح تجمعهم خطراً يهدد بقاء الدين ذاته . عندئذ أصبح الجهاد ضدهم عاماً « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة»[٧] . واتخذ منهم الرسول موقفاً صارماً يعبر عنه ما أثر عنه : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

---

(١) الحج ٧٨ . (٢) النساء ٩٥ . (٣) التوبة ١١١ .
(٤) النساء ٧٤ . (٥) الأنفال ١٥ — ١٦ .
(٦) البقرة ١٩٠ . (٧) التوبة ٣٦ .

أما اليهود والنصارى فإنهم أيضاً قلبوا ظهر المجن للمسلمين ، فأمر الله بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، مع تأمينهم على دينهم . وإذن تدرجت مشروعية القتال فى الإسلام حسب الظروف الخاصة التى واجهها الإسلام، من حرب قريش، إلى حرب المشركين كافة، إلى حرب أهل الكتاب من اليهود والنصارى . ولم يشذ الإسلام عن الخطة التى انتهجها ثلاثة عشر عاماً طوالا فى مكة، من الدعوة إلى الدين بالتى هى أحسن، والإيمان بحرية الفكر للجميع إلا لضرورات حتمتها ظروف أحاطت به كان من شأنها لو تهاون المسلمون أن تقتلع جذور الإسلام اقتلاعاً . ثم إن الإسلام ظل بعد أن انقضى هـذا الظرف الطارئ وظلت روحه دائماً تنادى بأن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وعاش الإسلام بعد أن خرج من هذه المحن التى تهددته فى أوائل عهده ، دين الفطرة ودين الحرية لا مرية فى ذلك . فليس فى الإسلام كنيسة ولا رهبنة ولا قديسون ولا رجال دين ، وليس فيه تدخل من أى كان ولا من محمـد ذاته بين الإنسان وربه . فالإنسان فى الإسلام حر كامل الحرية ، وهو تحت بصر الله وسمعه وحده منذ مولده حتى وفاته . والله وحده هو القادر على الحكم عليه وعلى أعماله ، وهو الذى يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، والذين أحسنوا بالحسنى .

الفصل السادس

بدء القتال

بعد أن استقر المهاجرون فى المدينة وبعد أن توطدت أوضاع المسلمين عامة واستتب لهم الأمر وأمنوا على أنفسهم ونزلت الآية الكريمة : «أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله»[1] ، عندئذ بدأ محمد فى توجيه السرايا وفى الخروج بنفسه على رأس المقاتلين ، وقد سميت الفرق المقاتلة التى خرجت بدون محمد سرايا ، وسميت تلك التى خرج بنفسه على رأسها غزوات . ولقد بدأت هذه السرايا والغزوات التصدى للمشركين بعد ستة أشهر فقط من مقام المهاجرين بالمدينة . ثم توالت ضد العرب كافة ، ثم ضد اليهود والنصارى حسب المبادئ التى بيناها فى الفصل السابق .

غير أن كتاب السيرة لا يتفقون فى واقع الأمر على عدد هذه السرايا والغزوات . فيقال إن عدد الغزوات ست عشرة أو سبع عشرة أو ثمان عشرة أو تسع عشرة . ويقال إن الرسول حارب فى ثمان أو تسع منهن هى بدر الكبرى ، وأحد ، والأحزاب ، وقُرَيظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف . وقيل أيضاً إنه قاتل فى غزوة بنى النضير وفى الغابة . أما السرايا فقد قيل إنها كانت أربعاً وعشرين أو ستين أو نيفا وسبعين .

بدأت الحرب بإرسال سرايا للاستطلاع وجس النبض ، أو الإغارة إن أمكن ، أو لاعتراض قوافل قريش فى ذهابها للشام وفى إيابها منه . ولا يهم أن عدد الذين كانوا يخرجون فى هذه السرايا الأولى كان قليلا ، ذلك أن العرب كانوا يغيرون بأعداد قليلة فى بعض الأحيان ، بل إن منهم

---

(١) الحج ٣٩ – ٤٠ .

من كان يغير فرداً واحداً . ثم إن هذه السرايا الأولى التى لم يخرج فيها أحد من الأنصار ولم يستكره فيها أحد على الخروج ، ربما تحمل معنى هاماً هو ترويض الأنصار على فكرة الحرب ، وعلى أن بيعة العقبة الثانية التى عاهدوا محمداً بمقتضاها على حرب الأحمر والأسـود من الناس دفاعاً عنه ، قد تنقلب الآن هجوماً على أهل مكة لانتزاع الكعبة بيتهم المحجوج منهم ، وهى موضع ركن من أركان الدين لا ينبغى أن يظل فى أيدى المشركين يدنسونه بأصنامهم ، وإن كان الحج لم يفرض بعد .

أرسل محمد فى شهر رمضان من السـنة الأولى الهجرة عمه حمزة بن عبد المطاب فى ثلاثين رجلا وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد الغنوى ، ليعترض قافلة من قوافل قريش التجارية وهى راجعـة من الشام ، كان فيها أبو جهل وثلاثمائة من المشركين . فلقيه حمزة عند ساحل البحر ، غير أن مجدى بن عمرو الجهنى حجز بين الفريقين فأطاعوه وانصرفوا بغير قتال .

وفى شوال من نفس السنة عقد النبى لعُبيدة بن الحارث لواء أبيض حمله مِسْطَح بن أُثاثة ، على رأس ستين أو ثمانين من المهاجرين أيضاً ليس فيهم أنصارى واحد ، وأمره بالمسير ليعترض قافلة لقريش . فالتقى الجمعان عند بطن رابغ وهو واد بين مكة والمدينة قرب البحر . وكان فى قافلة قريش مائتا رجل على رأسهم أبو سفيان صخر بن حرب ، أو عكرمة بن أبى جهل ، أو مكرز بن حفص ، غير أنه لم يقع بينهم غير الرمى بالنبل دون المسايفة . رمى سعد بن أبى وقاص سهماً ، فكان أول سهم رمى به فى سبيل الله فى الإسلام . وارتد المشركون فارين بتجارتهم خشية أن تكون هذه السرية طليعة لعدد أكبر من المسلمين ، ولم يتبعهم المسلمون بطبيعة الحال لقلة عددهم . وفر من صفوف المشركين إلى المسلمين المقداد بن الأسود وعُتْبة بن غزوان وكانا قد أسلما من قبل وخرجا فى القافلة ليصلا إلى المسـلمين .

وفى نفس هذه السنة أيضاً عقد محمد لسعد بن أبى وقاص لواء أبيض حمله المقداد بن الأسود ، على رأس عشرين رجلا أو أحد وعشرين رجلا من المهاجرين للتصدى لقافلة أخرى من قوافل قريش ، وأمره ألا يجاوز الخرار ، فلما بلغ ذلك الموضع كانت القافلة قد سبقته بيوم فلم يتبعها .

وفى أوائل السنة الثانيـــة فى شهر صفر خرج محمد ليعترض قافلة لقريش واستعمل على المدينة سعد بن عُبادة . وكان لواؤه فى هذه الغزوة مع عمه حمزة وكان أبيض . سار حتى بلغ وَدّان ، وهى غزوة الأبواء ، وتسمى غزوة وَدّان أيضاً . وهذه أول غزوة غزاها ، غير أنه لم يلق حرباً لأن القافلة كانت قد سبقته . وفى هذه الغزوة صالح بنى ضَمْرَة على أنهم آمنون على أنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم ، وأن عليهم نصرة المسلمين إذا دعوا إلى ذلك . وكان الذى وادعه منهم مَخْشِى بن عمرو الضَّمْرِى ، وكان سيدهم آنذاك . ورجع المسلمون إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة .

وبعد عودته إلى المدينة بقليل بلغه أن قافلة فيها أمية بن خلف ومعه مائة رجل وألفان وخمسمائة بعير آيبة من الشام ، فخرج إليها فى شهر ربيع الأول من السنة الثانية فى مائتى راكب من المهاجرين يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد ابن معاذ . وسار حتى بلغ بُوَاط وهى جبال جُهَيْنة من ناحية رضوى ، غير أن القافلة كانت قد سبقته ، فرجع إلى المدينة بعد أن لبث ببواط بقية شهر ربيع الأول وبعض جمادى الأولى .

ولم يمض غير قليل حتى بلغه أن قريشاً قد أخرجت أعظم قوافلها ، وهى قافلة جمعت قريش فيها كل أموالها ، وكان يرأسها أبو سفيان صخر بن حرب ومعه بضـــعة وعشرون رجلا . فخرج لها محمد فى جمادى الأولى فى مائة وخمسين من المهاجرين يحمل لواءه عمه حمزة ، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد . فلما بلغ موضعاً يقال له العُشَيْرَة من بطن ينبع

كانت القافلة قد سبقته ومرت قبل ذلك بأيام ، وفى هذه الغزوة حالف بنى مُدْلِج وحلفاءهم . ثم رجع انتظاراً لعودة هذه القافلة من الشام ، وهى القافلة التى خرج للقائها فكانت غزوة بدر العظمى .

وبعد رجوعه إلى المدينة بعدة أيام لم تبلغ العشر أغار كُرْز بن جابر الفهرى على أنعام المدينة وهى ترعى فى مراعيها وهرب . فخرج إليه محمد وحمل لواءه على بن أبى طالب ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة . وسار يجد فى أثره حتى بلغ سَفَوَان وهو واد من ناحية بدر ، ولكن فاته كُرْز فلم يلق حرباً . وتسمى هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى .

وفى رجب من هذه السنة أيضاً أرسل عليه السلام سرية من ثمانية من المهاجرين يرأسها عبد الله بن جَحْش بن رِئاب الأسَدِىّ . وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ويمضى لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار بهم يومين فتح كتاب محمد فإذا فيه « إذا نظرت فى كتابى فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » . فلما نظر فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بما جاء فيه وقال : قد نهانى رسول الله أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فاض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يتخلف من أصحابه أحد ومضوا جميعاً إلى وجهتهم . غير أن سعد بن أبى وقاص وعُتْبة بن غزوان أضلا فى بعض الطريق بعيراً لهما كانا يتناوبان ركوبه فتخلفا فى طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزلوا نخلة .

وفى تلك الأثناء مرت بهم قافلة لقريش فيها عمرو بن الحضرمى ؛ وعثمان ابن عبد الله بن المغيرة المخزومى ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة . فتشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فى أمرهم ، وكان ذلك فى آخر يوم من رجب فقالوا : والله لئن تركناهم هذه الليلة لتمكنوا من

دخول الحرم وامتنعوا به منكم ، ولئن قتلناهم كان قتلنا لهم فى الشهر الحرام .
ثم إن القوم هابوا الإقدام على هذا العمل ، غير أنهم تشجعوا أخيراً وأجمعوا على قتل من يقدرون على قتله منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستسلم عثمان بن عبد الله والحكم ابن كيسان للأسر ، وأفلت نوفل بن عبد الله فلم يدركوه ، فكان ابن الحضرمى أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين . وكانت الغنيمة التى غنموها أول غنيمة غنمها المسلمون ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسره المسلمون . وكانت الغنيمة فى ذلك الوقت كلها لمن غنمها ، غير أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه : إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما غنمنا الخمس ، وعزله وقسم الباقى بين أصحابه ، وذلك قبل أن ينزل الخمس ، فنزل كما قسمه عبد الله بن جحش .

فلما قدم عبد الله وأصحابه على محمد قال : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » . وأوقف الغنيمة والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلما قال ذلك محمد أسقط فى يد القوم ، وظنوا أنهم هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وعابتهم قريش وقالت إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال . وانتهز اليهود هذه الفرصة لبث فتنتهم وأخذوا يفائلون بذلك على الرسول ويقولون : عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله . عمرو : عمرت الحرب . والحضرمى : حضرت الحرب . وواقد : وقدت الحرب .
وأكثر الناس فى ذلك فأنزل الله تعالى قوله ليقطع به ألسنة السوء وليهدى به نبيه والمسلمين ، قال : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »[١] .

---
(١) البقرة ٢١٧

فلما نزل القرآن بهذا التصريح وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف ، قبض محمد الغنيمة والأسيرين . ولما بعثت قريش فى فدائهما رفض محمد أن يقبل الفداء حتى يقدم سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان وقال : « إنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم » . فلما قدم سعد وعتبة أفداهما محمد . وأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند محمد حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة ومات بها كافراً .

ولما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا : يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزاة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله فيهم : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم »(١) .

وبعد غزوة عبد الله بن جحش هذه ، أى بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً مضت على المسلمين فى المدينة ، وكان محمد يستقبل حتى ذلك الحين بيت المقدس فى صلاته ، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقلب وجهه فى السماء داعياً ربه أن يجيبه إلى رغبته نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره(٢) » .

فلما نزل تحويل القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى ذلك وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فأجابهم الله على تساؤلهم بقوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »(٣) .

وفى هذه السنة أيضاً ، أى فى أواخر السنة الثانية فرض الصيام بنزول قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين

---

(١) البقرة ٢١٨ (٢) البقرة ١٤٤ (٣) البقرة ١٤٢

من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فِدْيَةٌ طعام مسكين فمن تطوّع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر»(١) .

وفى تلك الأثناء أيضاً أمر محمد الناس بزكاة الفطر ، وقد قيل إنه صلى بالناس قبل عيد الفطر بيوم أو يومين وخطب فيهم وأمرهم بهذه الزكاة . كذلك فرضت زكاة المال ، وهى التى تفرض للفقراء والمساكين على الأغنياء . فاذا بلغت الدنانير عند المسلم عشرين أو الدراهم مائتين ، ومضى عليها عام كامل ، وجب عليه أن يؤدى عنها ربع عشرها أى اثنين ونصفاً فى المئة ، وإذا بلغت الأغنام أربعين والبقر ثلاثين والإبل خمساً ، ومضى عليها العام وجب عليه كذلك أن يؤدى منها جزءاً معلوماً . ومثل ذلك مواد التجارة والمحاصيل الزراعية . ويقبض الإمام هذه المبالغ ويوزعها على مستحقيها من الفقراء والمساكين وبقية المذكورين فى آية الصدقة : «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم»(٢) .

---

(١) البقرة ١٨٣ — ١٨٥ (٢) التوبة ٦٠

الفصل السابع

غزوة بدر العظمى

يوم الفُرْقان يوم التقى الجمعان

كانت قافلة قريش التي عمدْ محمد إلى اعتراضها فى غزوة العُشَيْرَة وهى ذاهبة إلى الشام من أعظم القوافل التى كانت تبعث بها قريش فى تجارتها ، ولقد كان فيها ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها ، ذلك أنهم جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق منهم رجل أو امرأة يملك شيئاً إلا استغله فيها غير حُوَيطب بن عبد العُزَّى فقط ، ولهذا تخلف عن بدر . ولقد قدرت الأموال التى استغلتها قريش فى هذه القافلة بحوالى خمسين ألفاً من الدنانير .

أفلتت هذه القافلة من المسلمين فى رحلة الذهاب ، فظل محمد يتسقط أخبارها فى العودة حتى علم برجوعها وعلى رأسها أبو سفيان صخر بن حرب ، ومعه ثلاثون أو أربعون رجلا منهم عمرو بن العاص ، ومَخْرَمَة بن نوفل . وعندئذ جمع المسلمين وأخبرهم بعودة القافلة وفيها أموال قريش وطلب منهم الخروج إليها لعل الله يغنمهم إياها . ولما كان يتعجل الخروج إليها خشية أن تفلت منه كما فلتت فى ذهابها ، طلب من المسلمين أن يركب معه من كانت دابته حاضرة . ولذلك تخلف عن الخروج معه قوم من المسلمين ظناً منهم أنه لم يرد حرباً ، ولم يتوقعوا معركة كمعركة بدر .

خرج محمد على رأس حوالى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، منهم مئتان ونيف وأربعون من الأنصار والباقون من المهاجرين ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم للصلاة بالناس .

أما أبو سفيان فإنه حين دنا من الحجاز ، وكان يتوقع اعتراض محمد وأصحابه لقافلته ، أخذ يتحسس الأخبار ممن كان يلقى من المسافرين تخوفاً على

أموال الناس ، حتى علم من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لملاقاته . وعند ذلك استأجر ضمضم بن عمرو الغِفارى ، وبعثه إلى مكة على عجل ليخبر قريشاً الخبر ويستنفر أهلها إلى أموالهم ، فأسرع ضمضم إلى مكة حتى إذا ما بلغها أخذ يصرخ وهو واقف على بعيره ويقول : يا معشر قريش التجارة التجارة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها ، الغَوْث الغوث !

أسرع الناس وتجهزوا للخروج وهم يقولون : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كقافلة ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك . ولم يتخلف أحد فى الخروج ، فإما أن يخرج الرجل بنفسه أو يبعث مكانه رجلا ، ولم يتخلف من أشراف قريش أحد إلا أبو لهب بن عبد المطلب إذ بعث مكانه العاصى بن هشام بن المغيرة ، استأجره بأربعة آلاف درهم كانت له عليه قد أفلس بها . وأراد أمية بن خلف أن يتخلف وكان شيخاً جليلا جسيماً ثقيلا فأتاه عقبة بن أبى مُعَيْط ، وهو جالس فى المسجد الحرام بين ظهرانى قومه بمجمرة يحملها فيها نار ومِجْمَر ووضعها بين يديه ثم قال : يا أبا صفوان استجمر فإنما أنت من النساء ! فقال له أمية : قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به . ثم قام وتجهز وخرج مع الناس . وروى البخارى قصة أخرى فى تقاعس أمية عن الخروج مع القوم ثم خروجه ، قال :

كان سعد بن معاذ الأنصارى صديقاً لأمية بن خلف ، وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد بن معاذ ، وكان سعد إذا مرَّ بمكة نزل على أمية . ثم إنه حدث أن سعداً انطلق بعد هجرة محمد إلى المدينة قاصداً مكة للعمرة فنزل كعادته على أمية بن خلف ، وقال سعد لأمية : تحين لى ساعة خَلْوَة حتى أطوف بالبيت ، فخرج به فى حوالى منتصف النهار ، فلقيهما أبو جهل فقال لأمية : يا أبا صفوان من هذا معك ؟ قال : هذا سعد . قال أبو جهل لسعد : ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصباة وزعمتم

أنكم تنصرونهم وتعينونهم ، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً .

فقال له سعد ، وقد رفع صوته عليه : أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه : طريقك إلى المدينة .

فقال له أمية : لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم ، فإنه سيد أهل الوادي . فقال سعد : دعنا عنك يا أمية . فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنهم قاتلوك . قال أمية : بمكة ؟ قال سعد : لا أدري . ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً . فلما رجع إلى أهله قال : يا أم صفوان ألم ترى ما قال لي سعد ؟ قالت : وما قال لك ؟ قال : زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي ، فقلت له : بمكة ؟ قال : لا أدري . ثم إن أمية عزم على ألا يخرج من مكة .

فلما كان يوم بدر واستنفر أبو جهل الناس وكره أمية أن يخرج ، أتاه أبو جهل فقال : يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخلفت ، وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك . ولم يزل به أبو جهل حتى قال : أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة . ثم قال أمية لزوجه : يا أم صفوان جهزيني . فقالت له : يا أبا صفوان ، أقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ والله إن محمداً لا يكذب . قال : لا ، وما أريد أن أسير معهم إلا قريباً . وكان إذا نزل منزلا يعقل بعيره حتى لا يبتعد عنه ، ولم يزل كذلك حتى قتل يوم بدر .

والحق أن في هذه القصة دليلا وأي دليل على ما كان لمحمد في نفوس الناس أجمعين ، مسلمين وكفاراً ، من تأثير قوي جداً . ومما لا شك فيه أن كثيراً من انتصارات محمد الرائعة التي حققها كانت راجعة في كثير من الأحيان وبصورة كبيرة إلى أسباب ومؤثرات نفسية . حقاً إن العربي لم يكن يخشى الحرب ولا الموت في ميدان القتال ، ولكن إذا ما سيطرت على

عقله فكرة أنه مقتول لا محالة هاب الموت ولا شك . ولا غرابة فى أن يخشى الناس ما يتنبأ به رجل تكلمه السماء ، ما عهدوه يكذب قط ، وإن شكوا فى أن السماء تكلمه .

خرجت قريش فى تسعمائة وخمسين مقاتلا ومعهم مائتا فرس وسبعمائة بعير ، يتبعهم القيان يضربن بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين ، وكان أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل ، نحر لهم عشراً ، ثم نحر لهم أمية بن خلف عند ما بلغوا عسفان تسعاً ، ونحر لهم سُهيل بن عمرو بقديد عشراً ، ثم اتجهوا نحو البحر وأقاموا يوماً فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً ، ولما بلغوا الجَحْفَة نحر لهم عتبة بن ربيعة عشراً ، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحجاج عشراً ، ثم نحر لهم العباس بن عبدالمطلب عشراً ، ونحر لهم أبو البخترى عشراً ، ثم أكلوا من أزوادهم .

أما محمد فكان خروجه فى شهر رمضان ، وكان حامل لوائه مُصْعَب ابن عُمير . وكان بين يديه رايتان سوداوان ، إحداهما مع على بن أبى طالب يقال لها العُقاب ، والأخرى مع رجل من الأنصار هو سعد بن مُعاذ أو الحُبّاب بن المنذر . ولم يكن معهم غير فرسين أحدهما مع الزُّبير بن العوّام على الميمنة ، والآخر مع المقداد بن الأسود على الميسرة . وكانوا يتناوبون ركوب سبعين بعيراً ليس معهم غيرها ، كل ثلاث على بعير . وكان أبو لبابة وعلى بن أبى طالب زميلى محمد على بعير . فلما جاء دور محمد فى المشى قال له زميلاه : نحن نمشى عنك . فقال وما أجمل ما قال ، وما أروع ما أعطى من مثل أعلى يضرب للناس فى كل زمان ومكان : ما أنتما بأقوى منى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما .

سلك الجيش طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحُلَيْفة ، ثم على أولات الجيش ، ثم مرّ على تُرْبان ، ثم على مَلَل ، ثم على غميس الحمام ، ثم على صُخَيرات اليمامة ، ثم على

السيالة ، ثم على فج الروحاء (وهنا رد محمد أبا لبابة إلى المدينة واستخلفه عليها) ثم على شنوكة ، وهى الطريق المعتدلة . ولما بلغ عرق الظبية لقى رجلا من الأعراب ، فسأله عن قريش فلم يجد عنده خبراً . فقال الناس للرجل سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أوفيكم رسولُ الله ؟ قالوا : نعم . فسلم عليه ثم قال له : لئن كنت رسول الله فأخبرنى عما فى بطن ناقتى هذه . وعندئذ قال له سلمة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل علىّ فأنا أخبرك عن ذلك ، فإنك نزوت عليها فى بطنها منك سلخة — أى وثبت عليها فحملت منك جدياً هو الذى فى بطنها . فقال محمد : مه أفحشت على الرجل ، ثم أعرض عن سلمة .

ثم نزل على سجسج وهى بئر الروحاء ، ثم رحل عنها ، حتى إذا بلغ المنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدراً ، حتى إذا ما بلغ وادياً يقال له ذفران جاءته رسله بالخبر عن قريش وعن مسيرهم ليمنعوا قافلتهم . فاستشار الناس ، فقام أبو بكر الصديق فتحدث وأحسن ، وقام عمر بن الخطاب فتحدث وأحسن .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مكان بأقصى جنوبى جزيرة العرب) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فأثنى عليه محمد ودعا له .

ثم قال محمد لأصحابه : أشيروا علىّ أيها الناس . وإنما كان يريد بذلك الأنصار ، أولا لأنهم كانوا معظم جيشه الذى خرج به من المدينة ، وثانياً لأنهم حين بايعوه بالعقبة انحصرت بيعتهم فى قولهم : يا رسول الله إنا براء

من ذمتك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . لذلك تخوف محمد ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ما دام بين أظهرهم فى المدينة ؛ وأن ليس عليهم أن يقاتلوا معه خارج المدينة .

فلما قال ذلك وفهم الأنصار ما يرمى إليه ، قال رئيسهم سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجل . قال : فقد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُر فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقرّ به عينك ، فسرْ على بركة الله .

سُرّ محمد بمقالة سعد وانشرح لها صدره وأثنى على سعد ونشطه ، ثم قال : « سيروا وأبشروا ، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

ثم ارتحل من ذَفِران حتى نزل قريباً من بدر . وهناك انطلق محمد على بعيره ومعه أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه فعلم منه أن قريشاً بمقربة منه . ثم رجع إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، فى نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون له الخبر . وهناك أصابوا سقاة لقريش فيهم أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص ابن سعيد ، فأتوا بهما إلى معسكر المسلمين وأخذوا يستجوبونهما ، ومحمد يصلى ، فقالوا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . غير أن القوم رجوا أن يكونا لأبى سفيان وهما يكذبان ، فلما آذوهما قالا : نعم نحن لأبى سفيان ، فتركوهما .

فلما فرغ محمد من صلاته قال : «إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ! صدقا والله إنهما لقريش . ثم طلب منهما أن يخبراه عن قريش ، فقالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعُدْوَة القُصوى . فقال لهما محمد : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عِدّتهم ؟ قالا : لا ندرى . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال : القوم بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خُوَيلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطُعَيمة بن عَدِىّ بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسُهيل ابن عمرو ، وعمرو بن عبد وُدّ .

فلما سمع محمد بهؤلاء أقبل على أصحابه وقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

وكان بَسْبَس بن عمرو ، وعدى بن أبى الزَّغْباء قد تقدما حتى نزلا بدراً فأناخا بعيرهما إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا قربة صغيرة لهما بالية ليستقيا فيها ، وكان مَجْدِى بن عمرو الجُهَنى على الماء . فسمع بسبس وعدى جاريتين يتقاضيان بجوار الماء ، فقالت إحداهما لصاحبتها : إنما تأتى القافلة غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك . قال مجدى : صدقت ، ثم خلص بينهما . فلما سمع ذلك بسبس وعدى ركبا بعيرهما وانطلقا حتى أخبرا محمداً الخبر .

وكان أبو سفيان فى تلك الأثناء قد تقدم القافلة محاذراً يتحسس الأخبار خشية أن يقع فى أيدى المسلمين . فلما رأى مجديا سأله : هل أحسست أحداً ؟ قال : ما رأيت أحداً لا أعرفه ، إلا أنى قد رأيت راكبين قد

أناخا إلى هذا التل ثم استقيا فى قربة لهما ثم انصرفا . فأتى أبو سفيان حيث أناخا بعيرهما وأخذ من أبعاره ففته فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب . وأدرك أن المسلمين قريبون . فرجع إلى أصحابه سريعاً ، وغير طريق القافلة واتجه إلى الساحل وسار محاذياً له ، وترك بدراً ، وأسرع حتى أفلت . فلما رأى أنه نجا من براثن المسلمين وأن القافلة سلمت وأموال الناس فى أمان ، أرسل إلى قريش من قال لهم إن الله نجّى تجارتكم ورجالكم وأموالكم فأرجعوا .

فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدراً — وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزُر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف لنا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، فامضوا .

عندئذ انبرى له الأخنس بن شرّيق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زُهْرة وقال : يا بنى زهرة قد نجى الله لكم أموالكم ، وخلّص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جبنها وارجعوا ، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة ، لا ما يقول هذا . وكان فيهم مطاعاً فأطاعوه فرجعوا ، ولم يشهد زهرى واحد بدراً . وكانت بنو عدى قد امتنعت عن الخروج من قبل ، فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين القرشيتين أحد .

ثم إنه كان بين طالب بن أبى طالب وبين بعض قريش محاورة ، فقالوا : والله لقد عرفنا يا بنى هاشم ، وإن خرجتم معنا ، أن هواكم مع محمد . فعندئذ لم يتوان طالب عن الرجوع مع الراجعين إلى مكة ، وقال فى ذلك :

لاهُمَّ إمّا يَغْزُوَن طالب ... فى عُصْبَة مُحالف محارِب
فى مِقْنَب من هذه المقانب[1] ... فليكن المسلوب غير السالب
وليكن المغلوبُ غيرَ الغالب

---

(١) المقنب : الجماعة من الخيل عددها ثلاثمائة أو نحو ذلك .

ومضت قريش إلى غرضها حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى خلف كثيب العقنقل . أما المسلمون فإنهم نزلوا بأدنى ماء ببدر حسبما أشار محمد عليهم . وكان فيهم الحباب بن المنذر وكان عليماً بالمكان ، فلما رأى منازل المسلمين قال لمحمد : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال محمد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : فإن هذا ليس بمنزل يا رسول الله ، فامض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نردم ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

فقال محمد : لقد أشرت بالرأى . وانتقل بالناس حتى نزل حيث أشار الحباب وردموا ما وراءهم من الآبار ،وبنوا حوضاً على البئر الذى نزلوا عليه وملأوه وقذفوا فيه الآنية .

ولما انتهوا من بناء الحوض قال سعد بن معاذ : يا نبى الله ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعيد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

أثنى محمد على هـــذه المشورة ودعا لسعد بخير ، وقام المسلمون وبنوا عريشاً .

وفى صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة تقدمت قريش فأقبلت على المسلمين ، فلما رآهم محمد قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك

الذى وعدتنى ، اللهم أهلكهم هذا الصباح » . ونقّل نظره فيهم فرأى عتبة بن ربيعة على جمل له أحمر فقال : « إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يَرْشُدُوا » .

بعثت قريش عمير بن وهب الجُمَحى ليرى لهم كم عدد المسلمين . فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم وقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد . فضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم فقال : ما رأيت شيئاً ، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، جمالُ يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتَل رجلٌ منهم حتى يَقتُل رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ! ؟ فروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس حتى أتى عتبة بن ربيعة فقال له : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها المطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تُذْكر فيها بخير إلى آخر الدّهر ؟

قال عتبة : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمىّ . قال عتبة : قد فعلت ، أنت علىّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلى ديته وما أصيب من ماله . فأت ابن الحنظلية ، يعنى أبا جهل ، فإنى لا أخشى من أحد أن يفسد أمر الناس غيره .

ثم قام عتبة خطيباً فى الناس ، قال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه ، أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون .

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

وانطلق حكيم بن حزام حتى أتى أبا جهل فوجده قد أخرج درعاً وأخذ يصلحها فقال له : يا أبا الحكم إن عُتبة أرسلني إليك بكذا وكذا . فقال : جبن والله عتبة حين رأى محمداً وأصحابه ، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعُتبة ما قال ، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه ، فقد تخوّفكم عليه .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل هذا وأنه قال إنه جبن قال : سيعلم مُصَفِّرُ استه[1] من جبن أنا أم هو ! وقام يلتمس خوذة لرأسه ، فما وجد في الجيش خوذة تسعه من عظم رأسه ، فلما رأى ذلك لفّ على رأسه برداً له وتهيأ للقتال .

أما أبو جهل فبعث إلى عامر بن الحضرمى أخى عمرو فقال : هذا حليفك يريد أن يُرْجِعَ الناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فانشد عهدك ومقتل أخيك . فقام عامر ثم صرخ : واعمراه واعمراه ! وعندئذ حميت النفوس واستوثق الناس على ما هم عليه من الشر ، وأفسد أبو جهل على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة .

واصطف الجيشان للمعركة وكان محمد يعـدل صفوف أصحابه وفى يده سهم يعدلهم به ، فمر بسواد بن غَزِيَّة حليف بنى عدى بن النجار وهو متقدم عن الصف فضربه على بطنه بالسهم وقال : استو ياسواد . فقال سوّاد : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى ، أى فاعدل معى . فكشف محمد عن بطنه وقال : استقد . فاعتنقه سواد فقبّل بطنه ، فقال : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك . فدعا له بخير . وبعد أن عدّل محمد صفوف المسلمين رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره .

---

(١) أراد بقوله مصفر استه أى داهن استه بالطيب . قصد بذلك المبالغة بالذم لذكر استه ليسوءه .

ووقف على باب العريش سعد بن معاذ متقلداً بالسيف ومعه جماعة من الأنصار ، يحرسونه خوفاً عليه من أن يدهمه العدو من المشركين ، والجنائب النجائب مُهَيَّأة له إن احتاج إليها ركبها ورجع إلى المدينة كما أشار به سعد بن معاذ .

كان محمد يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ، ويقول فيما يدعو به : « اللهم أنجز ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعدُ فى الأرض أبداً ، اللهم نصرك » . وكان يرفع يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، وأبو بكر من ورائه يسوى عليه رداءه ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهال : يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك ، فانه سينجزُ لك ما وعدك . وعند ذاك نزل قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدُّكم بألف من الملائكة مُرْدِفين »[1] . أى بعضهم فى أثر بعض .

وتقارب الجمعان ولم يعد مفر من القتال . خرج من صفوف المشركين الأسودُ بن عبد الأسد المخزومى ، وكان رجلا شرساً سيئ الخلق ، فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه . فلما خرج وتقدم إلى الحوض خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره ، غير أنه حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض .

وعند ذلك حمى عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسطوا بين الصفين دعوا إلى البراز ، فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار : وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث وعبد الله بن رواحة ، فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . فقالوا : ما لنا بكم من حاجة ، ولكن أخرجوا إلينا من بنى عمنا ، ونادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا .

---

(١) الأنفال ٩

فقال محمد : « قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا على » .

فلما دنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ والظاهر أنهم كانوا ملبسين لا يُعْرَفون من السلاح . فقال حمزة : أنا أسد الله وأسد رسول الله ، أنا حمزة بن عبد المطلب . قالوا : كفء كريم . وقال على : أنا عبد الله وأخو رسول الله . وقال عبيدة : أنا الذى فى الحلفاء .

ولم يمهل حمزة شيبة فقتله ، ولم يمهل علىٌّ الوليد فقتله . وضرب عبيدة وعتبة كل منهما صاحبه ضربة سيف نفذت فيه ؛ فكرّ حمزة وعلى على عتبة فأجهزا عليه ، وحملا عبيدة إلى صفوف المسلمين . وأضجعوه إلى جانب محمد فأفرشه قدمه فوضع عليها عبيدة خده وقال « يا رسول الله لو رآنى أبو طالب اليوم لعلم أنى أحق بقوله :

ونُسلمه حتى نُصَرَّع دونه ونَذْهل عن أبنائنا والحلائل

ثم مات .

وفى تلك الأثناء أغفى محمد إغفاءة فرأى الملائكة التى نزلت من السماء لنصر المسلمين ، فاستيقظ وبشر أبا بكر ، قال : « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل معتجر[1] بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع (أى الغبار) أتاك نصر الله ووعده » .

وخرج من العريش عليه درع الحرب وأخذ يحرض الناس على القتال ويبشرهم بالجنة ويشجعهم بنزول الملائكة لتحارب معهم . وكان المسلمون لا يزالون فى صفوفهم لم يحملوا على العدو ، فألقت هذه الأخبار عليهم السكينة والطمأنينة ، وزادتهم شجاعة واستبسالا وإيماناً بالقضية التى يحاربون من أجلها . بل إنها أكدت لهم النصر الساحق على عدوهم فاستهانوا به .

وأخذ محمد كفاً من الحصى بيده فاستقبل القوم الكافرين . وقال :

(١) اعتجر بعمامته ، أى لفها على رأسه ورد طرفها على وجهه .

« شاهت الوجوه » . وأمر أصحابه بالهجوم . فاندفع المسلمون يضربون ضرباً لا هوادة فيه ويشتتون هذا الجمع الكبير بخيله وخيلائه حتى انفرط عقد المشركين وجندلت سيوف الله طواغيت قريش الواحد إثر الآخر . وأصحابهم فى ذهول وكأن تواهاً أخذهم ، لا يملكون دفعاً عن سادتهم ولا عن أنفسهم ، وهم الأكثر عدّة وعدداً وسلاحاً .

ألم يقل الله تعالى عندئذ : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ، أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »(١) .

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »(٢) .

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى(٣) »

لا عجب إذن أن تفعل هذه الآيات إذ شاعت فى ساحة المعركة فعل السحر فى صفوف المسلمين والمشركين على السواء . فقد دخل فى روع المسلمين أنهم منتصرون لا محالة ، ودخل فى روع المشركين أنهم منهزمون لا محالة . فهل لأحد قِبَلٌ بمحاربة الملائكة ؟ ثم كيف بهم يقاومون هذه الحرب المادية والنفسية التى تعرضوا لها فجأة بهذا العنف وهذه الضراوة ، وهم يشاهدون فعلا منذ اللحظة الأولى للمعركة ثلاثة من صناديدهم وسادتهم يجندلون فى لحظات ، ويتهاوى من بعدهم صناديد وسادة آخرون ، الواحد إثر الآخر ، لا يملكون عن أنفسهم شيئاً ، ولا يملك أحد الوقوف دونهم والدفاع عنهم أو حمايتهم من هذا القضاء الباتر .

والحق أن الأقوال التى ترامت هنا وهناك بين الصفوف عن نزول ملائكة من السماء لا قبل لأحد بهم تحارب فى صفوف المسلمين ، قد سيطرت

(١) الأنفال ٩ — ١٠ (٢) الأنفال ١٢ (٣) الأنفال ١٧

على عقول وقلوب كل من المسلمين والمشركين ، وتراءت لهم الملائكة فعلا وهم يطيرون فى السماء أو وهم يجندلون أعداء الله على الأرض .

جاء عن ابن عباس أنه بينما رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو قد حُطِمَ أنفه وشُقَّ وجهه بضربة السوط ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك محمداً فقال : « صدقت ، ذلك من مدد السماء الثالثة » .

وعن ابن عباس أيضاً أن رجلا من غفار قال : حضرت وابن عم لى بدْراً ونحن على شركنا ، وإنا لفى جبل ننتظر الوقعة على من تكون الدائرة ، فأقبلت سحابة ، فلما دنت من الجبل سمعنا منها حمحمة الخيل ، وسمعنا قائلا يقول : أقدم حيزوم ! فأما صاحبى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أن أهلك ثم تماسكت .

وروى البيهقى أن أبا أسَيْد روى بعدما ذهب بصره : يا ابن أخى ، والله لو كنت أنا وأنت ببدر ، ثم أطلق الله بصرى ، لأريتك الشِّعْبَ الذى خرجت علينا منه الملائكة من غير شك ولا تمار .

وحدث موسى بن محمد بن إبراهيم أن السائب بن أبى حُبيش كان يحدث فى زمن عمر يقول : والله ما أسرنى أحد من الناس . فيقال له فمن ؟ يقول : لما انهزمت قريش انهزمت معها ، فأدركنى رجل أشعر طويل على فرس أبيض فأوثقنى رباطاً ، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدنى مربوطاً فنادى فى العسكر : من أسر هذا ؟ حتى انتهى بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : من أسرك ؟ قلت : لا أعرفه . وكرهت أن أخبره بالذى رأيت . فقال رسول الله : « أسرَك ملك من الملائكة . اذهب يابن عوف بأسيرك » .

وقال الواقدى عن حكيم بن حزام : « لقد رأيتنا يوم بدر وقد وقع

بجاد (كساء مخطط) من السماء قد سدّ الأفق ، فاذا الوادى يسيل نهلا ، فوقع في نفسى أن هذا شيء من السماء أيِّد به محمد ، فما كانت إلا الهزيمة ولقاء الملائكة » .

وقال بعض المشركين : انهزمنا يوم بدر ونحن نسمع صوتاً كوقع الحصى فى الطاس فى أفئدتنا ومن خلفنا ، وكان ذلك من أشد الرعب علينا .

وكان محمد يقاتل بنفسه الكريمة قتالا شديداً ذلك اليوم ، ويقول للناس وهو يحرضهم على القتال : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجلٌ فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . وأصبح الاستشهاد فى سبيل الله مطلباً يسعى إليه المسلمون ، فاشتدت وطأتهم على المشركين . وبالغوا فى ضربهم وقتلهم .

قال عُمير بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم . قال : أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ . ثم رمى تمرات كانت فى فمه وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها حياة طويلة ! واندفع يقاتل المشركين حتى قتل شهيداً .

وجال المسلمون وصالوا فى صفوف المشركين ، يضربون أعناق طائفة منهم ضرباً لا هوادة ولا رحمة فيه ، ويحاولون أسر طائفة أخرى بالمعروف . لقى المجذَّر بن زياد البلوى حليف الأنصار أبا البَختَرى بن هشام فقال له : إن رسول الله صلى عليه وسلم نهانا عن قتلك فاستأسر . وكان محمد قد قال لأصحابه يومئذ : « إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرِجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مُستَكرَهاً » . وإنما نهى محمد عن قتل الذين نصروه وقاموا دونه فى مكة من أهله

المشركين فحفظ لهم الجميل ، كذلك نهى عن قتل أبى البخترى بن هشام لأنه لم يكن يؤذيه وهو بمكة بل كان يكف الناس عنه ، وكان ممن قاموا بنقض صحيفة المقاطعة .

لما قال المُجَذَّر لأبى البخترى إن الرسول نهى عن قتاله ، وكان أبو البخترى قد خرج من مكة مع زميل له يلازم كل منهما الآخر قال للمجذَّر : وزميلى ؟ قال له المجذر : لا والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك ، قال أبو البخترى : لا والله لا أترك زميلى ولأموتن أنا وهو جميعاً ، لا يتحدث عنى نساء قريش بمكة أنى تركت زميلى حرصاً على الحياة !

وقال وهو ينازل المجذَّر :

لن يترك ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سبيله

واقتتلا فقتله المجذَّر ، ثم أتى إلى محمد وقال : والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى ، فقاتلتُه فقتلتُه .

وبينما المعركة على أشدها وقد انهزم المشركون وأخذ بعض من خارت قواهم وأعجزتهم أهوال المعركة عن الفرار يطلبون الأسر ، إذ رأى أمية ابن خلف عبد الرحمن بن عوف وهو يحمل عدة أدرع غنمها ، وكان صديقاً له بمكة فناداه وقال : هل لك فىّ فأنا خير لك من هذه الأدرع التى معك . فطرح عبد الرحمن الأدرع من يده وأخذ بيده وبيد ابنه علىّ ، وكان يلازمه ، وأمية يقول : ما رأيت كاليوم قط ، أما لكم حاجة فى اللبن ؟ أى فى الفداء بالإبل . وكان بين الصفوف رجل من المسلمين علّم نفسه بريشة نعامة فى صدره ، فسأل أمية عبد الرحمن عنه ، قال : هو حمزة بن عبد المطلب . قال أمية : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل . وبينما عبد الرحمن يقود أسيريه إذ رآهم بلال ، وكان أمية هو الذى يعذب بلالا بمكة ، فقال بلال : رأس

الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا . قال عبد الرحمن : أى بلال ، أسيرى ! فصرخ بلال بأعلى صوته : يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية ابن خلف ، لا نجوت إن نجا . فأحاط المسلمون بهم واكتنفوهم من كل جانب وعبد الرحمن يدافع عن أسيريه بلا جدوى ، حتى تكاثر المسلمون عليهما وضرب أحدهم على بن أمية ضربة فوقع ، فصاح به أمية صيحة فزع شديد وقال : انج بنفسك ولا نجاء بك ، فوالله ما أغنى عنك شيئاً . ثم هبروهما بأسيافهم حتى قتلوهما . فكان عبد الرحمن بن عوف يقول : رحم الله بلالا فجعنى بأدرعى وبأسيرىّ !

والحق أن المسلمين كانوا يتصيدون كبراء مكة الذين آذوا المسلمين فى أوائل عهد الإسلام وحين كان المسلمون ضعافاً لا حول لهم ولا قوة ولا يستطيعون دفع أذاهم بأسيافهم . روى عبد الرحمن بن عوف أن غلامين صغيرين حديثة أسنانهما كان أحدهما عن يمينه فى الصف والآخر عن يساره ، سألاه : يا عم أتعرف أبا جهل ؟ قال : نعم ، وما حاجتك إليه ؟ قال : أخبرتُ أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجلُ منا . وقال له الآخر مثل ذلك ؛ فنظر عبد الرحمن فإذا أبو جهل يجول فى الناس لا يخلُص أحد إليه فقال لهما : ألا تريان ؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه . فهجم عليه الفتيان فضرباه حتى خر صريعاً على الأرض .

ولما أمر محمد أن يُلتمس أبو جهل فى القتلى قال لهم : انظروا إن خفى عليكم فى القتلى إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبد الله بن جُدْعان ونحن غلامان وكنت أكبر منه فدفعته فوقع على ركبتيه فخدش فى أحدهما خدشاً لم يزل أثره به .

وبينا يبحث عنه جماعة من المسلمين فى القتلى مرّ به عبد الله بن مسعود فوجده صريعاً يلفظ آخر أنفاسه فأخذ منه سيفه فقال أبو جهل : على مَن

كانت الدائرة لنا أو علينا ؟ فصعد عبد الله بن مسعود على صدره فقال أبو جهل : لقد رقيت مرتقاً صعباً يا رُوَيعى الغنم ، ألست رُوَيعينا بمكة ؟ فأخذ ابن مسعود بلحيته وقال : الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله . قال أبو جهل : وهل هو إلا رجل قتله قومه . ثم أجهز ابن مسعود عليه واحتز رأسه وأتى إلى حيث محمد فألقاها بين يديه ، فقال : « الحمد لله الذى قد خزاك يا عدو الله ، هذا كان فرعون هذه الأمة » .

قتل فى ذلك اليوم سبعون من المشركين وأسر مثلهم ، وقتل من المسلمين أربعة عشر رجلا ، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار . وغنم المسلمون غنائم كثيرة تركتها قريش المهزومة ، وخلّفها الكماة والأبطال من ورائهم على ساحة المعركة وهم يفرون ضاربين فى الصحراء نحو مكة ، يلعقون جراحهم ويجرون أذيال الخيبة ، يخشى الرجل منهم أن ينظر فى وجه صاحبه ، ويحسب ألف حساب لما سوف يُوَاجه به فى مكة من استخفاف وازدراء .

وعند المساء ، ولما فاء الناس بعضهم إلى بعض ، وأراد محمد أن يقسم الغنائم ، اختلف أصحابه لمن تكون منهم ، وكانوا ثلاث فرق : فرقة انطلقت فى آثار المشركين يهزمون ويقتلون ويأسرون ، وفرقة جمعت المغانم من متفرقات الأماكن ، وفرقة أحدقت بمحمد تحرسه خوفاً من أن يصيب العدو منه غـرّة . فقال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا منها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا بمحمد : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فشغلنا به . وكانت هذه أول تجربة كبيرة للمسلمين فى مثل هذه الشئون ، وكان إرضاء تلك الفرق المتنازعة صعباً . وعندئذ حسم العلى القدير الأمر فنزلت الآية : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم

مؤمنين »(١) . انفض الإشكال ورضى الجميع عن طيب خاطر ، وتألفت قلوبهم ، وقسم محمد الغنائم بينهم على السواء ، وأدخل معهم بعض من لم يحضر المعركة ولكن كان يؤدى عملا فى ذلك الوقت أمره به . ثم نزل بيان الخمس بعد ذلك ناسخاً لما تقدم .

أما القتلى فإن محمداً ما كان ليمر بجيفة مسـلم أو كافر إلا وأمر بأن توارى التراب ، فأمر عندئذ بأن تلقى جثث القتلى فى قَليب بدر (أى بئر بدر) . فلما سُحب عُتْبة بن ربيعة فى القليب نظر محمد فى وجه أبى حُذَيْفة ابن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : « يا أبا حُذَيفة ، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟ » .

فقال أبو حذيفة : لا والله يا رسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحِلْماً وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى ذلك . فدعا له محمد بخـير .

ارتحل المسلمون عن بدر فى اليوم الثالث ، ذلك أن محمداً كان إذا انتصر على قوم أقام فى ساحة المعركة ثلاثة أيام . فأمر براحلته أن يُشَدّ عليها رحلها ، فركبها ومشى وتبعه أصحابه حتى أتى القَليب فوقف على حافته وقال : « يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية ابن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام (وعدّد من كان منهم فى القليب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » .

فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتنادى قوماً قد جيّفوا ؟

قال : إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم هو الحق .

---

(١) الأنفال ١

سار الجيش الظافر وعلى رأسه محمد رسول الله ، ومن خلفه رجال لا يثنيهم عن إيمانهم قوة أو بطش أو ظلم ، ومعهم الأسرى والغنائم الكثيرة ، ميممين شطر المدينة الناصرة المنصورة . لقد حققت هذه الفئة القليلة نصراً اهتزت له جنبات جزيرة العرب ، لا بل اهتزت له جنبات الدنيا . وانقضى عهد حزين كان المسلمون فيه مستضعفين مغلوبين على أمرهم ، لا يملكون رد الظلم والعدوان ، صابرين على الأذى ، هائبين القوة الغاشمة العمياء ، إلى عهد تلألأ فيه نور الإسلام ، حينما ضربوا هذه القوة الغشوم ضرب العزيز المقتدر ، وأثبتوا لأنفسهم وللدنيا جميعاً أن الإيمان بالله وبنصره أقوى أسلحة الإنسان ، وأنهم دخلوا تاريخ البشرية الناصع ليظلوا هناك ما شاءت لهم الأقدار أن يظلوا .

حدث هذا فى الوقت الذى كان قد انقضى فيه أربع عشرة سنة قمرية كاملة على نزول القرآن .

بعث محمد بشيرين إلى المدينة يسبقانه ليبشرا المسلمين بالفتح والنصر والظفر على من أشرك بالله وكذّب رسوله ، أحدهما عبد الله بن رواحة إلى أعالى المدينة ، والثانى زيد بن حارثة إلى السافلة . فلما وصل البشيران إلى العقيق اتجه كل منهما إلى الناحية التى أرسل إليها . وأخذ عبد الله بن رواحة ينادى :

يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَتْل المشركين وأسرهم ، قُتِل ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جهل ، وزَمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف ، وأُسِرَ سُهيل بن عمرو .

لم يصدق بعض الناس ، حتى لقد قام عاصم بن عَدِىّ إلى عبد الله ابن رواحة ونحاه عن الناس وقال له : أحقاً يابن رواحة ؟ فقال : إى والله ، وغداً يَقْدم رسول الله بالأسرى مُقَرَّنين .

وأخذ زيد بن حارثة وهو على ناقة محمد القَصْواء يبشر الناس بالظفر ويعدد أسماء القتلى والأسرى ، فلم يصدقه بعض الناس أيضاً وأخذوا

يقولون : ما جاء زيد إلا منهزماً هارباً . وقال رجل من المنافقين لأسامة ابن زيد : قتل صاحبكم ومن معه . وقال آخر لأبى لبابة : قد تفرق أصحابكم تفرقاً لا يجتمعون فيه أبداً ، وقد قُتِل عليه أصحابه ، قتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لا يدرى ماذا يقول من الرعب ، قد جاء منهزماً هاربا ، فقال أبو لبابة : يُكَذِّب الله قولك . وكذلك قالت اليهود وأشاعت أن محمداً قد قتل وأن المسلمين انهزموا .

فجاء أسامة إلى أبيه واختلى به وقال : أحق ما تقول ؟ قال زيد : إى والله حق ما أقول يا بنى . فقويت نفس زيد ، ورجع إلى المنافق الذى سمع منه ما يكره فقال : أنت المُرْجِفُ برسول الله وبالمسلمين ، لنقدمنك إلى رسول الله إذا قدم فليضربَنّ عنقك . فقال : إنما هو شيء سمعته من الناس يقولونه ما اخترعته .

وفى تلك الأثناء أيضاً كانت أخبار الهزيمة قد وصلت مكة ، فقام النساء فقطعن شعورهن وعُقِرَت خيول كثيرة ورواحل ، وناحت قريش على قتلاها . غير أنهم سرعان ما أدركوا ما فى نوحهم من معنى الهزيمة وأنهم إذ يفعلون ذلك يشمت فيهم محمد وأصحابه فكفّوا عن النوح ، وعقدوا العزم على ألا يسارعوا فى فداء أسراهم حتى لا يشتد عليهم محمد وأصحابه فى الفداء . وكانت هند بنت عتبة أشدهن حزناً وأكثرهن طلباً للثأر ، فقد قتل أبوها وعمها وأخوها . رفضت البكاء واعتزلت فراش زوجها أبى سفيان وظلت تحرض الناس حتى بلغت ثأرها يوم أحد . أما أبو سفيان فنذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً وينال منه ومن أصحابه .

ومما يدلك على ما أصاب قريشاً من ألم نفسانى وعذاب شديد ، إذ هى امتنعت عن النوح على قتلاها ، وكفت عن البكاء الذى يبلُّ فؤاد الحزين إذا ما تحادرت دمعاته ، ما روى عن الأسود بن المطلب ، وكان قد أصيب

له ثلاثة من ولده ، زمعة وعقيل والحارث ، وكان يحب أن يبكي على بنيه ولكن منعته العزة أن يبكي وجده . فبينما هو يقاسي ذلك الشوق إذ سمع نائحة تنوح فى جوف الليل ، فقال لغلام له ، وكان قد ذهب بصره ، أنظر هل أحِلَّ النَّحب ؟! هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعلى أبكي على أبي حكيمة (يعني ولده زمعة) فإن جوفى قد احترق !

فلما رجع الغلام وأخبره أنها امرأة تبكي على بعير لها ضَلَّ منها أنشأ يقـــول :

أتبكي أن يَضِـــلَّ لها بعــيرٌ	ويمنعها من النوم الســـــهودُ
فلا تبكي على بكرٍ(١) ولـكن	على بَدْرٍ تقاصرت الجدُودُ(٢)
على بَدْرٍ سَرَاة بنى هُصَيْص	ومخزوم ورهط أبى الوليـــد
وبَكّي إن بكيتِ على عقيـــل	وبكّي حارثاً أســدَ الأسود
وبكيهم ولا تســمى جميعاً	وما لأبى حكيمة من نَدِيد(٣)
ألا قد ساد بعـــدهم رجـــال	ولولا يوم بدرٍ لم يســـودوا(٤)

* * *

لم يكن الإسلام فى ذلك الوقت قد قرر نظاماً يعامل به الأسرى . أيقتلون أم يفتدون أم يُسْتَرَقُّون ؟ والحق أن النبي حين فرَّق الأسارى بين أصحابه أمرهم أن يستوصوا بهم خيراً . روى أبو عزيز أخو مصعب بن عُمير ، وكان أسيراً عند رهط من الأنصار ، أنهم كانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوه بالخبز وأكلوا التمر . كذلك يروى أن النبي حين قلق إذ سمع عمه العباس يئن ويتأوه من وثاقه ، استأذن أصحابه أنينفسوا عن جميع الأسرى ، ففعلوا . ولم يحدث أن قتل النبي بعد هذه الغزوة من الأسارى إلا النضر بن الحارث وعقبة بن أبى مُعَيْط ، قتلهما فى بعض الطريق قبل أن يصلا إلى المدينة ، وكانا من أكثر المسيئين الذين اشتدوا عليه

---

(١) البكر : الفتى من الإبل (٢) الجدود : الحظوظ

(٣) النديد : الشبيه

(٤) أقوى الشاعر فى الأبيات الثالث والرابع والخامس .

وعلى أصحابه فى مكة قبل الهجرة ، وأكثرهم عناداً وبغياً وحسداً وهجاء الإسلام وأهله .

عند ما بلغوا الأثيل (موضع قرب المدينة بين بدر ووادى الصفراء) وعُرض الأسرى على محمد ، نظر إلى النضر بن الحارث نظرة ارتعدت لها مفاصله ، فقال لرجل إلى جانبه : محمد والله قاتلى ، لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت . قال الرجل : ما هذا والله منك إلا رعب . ونادى النضر مُصْعب بن عُمير ، وكان بينهما عهد قديم ، وقال : كلّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه ، فهو والله قاتلى إن لم تفعــل . قال مصعب : إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه ما تقول ، وكنت تعذب أصحابه . قال النضر : لو أسرتك قُرَيش ما قتلتك أبداً وأنا حىّ . قال مصعب : والله إنى لا أراك صادقاً ، ثم إنى لست مثلك ، فقد قطع الإسلام العهود . وكان النضر أسير المقداد ، فلما رأى ذلك وخشى أن يقتل فتفوته فدية كبيرة صاح قائلا : النضر أسيرى . فقال النبى : اضرب عنقه ، واللهم اغن المقداد من فضلك . فتقدم على بن أبى طالب وضرب عنقه .

ولما كانوا بعرق الظبية ، أمر محمد بقتــل عقبة بن أبى معيط ، فقال له عقبة : فمن للصِّبْيَة يا محمد ؟ قال : النار . ولما أقبل إليه عاصم بن ثابت أو على بن أبى طالب بالسيف صاح : يا معشر قريش ، علام أقتل من بين من ها هنا ؟ قال : على عداوتك لله ورسوله . فقال عقبة : أتقتلنى يا محمد من بين قريش . قال : نعم ، أتدرون ماصنع هذا بى ؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام ، فوضع رجله على عنقى وغمزها فما رفعها حتّى ظننت أن عينى ستخرجان ، وجاء مرة أخرى بسلاة شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى .

ومن أجمل ما يروى بهذه المناسبة أن قُتَيْلة بنت الحارث لما علمت بمقتل أخيها النضر بن الحارث أنشأت تقول :

يا راكباً إن الأثيـــل مظنّـــة ... من صبح خامسة وأنت موفّق
أبلـــغ بهـــا ميتاً بأن تحيـــة ... ما إن تزالُ بها النجائب تخفق
منى إليك وعـــبرة مسفوحة ... جادت بوابلها وأخرى تخنق
هل يسمعنّ النضرُ إن ناديتُه ... أم كيف يسمع ميّتٌ لا ينطق
أمحمد يا خير ضنْء كريمـــة ... من قومها والفحل فحل مُعْرِق
ما كان ضرّك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنَق
لو كنت قابل فدية فلنأتـــينْ ... بأعزّ ما يغـــلو لديك ويُنفق
والنضر أقربُ من أسرت قرابةً ... وأحقهم إن كان عِتق يُعتَق
ظلّت سيوف بنى أبيـــه تنوشه ... لله أرحامٌ هنالك تُشـــقّق
صبراً يُقاد إلى المنيـــة متعَباً ... رَسْفَ المقيّدِ وهو عانٍ موثَق

فلما بلغ محمد هذا الشعر قال : لو بلغنى هذا قبل قتله لمننت عليه !

ولما قارب المدينة تلقته جواريها بالدفوف وهن يغنين :

طلع البـــدر علينـــا ... من ثنيـــات الوداع
وجب الشـــكر علينا ... ما دعـــا لله داع
أيهـــا المبعوث فينـــا ... جئت بالأمر المطـــاع

وتلقاه أصحابه الذين تخلفوا عن غزوة بدر يهنئون بما فتح الله عليه . قال أسَيْد بن حُضَير : يا رسول الله ، الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك ، والله يا رسول الله ما كان تخلّفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى حرباً ، ولكن ظننت أنها قافلة ، ولو ظننت أنه عدو ما تخلّفت . فقال : صدقت .

ودخل المسلمون المدينة ظافرين وعلى رأسهم محمد رسول الله ، والحقد والحسد يغلى فى قلوب المشركين والمنافقين من أهل المدينة أن لم يتحقق ما كانوا يأملون من نصر قريش ، حتى لقد قال كعب بن الأشرف اليهودى : بطن الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن .

ثم قدم الأسارى بعد دخول المسلمين المدينة بيوم وعليهم شَقْران مولى محمد ، وكان قد شهد بدراً معهم ، وكانت سَوْدَة بنت زَمعة زوج النبي عند آل عفراء فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنا عفراء . وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب . فرجعت إلى بيتها ومحمد فيه ، وإذا سُهيل بن عمر فى ناحية الحجرة مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلم تملك نفسها أن قالت : أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متم كراماً ؟ ! فإذا بصوت محمد يقول : يا سودة أعلى الله وعلى رسول الله تحرضين ! ! قالت : يا رسول الله والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت .

ثم إن محمداً أخذ يقلب أوجه النظر فيما يصنع بهؤلاء الأسرى . فعمد إلى أصحابه يستشيرهم كعادته . فقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً .

أما عمر فقال : والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان — قريب له — فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم .

فقال محمد : إن الله ليلينّ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة . وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال : « فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادُك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » . وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال : « ربِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً » . وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ثم إنه استقر أخيراً على رأى أبى بكر وقبل فداء الأسرى . وكانت قريش قد عقدت العزم على ألا تسرع فى طلب فداء أسراهم حتى لا يشتد فيه المسلمون . غير أن المطّلب بن أبى وداعة لم يتمالك نفسه أن يخرج لفداء أبيه فانسل تحت جنح الليل من مكة وقدم المدينة ، وفدى أباه بأربعة آلاف درهم . وكان هذا أول أسير فدى ، ثم بعثت قريش فى فداء أسراهم ، كل أسير بأربعة آلاف درهم .

قدم مكرز بن حفص بن الأخيف فى فداء سهيل بن عمرو ، وكان سهيل خطيباً يحرض الناس على محمد والإسلام ، فانبرى له عمر بن الخطاب وأقدم على محمد يقول : دعنى أنزع ثنيّى (أى السنتين الأماميتين) سهيل ابن عمرو حتى يخرج لسانه إذا تكلم فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبداً . فقال محمد قولة صدق وحق : « لا أمثّل به فيُمثّل الله بى وإن كنت نبياً » ، ثم قال لعمر : إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه . ولا عجب فقد قام سهيل هذا المقام فيما بعـــد ، وصدق محمد فى حدسه . إذ قام سهيل عند ما ارتد مَن ارتد من العرب بعد وفاة محمد يخطب الناس فى مكة ويثبتهم على الدين الحنيف . فلما اتفق مكرز على فدائه ولم يكن معه مالٌ ، طلب أن يجعلوه مكان سهيل ويخلوا سبيل سهيل حتى يعود بالفدية ، ففعلوا .

وكان فى الأسارى العباس بن عبد المطلب وأخواه عقيل ونوفل وحليفه عتبة بن عمرو أحد بنى الحارث بن فهر ، ففادى العباس نفسه وإياهم بمائة أوقية من الذهب وكان موسراً . ثم إنه كان قد ادعى أنه أسلم ؛ فلم يقبل منه محمد وقال : أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم بإسلامك وسيجزيك .

أما أبو سفيان فقد رفض أن يفادى ولده عمرو بن أبى سفيان ، فلما قيل له : افْد عمراً ابنك ، قال : أيجتمع علىّ مالى ودمى ! قتلوا حنظلة وأفدى عمْراً ؟ دعوه فى أيديهم يمسكوه ما بدا لهم . وكان يغيظه أن ينهزم هذه الهزيمة النكراء ، ثكل وفداء . غير أنه ظل يتحين فرصة يقتنص فيها

أحداً من أهل المدينة ، حتى خرج سعد بن النعمان بن أكّال ، أحد بنى عمرو بن عوف معتمراً ، وكان شيخاً مسلماً ، ولم يفكر فى أن أحداً من قريش يعترض له إذ جاءها معتمراً . وكان عهد قريش أن قريشاً لا يعترضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير ، فهجم عليه أبو سفيان وحبسه فى مكة بابنه عمرو . فأتى بنو عمرو بن عوف إلى محمد وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان ليفكوا به صاحبهم ، فاعطاهم النبى عمراً ، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد .

وكان فى الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس ابن أمية ، ختن محمد وزوج ابنته زينب . وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وكانت أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وكانت خديجة هى التى سألت محمداً أن يزوج العاص بزينب ، وكان لا يخالفها . ولقد أثبت العاص أنه رجل كفء كريم لم يخذل خالته ولا زوجته ولا حميه . ذلك أن قريشاً عند ما اضطهدوا محمداً بعد الإسلام وأرادوا من أبى العاص أن يطلق زينب ، وقالوا له فارق صاحبتك ونحن نزوجك بأى امرأة من قريش شئت ، قال : لا والله لا أفارق صاحبتى وما أحب أن تكون لى امرأة من قريش سواها . لذلك كان محمد دائم الثناء عليه . وكانت زينب حتى ذلك الوقت تعيش مع أبى العاص فى مكة لم تهاجر ، هى مسلمة وهو مشرك ، ذلك أن الإسلام لم يكن قد فرّق بعد بين الزوجين إذا أسلم أحدهما . إنما حرّم الله المسلمات على المشركين عام الحُدَيبية سنة ست من الهجرة . فأرسلت زينب إلى أبيها فى فداء زوجها مالا فيه قلادة كانت خديجة قد أهدتها لها يوم عرسها . فلما رأى محمد القلادة وطاف بخياله ذكريات تلك الأيام الحلوة التى غبرت ، وتراءت له صورة زوجه الحبيبة ، رق لها رقة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا » . وأى شيء كان أحب إلى نفوس رجال

يضحون بأرواحهم فى سبيله من أن يفعلوا بما أشار . فقاموا وأطلقوا الأسير وردوا على زينب مالها وقلادتها .

غير أن محمداً أحب أن يُفرّق بينه وبين زينب ، فطلب منه أن يخلى سبيلها ، فأجاب أبو العاص بالسمع والطاعة . فلما عاد إلى مكة جهز زينب للرحيل على كره منه ومنها لهذا الفراق ، ولكن ما كان بيد أحد منهما حيلة . فلما تجهزت قَدَّم إليها أخو زوجها كِنانة بن الربيع بعيراً فركبته وأخذ قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بعيرها وهى فى الهودج . غير أن رجال قريش لم يرضهم أن تخرج جهاراً عياناً فى وضح النهار من بين ظهرانيهم ، فخرجوا فى طلبها ، فلما أدركوها روّعها هَبَّار بن الأسود بالرمح ، وعندئذ نثر حموها كنانة سهامه وقال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهماً . فرجع الناس عنها ، وكان أبو سفيان قد تبعهم فى عدد من سادة قريش ، فقال : يا أيها الرجل كُفَّ عنا سهامك حتى نكلمك . فكف ، فأقبل أبو سفيان حتى دنا منه فقال : إنك لم تُصِبْ ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس بين أظهرنا ، أن ذلك عن ذُلّ أصابنا ، وأن ذلك ضَعْفٌ منا وَوَهن ، ولَعَمْرى مالنا بحبسها من أبيها من حاجة وما لنا من طلب الثأر ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فتسال بها سراً وألحقها بأبيها .

فرجع بها ، ولما أن هدأت الأصوات تلك الليلة ، خرج بها حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وأحد الأنصار ، وكان محمد قد أرسلهما ليستقبلاها ويعودا بها إلى المدينة . وكان يقول فيها : هى أفضل بناتى أصيبت فىّ .

ثم إن زينب لم تزل تذكر لأبي العاص فضله ومروءته ، ولم يزل أبو العاص يذكر لمحمد إحسانه وعطفه وحدبه عليه . ولم تستطع السنون التي فرقت بينهما أن تنسي أياً منهما ما في قلبه نحو الآخر ، فظل أبو العاص يذكرها ، وظلت زينب وفية له على عهد الحب . ولما كان قبل الفتح بقليل أي بعد هجرتها بست سنين ، وأبو العاص لا يزال على شركه ، خرج في تجارة لقريش ، فلما قفل عائداً من الشام لقيته سرية من المسلمين فأخذوا ما معه . أما هو فقد هرب منهم وجاء المدينة تحت جنح الليل ، وأخذ يتنطس أخبار زوجه فعلم مكانها فأتاها واستجار بها فأجارته .

فلما خرج محمد لصلاة الصبح وكبَّرَ وكبر الناس من خلفه ، صرخت زينب من صُفَّة النساء : أيها الناس أجرت أبا العاص بن الربيع . فلما سلم محمد أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم . قال : « أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء حتى سمعت ما سمعتم ، وإنه يجير على المسلمين أدناهم » . ثم انصرف فدخل على بنته زينب فقال : أي بُنيَّة أكرمي مثواه ولا يخلُصَنَّ إليك فإنك لا تحلين له . ذلك أن القرآن كان قد فرق عندئذ بين المسلمات والمشركين . ثم بعث محمد إلى المسلمين فحثهم على أن يردوا ما كان معه ، فردوه بأسره لم يُفتَقَد منه شيء .

فأخذه أبو العاص ورجع إلى مكة ، فأعطى كل ذي حق حقه ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً . قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني عن الإسلام عنده (أي عند ما كان بالمدينة) إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت . ثم خرج حتى قدم المدينة ، وأسلم بين يدي محمد فرد عليه زوجه .

وكان فى الأسرى شاعر هو أبو عَزَّة عمرو بن عبد الله الجُمَحىّ ، وكان شديد الإيذاء لمحمد بمكة ، وكان محتاجاً ذا بنات ، فقال لمحمد : يا رسول الله لقد عرفت مالى من مال ، وإنى لذو حاجة وذو عيال فامنن علىّ . فمنّ عليه وأخذ عليه عهداً ألا يناصر عليه أحداً . فمدحه أبو عزة بأبيات منها :

من مُبْلِغٍ عنى الرسول محمداً بأنك حقٌّ والمليك حميدُ
وأنت امروٌ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيد

غير أنه نقض العهد الذى عاهد عليه محمداً ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إلى صفوفهم ، وحارب معهم يوم أحد فأسر مرة ثانية . وعند ذاك طلب من محمد أن يمنّ عليه ، غير أن المن عليه فى هذه المرة لم يكن له محل ، فقال محمد : « لا أدعك تمسح عارضيك وتقول : خدَعت محمداً مرتين ! » ويقال إنه قال فيه عندئذ قولته : « لا يُلْدَغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين » ثم أمر فضربت عنقه .

ومن هؤلاء الأسرى وهب بن عُمَيْر الجمحى . وكان أبوه عمير فرعوناً من فراعين قريش وشيطاناً من شياطينها ، وكان ممن يكثرون أذية محمد وأصحابه ، وممن لقى منهم المسلمون عناء شديداً وهم بمكة . وبينا عمير جالس مع صفوان بن أمية فى أعقاب هذه الغزوة يتذاكران مصاب قريش بها وأصحاب القليب ، قال صفوان بن أمية : والله ما إن فى العيش بعدهم خير . فقال عمير : صدقت ، أما والله لولا دين علىّ ليس عندى قضاؤه ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعْدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله ، فإن لى فى المسلمين عِلَّة ، ابنى أسير فى أيديهم . عندئذ اغتنم صفوان هذه الفرصة للانتقام فقال : علىّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى ، أواسيهم ما بقوا ، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم علىّ شأنى وشأنك . قال : سأفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وقام فسَمّ نصله . ثم انطلق حتى قدم

المدينة ، وأناخ بعيره على باب المسجد وهو متوشح السيف . فلما رآه عمر بن الخطاب ، وكان هناك جالساً فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به من النصر على عدوهم ، قام إليه وهو يقول : هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، ما جاء إلا لشرّ . ثم دخل على محمد فقال : يا نبى الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . قال : أدخله علىّ . فأقبل عمر عليه فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها وقال لمن كان معه من الأنصار : قوموا فادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده ، واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على محمد . فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : « أرسله يا عمر ، ادن يا عُمير » فدنا ثم قال : أنعم صباحاً ، وكانت هذه هى تحيةأهل الجاهلية ، فقال محمد : « قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة » فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها حديث عهد .

قال : فما جاء بك يا عمير ؟

قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ .

قال : قبّحها الله من سيوف ! وهل أغنت شيئاً ؟ !

قال : اصدقنى ما الذى جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

تفرس منه محمد وأدرك بقوة فراسته ما كان من أمر عمير .

فقال : « بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلتَ : لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً ، فتحمل صفوان بن أمية بدينك وعيالك ، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك » .

أسقط فى يد عمير ولم يملك إلا أن يقول : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل

عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق . ثم شهد شهادة الحق . فقال محمد : فقهوا أخاكم فى دينه ، وعلّموه القرآن وأطلقوا له أسيره . ففعلوا . ثم عاد عمير إلى مكة وأصبح أشد على الكفار مما كان على المسلمين فى سابق أيامه ، وحلف صفوان بن أمية ما يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً .

هؤلاء الذين ذكرنا من أسرى بدر جملة من الذين كان لهم روايات تروى . أما الباقون فتم فداؤهم كل بأربعة آلاف درهم . وأما الذين كانوا لا يملكون مثل هذا القدر من المال وكانوا ممن يقرؤون ويكتبون ، فقد فرض عليهم النبى أن يعلّم كل منهم عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة فى نظير فدائه . وهذا الاتجاه النورانى الذى دفع فيه محمد المسلمين وساقهم نحوه منذ أوائل عهدهم ، كان له ولا شك أعظم الآثار فيما بعد فى مستقبل الإسلام ، إذ انطبع تاريخ الإسلام بالدعوة إلى العلم وبكراهية الجهل والنفور منه ، حتى لقد أصبحت حضارة الإسلام فى القرون الوسطى منارة العالم الحقيقية فى الشرق والغرب ، وأصبحت دياره القلعة التى يؤمها العلماء وطالبو العلم من كل حدب وصوب .

وبعد أن تم الفداء وقبض المسلمون الأموال عارض الله اجتهاد أبى بكر الذى أخذ به محمد وأنزل قوله : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »(1) . لقد نهى الله إذن عن أخذ الأسرى قبل أن يمعن المسلمون فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله والذين يتعرضون لدين الله أن ينتشر فى الأرض . أما الأموال التى أخذوها من فداء الأسرى ، فأبيحت لهم ، لأن حكم الله السابق إنما يقضى بألا يعاقب أحد على اجتهاده ما دام المقصود من الاجتهاد خيراً وإلا لمسهم فيما أخذوا من أموال عذاب عظيم .

---

(١) الأنفال ٦٧ — ٦٨

الفصل الثامن

تجمع العاصفة قبل أُحُد

كان لغزوة بدر آثار عميقة جداً فى تحديد صورة الأحداث التى وقعت بعد ذلك . لم يكن هناك من ثأر حتى حدوث هذه المعركة ، يستحق مثل هذا التحدى السريع الذى انطبعت به أحداث المستقبل . لم يكن بين المسلمين وكفار قريش حتى ذلك الحين غير دم ابن الحضرمى . ولقد رأينا فيما سبق كيف أن عُتْبَة بن ربيعة أحد سادات قريش المعدودين وصاحب الكلمة المسموعة فيها ، قد قبل عن طيب خاطر أن يتحمل دية ابن الحضرمى عند ما عرض عليه حكيم بن حزام ، وهم يستعدون للحرب فى ساحة معركة بدر وقبل أن تقع الواقعة ، أن يدفع الدية من ماله ويعوِّض أهل الحضرمى عن تجارته التى غنمها المسلمون . كل هذا حقناً للدماء التى سفكت ببدر ، غير أن أبا جهل أفسد عليه هذا الرأى ودارت المعركة كما رأينا ، وراح ضحيتها سبعون رجلا من قريش ، فيهم عدد كبير من ساداتها وذوى الجاه والعزة والمنعة فيها . فماذا يمكن أن يحدث الآن غير مزيد من الحرب ومزيد من التحدى . من يتحمل ديات أولئك القتلى ، وكم تساوى ، ومن يملك ما تساوى ، ومن يقبل أخذ ديات فيهم ؟ لا أحد على التأكيد .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يعد هناك بد لقريش من أن تنازل محمداً وأصحابه فى جولة أخرى أو فى جولات ، دفاعاً عن هيبتها المفقودة وتجارتها المهددة وحفاظاً على سمعتها بين العرب . ثم إن هذا لم يكن كل ما قد يصادف المسلمون من متاعب . فقد كان لا يزال بالمدينة عدد كبير من الكفار والمشركين والمنافقين ، وأهم هؤلاء اليهود . وكانت لاتزال لهذه الفئات كلمة مسموعة فى المدينة وفيما حولها ، وكانت لهم قوة

يرهبها عدوهم ، وإن لم يجربوا هذه القوة بعد مع المسلمين . فبعد وقعة بدر اتخذ الدفاع عن الإسلام صورة غير الصورة التى انطبعت بها أحداث الماضى ، وتزايد سلطان المسلمين فى المدينة تزايداً كبيراً ، الأمر الذى أصبح يهدد قبائل اليهود التى تعيش فيها وفيما حولها . فقد تخوّفَ اليهود الآن على أنفسهم تزايد هذا السلطان ، ورهبوا انتشار الإسلام هنا وهناك ، وفزعوا لهذه الروح الجبارة التى كان يلقى بها المسلمون عدوهم . أما المسلمون ، فقد تخوفوا هم أيضاً على دولتهم الناشئة مؤامرات اليهود ودسهم ووقيعتهم وعداءهم المقنع . كل هذا جعل الصراع بين المسلمين واليهود أمراً لا مفر منه .

ليست هذه الأخطار الشديدة فحسب هى التى كانت تهدد المسلمين فى أعقاب معركة بدر . فقد كان هناك فئة ثالثة تناوئ المسلمين أيضاً ، هى تلك القبائل المنتشرة على شاطىء البحر الأحمر بين مكة والمدينة على طريق التجارة إلى الشام . فقد اقتضت مصالح بعض هذه القبائل أن تهادن المسلمين وتعاهدهم ، واقتضت مصالح قبائل أخرى أن تهادن قريشاً وتعاهدها . فلنتوقع إذن مزيداً من التحرشات ومزيداً من الصراع ومزيداً من الحروب .

لم يعد المسلمون الآن ليسكتوا عن أولئك الذين يسبون الإسلام ويرسلون الأشعار فى هجوه وهجو نبيه . فإما أن يكف هؤلاء وأمثالهم بالحسنى وإما أن ينالوا أشد عقاب . فإن التجربة التى خاضها المسلمون على ساحة بدر جعلتهم يدركون أن شيئاً سوف لا يمنعهم غير سيوفهم . وأن أحداً من العرب غير المسلمين من المناوئين لهم سوف لا يكف عنهم إلا إذا قطعوا دابره .

كان أبو عفك أحد بنى عمرو بن عوف ممن يرسلون الأشعار فى هجاء محمد والمسلمين ، وفى تحريض قومه عليهم . عندئذ قرر سالم بن عُمَيْر تخليص الإسلام من شره ، فذهب إليه ذات ليلة وهو نائم بفناء داره ، وانقض عليه بالسيف يمزق كبده . كذلك كانت عصماء بنت مروان

من بنى أمية بن زيد ممن يعيبون الإسلام ويؤذون النبي ويحرضون عليه ، فجاءها عُمير بن عوف فى هدأة الليل ودخل عليها بيتها وهى نائمة ترضع صغيراً لها ومن حولها بقية أبنائها ، وكاد عمير أن يكون كفيفاً أو أنه كان يعشو فلا يتبين الأشياء جيداً فى الليل ، فتحسسها بيده وأبعد عنها الصبى ووضع سيفه فى صدرها حتى أنفذه من ظهرها . وذهب عُمير فأخبر النبى الخبر ، وبينما هو عائد إذ جماعة فيهم بنوها كانوا عائدين بعد دفنها ، فأقبلوا عليه فقالوا : يا عمير أنت قتلتها ؟ قال نعم ! فكيدونى جميعاً ثم لا تُنْظَرُون ، فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفى حتى أموت أو أقتلكم . أما النتيجة التى أدى إليها هذا الموقف فكانت ظهور الإسلام فى بنى خَطْمَة ، ذلك أن عصماء كانت زوج رجل منهم ، وكان عدد منهم قد أسلموا ولكن يخشون إظهار إسلامهم ، فأظهروه عندئذ غير وجلين ولا هيابين .

أما كعب بن الأشرف وهو أحد بنى نبهان وأمه من بنى النضير ، فقد وقف موقفاً سيئاً جدا من المسلمين بعد بدر . فهو الذى قال عندما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر حين قدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران بنصر المسلمين : هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . ثم إنه لما تيقن الخبر خرج إلى مكة ، ونزل على المطلب بن أبى وداعة بن صبيرة السهمى ، فأكرمه وأكرمته زوجته عاتكة بنت أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجعل يحرض الناس على قتال محمد وينشد الأشعار ويندب من قُتِل من المشركين يوم بدر . وله فى ذلك قصيدة مطلعها :

طحنت رحى بدر لمَهْلك أهله ... ولمثل بــدرٍ تستهل وتَدْمعُ

وهناك قال له أبو سفيان : أناشدك أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟ وأيُّنا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إنا نُطعِم الجزور

الكَوْماء ، ونسقى اللبن على الماء ونُطْعِم ما هبَّت الشمال . فقال له كعب ابن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلا !

وفى هذا أنزل الله قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومَن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيراً »(١) .

ثم إن كعباً عاد إلى المدينة بعد أن حرض قريشاً على أخذ ثأرها ومحاربة محمد والمسلمين ، وجعل يشبب بأم الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين ويهجو النبى . فلما فاض الكيل وبلغ الألم فى نفوس المسلمين منه كل مبلغ ، قال محمد لأصحابه : من لابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مَسْلَمة أخو بنى عبد الأشهل : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله . قال محمد : « فافعل إن قدرت على ذلك » .

ثم إن محمد بن مَسْلمة مكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسد الرمق ، فلما بلغ ذلك رسول الله قال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ قال : يا رسول الله قلت لك قولا لا أدرى هل أفى لك به أم لا . قال : إنما عليك الجهد . قال : يا رسول الله لابد لنا أن نقول (أى نخدعه) . قال : فقولوا ما بدا لكم فأنتم فى حلٍّ من ذلك . عندئذ اجتمع فى قتله محمد بن مَسْلمة ، وسِلْكان بن سلامة بن وَقْش ، وهو أبو نائلة أحد بنى عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرِّضاعة ، وعباد بن بشر بن وَقْش أحد بنى عبد الأشهل ، والحارث بن أوس بن مُعاذ أحد بنى عبد الأشهل ، وأبو عيسى ابن جبر أخو بنى حارثة .

وقدم هؤلاء حتى أتوا كعب بن الأشرف فحدثه سلكان أخوه من الرضاعة ، وتناشدا الشعر ثم قال سلكان : إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى : قال : فافعل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً ،

---

(١) النساء ٥١ — ٥٢

عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل ، حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب : أنا ابن الأشرف ! أما والله لقد كنت أخبرك يابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما أقول .

فقال له سلكان : إنى قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك .

قال : ترهنونى أبناءكم ؟ قال : لقد أردت أن تفضحنا ، إن معى أصحاباً لى على مثل رأيى ، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من السلاح ما فيه وفاء . فرضى ابن الأشرف بذلك ، ورجع سلكان إلى أصحابه وأخبرهم بذلك ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند محمد فمشى معهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم وقال : « انطلقوا على اسم الله ، اللهم أعنهم » ثم رجع وكانت الليلة مقمرة ، وانطلق القوم إلى بغيتهم .

فلما جاءوه هتف به سلكان ، وكان ابن الأشرف حديث عهد بعرس ، فوثب فى ملحفته ، فأخذت امرأته بناصيتها وقالت : أنت امرؤ محارب ، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة . قال : إنه رضيعى أبو نائلة لو وجدنى نائماً ما أيقظنى . فقالت : والله إنى لأعرف فى صوته الشر . قال كعب : لو دُعِىَ الفتى لطعنة بليل لأجاب !

وسار كعب وسلكان حتى التقيا بأصحاب سلكان . ومشى القوم ساعة يتجاذبون أطراف الحديث . وإذ هم يسيرون وكعب مطمئن لهم وضع سلكان يده فى رأس كعب وقال : ما رأيت طيباً أعطر قط . ثم مشوا ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشوا ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بشعر كعب وقال لأصحابه : اضربوا عدوّ الله ، فناشوه بأسيافهم حتى مات .

ورجعوا إلى محمد فأخبروه الخبر فأهدر دماء اليهود ، وقال :

« من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه » . وعندئذ خافت اليهود ولم يعد يهودى إلا وهو خائف على نفسه . فوثب مُحَيِّصة بن مسعود الأوسى على ابن سُنَيْنة وهو تاجر من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله ، وكان أخوه حُوَيصة بن مسعود أسن منه ولم يُسلم بعد ، فقال لأخيه وهو يضربه : أى عدو الله أقتلته ؟ أما والله لرُبَّ شحم فى بطنك من ماله !

قال مُحَيِّصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك !

قال حُوَيصة : والله لو أمرك محمد بقتلى لتقتلنى ؟ قال : نعم والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها !

قال حويصة : فوالله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب ! ثم أسلم .

وفى تلك الأثناء وقعت حادثة استطار لها الشر بين المسلمين واليهود . قدمت امرأة من العرب ببضاعة لها فباعتها فى سوق بنى قَيْنُقاع ، وجلست إلى صائغ منهم ، فألح عليها قوم من اليهود كانوا عنده أن تكشف عن وجهها النقاب فأبت ، فعمد الصائغ الماكر عندئذ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فتضاحك القوم ، فصاحت فهب لنجدتها رجل من المسلمين أثار ما فعل اليهود بها نخوته فهجم على الصائغ اليهودى وقتله . عندئذ تكاثر اليهود على المسلم فقتلوه . واستصرخ أهل المسلم المسلمين فوقع الشر بينهم وبين بنى قَيْنُقاع .

فجمعهم محمد فى سوقهم وقال : يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النِّقمة وأسلِمُوا ، فإنكم قد عرفتم أنى نبىّ مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

فقالوا : يا محمد إنك ترى أنا قومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وفى ذلك أنزل الله فى سورة آل عمران قوله : « قل للذين كفروا (أى

اليهود) ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فئتين التقتا (أى المسلمين وقريش فى بدر) فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »(١) .

ثم إن محمداً مشى إليهم على رأس أصحابه وحاصرهم حصاراً شديداً خمسة عشر يوماً متتالية ، لا يخرجون من حيث هم ولا يدخل إليهم أحد لا بطعام ولا بغيره ، حتى جهدهم الحصار فسلموا أمرهم لمحمد يحكم فيهم بما يشاء . عند ذاك استشار أصحابه ، واستقر الرأى على قتلهم وتخليص المدينة من شرورهم .

غير أن بنى قَيْنُقاع كانوا حلفاء الخزرج ، وكان عبد الله بن أبىّ بن سلُول زعيم الخزرج لا تزال له كلمة مسموعة فى قومه . ولم يرض عبد الله ابن أبىّ بهذا الحكم فقام إلى محمد وقال : يا محمد أحسن فى حلفائى . فأبطأ عليه محمد ولم يجبه ، فأعاد قوله : يا محمد أحسن فى حلفائى . فأعرض عنه ولم يلتفت إليه . وعندئذ أدخل عبد الله بن أبىّ يده فى جيب درع محمد وكان يقال لها ذات الفضول ، فقال له محمد : أرسلنى (أى اتركنى) ، وغضب غضباً شـــديداً عندما لم يتركه حتى تغير لون وجهه وقال : ويحك ارسلنى !

قال عبد الله بن أبى : والله لا أرسلك حتى تحسن فى حلفائى ، أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصُدهم فى غداة واحدة ! إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

فقال له عندئذ : هم لك .

لم يكن بد من هذا الرضوخ حفاظاً على وحدة المسلمين ، لأن إصرار عبد الله بن أبى كان من شأنه لو أن محمداً رفض ، أن يحدث فتنة فى صفوف

---

(١) آل عمران ١٢ — ١٣

المسلمين لا يعلم أحد كيف تنتهي . أما عُبادة بن الصامت ، وكان من بني عوف ، وله من حلفهم مثل الذى لهم فى عبد الله بن أبى ، فإنه مشى إلى محمد وتبرأ إليه وإلى الله من حلفهم وقال : يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

عندئذ نزلت فيه وفى عبد الله بن أبى الآيات : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة »[١] . يعنى عبد الله بن أبىّ ، إلى قوله : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »[٢] . يعنى عُبادة بن الصامت .

وانتهى الاتفاق أخيراً على أن يخرج بنو قَيْنُقاع من المدينة وإن كان عبد الله بن أبى قد حاول أن يحدّث محمداً فى بقائهم ، إلا أن بعض المسلمين حال دون أن يعود فيحدثه فى شأن من شئونهم . ووكل أمر إجلائهم إلى عُبادة بن الصامت فأذعنوا وتركوا المدينة جميعاً وخلفوا السلاح وأدوات الذهب الذى كانوا يصوغون . وساروا صوب الشمال حتى حطوا رحالهم فى وادى القرى ، فأقاموا حيناً ، ثم تركوها إلى أذْرِعات على حدود الشام . وقسم محمد الغنائم التى غنموها منهم على المسلمين ، وأعطى سهم ذوى القُربى لبنى هاشم وبنى المطلب دون أخويهما عبد شمس ونوفل . فلما سئل عن ذلك قال : إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد فى الجاهلية والإسلام ، هكذا - وشبك بين أصابعه .

خيم الهدوء على المدينة بعد جلاء بنى قَيْنُقاع قرابة شهر . ثم بلغ مسامع المسلمين أن أبا سفيان أغار فى جمع من قريش عدده فى قول مائتا راكب ، وفى قول أربعون ، على رجل من الأنصار وأجيراً له يعملان فى

---

(١) المائدة ٥١ - ٥٢ (٢) المائدة ٥٦ .

حقل لهما على مسافة ثلاثة أميال من المدينة فقتلوهما وحرقوا بيتين من بيوت العريض ونخيلا وتبناً . فخرج إليه محمد فى مائتى رجل من المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك فى الخامس من ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة ، واستعمل على المدينة أبا لُبابة بشير بن عبد المُنْذر .

غير أنه يلوح أن أبا سفيان لم يكن يقصد حرباً ، وإنما أراد أن تبرّ يمينه عندما عاهد نفسه بعد غزوة بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً . ولذلك عاد أدراجه مسرعاً بعد هذه الغارة إذ برت يمينه . وحث محمد وأصحابه السير خلفهم حتى وصلوا قَرْقَرَة الكَدَر ، ثم انصرفوا راجعين وقد فاتهم أبو سفيان وأصحابه ، إذ عمدوا إلى الفرار مسرعين عند ما علموا بمطاردة المسلمين لهم ، وكانوا يلقون أزواداً كثيرة لتخف حمولتهم ، وعامتها السَّويق (الناعم من طحين القمح والشعير) فسميت لذلك غزوة السويق .

وفى شهر ربيع الأول من سنة ثلاث بلغ الرسول أن جمعاً من غطفان من بنى ثعلبة بن محارب قد تجمعوا بذى أمَرّ يريدون الغارة على المدينة ، فخرج إليهم فى أربعمائة وخمسين رجلا فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان . فلما وصل المسلمون ذلك الماء المسمى بذى أمر لم يجدوا أحداً إذ كانت الأعراب قد هربت إلى رؤوس الجبال ، فعسكروا هناك . وفى تلك الأثناء خرج محمد لحاجته فهطل عندئذ مطر شديد فابتلت ثيابه ، فنزل تحت شجرة هناك بعيداً عن أصحابه وخلعها ونشرها لتجف ، وذلك بمرأى من المشركين . وظن المشركون أنهم يستطيعون إصابة محمد إذ ذاك فأرسلوا له رجلا شجاعاً منهم يقال له غورث ابن الحارث أو دُعثور بن الحارث ليقتله . فأقبل ومعه سيف صقيل حتى باغته ووقف على رأسه شاهراً سيفه ، وقال : من يمنعك منى يا محمد ؟ فقال : الله . وعندئذ سقط السيف من يد الرجل هيبة ورعباً ،

فتناوله محمد وقال له : من يمنعك منى ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والله لا أكثّر عليك جمعاً أبداً . فأعطاه محمد سيفه ، فتحول قلب الرجل من عداوة الرسول والإسلام إلى محبته والدعوة إلى دينه . ونزل فى ذلك قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم »[1] .

وبلغه بعد ذلك بقليل أن جمعاً من بنى سليم يريدون الغارة على المدينة فسار إليهم فى ثلاثمائة من أصحابه . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، حتى إذا بلغ بُحْران وهو موضع بناحية الفُرُع بالحجاز كان الجمع قد تفرق ولم يلق كيداً فرجع .

كانت هذه المناوشات فى غالب الظن بإيعاز من قريش تأميناً لطريق تجارتها إلى الشام ، ولكن اتضح لها أن الطريق أصبح غير آمن وأن حلفاءهم من الأعراب غير قادرين على حماية الطريق ، وأن الرسول وأصحابه لهم بالمرصاد . تشاور عندئذ سادة قريش فى هذا الأمر فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عوّروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسكن . وإن أقمنا فى دارنا هـذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء . وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشـتاء . فقال له الأسود بن المطلب : تنكب طريق الساحل وخذ طريق العراق . وعندئذ وجدوا ألا مفر من اتخاذ طريق العراق فاتفقوا مع دليل خبير بهذه الطريق من بنى بكر بن وائل ، هو فرات بن حيان يسير بهم فيها . فتجهز صفوان بن أمية وخرج بتجارة قريش وأكثرها من الفضة تبلغ قيمتها مائة ألف درهم . وفى تلك الأثناء عاد إلى المدينة نعيم بن

---

(١) المائدة ١١

مسعود الأشجعي قادماً من مكة ومعه خبر هذه القافلة ، فجمعه مجلس شراب بسُلَيْط بن النعمان أحد المسلمين ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، فعلم منه خبر القافلة ، فأسرع وأخبر محمداً . فقام من ساعته وجهز زيد بن حارثة فى مائة راكب ليعترضوا القافلة ، فأسرعوا إليها وبلغوها عند ماء يقال له القَرْدَة ، ففر صفوان ومن معه واستولى المسلمون على القافلة برمتها ، فكانت أول غنائم المسلمين الكبيرة . ولم يأسر المسلمون غير رجل واحد هو فرات بن حيان دليل القافلة ، فأسلم وأنقذ رقبته . وخمّس محمد الأموال فكان خمسه عشرين ألف درهم ، وقسم الباقى على زيد وأصحابه الذين خرجوا معه .

وفى حوالى ذلك الوقت تزوج محمد من حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكان خُنَيْس زوج حفصة أحد السابقين إلى الإسلام قد مات عنها قبل ذلك بسبعة أشهر . كذلك زوّج محمد عثمان بن عفان ابنته أم كلثوم ، وكانت رقية أختها قد توفيت فى أعقاب غزوة بدر يوم أن وصل البشيران اللذان أرسلهما للمدينة يبشران بالنصر .

وأما على بن أبى طالب فتزوج فاطمة بنت محمد فى ذلك الوقت أيضاً . ويروى فى ذلك أن علياً لم يكن يملك شيئاً يمهرها إياه ، فلما جلس بين يدى ابن عمه يريد أن يكلمه أفحم ولم يستطع أن يتكلم جلالة وهيبة . فقال له محمد : ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت ، فقال : لعلك جئت تخطب فاطمة ؟ قال : نعم . قال : وهل عندك شىء تستحلها به ؟ قال على : لا والله يا رسول الله . فقال : ما فعلت بدرع كنت قد سلحتك بها . قال : عندى . قال : قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها . وفى ذلك قال على : إن صـداق فاطمة بنت محمد كان درعاً حُطَمِيّة ما قيمتها أربعة دراهم .

الفصل التاسع

غزوة أُحُد

أشارت الأحداث السابقة إلى المتجه الذى كان لا بد أن يسير فيه محمد وأصحابه من ناحية ، ومشركو قريش من ناحية أخرى . فمحمد لن يكف عن قريش ولن يترك طريق تجارتها آمناً ، ولن يتنازل قيد أنملة عن تحرير الكعبة من أوثانها . وقريش لن يهدأ لها بال حتى تأخذ بثأر أشرافها وسادتها أصحاب القليب الذين جندلتهم سيوف المسلمين فى ساحة بدر ، ولن تتراجع عن العمل لاستعادة هيبتها ومكانتها المفقودة . ولقد حدثت فعلا عدة مناوشات منذ وقعة بدر حتى الآن — لم تغن قريشاً شيئاً ، وإن أفادت قطعاً الخطة التى انتهجها المسلمون ، وهى تهديد طريق تجارة قريش — كانت إيذاناً بتجمع العاصفة التى هبت عند أحد فى صبيحة ذلك اليوم من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

لما رجعت قريش منهزمة من بدر ، وقد أوجعتهم سيوف المسلمين وأذلت رقابهم الهزيمة وحز فى نفوسهم ذلك الألم المبرح لفقد الآباء والأبناء والأخوة والصحاب الذين تركوا من خلفهم مجندلين صرعى فى ساحة بدر ، وعاد أبوسفيان بتجارتهم سالمة ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، وكلموا أبا سفيان وأهل مكة ممن كان له فى القافلة تجارة ، أن يخصصوا ربحها جميعاً لتجهيز جيش يحاربون به محمداً وأصحابه ، لعلهم يدركون منهم ثأراً ، فقبل الجميع . وكانت أرباحها مماثلة لرأس مالها ، أى خمسين ألف دينار ، خصصت جميعاً لتجهيز ذلك الجيش . وفى ذلك نزل قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن

سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون »[١] .

اجتمعت قريش لحرب محمد وأصحابه ، وأخذت تحرض قبائل كنانة وأهل تهامة على الخروج معهم ، وأرسلت الشاعر أبا عـزّة إليهم ليحرضهم بعد أن أغرته على نقض عهده مع محمد بعد أن منّ عليه يوم بدر وأطلقه من الأسر على ألا يظاهر عليه . فجعل يسير فى تهامة ويدعو بنى كنانة ويقول :

أيا بنى عبـــد مناة الرُّزام[٢] ... أنتم حُمـــاة وأبوكم حـــام
لا يَعِدُونّى نصركم بعد العام ... لا تُسْلمونى لا يحل إســـلام

وخرج غيره من الشعراء ، واجتمع فى النهاية ثلاثة آلاف مقاتل ، معهم مئتا فرس وسبعمائة بعير ، من قريش وقبائل كنانة وأهل تهامة وبنى المصطلق المسمون بالأحابيش ، وهم حلفاء قريش ، وأبو عامر عبد عمرو بن صيفى ومعه خمسون رجلا من الأوس ، كانوا قد خرجوا من المدينة كراهية لمحمد . وأبو عامر هذا كان يسمى فى الجاهلية الرّاهب لكثرة تعبده . وخرجت معهم جماعة من شريفات نساء قريش التماس الحميّة وتشجيع المقاتلين على الدفاع عن المحارم وألا يفروا . فخرجت هند بنت عتبة بن ربيعة مع زوجها أبى سفيان صخر بن حرب وهو قائد الناس يومئذ ، وخرجت أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة مع زوجها عكرمة بن أبى جهل ، وخرجت فاطمة بنت الوليد بن المغيرة مع زوجها الحارث بن هشام ، وخرجت غيرهن فبلغن جميعاً حوالى خمس عشرة امراة . وخرج معهم القيان يحملن الدفوف والمعازف ، والغلمان يحملون الخمور .

خرجت قريش طلباً لثأرها يملأ الحقد قلوب رجالها ونسائها جميعاً .

---

(١) الأنفال ٣٦

(٢) الرزام : جمع رازم . أى ثابت لا يبرح فى الحرب .

وكان حمزة بن عبد المطلب ممن يحرصون أشد الحرص على قتله . وهو الذى فعل فيهم الأفاعيل يوم بدر . دعا جُبَيْر بن مُطْعِم غلاماً له حبشياً كان ماهراً جداً فى قذف الحربة قذف الحبشة . قلما يخطئ إذا رماها ، فقال له : اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمّى طُعَيْمة بن عدى فأنت حر . وكانت هند زوج أبى سفيان ممن يحرصون أيضاً على قتل حمزة ، فهو الذى قتل عمها شيبة وأجهز على أبيها عتبة ، فكانت إذا مرت بوَحْشيّ هذا أو مر هو بها تقول : ويها أبا دَسْمة اشْف واشتف ، أى اقتل حمزة فاشف غليلى وحرر نفسك .

وفى تلك الأثناء كان رسول من مكة أرسله العباس بن عبد المطلب قد وصل برسالة إلى المدينة . وكان العباس قد امتنع عن الخروج مع قريش ذلك اليوم محتجاً بما أصابه يوم بدر . ومما لا شك فيه أن العباس ما كان ليقاتل ابن أخيه ، وهو الذى منعه طوال حياته ، وكان ليفديه بدمه وماله ؛ وهو الذى حضر معه بيعة العقبة الثانية ليستوثق له من الأنصار ، ويتأكد من حمايتهم له . ولقد كفته تجربة بدر إذ خرج مستكرهاً مع قومه يومئذ ، فلقى فيها ما لقى مما تكره نفسه . وصل رسول العباس المدينة فعلم أن محمداً بقُباء . فتوجه إليه فإذا هو أمام باب المسجد يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب . فقرأه عليه أبو كعب . فاستكتمه الخبر . وعاد مسرعاً إلى المدينة فقصد من توه إلى سعد بن أبىّ فى داره فأطلعه على ما فى كتاب العباس واستكتمه الخبر أيضاً . غير أن امرأة سعد كانت بمقربة منهما فسمعت الخبر فلم يعد سراً .

بعث محمـــد أنَساً ومؤنِساً ابنى فضالة ليستطلعا له أخبار قريش . فوجداها قد نزلت ببطن الوادى المقابل للمدينة قبلى جبل أحُد . وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع المدينة القريبة منها . ثم إنه بعث الُحباب بن المنذر ابن الجموح ليأتيه بمزيد من الأخبار فأكد له ما قال أنس ومؤنس . وتجمع

الناس ، وبات كبار المسلمين وعليهم السلاح فى المسجد خوفاً على النبى أن يدهم الكفار المدينة فى أثناء الليل ، وباتت جماعات هنا وهناك تحرس مداخل المدينـــة .

فلما أصبحوا جمع محمد أهل الرأى من المسلمين للتشاور فى كيفية لقاء هذا العدو الذى أقبل عليهم بحده وحديده ، وجمع لهم جيشاً لم تجمع قريش مثله من قبل .

رأى محمد التحصن فى المدينة ، وقال لأصحابه : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشَرِّ مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

وقال عبد الله بن أبىّ بن سلول : لقد كنا يا رسول الله نقاتل فيها ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصَّياصِيّ[1] ونجعل معهم الحجارة ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فإذا أقبل العدو رمته النسوة والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك . إن مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضَّت علينا قط وما دخل علينا عدوٌ فيها إلا أصبناه ، وما خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا ، فدعهم يا رسول الله وأطعنى فى هذا الأمر ، فإنى ورثت هذا الرأى عن أكابر قومى وأهل الرأى فيهم .

لم يرض بهذا الرأى الذى أخذ به النبى وكبار الصحابة رجالا من الذين لم يشهدوا بدراً ، وقد علموا بما كان لأصحاب بدر من الفضيلة ، فرغبوا فى أن يكونوا مثلهم ، ولم يعجب طائفة أخرى من الشبان المتحمسين الذين لم يتمالكوا أنفسهم وخيل قريش وإبلها ترعى زروعهم على مرأى منهم .

قال الذين لم يشهدوا بدراً : كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير .

(١) الحصون ، ومفردها الصِّيصِيَة .

وقال نُعَيم بن مالك بن ثعلبة ، وهو أحد بنى سالم : يا نبى الله لا تحرمنا الجنة ، فوالذى نفسى بيده لأدخلنها .

فقال له محمد : بم ؟ قال : بأنى أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف . فقال : صدقت .

وقال رجال منهم حمزة : والذى أنزل عليك الكتاب لنجادلنهم .

وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شِعْبِنا ؟

وقال رجال : ماذا نمنع إذا لم نمنع الحرب بِرَوْع ؟

وقال قائل منهم : إنى لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون : حصرنا محمداً فى صياصى يثرب وآطامها فتكون هذه مُجرِّئة لقريش ، وها هم قد وطئوا سعفنا ، فإذا لم نذبّ عن عرضنا لم يزرع ، وإن قريشاً قد مكثت حولا تجمع الجموع وتستجاب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا قد قادوا الخيل وامتطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا ، أفيحبسوننا فى بيوتنا وصياصينا ، ثم يرجعون وافرين لم يكلموا ! لئن فعلنا لازدادوا جرأة ولشنوا الغارات علينا وأصابوا من أطرافنا ووضعوا العيون والأرصاد على مدينتنا ثم لقطعوا الطريق علينا .

وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو . فنزل محمد على رأى غالبية الناس ، فقام فصلى الجمعة ووعظ الناس وذكرهم ، وأمرهم بالجد والجهاد ، ثم دخل بيته ليلبس درعه ومعه أبو بكر وعمر .

وفى تلك الأثناء تحاور الناس فى أمر الخروج أو البقاء بالمدينة . وقال بعضهم : إن النبى أمرنا أن نمكث بالمدينة وهو أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحى من السماء ، وقال أسَيْد بن حُضَير وسعد بن مُعاذ لمن أرادوا الخروج وصمموا عليه . لقد رأيتم رسول الله يرى التحصن بالمدينة فقلتم ما قلتم واستكرهتموه على الخروج وهو له كاره ، فردُّوا الأمر إليه . فما أمركم فافعلوه ، وما رأيتم فيه هوى أو رأياً فأطيعوه .

فلما خرج لهم وعليه درعه وقد تقلد سيفه وأذن للناس بالخروج ، قالوا : يا رسول الله امكث كما أمرتنا .

فقال : ما ينبغى لنبى إذا لبس درع الحرب وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل . وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا .

ثم عقد ألوية الجيش فأعطى لواء المهاجرين لمُصْعَب بن عُمير ، ولواء الخزرج للحُباب بن المُنْذِر ، ولواء الأوس لأسَيْد بن حُضَير . وخرج من المدينة على رأس ألف من المهاجرين والأنصار . واستعرض الجيش فرّد جماعة من الغلمان ولم يأذن لهم بحضور الحرب لصغر سنهم ، منهم عبد الله بن عمر ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبرّاء بن عازب ، وأسيد بن ظُهَير ، وعرابة بن أوس بن قيظى . وهؤلاء أجازهم جميعاً يوم الخندق ، وكانوا قد بلغوا الخامسة عشرة . ثم إنه كان قد رد أيضاً فى ذلك اليوم سَمُرَة بن جُنْدُب ورافع بن خَدِيج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، فلما قيل له إن رافعاً رامٍ أجازه ، وعندئذ بكى سمرة وقال : أنا أصرع رافعاً ، فأجازه . كذلك منع جماعة من الأنصار أرادوا الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة وقال : لا حاجة لنا فيهم . واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وبات خارج المدينة ليلة السبت ، واستعمل على حرس الجيش محمد ابن مسلمة ، وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس . وفى السحر من يوم السبت الحادى عشر من شوال سنة ثلاث سار الجيش تجاه أحُد حيث نزلت قريش . وبينما هم فى بعض الطريق عند الشوط ، وهو بستان بين أحُد والمدينة انخزل عنه عبد الله بن أبىّ بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس ؟ ورجع بمن اتبعه من قومه ، وكان لا يزال صاحب كلمة فيهم ، أو قل إن هؤلاء الذين تبعوه كانوا من أهل النفاق

والرّيب مثله . وعند ذاك اتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السَّلمى والد جابر بن عبد الله وقال لهم : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر مِنْ عدوهم . قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أن يكون قتال .

وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله تعالى : « وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقربُ منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون »[1] .

ثم إن بنى سلمة وبنى حارثة همتا أيضاً لما رجع عبد الله بن أبىّ وأصحابه أن تفشلا وتعودوا ولكنهم ثبتوا . ولهذا قال فى كتابه العزيز « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[2] .

أراد محمد أن يصل إلى ساحة المعركة من طريق قريبة لا تمر بعسكر الأعداء ، فدلّه أبو خيثمة أخو بنى حارثة بن الحارث على طريق سار فيها فى حرة بنى حارثة وبين بساتينهم وزروعهم . فلما مرُّوا فى بستان مِرْبَع بن قيظى ، وكان رجلا منافقاً ضرير البصر ، قال إذ سمع صوت محمد ومن معه من المسلمين : إنى لا أحل لك أن تدخل فى بستانى وإن كنت رسول الله . وأخذ حفنة من التراب فى يده وقال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك . وعندئذ ابتدره جماعة من القوم ليقتلوه ، فنهاهم محمد عن ذلك وقال : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر . ولكن كان سعد بن زيد أخو بنى عبد الأشهل قد سبق إليه قبل أن ينهاهم عنه وضربه ضربة شديدة بقوسه فشجّ رأسه .

ثم وصل جيش المسلمين ساحة القتال فى سبعمائة مقاتل مشاة ليس معهم

---

(١) آل عمران ١٦٧

(٢) آل عمران ١٢٢

فرس واحد ، وعسكروا فى جانب الوادى وجعلوا ظهرهم إلى الجبل عند شِعْبه . وقبالتهم جيش المشركين فى ثلاثة آلاف مقاتل .

بدأ محمد يعد أصحابه للقتال فابتدرهم أول شيء بقوله : لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال . وكانت قريش قد أطلقت إبلها وخيلها ترعى فى بعض زروع المسلمين القريبة ، فلم يتمالك رجل من الأنصار نفسه أن يقول : أتُرْعى زروع بنى قَيْلة ولما نضارب ؟ !

أى نعم ! فقد كان الموقف دقيقاً جداً ، ولم يكن المسلمون عندئذ لقلة عددهم وعدتهم فى موقف يسمح بأية هفوة أو عجلة ، فربما يكون فى ذلك القضاء المبرم عليهم . اختار محمد أصلح موضع يمكن أن يقاتل فيه المسلمون . الجبل من ورائهم يحمى ظهورهم ، وليس فيه غير شِعْب ضيق حصنه بخمسين من الرماة الشداد وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف ، وهو مُعْلَم يومئذ بثياب بيض ، وأمرهم أن يثبتوا عند هذا الشعب ويرموا خيل المشركين بالسهام حتى لا تأتيهم من خلفهم ، وأكد عليهم أن يثبتوا فى مكانهم سواء أكانت نتيجة الواقعة للمسلمين أو عليهم حتى لا يأتى أحد من خلفهم . والحق أن محمداً كان شديد الحرص على الدفاع عن هذا الموضع ، وقد كان مصيباً ولا شك .

استعد الجيشان للقتال ، ووقف كل منهما إزاء الآخر انتظاراً لأول شرارة يحتدم بعدها قتال مرير . فهذا جيش المسلمين ، سبعمائة رجل فقط ليس فيهم راكب واحد ، ولكن فيهم محمد رسول الله ، وفى قلوبهم إيمان مطلق بالله وبرسوله ، وعهد قطعوه على أنفسهم ألا يفروا وألا ينهزموا ، فالنصر أو الشهادة وجنة عرضها السماوات والأرض . ومن خلفهم الجبل ، وقد تسلق رماتهم جنبات الشعب ونثروا السهام استعداداً للمعركة . وهذا جيش المشركين ، ثلاثة آلاف مقاتل . يملأ قلوبهم حقد دفين ورغبة مجنونة فى الأخذ بثأر قتلاهم يوم بدر . وعلى ميمنتهم مائة فارس يقودهم فارسهم

خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتهم مائتا فارس آخرين يقودهم عِكْرِمة بن أبى جهل ، وفى مقدمتهم سبعمائة بعير عليها رجال شداد ، ومن خلفهم ألفان أو أكثر من المشاة . وقد أخذت النسوة وعلى رأسهن هند بنت عتبة يمشين بين الصفوف ، وفى المقدمة ، وعند الميمنة ، وعند الميسرة ، وفى المؤخرة ، وهن يضربن بالدفوف والطبول ويحرضن الرجال تحريضاً شديداً قائلات :

ويها بنى عبد الدار ويها حُماة الأديار

ضرباً بكل بتار

ويقلن :

إن تقبلوا نُعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وأخذ محمد يخطب فى الناس ويحرضهم على الثبات والقتال ويعدهم بالنصر ، ويثبت قلوبهم ويشجعهم . رفع سيفه ذا الفقار وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه . فقام إليه رجال منهم الزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب فأمسكه عنهم ، حتى قام أبو دُجانة سِمَاك بن خرْشة أخو بنى ساعدة وقال : وما حقه يا رسول الله ؟

قال : أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى .

قال : أنا آخذه يا رسول الله . فأعطاه إياه .

وكان أبو دُجانة من أشجع الناس وأقواهم ، وكانت له عصابة حمراء يعتصب بها فيُعْلَم ، إذا ما اعتصب بها عرف الناس أنه سيقاتل . فلما تناول سيف رسول الله . أخرج عصابته فاعتصب بها : فقالت الأنصار : أخرج أبو دُجانة عصابة الموت . ثم أخذ يتبختر بين الصفّين إعجاباً بنفسه وزهواً بقوته وشجاعته . فلما رآه محمد يفعل ذلك قال : إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن .

حمى الناس والتقى الجمعان ، وكان أبو عامر أول من أقدم على المسلمين

فى الأحابيش وعبدان أهل مكة . وكان قد خرج من المدينة مباعداً لمحمد ومعه خمسون من غلمان الأوس . فلما تقدم من المسلمين نادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . ظناً منه أنهم سينصرونه ، فردوا عليه قائلين : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق !

استمات المسلمون فى القتال ، وقاتل أبو دُجانة وحمزة قتالا شديداً حتى أمعنا فى الناس . وكانت صيحة القتال يومئذ : أمِتْ ، أمِتْ ! لم يلق أبو دجانة أحداً إلا قتله . روى كعب بن مالك أن رجلا من المشركين عليه درع عظيم ، كان يسير فى صفوف المسلمين وهو يقول : اجتمعوا كما تجتمع الغنم الذبيحة . وإذا أبو دجانة ينتظره حتى اقترب منه والتقيا ، فلم يمهله أبو دجانة أن ضربه على حبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت وركه وتفرق الرجل فرقتين . ثم كشف أبو دجانة عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دُجانة . وروى الزبير بن العوام أنه وجد فى نفسه عندما أعطى محمد سيفه إلى أبى دجانة ولم يعطه إياه عنـــد ما طلبه ، وهو ابن صفية عمته ومن قريش ، فعمد إلى أبى دجانة ينظر ماذا يصنع ، قال : جعل أبو دجانة لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان فى المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا أجهز عليه ، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دُجانة فاتقاه بدرقته فعضت سيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله . ورأى أبو دجانة إنساناً يحمس الناس حمساً شديداً ، فصمد له وحمل عليه بالسيف فإذا به امرأة تولول هى هند بنت عتبة ، فأكرم سيف رسول الله أن يضرب به امرأة .

وبينما المعركة على أشدها فى صبيحة هذا اليوم ، تقدم بين الصفوف وَحْشِيٌّ ، ذلك العبد الحبشى ، يرقب حمزة بن عبد المطلب ، قال : «خرجت مع الناس وكنت رجلا حبشياً أقذف بالحربة قَذْفَ الحبشة قلَّ ما أخطئ بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض

الناس كأنه الجمل الأورق يهُدُّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء ، فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى ، إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العُزَّى ، فلما رآه حمزة قال : هلُمَّ إلىَّ يابن مُقَطِّعة البُظور (وكانت ختانة بمكة) فضربه ضربة فكأنما هو أمس الذاهب . ثم هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثُنَّته ، حتى خرجت من بين رجليه ، فاتجه نحوى فغُلِبَ ، فتركته وإياها حتى مات ، ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعْتَق » . وكان وحْشِيٌّ غلاماً لجبير بن مُطْعِم ، وكان جُبير قد وعده ، كما سبق ، أن يعتقه إذا هو قتل حمزة بعمه طُعَيْمة بن عدِيّ الذى قتل يوم بدر .

وممن أبلوا بلاء حسناً ذلك اليوم وأمعنوا فى المشركين ، رجل من المنافقين الذين أظهروا الإسلام عن غير عقيدة خالصة يقال له قُزْمان . تخلف عن الخروج مع المسلمين أول الأمر ، فلما أصبح عيره نساء بنى ظَفَر فقلن له : يا قزمان ألا تستحى لما صنعت ! ما أنت إلا امرأة ! خرج قومك فبقيت فى الدار . عندئذ أخذته العزَّة فقام من توه فدخل بيته وأخرج قوسه وجعبته وتقلد سيفه ، وكان شجاعاً مقداماً ، فأقدم يعدو إلى حيث جيش المسلمين ، فوصل قبل المعركة والنبى يسوى صفوفهم ، فتخطى الصفوف حتى وقف فى أول صف منها . وكان أول من هاجم من المسلمين ، وظل طوال نهاره يرمى المشركين بسهامه حتى انهزم المسلمون فى آخر النهار ، ففضل الموت على الفرار وصمد حتى أصيب بعد أن قَتَل سبعة رجال فى ساعة واحدة . فلما مرَّ به أبو الغَيْداق وهو يُسْلِم الروح وقال له : هنيئاً لك الشهادة يا قزمان ، قال : إنى والله ما قاتلت يا أباعمر على دين . ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا فتقتحم حرمنا وتطأ سعفنا . فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى . ولولا ذلك ما قاتلت. ثم قتل نفسه .

أما المسلمون الذين كانوا يقاتلون عن عقيدة فقد قاتلوا والله قتالا أشد من هذا وأمرّ . لقد قاتلوا وهم الأقل عدداً وعُدّة وهزموا عدوهم فى أول النهار حتى صرعوا من حملة اللواء سبعة أو تسعة . كان طلحة بن أبى طلحة العبدرى حامل لواء المشركين ، وكان فتاكاً ، قد دعى إلى البراز فأحجم عنه الناس ، غير أن الزبير بن العوام برز له فوثب حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه . فتناول لواء المشركين رجل إثر الآخر منهم فيصرع ، حتى لم يعد أحد منهم يجرؤ على تناوله حتى تناولته عَمْرَة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فتجمعوا حوله ، وتناوله صواب وهو غلام حبشى لبنى أبى طلحة ، وهو آخر من أخذه منهم . فقاتل به حتى قطعت يداه ثم برك عليه وأخذه بصدره وعنقه حتى ناشته سيوف المسلمين فقتل وهو يقول : اللهم قد أعذرت . عند ذاك لم يستطع أحد من المشركين الإقدام لرفع اللواء ، وانهزموا أمام هذا الطوفان الإسلامى ، وتقهقروا عن المعسكر ، وكادت نساؤهم أن يؤسرن .

غير أن المسلمين تصرفوا عندئذ تصرفات خرقاء ، فإنهم بدل أن يثخنوا فى عدوهم الفار المنهزم ويمعنوا فيه قبل أن يفيق إلى نفسه ، انقضوا على المعسكر ينهبونه ، وظنوا أنهم ظفروا بعدوهم وأنه سوف لا يعود إليهم . فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة الذين عهد إليهم محمد بحماية ظهر الجيش عند شعب الجبل قالوا : الغنيمة ، أى قوم الغنيمة ، انتصر أصحابكم ، فما تنتظرون ؟ فقال لهم عبد الله بن جُبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟ وكان عند ما وضعهم موضعهم قال لهم : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا انتصرنا على عدونا وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . غير أن أصحاب عبد الله بن جُبَير عصوا ذلك الأمر وقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة . ولم يذعن للأمر غير عشرة أو نحو ذلك ظلوا معه حيث وضعهم محمد لم يبرحوا .

اغتنم هذه الفرصة خالد بن الوليد ، فاتجه بفرسانه إلى حيث كان رماة المسلمين فقتل بعضهم وأجلى البقية الباقية منهم ، ودار خلف جيش المسلمين ، وانضم إليه عِكْرِمة بن أبى جهل بفرسانه ، وهجموا هجمة شديدة على المسلمين فأوقعوا الاضطراب فى صفوفهم فانهزموا وتركوا عروض الدنيا التى كانوا يجرون وراءها ، وراحو يبحثون عن سيوفهم ، وأخذ يضرب بعضهم بعضاً لا يدرون ماذا يفعلون من الدهش والروْع ، وقتل مصعب بن عمير حامل لوائهم ، وقتل منهم ناس كثير ، وانقلب اليوم من يوم من أيام النصر العظيم إلى يوم بلاء كبير ومحنة قاسية .

وأشاع ابن قَمِيئَة أنه قتل محمداً ، وتنقل الخبر هنا وهناك تنقل البرق أن محمداً قد قتل . فحدث بهتة عظيمة ، وفتّ هذا الخبر الرهيب فى عضد المسلمين ، فدخل الفشل فى صفوفهم ، وتفرقوا فرقاً . فانطلقت جماعة منهم فوق الجبل إلى الصخرة وقعدوا هناك وقد أذهلتهم الهزيمة فقال بعضهم : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبىّ فيأخذ لنا أمنه من أبى سفيان ، يا قوم إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم . وفلّ جماعة هاربين ، منهم الوليد بن عقبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن المُعَلّى ، وعثمان ابن عفان ، وأرادوا العودة إلى المدينة ، غير أنهم استحيوا أن يدخلوها هاربين فارين من العدو ، فضربوا فى الصحراء ولم يرجعوا إلا بعد ثلاثة أيام .

وجلس جماعة من المهاجرين والأنصار منهم عمر بن الخطاب وأبو بكر مذهولين من وقع الخبر الذى سمعوا ، فلقيهم أنس بن النضر فقال لهم : ما يجلسكم هاهنا ؟ فقالوا : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : وما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن كان محمد قد قتل فإن ربّ محمد لم يُقتَل . ثم شد بسيفه واستقبل المشركين وقاتل قتالا عنيفاً حتى قتِل . وقد روى أنس بن مالك وهو ابن أخيه أنهم وجدوا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ،

عرفته من بنانه . ثم إن الله أنزل فى ذلك قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرُّسُل أفإن مات أوقُتِل انقلبتم على أعقابكم »[1] .

وبينما المسلمون يقاسون تلك البهتة التى أخذتهم ، كان محمد عليه السلام يقاسى شدائد عظيمة ، تحملها بثبات ليس له مثيل ، وهو يُجمِّعُ الناس من حوله ، فى محاولة لإعادة تنظيم صفوفهم ، وهو يقول : إلىَّ عباد الله ، إلىَّ عباد الله . كاد فى تلك الأثناء يقع بين براثن المشركين ليس من حوله غير حفنة من المسلمين يدافعون عنه دفاع المستميتين . رماه عتبة بن أبى وقّاص فكسر رُباعيته اليمنى السُّفْلى ، وجرح شفته السفلى ، وشجه عبد الله بن شهاب الزُّهرى فى جبهته ، وجرّح عبد الله بن قمئة وجنته ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجنته ، فجاءه أبو عبيدة فانتزع الحلقتين بأسنانه فكسرت ثنيتاه . ووقع فى حفــرة من الحفر التى عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة بن عُبيد الله ، ويقال إنه عند ما وقع لشقه أغمى عليه ، فلما أفاق قال : كيف يُفْلِح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله ؟ فأنزل الله قوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون »[2] .

وكانت أم عُمارة نَسيبة بنت كعب المازنيــة ممن ثبت إلى جانبه يذود عنه بالسيف ساعة الهزيمة . وكانت نسيبة ممن خرجن من نساء المسلمين منذ أول النهار تنظر ما يصنع الناس ومعها سِقاء فيه ماء ، فلما انهزم المسلمون ألقت السقاء وانحازت إلى رسول الله وقامت تباشر القتال بحد السيف تذب عنه ، وترمى عن القوس حتى خاصت الجراح إليها ، إذ ضربها ابن قمئة فجرحها جرحاً كبيراً على عاتقها . وكان قد هجم حيث محمد وهو يقول : دلونى على محمد ، لا نجوت إن نجا . فاعترضت له نسيبة ومُصْعَب بن عمير وأناس ممن ثبت معه ، فضربها هذه الضربة ،

---

(١) آل عمران ١٤٤

(٢) آل عمران ١٢٨

فردت ضربته قبل أن تخور قواها ضربات ، ولكن لم تؤثر ضرباتها فيه إذ كان عليه درعان .

أما أبو دُجانة فترّس دون محمد بنفسه ، وانحنى عليه يستقبل سهام المشركين فى ظهره حتى كثرت فيه السهام . ورمى سعد بن أبى وقاص ، وكان من مشاهير الرماة المعروفين ، رميات صائبات ، ومحمد يقول له مغتبطاً : ارم سعد فداك أبي وأمى . وأما أبو طلحة الأنصارى فأبلى هو أيضاً بلاء عظيماً فى الدفاع عن نبي الإســلام ، إذ حمى محمداً بترس من جلد ، وكان رامياً هو الآخر شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً ، وكان إذا مرّ رجل معه جعبة من السهام قال له محمد : انثرها لأبى طلحة . وكان إذا رمى أراد محمد أن يرى أين تقع سهامه فيرفع رأسه وينظر ، فيرفع أبو طلحة صدره ويقول : هكذا بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا يصيبك سهم ، نحرى دون نحرك . وكان أبو طلحة يُسَوِّر نفســه بين يدى محمد ويقول : إنى جَلْد يا رسول الله ، فوجهنى فى حوائجك ومرنى بما شئت .

واستطاعت هذه الفئة القليلة المؤمنة أن تصمد وتحبط كيد المشركين وتردهم على أعقابهم خاسرين خائبين دون نبيهم . وكان كعب بن مالك أول من عرف محمداً من جموع المسلمين بعــد قول الناس قُتِلَ رسول الله ، قال : رأيت عينيــه تزهران من تحت المِغْفَر ، فناديت بأعلى صوتى يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأشار محمد أن أنْصِتْ ، خشية أن يسمعه المشركون فيشدون عليه .

فلما انقشعت هذه الدهشة ، تجمع عدد من المسلمين حوله ، فنهض معهم يسير نحو الشعب ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعلىّ ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير ابن العوام ، ورهط من المسلمين . وكان يسير بين سعد بن أبى وقاص ، وسعد بن عُبادة . فلما استند إلى جانب من الجبل يريد الصعود ، أدركه أبىّ بن خلف الجُمَحىّ وقد حلف ليقتلنه . فقال محمد : بل أنا أقتله ،

وتناول حربة الحارث بن الصمة وطعنه بها فى جيب الدّرع فجُرِح جرحاً خفيفاً ، لكنه وقع وهو يخور خوار الثور ، فاحتمله زملاؤه وقالوا : ليس بك جراحة فما يجزعك ؟ قال : أليس قال : لأقتلنك ! لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلهم . فلم يلبث يوماً أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح .

وكانت جماعة من قريش منهم خالد بن الوليد قد علت الجبل حيث صعد محمد فقال : اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا . وانبرى لهم عمر بن الخطاب فى رهط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض محمد إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد ثقل من السن ، فضلا عن درعين يثقلان كاهله ، فلم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وصعد فى الجبل ونجا بفضل الله وفضل رجال ذادوا عنه بأرواحهم . فقد كان الرجل منهم يتلقى السهم دونه ، حتى لقد وجد بطلحة وحده يومئذ نيف وسبعون جراحة وشُلَّت يده .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته : أنعَمَتْ فَعَال إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هُبَل ، أى أظهر دينَك .

فقال محمد لعمر : قم ياعمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجلّ ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

فقال له أبو سفيان : هلُمّ إلىّ يا عمر . فقال محمد لعمر : ائته فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟

فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن . قال : أنت عندى أصدق من ابن قمِئة وأبرّ .

ثم نادى أبو سفيان : إنه كان فى قتلاكم مُثْلة ، والله ما رضيت وما

سخطت ، وما أمرت وما نهيت . ذلك أن هنداً زوجه كانت قد جدعت أنوف وآذان القتلى واتخذت منها خلاخيل وقلائد ، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل .

فقال محمد لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينك موعد .

ولما انصرف القوم بعث محمد فى أثرهم على بن أبى طالب وقال له : اخرج فى آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . ثم قال : والذى نفسى بيده إن أرادوا المدينة لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم .

فخرج علىّ فى أثرهم ينظر ماذا يصنعون ، فإذا هم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، ووجّهوا إلى مكة .

فلما تيقن محمد أن المشركين رحلوا إلى حيث أتوا قال للمسلمين : استووا حتى أثنى على ربى عز وجلّ ، فصاروا خلفه صفوفاً فقال :

« اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبَضْت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مُضِلّ لمن هَدَيت ، ولا مُعْطِي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مُقرِّب لما باعَدْت ، ولا مبْعِد لما قرَّبت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك .

اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم إنى أسألك النعيم يوم العَيْلة والأمن يوم الخوف .

اللهم إنى عائذ بك من شرّ ما أعطيتنا وشرّ ما منعتنا .

اللهم حَبِّب إلينا الإيمان وزَيِّنْه فى قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفْرَ والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفَّنا مسلمين وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين .

اللهم قاتل الكفرة الذين يُكذّبون رُسلك ويصُدّون عن سبيلك ، واجعل عليهم رِجزَك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق» .

ثم فرغ الناس لقتلاهم . وخرجوا يلتمسونهم حيث صرعوا . فخرج محمد يلتمس عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسول الله ، فوجده ببطن الوادى قد بُقِرَ بطنه عن كبده ، ومثّل به فجُدع أنفه وأذناه . فلما وقف عليه ورأى به ما رأى قال : « لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلىّ من هذا ! » . ثم قال : « ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم . » فلما رأى المسلمون حزنه وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدّهر لنمثّلن بهم مُثلة لم يُمثّلها أحد من العرب . غير أن الله أنزل فى ذلك قوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »(١) .

وعند ذلك عفا محمد وصبر ونهى عن المُثلة .

وبينا محمد واقف على عمه لم يدفنه بعد ، أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه نظرة أخيرة ، وكان حمزة شقيقها ، فأمر محمد ابنها الزبير ابن العوام أن يلقاها فيرجعها حتى لا ترى ما بأخيها ، فلقيها وقال لها : يا أمة إن رسول الله يأمرك أن ترجعى . قالت : ولمَ ، وقد بلغنى أنه مُثّل بأخى وذلك فى الله ، فما أرضانا ما كان من ذلك ، لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله .

فلما رجع الزبير إلى محمد وأخبره بذلك قال : خلّ سبيلها ، فأتته فنظرت إليه وصلّت عليه واسترجعت واستغفرت .

ثم أمر به محمد فدفن فى برده ودفن معه ابن أخته عبد الله بن جحش ، وكان قد مُثّل به أيضاً ، غير أنه لم يُبقر عن كبده .

---

(١) النحل ١٢٦

وكان محمد بعد أن صلى على الشهداء قد أمر بأن ينزع عنهم الحديد والجلود وقال : « ادفنوهم بدمائهم وثيابهم » . وكانوا يجعلون الرجلين والثلاثة فى القبر الواحد ، ويحفرون لهم حيث صُرِعوا . وكان بعض أهل القتلى قد حملوهم ليدفنوهم بالمدينة ، فلما علموا بأن محمداً أمر بدفنهم حيث صرعوا عادوا بهم ودفنوهم مع رفاقهم فى ساحة أحد .

قتل فى ذلك اليوم من المسلمين حوالى سبعين رجلا ، ومن المشركين حوالى عشرين . ولم يؤسر من المسلمين أحد . وأسر من المشركين رجل واحد هو أبو عزّة الجُمَحىّ الشاعر ، أسِرَ فى حمراء الأسد .

الفصل العاشر

غزوة حمراء الأسد

عاد المسلمون فى مساء ذلك اليوم بعد أن فرغوا من دفن قتلى أحد ، وباتت المدينة تبكى بكاء مرًّا ، فقد صرع من الأنصار أكثر من ستين رجلا . ثم إن المدينة فارت بالنفاق فورَ المِرْجَل . فقد استغل المنافقون واليهود بكاء المسلمين وحزنهم على قتلاهم استغلالا ماكراً قبيحاً لتفريق كلمتهم وإبعادهم عن نبيهم وتشكيكهم فى دينهم .

قالت اليهود : لو كان محمد نبياً ما انتصر عليه المشركون ولا أصيب منه ما أصيب ، ولكنه طالب ملك تكون له الدولة يوماً وعليه آخر .

وقال المنافقون مثل ذلك ، وقالوا للذين قاتلوا : لو كنتم أطعتمونا ما أصابكم الذين أصابوا منكم .

وراح هذا أو ذاك من أعداء الإسلام يسأل المسلمين ضاحكاً منهم مستهزئاً شامتاً فيهم : إذا كانت بدر آية من الله برسالة محمد ، فماذا عسى أن تكون آية أحُد ؟

وبينما المسلمون فى هذا البـــلاء ، إذ قدم رجل من أهل مكة فسأله محمد عن أبى سفيان وأصحابه فقال : سمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدَّهم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقى منهم رؤوس يجمعون لكم .

ماذا إذن ؟ أى موقف عصيب ! فهذا جيش محمد قد انقسم على نفسه بالأمس وتخلف عنه ثلثه ، وهاهم الذين شهدوا موقعة أحد منذ ساعات لم يلعقوا بعد جراحهم ولم تهدأ أنفاسهم . ولكن هيهات أن يفت حدث مهما كان أمره ومهما كان خطره فى عضد محمد ، وهيهات أن يثبط موقف

مهما تأزم من عزيمته ، وهيهات أن تؤثر محنة كتلك التى شهدها منذ ساعات مهما كانت أهوالها فى شجاعته ، وفى إيمانه بالله وبنصره وبالرسالة التى يؤديها .

أينهزم محمد ؟ كلا والله ثم كلا !

قرر الخروج فوراً لملاقاة العدو وبالمسلمين أشد القَرْح ، حتى يسمع أهل مكة بأنه هو الآخر يجد فى أثرهم ، وأنه لا يهابهم ، وأنه مقدم على حربهم ومنازلتهم . وعندئذ أمر أصحابه الذين شهدوا معه قتال أحُد أن ينطلقوا معه ، ولم يسمح لأحد ممن لم يشهد القتال أن يخرج معهم ، حتى لقد رد عبد الله بن أُبىّ عند ما أراد الركوب معه . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم . ولقد قال الله فى هؤلاء :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم »(١) .

جد محمد وأصحابه فى أثر العدو حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهى تبعد عن المدينة ثمانية أميال . ولم يتخلف أحد ممن شهد موقعة أحُد غير جابر بن عبد الله ، إذ استأذن محمداً لأن أباه أمره بالمقام فى المدينة على أخواته فأذن له . لم يتخلف جريح لا يقوى على المشى . روى رجل من بنى الأشهل قال : « شهدت أحُداً أنا وأخ لى ، فرجعنا جريحين ، فلما أذّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى وقال لى : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ؟ والله ما كان لنا دابة نركبها ، وكان كل منا جريحاً ثقيلا . فخرجنا مع رسول الله ، وكنت أيسر جرحاً من أخى . فكان إذا أجْهِد حملته نوبة ومشى نوبة ، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون » .

وبينما هم معسكرون فى حمراء الأسد مرّ بمعسكر المسلمين مَعْبَد بن معبد الخزاعىّ ، وكان مشركاً ، وكانت خزاعة ، مسلمهم وكافرهم ، موضع سر

---

(١) آل عمران ١٧٢

محمد بتهامة ، وكان حلفهم معه ألا يُخفى أحد منهم عنه شيئاً بها ، تأثر معبد لما أصاب المسلمين فقال : يا محمد ، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم .

ثم إنه خرج من عند محمد قاصداً أبا سفيان بن حرب وقد أضمر خداعه وتضليله حتى لقيه بالروحاء ، وقد أجمع أبو سفيان وأصحابه العودة إلى المسلمين وهم يقولون : أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ ! لنكرّن على بقيتهم فلنفرغنّ منهم .

أقدم معبد على أبى سفيان ، فلما رآه قال له : ما وراءك يا معبد ؟ . قال : خرج محمد فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً . قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه يومكم وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط .

وأخذ معبد ينهاه عن الرجوع إلى لقاء جيش المسلمين ويخوفه منهم ، حتى دخلت هذه الحيلة على أبى سفيان . ومما لا شك فيه أن أبا سفيان وأصحابه لم ينسوا أن الدائرة كانت عليهم صبيحة يوم القتال ، وأن المسلمين لم ينهزموا إلا عند ما أتوا فعلة خرقاء ، فاختطف منهم فرسان المشركين النصر ، وهذا أمر قد لا يتكرر اليوم . ثم إنهم يجدون فى أثره ومعهم أصحاب لم يقاتلوا بالأمس كما أخبره معبد ، غير مجهدين ولا وجلين ، يتحرقون شوقاً للقائه ولقاء أصحابه . إذن فليكتف أبو سفيان بما نال من نصر اختطفه اختطافاً من المسلمين بالأمس ، وليحتفظ به . والحق أن أبا سفيان وأصحابه كانوا يدركون جيداً أنهم لم ينتصروا انتصاراً يؤهلهم لاستئصال المسلمين ، فأين الغنائم وأين الأسرى ؟ لا شىء من ذلك ! فأى نصر هذا ؟ ولا غرابة إذن أن يقرر أبو سفيان بعد أن قلب أوجه الرأى أن يعود أدراجه إلى مكة ولا يرجع إلى المسلمين إذ ذاك ، تاركاً أمر القتال إلى وقت آخر . غير أنه قرر أيضاً أن يلجأ إلى حيلة يهدد بها محمداً وأصحابه حتى لا يجدون فى أثره ، وفى هذا دليل وأى دليل على ما كان يجول بخاطره من مخاوف .

مرّ فى تلك الأثناء ركب من عبد القيس بأبى سفيان ، فلما علم أنهم يريدون المدينة للميرة قال لهم : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه وأحمّل لكم إبلكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

فلما مرّ الركب بمحمد وأخبروه بالذى قال أبو سفيان ، قال حسبنا الله ونعم الوكيل . وظل معسكراً بحمراء الأسد الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، وكان يوقد نيرانه طوال الليل ليدل قريشاً على أنه لا يزال هناك ، وأنه فى انتظارهم . وأخيراً انصرفت قريش ، وعاد محمد وأصحابه إلى المدينة ، وقد أصلحت هذه الخطوة كثيراً من الجراح التى كادت تزعزع مركز المسلمين فى المدينة .

وفى أثناء عودة المسلمين أسروا أبا عزّة الشاعر ، واسمه معاوية بن المغيرة ابن أبى العاص . وقد كان فى الأسارى يوم بدر ، فمنّ عليه محمد بلا فدية من أجل بناته ، واشترط عليه ألا يقاتله . فلما جاءوا به لمحمد ذلك اليوم قال : يا محمد امنن علىّ لبناتى وأعاهدك ألا أقاتلك . فقال محمد : لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول : خدعتُ محمداً مرتين . لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ! ثم أمر به فضربت عنقه .

الفصل الحادى عشر

من أُحد إلى الخندق

لا مِرْية فى أن الهزيمة التى منى بها المسلمون فى وقعة أحُد كانت سبباً فى ضعضعة منزلتهم التى اكتسبوها بعد نصرهم المؤزر فى بدر . ولا شك فى أنهم هم أنفسهم قد شعروا الآن بعد هذه الهزيمة بشىء كثير من الحرج والضيق إزاء ما لاقوا من استهزاء اليهود والمنافقين بهم . ومع أن الكلمة العليا فى المدينة كانت لا تزال لهم ، إلا أن أسهمهم كانت قد انخفضت كثيراً ، حتى لقد طمع فيهم الأعراب واستهانوا بهم ، وحاولت بعض قبائلهم الإغارة على المدينة ، وكان ذلك أمراً لا يفكر فيه أحد بعد انتصار المسلمين فى بدر تفكيراً جدياً ، إلا بعد أن يحسب ألف حساب .

لم تمض ثلاثة أشهر أو نحو ذلك على وقعة أحد ، حتى بلغ مسامع محمد من رجل من بنى أسد أن طُلَيْحة الأسدىّ وأخاه سلمة ابنى خويلد قد جمعا حلفاء لهم من بنى أسد ليغيروا على المدينة ، أو على نَعَمِ المسلمين وهى ترعى فى مراعيها . عندئذ عقـــد محمد لواء سرية لأبى سلمة بن عبد الأسد عدتها مائة وخمسون رجلا ، فيهم أبو عبيدة الجرَّاح ، وسعد بن أبى وقاص ، وأسَيْد بن حُضَير ، وأمره بالسير إلى أرض بنى أسد والإغارة عليهم ، فسار أبو سلمة وأصحابه ومعهم الدليـــل الذى أخبر محمداً خبر طليحة وأخيه ، حتى فاجأوا القوم فى عَمَايَة الصبح ، فتفرقوا وتركوا نعماً كثيراً لهم من الإبل والغنم . فأخذ ذلك كله أبو سلمة ، وأعطى الرجل الأسدى الذى دلهم نصيباً وافراً من المغنم ، وخمَّس الغنيمة وقسمها بين أصحابه . ثم إن أبا سلمة لم يمكث إلا قليلا بعد هذه السرية حتى مات . وكان قد جرح جرحاً بالغاً يوم أحد ، وظل يداوى منه شهراً حتى برأ . فلما

خرج فى هذه السَّرِيَّة وغاب فيها بضع عشرة ليلة ، انتفض به جرحه فمات منه .

وبعد ذلك بقليـــل علم محمد أن سفيان بن خالد بن نبيح الهُذَلِىّ من بنى لحيان المُقيم بعُرَنَة ، وهو جبل لبنى أسد شرقى المدينة ، يجمع الجموع لحربه ، فأرسل له عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنِىّ ليقتله . فاستأذن عبد الله محمداً أن يتقول حتى يتمكن من قتله ، فأذن له وقال : انتسب لخزاعة . فخرج عبد الله حتى أتى سفيان فأخبره أنه رجل من خزاعة سمع بجمعه لمحمد فأتى ليكون معه . فلم ينكر سفيان ما يرمى إليه ، فاستدرجه عبد الله حتى خلا له الجو فعدا عليه بسيفه فقتله .

ثم إن هُذَيْلا قوم سفيان ظلت تتحين الفرصة للثأر . فقدم رهط من حلفائهم من عَضَل والقارة إلى محمد يطلبون منه أن يرسل معهم نفراً من أصحابه يفقهونهم فى الدِّين ، وذلك فى صفر من السنة الرابعة . فأرسل معهم سبعة من أصحابه على رأسهم عاصم بن ثابت فى قول ، أو مَرْثَد بن أبى مرثد الغَنَوى فى قول . وبينما هم عند ماء لهُذيل بالحجاز بناحية تُدْعى الرَّجيع ، انقض عليهم رجال من هُذيل . فلجأ عاصم وأصحابه إلى رابية مشرفة فأحاط بهم القوم وقالوا : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلا . فرفض عاصم النزول فى ذمة كافر وقاتلهم حتى قُتِل وثلاثة من أصحابه . أما الثلاثة الآخرون وهم عبد الله بن طارق ، وخُبَيب بن عدى ، وزيد بن الدَّثِنة ، فلانوا ورقوا ورغبوا فى الحياة وأعطوا بأيديهم . فلما استمكن القوم منهم بعد أن أمنوا ونزلوا إليهم حلّوا أوتار قسيّهم فربطوهم بها ، وعندئذ قال عبد الله بن طارق : هذا أول الغدر ! وأبى أن يصحبهم ، فجروه وحاولوا اصطحابه فأبى فقتلوه .

وانطلقوا بخُبَيب وزيد إلى مكة حتى باعوهما من قريش بأسيرين من هُذيل كانا بمكة . فاشترى خُبَيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ليقتلوه به ،

وكان خُبَيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر . واشترى زيدَ بن الدَّثِنة صفوانُ ابن أمية ليقتله بأبيه .

فلما خرجوا بخُبيب من الحرم ليقتلوه طلب منهم أن يَدَعُوه ليصلى ركعتين ففعلوا ، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، فكان أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين . ثم أقبل على القوم فقال : أما والله لولا أن تظُنُّوا أنى إنما طوَّلت جَزَعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة . ثم قال عند ما قدموه للموت صلباً : اللهم إنا قد بلَّغنا رسالة رسولك ، فبلِّغه الغداة ما يُصْنَعُ بنا . ثم قال : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً .

وعند ذاك اضطجع الحضور على جوانبهم ، وكان معاوية بن أبى سفيان يقول : حضرته يومئذ مع أبى سفيان ، فما أن دعى حتى رأيت أبى يلقينى إلى الأرض فرقاً من دعوته . وكانت العرب تقول إن الرجل إذا دُعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه الدعوة .

ثم إنه أنشد قصيدة وهم يهمون بقتله . منها :

ولستُ أبالى حين أقتل مُسلماً ... على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يُبارِك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

أما زيد بن الدَّثِنَة فبعثه صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نَسْطاس ليقتله ، فلما هم بقتله اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال لزيد حين قُدِّم ليُقْتل : أنشدك بالله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضربُ عنقه وأنك فى أهلك ؟

قال : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى .

قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ! .

وظلت المؤامرات والمؤامرات المضادة تحاك حيناً بعد حين ، وبات الحجاز فى مرجل يغلى بالأحقاد تتطاير هنا وهناك ، ومحاولات الثأر لاتكف ساعة من ليل أو ساعة من نهار . فهذا أبو سفيان بن حرب يقول لنفر من قريش بمكة : ما أحدٌ يغتال محمداً فإنه يمشى فى الأسواق فندرك ثأرنا ؟ فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله وقال له : إن أنت وفيتنى خرجت إليه حتى أغتاله ، فإنى عارف بالطريق ، معى خنجر مثل خافية النسر . قال أبو سفيان : أنت صاحبنا . وأعطاه بعيراً ونفقة وقال : اطو أمرك فإنى لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد . قال : لا يعلمه أحد .

فخرج الأعرابى ليلا على راحلته وسار خمسة أيام حتى وصل المدينة فى اليوم السادس ، ثم أقبل يسأل عن محمد فعلم أنه توجه إلى بنى عبد الأشهل . فأتاه الأعرابى حيث هو ، فعقل راحلته ، ثم أقبل عليه فوجده فى جماعة من أصحابه يحدثهم فى مسجده . فلما رآه محمد من بعيد أدرك بفراسته أنه لا يريد خيراً ، فقال لأصحابه : إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريده . تقـــدم الرجل وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال محمد : أنا ابن عبد المطلب . فتقدم منه وانحنى عليه كأنه يسارُّه ، وهنا كان أُسَيْد ابن حُضَير له بالمرصاد فجبذه وقال : تنحَّ عن رسول الله ، وجذب بداخل إزاره(1) فإذا الخنجر فقال : يا رسول الله هذا غادر .

أسقط فى يد الأعرابى وقال : دمى دمى يا محمد . وكان أسيد بن حضير قد لبَّبه ، فقال له النبى : اصدقنى ما أنت وما أقدمك ، فإن صدقتنى نفعك الصدق ، وإن كذبتنى فقد اطَّلعتُ على ما هممت به . قال العربى : فأنا آمن ؟ قال : وأنت آمن .

فلما أمن الرجل أخبره بما كان من أمر أبى سفيان وما جعل له . فأمر به فحُبِس عند أُسَيْد بن حُضَير . ثم دعا به فى صبيحة اليوم التالى فقال :

---

(1) ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن .

قد أمَّنتك فاذهب حيث شئت أو خير لك من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ فقال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك أنت رسول الله .

ثم أضاف قائلا : والله يا محمد ما كنت أفْرَق من الرِّجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضَعُفت ، ثم اطَّلَعْتَ على ما هممْتُ به ، فما سبقَتْ به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبى سفيان حزب الشيطان . فابتسم النبى ، وأقام الرجل أياماً ثم استأذن وخرج من عنده ، ولم يُسْمَع له بذكر بعد ذلك .

ثم إن محمداً دعا عمرو بن أميَّة الضَّمْرِىّ ، وسلمة بن أسْلم بن حَرَيش وقال لهما : اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب ، فإن أصبتما منه غِرَّة فأقتلاه . فلما أتيا مكة طافا بالكعبة سبعاً وصليا ركعتين ، فلما خرجا لقيهما معاوية بن أبى سفيان فعرف عمرو بن أمية فنادى يقول : عمرو بن أمية ، واحزناه . فتجمع أهل مكة وقالوا : ما جاء عمرو فى خير ، وكان عمرو فاتكاً فى الجاهلية . فأسرع عمرو وسلمة بالهروب ، وخرجت قريش فى أثرهما ولكنهما تمكنا من الفرار .

وفى صفر من هذه السنة أيضاً ، أى من السنة الرابعة الهجرية ، وفد على محمد بالمدينة أبو بَرَاء عامر بن مالك مُلاعِب الأسنة ، فطمع محمد فى إسلامه ، فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ، غير أنه لم يسلم ولم ينفر ، وإنما قال لمحمد : يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رَجَوْتُ أن يستجيبوا لك .

فقال : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال أبو بَرَاء : أنا لهم جار .

فبعث محمد المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة فى أربعين أو سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، كانوا يسمون القُرَّاء لكثرة قراءتهم

للقرآن وحفظهم له . فساروا وهم لا يخشون غائلة لأن أبا براء عامر بن مالك كان رجلا مسموع الكلمة لا يخشى أحد أجاره اعتداء عليه . فلما نزلوا بئر معونة وهي أرض بني عامر وحرّة بني سُلَيم . بعثوا حرام بن ملحان بكتاب محمد إلى عامر بن الطُّفيل سيد بني عامر ، فلما قرأ الكتاب لم يكد يفرغ منه حتى عدا على رسول محمد فقتله ، ثم استصرخ على المسلمين بني عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم من قتال القوم ولم يرضوا أن ينقضوا العهد الذي عاهده أبو براء إياهم .

فاستصرخ عليهم عامر قبائل من بني سُلَيم ، عُصَيَّة وذَكْوان والقارّة ، فأجابوه إلى ذلك ، وقاموا معه فخرجوا إلى أصحاب محمد فغشوهم وأحاطوا بهم ، فاستل أصحاب محمد السيوف وقاتلوا حتى قتلوا جميعاً فيما عدا كعب بن زيد ، وقع بين القتلى وفيه رمق فظنوه قتيلا فتركوه ، فعاش حتى قُتل يوم الخندق .

وكان عمرو بن أميَّة الضَّمري ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف يجتابان تلك الناحية في ذلك الوقت وعمرو عائد من مكة ، فرأيا الطير تحوم حول العسكر فقالا : والله إن لهذه الطير لشأناً . فأقبلا لينظرا ، فإذا القوم في دمائهم والرجال الذين أصابوهم لا يزالون هناك ، فقال الأنصاري لعمرو بن أمية : ماذا ترى ؟ فقال : أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر . فقال الأنصاري : لكني لم أكن لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذرُ بن عمرو ، وما كنت لأخبر عنه الرجال . واقتحم على القوم يقاتلهم حتى قُتل . وأُخذ عمرو أسيراً ، فلما علم القوم أنه من مُضر جزّ عامر بن الطفيل ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمه فيما زعم .

وخرج عمرو بن أمية عائداً إلى المدينة ، فبينما هو بالقرقرة على ثمانية برد من المدينة إذ لقي رجلين من بني عامر قد نزلا في ظل هو فيه . فلما ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يعتقد أنه قد أصاب ثأراً من بني عامر في

أصحاب محمد الذين قتلوهم ، فلما قدم على محمد أخبره بما كان من أمر أصحابه فى بئر معونة . فقال : هذا عمل أبى براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً . ثم أخبره بقتله للعامريين . فقال : بئس ما صنعت ، لقد كان لهما منى أمان وجوار ، وإنى لدافع ديتهما .

وفى ذلك اليوم أيضاً بلغه خبر مقتل عاصم وأصحابه فى الرَّجيع ، فحزن حزناً شـــديداً ، وظل شهراً يدعو على الغادرين بأصحابه فى الصلاة .

ثم إن محمداً توجه إلى بنى النضـــير فى منازلهم بجوار قُباء ، بصحبة عدد من أصحابه منهم عمر بن الخطاب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، يستعينهم فى دفع دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية ، وقد كان بين المسلمين واليهود ذلك العهد الذى تعاهدوا عليه عند مقدم المهاجرين إلى المدينة ، ويقضى بإسهام كل من المسلمين واليهود فى الديات ونفقة الحرب وما إلى ذلك . فلما أتاهم وكلمهم فى ذلك قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت .

وبينما محمد قاعد إلى جنب جدار بيت من بيوتهم ، لاحظ أن جماعة منهم يتسارون ، فعلم أنهم يتآمرون فيما بينهم على أن يعلو رجل منهم هذا البيت ويلقى عليه صخرة ويريحهم منه . وعند ذاك أسرع فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلما غاب ، وكان أصحابه يظنون أنه خرج لقضاء حاجة ، قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلا المدينة . فأقبلوا عليه فأخبرهم أن خبراً جاءه من السماء بما أراد القوم به من الغدر . ثم أرسل لهم محمد بن مسلمة ليبلغهم أنه يقول لهم : « اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى وقد هممتم بما هممتم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه » .

حار اليهود وضعفوا وأذعنوا للأمر واستعدوا للرحيـــل ، وبينما هم

يتجهزون لترك ديارهم ، أرسل إليهم حليفهم عبد الله بن أبى بن سلول وعدد من المنافقين من بنى عوف ، منهم وديعة ومالك وسويد وداعس ألا يذعنوا للأمر ، وشجعوهم على أن يقيموا فى حصونهم ، ولا يخرجوا من ديارهم ، وأنهم سيمنعونهم ويقومون دونهم . وفى ذلك تحدث القرآن وكذّب المنافقين :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولُّنّ الأدبار ثم لا ينصرون »(١) .

شجعت هذه الوعود اليهود وأطمعتهم فتأخروا فى الخروج ، وأرسل حُيىّ بن أخطب إلى النبى : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك . فكبر محمد وكبر معه المسلمون وقال : حاربت اليهود .

وأمر النبى بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ، وخرج على رأس أصحابه ، يحمل لواءه على بن أبى طالب ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم . فتحصن اليهود بحصونهم ، وظنوا أنها تمنعهم وأن المنافقين ويهود بنى قُرَيْظة سيقومون معهم . ولكن هيهات أن ينصرهم أحد . فحاصرهم جيش المسلمين ست ليال . فلما رأى محمد إصرارهم أمر بقطع نخيلهم وتحريقها ، فنادوا من حصونهم . أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بالُ قطع النخيل وتحريقها .

غير أن الله تعالى أساغ ما وقع من تحريق ما حرق من نخيلهم وترك ما تُرك منها فقال فى كتابه الكريم : « ما قطعتم من لينة (وهو جيد التمر) أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين »(٢) . وفى

(١) الحشر ١١ — ١٢ .
(٢) الحشر ٥ .

هذا إجازة من الله ، وزرفع منه للحرج وتأييد لما رأى رسوله من تحريق هذا النخيل ، وليس بفساد كما قال اليهود ، وإنما هو إظهار للقوة وإخزاء لأعداء الإسلام .

فلما رأى اليهود تلك الشدة ، وأيقنوا أن أحداً من الذين شجعوهم سوف لا يقدم على مساعدتهم ، وأن حلفاءهم جميعاً قد تخلوا عنهم ، وخذلوهم وهم أحوج ما يكونون لنصرتهم ، وأنهم غروهم من أنفسهم ، رضخوا لأمر محمد وسألوه الجلاء وأن يكف عن دمائهم ، فسمح لهم بما حملت الإبل دون السلاح . وتولى الإشراف على خروجهم محمد بن مسلمة ، فاحتملوا كل ما قدرت إبلهم على حمله ، وخرج بعضهم إلى خيبر وبعضهم إلى الشام . وخلفوا وراءهم غلالا كثيرة وسلاحاً ، أحصى فبلغ خمسين درعاً وخمسين خوذة ، وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، فضلا عن المزارع والنخيل . فكان هذا كله لمحمد يتصرف فيه كيف شاء . ذلك أن الغنيمة التي تؤخذ بغير حرب تكون كما أمر القرآن : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »(١) .

لذلك أعطى محمد من هذه الأموال للمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم دون الأنصار ، فرّد المهاجرون لإخوانهم الأنصار ما كانوا قد أخذوه منهم فى أوائل عهدهم بالمدينة . كذلك أعطى محمد من هذه الأموال لسهل بن حنيف ولأبى دُجانة إذ ذكرا له فقرهما ، ويقال إنه أعطى أيضاً للحارث بن الصِّمَّة لهذا السبب . ثم إنه أخذ لنفسه نصيباً من الأرض ليزرعها ويدخر منها قوت أهله سنة كما كان يفعل . ولم يسلم من اليهود غير يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب فاحتفظا بأموالهما .

ثم إن محمداً لم يعد ليأمن لليهود بعد أن تكررت بينه وبينهم مثل هذه

(١) الحشر ٧ .

المنازعات . فاستبدل كاتب سره ، وكان يهودياً ، بشاب من شباب المسلمين . فأمر زيد بن ثابت أن يتعلم العبرانية والسريانية ، وكان محمد يكتب رسائله بعض الأحيان بهاتين اللغتين . ولذلك كان مضطراً لاستعمال اليهود قبل ذلك .

وفى ربيع الآخر أو جمادى الأولى من هذه السنة أى سنة أربع من الهجرة ، بلغه أن جموعاً من قبائل نجد يتجمعون لحربه ، هم بنو محارب . وبنو ثعلبة من غَطَفان ، فخرج لهم على رأس سبعمائة مقاتل ، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان أو أبا ذر . فساروا حتى بلغوا منازل القوم ، فإذا هى خاوية قد هجرها الرجال عندما علموا بجمع المسلمين إليهم وتفرقوا فى رؤوس الجبال . ثم إنهم تجمعوا ثانية عند ما رأوا أن المسلمين قد احتملوا نساءهم وأموالهم ، وأقدموا على المسلمين يريدون حرباً . غير أنهم عند ما تقاربوا خاف بعضهم بعضاً ولم ينشب قتال . وفى تلك الأثناء حانت صلاة العصر ، فصلى محمد بالمسلمين صلاة الخوف . وهى أن يصلى بجماعة منهم فى حين يظل الآخرون متجهين إلى العدو للاحظاته ، ثم يعود فيصلى بهم . وأخيراً تباعد الجمعان ولم تقع حرب . وتسمى هذه الغزوة بغزوة ذات الرِّقاع . ويقال إن سبب هذه التسمية إنما يرجع إلى أنهم رقّعوا فيها راياتهم ، أو لأنه كان يقال لشجرة هناك ذات الرِّقاع ، أو لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم خرقاً من شدة الحر ، أو لأنه كان هناك جبل به بقع حمر وسود وبيض .

لما أهلّ شعبان من هذا العام ، كان الموعد الذى تواعده محمد وأبو سفيان بعد معركة أحد قد حل . ذلك أن أبا سفيان نادى بعد معركة أحد وهو يهم بالانصراف أن ذلك اليوم كان يوماً بيوم بدر . وأن موعدهم بدر العام المقبل . فأجابه محمد إلى ذلك . وكانت العرب تجتمع فى سوق يقام فى بدر فى شعبان ثمانية أيام للتجارة . وبينما المسلمون يتذاكرون هذا

الموعد ويستعدون للخروج ، إذ وصل إلى المدينة نُعَيم بن مسعود الأشجعى ليقول للمسلمين إن قريشاً قد جمعت لهم جيشاً لا قِبَل لأحد من العرب به .

لم يكن هذا صحيحاً ، ذلك أن أبا سفيان لم يرد الخروج لهذا الموعد ، فاستأجر نُعيم وأرسله إلى المدينة لإشاعة هذا الخبر ظناً منه أن هذا قد يفتّ فى عضد المسلمين فلا يخرجون إلى بدر فيكونون هم الذين أخلفوا الموعد .

والحق أن كثيرين من المسلمين قد تأثروا بهذا الإرجاف وآثروا البقاء فى المدينة وعدم الخروج إلى موعد أبى سفيان . غير أن محمداً ، ذلك البطل الذى لم يعرف العرب مثله من قبل ولا من بعد ، ما كان ليحجم ، وما كان ليتراجع ، بل إنه نادى فى أصحابه مغضباً : « والذى نفسى بيده لأخرجَنّ وإن لم يخرج معى أحد » :

ثم إنه خرج على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه يريد بدراً ، واستخلف على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبىّ . وحمل المسلمون معهم بضائع لعله لا تحدث حرب فيتاجرون فى السوق . أما قريش فخرجت مع أبى سفيان فى ألفى رجل . غير أن أبا سفيان رأى أن يرجع بعد مسيرة يومين ، فقال لقومه : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ، وإن عامكم هذا جدب ، وإنى راجع فارجعوا . فرجعت قريش وأطاعته . وانتظر المسلمون قريشاً فلم تقدم ، فتاجروا فى بضاعتهم التى حملوها معهم فربحوا ربحاً وفيراً وعادوا غانمين سالمين . يقول تعالى : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »[1] .

رجع جيش المسلمين سالماً غانماً وقد استعاد كثيراً من هيبته السابقة التى فقد كثيراً منها بعد أحُد . وقضى المسلمون بقية سنتهم وجزءاً من سنة خمس لم يلقوا كيداً من أحد ولم يخرجوا لأحد . وفى ربيع الأول أو ربيع الآخر بلغ محمداً أن جموعاً من بنى تميم فى شمالى الجزيرة يظلمون من يمرّ بهم ،

---

(١) آل عمران ١٧٤ .

ويعتدون على قوافل التجارة ، وأنهم يفكرون فى الدنو من المدينة . فقرر أن يخرج إليهم فيدهمهم فى مساكنهم على حدود الشام . وخرج فى ألف من المسلمين متجاهلا قول القائلين إن ذلك مما يفزع قيصر الروم . وكان يسير الليل ويكمن بالنهار ، ومعه دليل حاذق ماهر بالهداية فى هذه الطرق من بنى عُذْرَة يقال له مذكور . فلما دنا من دومة الجندل[١] ، وهى واحة على حدود الحجاز والشام ، تتوسط الطريق بين البحر الأحمر وخليج العرب . أخبره دليله بسوائم بنى تميم فى مراعيها ، فهجم على ماشيتهم ورعيانهم . فاصاب منها ما أصاب وهرب من هرب فى كل وجه . فلما علم أهل دومة الجندل بهذا الهجوم تفرقوا ودب الذُّعْرُ فى قلوبهم . فتقدم محمد ونزل بساحتهم فلم يجد أحداً ، وأقام أياماً ، بث فى خلالها السرايا هنا وهناك فلم يلق كيداً ولا حرباً وعاد بجيشه سالماً غانماً .

وهنا ينبغى لنا أن نشير إلى حقيقة جديدة بدأت تتبدّى فى أفق جزيرة العرب وتؤثر على مجرى الأحداث فيها . فقد كانت هذه الغزوة أول غزوة يسير فيها محمد إلى أطراف الشام ويبتعد عن المدينة هذه المسافة الكبيرة . وفى هذا ولا شك دليل كبير على أن المسلمين كانوا فى ذلك الوقت — وقد انقضى على معركة أُحُد أكثر من سنة ونصف . قد استعادوا قوتهم وقدرتهم على القتال بدرجة كبيرة جداً ، بل زادت هيبتهم فى قلوب العرب ، ومثّل سلطانهم للجميع ، وأصبحوا بذلك يهددون جماعات كبيرة من قبائل العرب تهديداً مباشراً فى كل مكان . وربما يكون هذا هو السبب الذى ألّب عليهم كثيراً من العرب ، فاتحدوا فى جمع كبير عدته عشرة آلاف مقاتل ، وهو جمع لم نسمع بمثله من قبل . وساروا إلى المدينة ابتغاء استئصال المسلمين والقضاء عليهم قضاء مبرماً . فإلى غزوة الخندق .

---

(١) على مسيرة خمسة عشر ليلة من المدينة وخمس ليال من دمشق .

الفصل الثانى عشر

غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب

تطورت العلاقات بين المسلمين واليهود فى الفترة السابقة تطوراً خطيراً . فبعد أن عاش اليهود جنباً إلى جنب مع المسلمين حينا من الزمن فى وئام تام لا يخرق أى منهما ذلك العهد الذى عقدوه سوياً فى بداية عهد المسلمين بالمدينة ، بدأ اليهود يسخرون من المسلمين ويستهزئون بهم إذا ألم بهم مكروه أو نزلت بهم نازلة ، أو انهزموا فى معركة كمعركة أحُد ، وبدأوا يكيدون للإسلام ويتآمرون عليه وعلى نبيه مما اضطر الرسول إلى إجلاء بنى قَيْنُقاع أولا ، ثم إلى إجلاء بنى النضير والإستيلاء على أموالهم وأراضيهم كما سبق بيانه .

ولا مرية فى أن اليهود لم يقلبوا للمسلمين ظهر المِجَنّ إلا عندما أيقنوا تماماً وتأكد لديهم أن الإسلام دين قوى ، وأنه أخذ يفشو فى القبائل هنا وهناك ، وأن المسلمين يزدادون قوة ومنعة يوماً بعد يوم . فكيف يقبل اليهود هذا الوضع وهم الذين يفخرون على العرب وعلى العالمين ويتسامون عليهم بأنهم أهل توحيد ، وأنهم وحدهم الذين اختصوا بين الشعوب بهذه الكرامة العظيمة ، فضلا عن اعتقادهم بطبيعة الحال بأنهم شعب الله المختار ، وأن دينهم أعظم الأديان لا يطاوله دين آخر ؟ كيف يرضى اليهود إذن بدين آخر يدعو أيضاً إلى التوحيد مثلما يدعو دينهم الذى يفتخرون به ؟ وكيف يسمحون له بأن ينتشر ويعز بين القبائل ويعز أهله الذين يحاربون الأحمر والأسود من الناس وترتفع كلمتهم ؟

احترقت قلوب اليهود وطفحت بالحقد والغيظ وامتلأت نفوسهم بالضغينة على محمد وعلى الإسلام والمسلمين . هنا إذن ثأر دينى لن يرجع

اليهود عن الأخذ به ، ولن يتوانوا عن تكذيب النبى الذى جعل منهم مفسدين لدين إبراهيم وموسى ، وجاهرهم بذلك ودعاهم إلى ترك ما هم فيه إلى دين إبراهيم وموسى الحقيق وهو الإسلام ، أو عذاب أليم .

وفضلا عن هذا كله ، يتبقى ثأرهم الدنيوى ، فقد ظهر عليهم المسلمون وانتصر عليهم نبى المسلمين ، وهاهى منازل بنى قَيْنُقاع وبنى النضير ، وكانت أمس بالعزّ شامخة ، فإذا بها اليوم يباب ليس بها داع ولا مجيب . وقد تركها أهلها مرغمين ، وتركوا أموالهم وأراضيهم وخرجوا خروج الذليل الضعيف المغلوب على أمره .

أيقبلون الإسلام وتنتهى كل المشاكل والمتاعب بالنسبة لهم ؟ كلا ، فإن أنفسهم ما كانت لتطيب بأن يصبحوا تابعين لمحمد ، وما كانت لتطيب أيضاً بأن يتراجعوا عنه حتى يأخذوا بثأرهم . ولكنهم لا يستطيعون ذلك ولا يقدرون عليه وحدهم . فماذا ؟ إذن يؤلبون عليه قريشاً وقبائل العرب الموتورة منه ، ويجمعونهم له فى حرب طاحنة لا تبقى ولا تذر ولا قبل له بها ، فتكون خلاصاً لهم منه ، وبلوغاً لثأرهم ، ونيلا لمآربهم ، وشفاء لصدورهم ، ثم استرداداً لديارهم وأراضيهم .

اجتمع جماعة من زعمائهم منهم حُيَىّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحُقَيْق من بنى النضير ، وهَوْذَة بن قيس من بنى وائل . وخرجوا فى نفر من بنى النضير وبنى وائل يقصدون قريشاً أول ما قصدوا فى تلك الجولة التى قاموا بها بين قبائل العرب ليحرضوها على حرب محمد . فلما اجتمعوا بالملأ من قريش وأخذوا يحرضونهم على محمد ويدعونهم إلى حربه ، ويذكرونهم بما بينهم وبينه ويبينون لهم خطره ، ويعدونهم بأنهم سيكونون معهم حتى يستأصلونه ، فكر هؤلاء القرشيون وكأنهم باتوا يشكون فى دينهم وفى أن محمداً قد يكون على صواب ، فسألوا وفد اليهود : يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

قالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

وأخيراً اتفقت قريش على الخروج مع اليهود فى موعد حددوه . ثم إن اليهود انطلقوا بعد أن ضمنوا خروج أكبر رأس فى العرب معهم ، إلى غَطفان ، وهى من أكبر وأقوى قبائل العرب ، وتقع ديارها فى الشمال الغربى من المدينة ، على مائة وعشرين كيلو متراً ، وحرضوا بطونها على حرب محمد والمسلمين وزينوا لهم هذا العمل ، وذكروا من له منهم تِرَة بترته ، وقووهم بما كان من موافقة قريش على هذه الحرب ومواعدتها اليهود على الخروج معهم .

وفى شوال من السنة الخامسة الهجرية تجمعت هذه الأحزاب وخرجت تريد المدينة . فخرجت قريش وحلفاؤها فى أربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة فرس ، وألف وخمسمائة بعير ، وعلى رأسها أبو سفيان صخر بن حرب ، ويحمل لواءها عثمان بن طلحة ، الذى حمل أبوه لواء قريش يوم أُحُد وقُتل . وخرجت جموع غَطَفان ، يقود بنى فزارة عُيَينة بن حصن فى رجال كثيرة وألف بعير ، ويقود بنى مرة الحارث بن عوف فى أربعمائة ، وبنى أشجع مِسْعَر بن رُخَيلة فى ربعمائة أيضاً ، وبنى سُلَيم سفيان بن عبد شمس فى سبعمائة ، وهم أصحاب بئر معونة ، وبنى أسد طُلَيحة بن خُوَيلد . وخرج معهم بنو سعد أيضاً ، فبلغت عدة هذه الجموع حوالى عشرة آلاف مقاتل . وأسندت القيادة العامة لأبى سفيان .

وفى تلك الأثناء كانت أخبار هذه الجموع قد بلغت الرسول ، فجمع أصحابه واستشارهم فى كيفية مواجهة هذه الجموع . وأخيراً استقر الرأى على أن المسلمين لا قِبَل لهم بمواجهة هذه الحشود الكبيرة وجهاً لوجه فى ساحة تدور فيها معركة قد تؤدى فعلا إلى استئصال المسلمين ، وأجمعوا على التحصن فى المدينة وملاقاة العدو فيها إذا ما دهمها عليهم . وكان بين المسلمين رجل فارسى اسمه سلمان ، أشار عليهم بحفر خندق فى ناحية المدينة غير

الحصينة ، وهى وسيلة من وسائل الدفاع لم تكن معروفة لدى العرب ، ولكنهم أعجبوا بها ووافقوا عليها . وقرروا حفر خندق فى شمالى المدينة من الحرّة الشرقية إلى الحرة الغربية ، وهى الجهة التى كان يمكن للعدو أن يدخل المدينة منها . أما بقية حدودها فكانت حصينة متشابكة بيوتها ، وفيها حصون بنى قريظة حلفاء المسلمين ، ويسهل الدفاع عنها .

تجهز محمد على رأس ثلاثة آلاف مقاتل ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ، ولواء الأنصار سعد بن عبادة . وخرج بهم إلى أطراف المدينة وعسكر عند سفح جبل سَلْع ، وأمر بحفر الخندق . فشمر المسلمون عن سواعد الجد ، غير أن جماعة من المنافقين يلوح بأنهم لم يقتنعوا بمسألة حفر الخندق ، إما لجهلهم بمثل هذه الوسائل ، وإما لأنهم أرادوا خذلان محمد كعادتهم ، قد تخلفوا واعتذروا بالضعف ، وانسلت طائفة أخرى خفية بغير إذنه .

وقد أنزل الله تعالى فى هؤلاء وهؤلاء قوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دُعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . ألا إن لله ما فى السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يُرجَعون إليه فيُنبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم »[1] .

أطاع المسلمون صادقو الإسلام أمر نبيهم وأجهدوا أنفسهم كل الجهد وتفانوا فى حفر الخندق ، وظلوا طوال ستة أيام يحفرون فيه بكل

---

(١) النور ٦٢ – ٦٤ .

بسالة واستماته ، على ما بهم من نصب وجوع . وعلى رأسهم محمد يحفر بيديه الكريمتين وينقل التراب بنفسه ، حتى لقد كان يغبر من التراب . قال البرّاء : رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني التراب جلدة بطنه . وسمعته يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة وهو ينقل التراب يقول :

لاهُمّ لولا أنت ما اهتـــدينا ... ولا تصـــدقنا ولا صلينــا

فانزلن ســكينة علينـــا ... وثبّت الأقــدام إن لاقينـا

والمشركون قد بغوا علينـا ... وإن أرادوا فتنــة أبينـــا

وبينما محمد يضرب بفأسه مع الضاربين إذ جاءه جماعة قد اشتدت عليهم صخرة صلبة لم يقــدروا عليها . فنضح شيئاً من الماء عليها ثم ضربها ضربة فانفلقت ، فقال : الله أكبر ! قصور الشام وربّ الكعبة . ثم ضرب ضربة ثانية فانهالت وما عادت ترد فأساً ولا مسحاة ، فقال : الله أكبر ! قصور فارس وربّ الكعبة !

فقال عند ذاك المنافقون : نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم .

فنزل فيهم قوله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً »[1] .

والحق إنها كانت رؤيا صدق ونبوءة تحققت ، وملك هؤلاء العرب أنفسهم قصور الفرس والرومان وجعلوا ملكهما كأمس الذاهب . كل هذا فى أقل من خمسة عشر عاماً منذ ذلك الوقت الذى كان المسلمون يخندقون فيه على أنفسهم حول مدينة واحدة فى جزيرة العرب لا يملكون سواها .

عسكرت جيوش قريش وحلفائها من الأحابيش ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة بمجتمع الأسيال من رُومَة بين الجُرُف وزَغابة . وعسكرت

(١) الأحزاب ١٢ .

جموع غَطَفان ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نَقَمى إلى جانب أحُد . وعسكر جيش المسلمين عند سفح جبل سَلْع ، ونصبت لمحمد خيمته الحمراء ، والخندق بينه وبين القوم . وأعد المسلمون أكواماً من الحجارة ليستخدموها عند الحاجة فى رمى العدو ، وأخليت المنازل التى خارج الخندق ، ووضع النساء والأطفال فى المنازل المحصنة وفوق الحصون .

فوجئت جموع المهاجمين بالخندق وأسقط فى أيديهم . فلا هم يستطيعين عبوره ، ولا هم بقادرين على اقتحام المدينة ودخولها من جهاتها الأخرى الحصينة ، فاقتصر القتال على الترامى بالسهام .

لم يجد المشركون عورة يدخلون منها المدينة . وأما يهود بنى قريظة فكانوا حتى الآن على عهد الوفاء مع المسلمين ، قد أغاقوا حصنهم دون الأحزاب . غير أن حُيَىّ بن أخطب شيطان بنى النضير ذهب إلى زعيمهم كعب بن أسد القُرَظِىّ صاحب عقدهم وعهدهم يريد أن يستميله إلى الأحزاب ليفتح لهم ثغرة يدخلون منها المدينة من جهة بنى قريظة . وذلك أنه كان قد عقد العزم على الانتقام من المسلمين ، ثم إنه خشى أن ترتد هذه الجموع الجرّارة التى جمعها ليأخذ بثأره من المسلمين إن لم تستطع اقتحام الخندق ، وهيهات له إذا ارتدت دون هزيمة المسلمين هزيمة ساحقة لا تقوم لهم قائمة بعدها ، أن يجمع مثلها مرة أخرى ، أو ينجو هو نفسه وذووه من سيوف المسلمين البواتر وعقابهم الصارم . فهل يُبقى المسلمون على اليهود الذين جمعوا لهم هذا الجمع الرهيب ليستأصلوهم إن هم نجوا من هذا الحصار ؟ ومن يحمى اليهود إذا ما ارتدت الأحزاب وبقوا وحدهم مع المسلمين ؟

نادى حُيَىّ بن أخطب كعب بن أسد . فلما سمع كعب نداءه أغلق باب حصنه دونه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له . فناداه : ويحك يا كعب افتح لى ! قال كعب : ويحك يا حُيَىّ . إنك امرؤ مشئوم . وإنى قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بينى وبينه . ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً .

قال : ويحك افتح لى أكلمك . قال : ما أنا بفاعل . قال : والله ما أغلقت دونى إلا خوفاً على جشيشتك (طعام) أن آكل منها معك ، فغضب كعب وفتح له . فقال حُيَىّ : ويحك يا كعب ! لقد جئتك بعز الدهر وبحرٍ طامٍ .

قال كعب : وما ذاك ؟ قال : جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة . وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى إلى جانب أحُد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

فقال كعب : جئتنى والله بذُلّ الدهر وبجهام (السحاب الذى لا ماء فيه) قد هَرَاق ماؤه يرْعَدُ ويبرق وليس فيه شيء ، ويحك يا حيّ فدعنى وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً . وتكلم عمرو بن سعد القُرَظى فأحسن فيما قال وذكّرهم بميثاق محمد وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره ، وقال : إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه .

غير أن حُيَىّ بن أخطب لم يزل بكعب بن أسد حتى سمع له وانضم للأحزاب ونقض العهد الذى بينه وبين محمد ، على أن يعاهده حيّ عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل حيّ معه فى حصنه يصيبه ما يصيب أسداً عندئذ . ولم يحفظ عهد المسلمين من بنى قريظة إلا بنو سعنه . أسد وأسيد وثعلبة ، فإنهم خرجوا وانضموا إلى محمد .

فلما انتهى الخبر إلى محمد استدعى سعد بن مُعاذ ، وهو يومئذ سيد الأوس ، وسعد بن عُبادة ، وهو يومئذ سيد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة ، وخوّات بن جُبير ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتنظروا أحقاً ما بلغنا عنهم ، فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد المسلمين ، وإن كانوا على وفاء فاجهروا به للناس .

فمشى القوم إلى اليهود حتى أتوهم فى حصنهم . فقال سعد بن معاد : إنكم

قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قُرَيظة ، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمرّ منه . فقالوا : أكلت أير أبيك . فقال : غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن . ثم إنهم نالوا من محمد وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد . فشاتمَهم سعد بن مُعاذ وشاتموه ، وكان رجلا فيه حِدة . فقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، إن ما بيننا وبينهم أكثر من المشاتمة .

ثم أقبـل السعدان ومن معهما إلى محمد فسلموا ثم قالوا : عُضَل والقارَة ، يشيرون إلى خيانة عضل والقارة بأصحاب الرَّجيع وقتلهم أصحابه ، فما أن سمع محمد ذلك حتى التف بثوبه واضطجع ومكث طويلا ، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع ، وعرفوا أنه لم يأته عن بنى قُريظة خير . ثم إنه رفع رأسه وقال : أبشروا بفتح الله ونصره .

ثم قام وبعث سَلَمة بن أسلم فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة رجل ، وأمرهما بحراسة المدينة من جهة بنى قريظة والسهر على النساء والأطفال خشية أن يصيبهم سوء من اليهود .

عظم البلاء واشتد الخوف وبات المسلمون فى موقف عصيب جداً لا يحسد أحد عليه ، فقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وظن المؤمنون منهم كل ظن ، وجهر المنافقون بنفاقهم . قال معتّب بن قُشَير أخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ! وقال أوس بن قَيْظى علناً : يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو ، فأذن لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة .

وهؤلاء وأمثالهم هم المرادون بقوله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزُلزِلوا زلزالا شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين

في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسولُه إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً »(١) .

فلما اشتد على الناس البلاء وخشي محمد الفتنة ، أراد أن يستميل غطفان ويسالمها ، فأرسل إلى عُيَيْنة بن حِصن ، والحارث بن عوف ، وهما قائدا غطفان يصالحهما على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما . وجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا كتاباً بذلك ولكن لم يوقع بعد . فلما انتهى محمد إلى الاتفاق لم يشأ أن يوقعه قبل أن يستشير السعدين : سعد ابن معاذ ، وسعد بن عُبادة سيدي الأوس والخزرج . فقالا : يا رسول الله ، أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟

فقال محمد : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا ضيافة أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم !

فقال النبي : أنت وذاك . فتناول سعد بن مُعاذ الصحيفة فمحا ما فيها من كتابة وقال : ليجْهَدوا علينا .

ودام الحصار حوالي عشرين يوما لم يحدث فيها قتال إلا المبارزة التي وقعت بين علي بن أبي طالب ، وعمرو بن عبد وُد . وذلك أن عمرو بن عبد وُد

---

(١) الأحزاب ١٠ - ١٣ .

أحد بنى عامر بن لؤى ، وعكرمة بن أبى جهل ، وهبيرة بن أبى وهب ، وضِرَار بن الخطاب أخذتهم الحمية يوماً فلبسوا لباس الحرب وخرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا : تهيأوا يا بنى كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم . ثم أقبلوا تسرع بهم الخيل حتى بلغوا مكاناً من الخندق ضيقاً ، فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم فى السَّبْخَة بين الخندق وسَلْع . فخرج لهم علىّ بن أبى طالب وجماعة من المسلمين .

فنادى عمرو بن عبد ود : من يبارز ؟ فقام على بن أبى طالب فقال : أنا لها يا نبى الله . فقال محمد : إنه عمرو ، اجلس . ثم نادى عمرو : ألا رجلٌ يبرُز ؟ فجعل يؤنبهم ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟ أفلا تُبرِزون إلىّ رجلا ؟ فقام على فقال : أنا يا رسول الله ، فقال : اجلس ، ثم نادى عمرو الثالثة وأنشد يقول :

ولقد بححْتُ من النــــدا ء بجمعهم : هل من مبــارز
ووقفت إذ جــبن المشــ جع موقف القِرْنِ المنــاجز
ولــذاك إنى لــم أزل متســرعاً قبــل الهــزاهز[1]
إن الشــجاعة فى الفــتى والجــودَ من خــير الغرائز

فقام على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله أنا . فقال : إنه عمرو ، فقال : وإن كان عمراً ! فأذن له محمد ، فمشى إليه علىّ وهو يقول :

لا تعْجَــلَنّ فقــد أتــا ك مجيبُ صوتك غير عاجز
فى نيَّــة وبصــيرة والصــدق مُنْجى كل فائز
إنى لأرجــو أن أقــيـ ـم عليــك نائحــة الجنائز
من ضــربة نجــلاء يبــقى ذكرها عنــد الهــزاهز

فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على ، قال : ابن عبد مناف ؟ قال : أنا على بن أبى طالب . فقال : يا بن أخى من أعمامك من هو أسن

---

(١) الهزاهز : الدواهى والشدائد .

منك ، فإنى أكره أن أهريق دمك ! فقال له على : لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك !

غضب عمرو فنزل عن فرسه وسلّ سيفه كأنه شعلة نار . ثم أقبل نحو على والشرر يتطاير من عينيه ، فاستقبله على بدرقته . فضربه عمرو فى درقته فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجّه ، إلا أن علياً عاجله بضربة على حبل عاتقه فسقط لتوه ، وصاح المسلمون ؛ وسمع محمد التكبير فعرف أن علياً قتله . ثم أقبـل علىّ على محمد وهو يقول قصيدته التى منها :

أعلىّ تقتحم الفوارس هـكذا عنى وعنهم أخّروا أصحـابى
عبدَ الحجارة من سفاهة رأيه وعبدت ربَّ محمد بصواب

أقبل علىّ ووجهه متهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها ؟ فقال علىّ : استحييت ابن عمى أن أسلبه . ثم إن بقية الخيل التى اقتحمت الخندق عادت أدراجها إلى الناحية الأخرى ، ولم يقع قتال غير هذا . ولم يستشهد غير ستة من المسلمين أصابتهم سهام المشركين ، وقتل ثلاثة من المشركين فقط .

ثم إن المسلمين أقاموا أياماً وهم فى أشد ما يكونون من البلاء والخوف والشدّة ، وعلى الأخص بعد أن نقض بنو قريظة حلفهم مع المسلمين . وذات يوم أتى نُعَيم بن مسعود محمداً وقال له : يا رسول الله إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى ، فمرنى بما شئت . فقال له محمد : إنما أنت رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

فخرج نُعيم بن مسعود حتى أتى بنى قرَيْظة ، وكان لهم نديماً فى الجاهلية فقال : يا بنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم .

فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم فيه أموالكم

وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره . وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه . وقد ناصرتموهم عليه . وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغير هذا البلد ، فليسوا مثلكم . فإن رأوا نُهزة أصابوها . وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين محمد ببلدكم . ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ؛ فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . قالوا : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودّى لكم وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىّ حقاً أن أبلغكم إياه نصحاً لكم فاكتموه عنى . قالوا : نفعل .

قال : ندم معشر اليهود على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه يقولون : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم . فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعث إليكم اليهود يلتمسون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحداً .

ثم خرج من عند قريش حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان إنكم أصلى وعشيرتى وأحبّ الناس إلىّ ، ولا أراكم تتهمونى ! قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم . قال : فاكتموا عنى . قالوا : نفعل : ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم ما حذّرهم .

فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان . فقال لهم : إنا لسنا بدار مقام ، هلك الخف والحافر ، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه .

فقالت اليهود : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحْدَثَ فيه بعضنا فيما مضى حدثاً فأصابهم ما لم يَخْفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهائن من رجالكم يكونون بأيدينا حتى نثق بكم فى حربنا لمحمد ، فإنا نخشى إن اشتدت عليكم الحرب وحمى القتال أن تعودوا إلى بلادكم وتتركونا والرجلَ فى بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت الرسل إليهم بما قالت بنو قريظة ، لم يعد لدى القوم شك فيما قال نعيم ، قالوا : والله إن الذى حدثكم نُعَيم بن مسعود لَحَقّ . فأرسلوا ثانية إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة عند ما تأكد لديها أن قريشاً وغطفان لا تدفع إليهم رهائن : إن الذى ذكر نُعيم بن مسعود لحق ، فما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك عادوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان أنهم لا يقاتلون معهم إلا إذا أعطوهم رهائن ، فأبت قريش .

وما هى إلا ساعات حتى انقلب الجو عاصفاً رهيباً لم يشهد القوم عاصفة مماثلة من قبل ، وما أتت عليهم ليلة قط أشد منها ظُلْمَة ولاأشد منها ريحاً ، فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما كان يرى أحدهم منها إصبعه . واشتد تهطال المطر وزفرفت الريح وعلا صوتها يصم الآذان ، وراحت تضرب فى الخيام فتقتلعها ، وفى القدور فتكفؤها ، حتى لقد انخلعت قلوب الرجال ، وتصور لهم أن السماء ستنطبق على الأرض . وفى تلك الأثناء أدرك محمد بقوة بصيرته أن الأعداء لا بد مرتدين عندئذ . فنادى فى قومه وما يرى أحدهم الآخر : من رجُل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم . فلما تباطأ عنه الرجال من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد نادى

محمد : ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا .

فتسلل حُذيفة ودخل فى القوم وقد دخل فى روعهم أن جنود الله قد نزلت من السماء تحارب مع محمد . فإذا به يسمع طليحة بن خويلد وهو ينادى : إن محمداً قد بدأكم بشر . فالنجاة النجاة ! وسمع أباسفيان يقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلكت الخيل والإبل . وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره . ولقينا من شدة الريح ما ترون . ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإنى مرتحل . وقامت قريش فارتحلت وتبعتها غطفان وجموعها . وعاد حذيفة فأخبر محمداً أنهم يرتحلون .

وما أن أطلت تباشير الصبح وتبين الناظر إلى حيث كان الأعداء معسكرين صورة الأشياء . حتى تأكد لمحمد وللمسلمين أن القوم قد ارتحلوا عن بكرة أبيهم . وأصبحوا أثراً بعد عين .

وأنزل الله تعالى قوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. »[1] إلى أن قال « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً. »[2] ومعنى هذا أن المؤمنين لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم بل صرفهم القوى العزيز بحوله وقوته .

وانصرف محمد عائداً إلى المدينة وهو يقول . « لا إله إلا الله وحده . صدق وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

---

(١) الأحزاب ٩ . (٢) الأحزاب ٢٥ .

الفصل الثالث عشر

غزوة بنى قُرَيْظَة

لما أصبح محمد ورأى جموع الأحزاب قد ولت الأدبار ، انصرف والمسلمون عن الخندق عائدين إلى المدينة ، فوضعوا السلاح ، وحمدوا الله على ما أولاهم من فضله . غير أن جبريل أتى الرسول يحدثه كما كان يأتيه بالوحى ، فقال : أوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل : ما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت إلا الآن من طلب القوم ، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم . وهؤلاء الملائكة الذين أشار إليهم جبريل بقوله إنهم لم يضعوا السلاح بعد ، هم الذين أشار إليهم الله تعالى فى كتابه الكريم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها »[1] .

أمر محمد من توه بلالا أن يؤذن فى الناس : من كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلّيَنَّ العصر إلا فى بنى قُرَيْظة . وأعطى لواءه لعلى بن أبى طالب وأمره بالتقدم إلى بنى قريظة ، واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . فتقدم الناس من كل صوب متجهين إلى بنى قريظة ورسول الله فى أثرهم على حماره . وما أن مالت الشمس للغروب حتى كانت جموع المسلمين قد توافدت على بنى قريظة أفواجاً حتى بلغت عند العشاء ثلاثة آلاف مقاتل . ولما رأى على بن أبى طالب محمداً مقبلا ، تلقاه وقال : ارجع يا رسول الله فإن الله كافيك اليهود . وكان علىّ قد سمع منهم قولا سيئاً لمحمد وأزواجه ، فكره علىّ أن يسمع شيئاً من هذا . فقال محمد : ولم تأمرنى بالرجوع ؟

(١) الأحزاب ٩ .

فكتمه علىّ ما سمع منهم فقال : أظنك سمعت فىّ منهم أذى ، فامض فإن أعداء الله لو رأونى لم يقولوا شيئاً مما سمعت .

فلما نزل عليهم بحصنهم . وكانوا فى أعلاه . نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم فقال : أجيبوا يا معشر يهود ، يا إخوة القردة والخنازير ، قد نزل بكم خزى الله عزّ وجل . فقالوا : يا أبا القاسم لم تكن فحّاشاً . غير أنه اشتد عليهم وأمر أصحابه بمحاصرتهم . فحاصروهم وشدّدوا عليهم الحصار . ونزل هو على بئر من آبار بنى قريظة من ناحية أراضيهم يقال لها بئر أنّى ، واعتصم اليهود فى حصنهم لا يقوون على الخروج ، ولا يستطيع أحد اقتحام الحصن خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف فى قلوبهم الرُّعب ، ولم يعد مفر من التسليم .

فلما أيقن اليهود أن محمداً سوف لا ينصرف عنهم حتى يبلغ منهم ما يريد ، وأنهم سوف لا يحتملون مشقة الحصار بعد ذلك . قال لهم رئيسهم كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون . وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها . قالوا : وما هن ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه . فوالله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل . وأنه للذى تجدونه فى كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم علىّ هذه فلنقتل أبناءنا ونساءنا . ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف . لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد . فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه . وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : أنقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟ !

قال : فإن أبيتم علىّ هذه . فالليلة ليلة السبت . وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها . فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّة

قالوا : أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يُحدث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد علمتَ فأصابه ما لم يخفَ عنك من المسخ .

فقال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً .

ثم إنهم بعثوا إلى محمد أن ابعث إلينا أبا لُبابة بن عبد المُنذر أخا بنى عمرو بن عوف ، وكانوا حلفاءهم ، نستشيره فى أمرنا .

فأرسله محمد إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرَقّ لهم ، فلما سألوه : يا أبا لُبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم . وأشار بيده إلى حلقه أنه الذّبْح .

فلما فعل ذلك أبو لُبابة ندم ندماً شديداً على خيانته لمحمد واطلاعه اليهود على حكمه فيهم ، وانطلق على وجهه حتى أتى مسجد الرسول فارتبط إلى عمود من عمده ، وقال : لا أبرح مكانى حتى يتوب الله علىّ مما صنعت . وظلّ مرتبطاً على هذا الحال ست ليال ، تأتيه امرأته فى وقت كل صلاة فتحله ليتوضأ ويصلى ثم يرتبط ، حتى نزلت توبته فى قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خاطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم . »[1] .

فلما تباطأ اليهود فى إجابة محمد إلى طلبه بالتسليم والنزول على حكمه ، صاح علىّ بن أبى طالب قائلا : ياكتيبة الإيمان . وتقدم هو والزبير بن العوام وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو أقتحم حصنهم . فأرسل اليهود إلى حلفائهم من الأوس أن يأخذوا لهم مثلما أخذت الخزرج لإخوانهم بنى قَيْنُقاع . عندئذ قالت الأوس : يا رسول الله إنهم كانوا حلفاءنا وقد فعلت مع حلفاء إخواننا الخزرج بالأمس ما قد علمت حين سألك فيهم عبد الله ابن أُبَىّ ، يشيرون بذلك إلى عفوه عن بنى قَيْنُقاع والاكتفاء بإجلائهم . فقال محمد : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا :

---

(١) التوبة ١٠٢ .

بلى . قال : فذلك إلى سعد بن مُعاذ . وقبل اليهود حكم سعد بن معاذ فيهم ، وقد ظنوا أنه على الرغم من خياناتهم للمسلمين وعلى الرغم من مشاتمتهم معه عند ما أوفده محمد إليهم ليذكرهم بحلفهم معه الذى خانوه ، فإنه استجابة لنزعات العرب ، سوف لا يقبل أن يعامَلَ حلفاؤه بأقل مما عومل به حلفاء عبد الله بن أبيّ ، وأنه سوف يحكم بإجلائهم فحسب .

أرسل محمد إلى سعد بن مُعاذ وكان جريحاً يداوى فى مسجد الرسول إثر جرح أصيب به فى شريان يده فى غزوة الخندق . فأتاه قومه من الأوس فحملوه على حمار وقد وضعوا تحته وسادة من جلد ، وكان رجلا جسيماً جميلا ، ثم أقبلوا معــه إلى محمد وهم يقولون له : يا أبا عمرو أحسن فى حُلفائك . فلما ألحوا عليه وأكثروا قال : قد آن لسعد ألاّ تأخذه فى الله لومة لائم .

وعند ذاك رجع بعض من كان معه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد . وقبل أن يصدر حكمه فيهم ، وذلك استنتاجاً من تلك الكلمة التى قالها سعد .

فلما انتهى سعد إلى محمد والمسلمين ، قام المسلمون إليه وقالوا : يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاّك أمر حلفائك لتحكم فيهم . فقال سعد : عليكم بذلك عهــد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ فقالوا : نعم . قال : وعلى من هاهنا . ونظر فى الناحية التى فيها محمد وهو معرض عنه إجلالا له . فقال محمد : نعم . فلما أخذ هذه المواثيق أمر بنى قريظة أن ينزلوا ويسلموا سلاحهم . ففعلوا .

فأصدر سعد حكمه وهو أن يقتل الرجال ، وأن تسبى النساء والأطفال ، وأن تقسم الأموال .

فقال محمد : لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله .

ومصداق هذا ما جاء فى الكتاب الكريم : « وَرَدَّ الذين كفروا بغيظهم

لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »[1] يشير إلى الأحزاب . « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب (أى بنى قريظة) من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرُّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً . »[2] .

أُنْزِلَ اليهود من حصنهم وقبض عليهم ، وكانت يدا الرجل تجمعان إلى عنقه بحبل ، وحبسوا انتظاراً لتوقيع العقوبة فيهم . ثم خرج محمد إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم استحضرهم أفواجاً فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق — وكانوا ستمائة أو سبعمائة ، وقال المُكْثِرُ ثمانمائة أو تسعمائة وقيل أربعمائة — ودفنوا فيها .

والحق أن هؤلاء اليهود قد أظهروا من الشجاعة النادرة . والصبر المدهش على هذه المحنة ، والجَلَد أمام القتل ما يحسدون عليه . عندما أُتِى بحُيَىّ بن أخطب وهو مجموعة يداه إلى عنقه ، وكان قد دخل حصنهم بعد رجوع الأحزاب وفاء بعهده لكعب بن أسد أن يشاطرهم المصير إذا ما ارتدت الأحزاب عن المسلمين ، قال له محمد : ألم يخزك الله يا حُيَىّ ؟ قال : أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخْذَل .

ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقَدَرٌ ومَلْحَمَة[3] كتبها الله على بنى إسرائيل ! ثم جلس فضربت عنقه .

أما الزُّبير بن باطا فكان شيخاً كبيراً قد عمى ، وكان قد أسر يوم وقعة بُعَاث بين الأوس والخزرج ثابت بن قيس بن شَمّاس ومَنَّ عليه وأطلقه ، فأراد ثابت أن يكافئه فى ذلك اليوم فجاءه فقال : هل تعرفنى يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : وهل يجهل مثلى مثلك . فقال له ثابت : أريد أن أكافئك . قال : إن الكريم يجزى الكريم .

---

(١) الأحزاب ٢٥ . (٢) الأحزاب ٢٦—٢٧ .

(٣) الملحمة : الوقعة الشديدة فى الحرب .

فجاء ثابت إلى محمد واستطلقه الزبير بن باطا فأطلقه له ، فجاءه ثابت فأخبره . فقال الزبير : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ! فذهب ثابت إلى محمد فاستطلق له امرأته وولده ، فأطاقهم له . ثم جاءه فقال الزبير : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأتى ثابت إلى محمد فاستطلق مال الزبير فأطلقه له .

ثم جاءه فأخبره فقال : يا ثابت ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينيّة تتراءى فيها عذارى الحى . كعب بن أسد ؟ قال : قُتِل .

قال : فما فعل سيد الحاضر والبادى حُيَىّ بن أخطب ؟ قال : قُتل .

قال : فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا ، عزّال بن شموأل ؟ قال : قُتِل .

قال : فما فعل المجلسان ؟ يعنى بنى كعب بن قُرَيْظة وبنى عمرو بن قريظة . قال : ذهبوا فقتلوا .

قال : فإنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم ، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير ، فما أنا بصابر والله إفراغة دلو حتى ألقى الأحبة . فقدمه ثابت فضربت عنقه .

ولم يقتل من نساء بنى قريظة غير امرأة واحدة كانت قد قتلت خلاّد ابن سُوَيد الخزرجى إذ طرحت عليه رحا فشدخته شدخاً شديداً . وكان المسلمون لا يقتلون النساء والأطفال ولكنها قتلت به . وتروى عائشة أنه عند ما هتف هاتف باسمها قالت لها : ويلك مالك . قالت : أقتَل ! قالت عائشة : ولم ؟ قالت : لحدث أحدثته . فانطلق بها فضرب عنقها . وكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تُقْتَل !

أما الصبيان فانهم فرقوا بين البالغ منهم وغير البالغ بمن أنبت ، أى بمن خشن شعر عانته . فقدم فقتل .

وبعـــد أن فرغ محمد من قتل الرجال ، قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين بعد أن أخرج الخُمسُ . وقسم للفارس ثلاثة أسهم ، سهمين للفرس وسهماً للفارس ؛ وكانت الخيل يومئذ ستاً وثلاثين ، وقسم للراجل سهما ، ثم بعث سعيد بن زيد بعدد من سبايا بنى قريظة إلى نجد فباعهم واشترى خيلا وسلاحا . ثم إنه اصطفى من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة ، إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة . وكان قد عرض عليها الإسلام فامتنعت ، ثم أسلمت بعد ذلك ؛ فسر بإسلامها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها . فاختارت أن تستمر على الرّق ليكون أسهل عليها ، وظلت فى ملكه حتى توفى

الفصل الرابع عشر

زواج النبي بزينب بنت جحش

التي ولى الله عقد زواجها

تزوج محمد فى أعقاب غزوة بنى قريظة من زينب بنت جحش ، وكانت زينب زوجاً لمولاه وابنه بالتبنى زيد بن حارثة . ويجمل بنا هنا أن نذكر قصة زواجها من زيد ، ثم تطليقها وسببه ، ثم كيفية زواجها من محمد ، من غير إطالة ومن غير إفاضة فى ذكر سخافات المرجفين وضلالات المضللين من أعداء الإسلام ، ومن غير أن نخوض فى بعض أقوال كثير من السلف الصالح الذين لم يفهموا هم أيضاً مغزى هذا الزواج ، وراحوا ينسجون قصصاً كانت فى واقع الأمر النواة التى نسج من حولها المبشرون النصارى والمستشرقون من أعداء الإسلام طعونهم فى نبى الإسلام .

لما أراد النبى أن يزوج مولاه وابنه بالتبنى زيد بن حارثة ، اختار له زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب . فأتى أهلها ليخطبها ، غير أنها رفضت رفضاً باتاً وقالت : لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس . ورفض أخوها عبد الله بن جحش ، بطبيعة الحال ، لأن العرب كانوا حريصين جداً على تزويج بناتهم من أكفاء لهن ، ولم تكن المرأة أقل حرصاً من الرجل على التمسك بهذا التقليد . ثم إنهم كانوا يعتبرون الزواج من الموالى — وإن اعتقوا — أمراً يلحق بهم عاراً كبيراً . غير أن الإسلام كان فى ذلك الوقت قد وضع معياراً جديداً للشرف بين الناس فى هذه الدنيا هو قوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) . وإذن كانت التقوى فى شريعة الإسلام

---

(١) الحجرات ١٣ .

هى المعيار الذى يَتشرَّف به الرجل . لا حسبه ونسبه . ولا لونه وجنسه .

فلما رفض أهلها ونزلت الآية : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »(١). لم يعد مفر من إطاعة الله ورسوله وتزويج زينب بزيد بن حارثة .

غير أن زينب تزوجته وهى كارهة . وكانت تؤذيه ، ويقول بعض كتاب السيرة إنها ظلت عنده سنة أو أكثر عذراء لم يمسسها . وكان زيد دائم الشكوى منها لمحمد . ودائم الحديث له عن رغبتـه فى تطليقها ، وكان محمـد ينهاه عن ذلك ويقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ثم إن محمداً علِمَ أنه سيتزوجها ، وهذا معنى تفسير قوله تعالى « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه »(٢) أى تخفى فى نفسك علمك بأنك ستتزوجها بأمر الله سبحانه وتعالى .

غير أن الزواج من مطلقة الابن بالتبنى كان محرماً عند العرب . فلما نزلت الآية : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً »(٣) ، وهى من آيات التنظيم الاجتماعى الذى حرم التبنى على المسلمين ، لم يعد حرج على النبى أن يتزوج من زينب بنت جحش . وصار زيد ينادى باسمه القديم « زيد بن حارثة » بدلا من « زيد بن محمد » وكان قد طلقها .

فلما انقضت عدتها بعث محمد زيد بن حارثة ليخطبها له . فانطلق حتى أتاها وهى تخمّر عجينها فقال لها : يا زينب أبشرى ، أرسلنى

---

(١) الأحزاب ٣٦ . (٢) الأحزاب ٣٧ .

(٣) الأحزاب ٤٠ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامِرَ ربى عز وجل ، ثم قامت إلى مسجدها . ونزل القرآن :

« وإذ تقولُ للذى أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه (أى زيد بن حارثة) أمسك عليك زوجَكَ واتق الله وتخفِى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوَّجناكَها لكى لا يكون على المؤمنين حرجٌ فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلَوا من قبلُ وكان أمر الله قدراً مقدوراً »(١) .

ثم إن النبى مشى إليها بعد نزول هاتين الآيتين ودخل عليها بغير إذن . ذلك أنه أصبح زوجها بلا عقد ولا شهود من بنى البشر ، فقد تم الزواج بنزول هاتين الآيتين ، وكان الله وليها فى العقد وجبريل شاهده . وكانت زينب تقول لمحمد : إنى لأدُل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تَدُلُّ بهن ، أن جدى وجدك واحد — تعنى عبد المطلب — وأنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وأن السفير جبريل عليه السلام .

وفى صبيحة عرسها نزلت آية الحجاب موافقة لرأى عمر بن الخطاب ، إذ كان عمر كثيراً ما يذكر الحجاب ويقول : لو أطاع فيكن ما رأتكن عين . فنزل قوله تعالى : « وإذا سألتموهنَّ (أى زوجات النبى) متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن »(٢) .

فلما نزلت هذه الآية قال بعض المسلمين : أَنُنْهَى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجنَّ عائشة !

فقال تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكِحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً »(٣) .

---

(١) الأحزاب ٣٧ — ٣٨ .
(٢) الأحزاب ٥٣ .
(٣) الأحزاب ٥٣ .

أما المؤمنات من غير أزواج النبي فنزل فيهن قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهن ويحفظن فروجَهن ولا يُبْدِين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن ولا يُبدين زينتهن إلا لبُعُولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإرْبة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرْجُلهن ليُعلَم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »[1] .

وكانت النساء في الجاهلية وصدر الإسلام يكشفن عن صدورهن وأذرعهن ويبدين مفاتنهن . فنزلت الآية : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرَفن فلا يُؤذَين وكان الله غفوراً رحيما »[2] والمقصود بقوله : « أن يُعرفن » أي أن يعرفهن الشبان ويفرقون بينهن وبين الإماء ، ذلك أن الفتيان كانوا يتعرضون لمغازلة النساء إذا ما خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان .

(١) النور ٣١ . (٢) الأحزاب ٥٩ .

الفصل الخامس عشر

من غزوة بنى قُرَيْظة إلى غزوة الحُدَيْبية

انطبع تاريخ الإسلام بعد الهجرة بطابع حربى جداً ، وأصبح عبارة عن سلسلة من الحروب الصغيرة والكبيرة . فهل الحرب طبيعة فى الدين الإسلامى أم أن الظروف التى نشأ فيها هى التى أملت هذه الضرورة ؟ أما الحقيقة الماثلة التى نستطيع تبينها فتدلنا أبلغ دلالة على أن الدين الإسلامى ينهى نهياً مطلقاً عن العدوان « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »(1) . وهذا المفهوم جوهر ثابت فى أصول هذا الدين لا شك فى ذلك . ولكن الدين الإسلامى فى مفهومه الأسمى وفى جوهره الخالص يدلنا أيضاً ، وبطريقة لا مِرْية فيها ، على أنه دين الفطرة ودين الحياة . والحق أنه ما كان ينبغى له أن يكون شيئاً غير ذلك ، وما كان ينبغى له أن يكون فيه شىء غير ما فى الحياة ذاتها ، وبكل ما نفهم من معانى الحياة ، وما تنطوى عليه الحياة وما ينطوى عليه الاجتماع الإنسانى من مبادئ تُسيّر الحياة وتحكم الاجتماع . ولأن الإسلام دين الحياة ودين الفطرة ، فليس غريباً بأية حال ولا بأى منطق أن نرى هذا الدين وقد تبلور بالصورة التى تحتمها الحياة ، وتحتمها ظروف المجتمع الذى نشأ فيه ، والتى اضطرت مؤسسه الكريم اضطراراً إلى أن يتبع المبادئ التى تحكم الناس الذين يعايشهم .

كان لزاماً على محمد ، وهو يقود المسلمين ويؤسس دولة وديناً فى مثل الظروف والبيئة التى وجد فيها ، أن يعامل الناس بالطريقة المثلى التى يفهمونها والتى يحترمونها . ولذلك كان لزاماً عليه أن يكون حربياً ، بل حربياً جداً فى تلك البيئة العنيفة التى قست على الناس فطبعتهم بطابع العنف

(1) البقرة 190 .

والقوة . وأى عجب فى ذلك فى مجتمع يؤمن بالقوة ويؤمن بان القوى هو الأعظم وأنه الأقدر على الحياة ، بل الأصلح للحياة ، وأنه هو الذى ينبغى أن يدين له الآخرون ويقدموا له فروض الولاء والطاعة ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم .

وهنا يقف أعداء الإسلام من المبشرين ويرفعون أصواتهم عالية ليقولوا إن الإسلام دين السيف ودين العنف وأنه دين حربى ، ويحاولون من ثمة أن يجدوا فى ذلك مطعناً على الإسلام . ونحن لا نريد أن ندخل فى مجادلات مع هؤلاء دفاعاً عن الإسلام ، وإنما يكفى أن نقول مثلا إن الإنسانية لم تعرف ديناً ارتكبت باسمه الحروب وأريقت باسمه الدماء مثل اليهودية أو المسيحية . ولا يغرنك دعاية المسيحيين التى يقيمونها حول النص القائل « من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً » (متى ٥/٣٩) لأن المسيحيين لم يعملوا قط بهذا النص ، وإنما عملوا بنص آخر نسخ هذا النص هو « ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً » (متى ١٠/٣٤) . والحقيقة الماثلة هى أن كبار اللاهوتيين قد بذلوا آلاف المحاولات للتوفيق بين النصين خدمة للتبشير فلم يوفقوا . أما اليهودية ، فإن التوراة مليئة بالتحريض لا على الغزو بل على إباد الشعوب . ثم إننا لا يجب أن ننسى أيضاً أن المسيحية ليست نقضاً لليهودية ، فالمسيح عليه السلام يقول : « ما جئت لأنقض (الناموس) بل لأكمل » (متى ٥/١٧) .

إذن فالإسلام من هذه الوجهة لم يخرج فى طبيعته عن طبيعة الدين المسيحى — إلقاء السيف لإحلال السـلام . ومن ثمة كان لزاماً على محمد أن يبذل أقصى جهده ، فى بيئة لا تدرف غير القوة ، لينال احترام الناس . ماذا كان ينبغى له أن يفعل غير ما فعل ليجبر هذه الأقوام على احترامه وإلزامها حدود الطاعة الواجبة نحوه ونحو تابعيه ، حتى لا يتعرض من هنا أو من هناك إلى عدوان هؤلاء الأقوام عليه وعلى أتباعه ؟

والحق أنه ينبغى لأى قائد فى أى مكان أو زمان أن يتصرف مع الناس

الذين يعايشهم بالطريقة المثلى التى يقدرونها حق قدرها ، والتى يقتنعون بها ، وإلا لكان نصيبه الفشل لا شك فى ذلك ، لأنه إن لم يقنع الذين يعايشهم بالطريقة المثلى التى تؤثر فى نفوسهم وتكبحها لما استطاع أن يحافظ على نفسه هو ولا على النظام الذى يقيمه . ونحن نعلم أن العرب عاشوا فى شبه جزيرتهم فى قبائل منفصلة تماماً وكأنها جمهوريات مستقلة بعضها عن بعض تمام الاستقلال ، إن لم تتحالف وتتعاهد هذه وتلك لم يعد بينهما من رادع أياً كان يمنع أياً من الطرفين من الإغارة على الآخر واستباحته . وهذا قانون لم يضعه العرب ولم ينتهجوه بدعة بين شعوب الأرض — أى قانون بقاء الأصلح أو أكل الأقوى للأضعف — فهذا قانون سارت على هديه الإنسانية منذ كانت ، ولا تزال تسير عليه فى أزهى عصورها ، ومع وجود منظمة دولية اسمها الأمم المتحدة تحاول الشعوب عن طريقها جاهدة أن تضع حداً لهذا القانون فلم تفلح .

لم يكن من مندوحة إذن لمحمد إذا أراد أن ينتصر ، وإذا أراد لدينه أن ينتشر من أن يدافع عن نفسه فى هذه البيئة بأصلح الأسلحة المؤثرة فيها ، وهى رد الصاع صاعين ، وإشعار القبائل التى لا تدين بدينه وليس بينها وبينه موادعة أنه قادر على ردعها وغزوها ، وأنه قادر على قهرها وعلى حماية دولته ودينه من طغيانها .

استأنف سياسة الردع هذه بعد غزوتى الخندق وبنى قريظة فوراً . فأرسل فى المحرم من السنة السادسة محمد بن مسلمة فى ثلاثين راكباً لشن الغارة على بنى بكر بن كلاب ، وتقع منازلهم على بعد سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة بناحية ضربة . وكان يسير الليل ويكمن النهار إلى أن بلغ ديارهم فدهمهم وقتل منهم عشرة وفر الباقون فاستاق مواشيهم وقفل راجعاً إلى المدينة . وبينما هو وأصحابه فى بعض الطريق التقوا بثمامة بن أثال من عظماء بنى حنيفة فأسروه وهم لا يعرفونه . فلما قدموه لمحمد عرفه وعامله

بحكمة كما كان يعامل الرؤساء ، فأطلق إساره وأكرمه وإن أعرض عن الإسلام وأبى الدخول فيه . فلما خلا ثمامة إلى نفسه وراجعها ، أثرت فى نفسه هذه المعاملة وملكت عليه كل مشاعره ، فارتد إلى محمد وأسلم بين يديه وهو مختار لا مكره وخاطبه قائلا :

« يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلىّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلىّ . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلىّ من دينك فقد أصبح أحب الدين كله إلىّ . والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فقد أصبح أحب البلاد إلىّ » .

ثم إن قدَمَ ثمامة رسخت فى الإسـلام فى أثناء حياة محمد وبعد مماته . ففى أثناء حياته تحدى قريشاً ، وبعد وفاته وقد ارتد أكثر أهل بلاده عن الإسلام ، تصدى ثمامةُ لمُسَيْلمة الكذاب ونهى قومه عن الارتداد ، فكان يقول لهم : إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه . فثبت معه الكثيرون .

وفى ربيع الأول ، عقد محمد العزم على الخروج لبنى لحيان للثأر منهم فى مقتل أصحابه عاصم بن ثابت ورفاقه أصحاب الرجيع الذين مرّ ذكرهم . فخرج فى مائتى راكب واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وسلك طريق الشام حتى يُعَمِّى على الأعراب مقصـده ، وحتى لا يعلم بنو لحيان بمقـدمه ، ثم ارتد نحو الجنوب وأسرع المسير ليلحق ببنى لحيان ويأخذهم على غِرَّة . غير أنه عندما نزل بأرضهم وجدهم تركوا ديارهم وتمنعوا فى رءوس الجبال . فأقام بديارهم يومين وأرسل بعضاً من أصحابه إلى عسفان ، وهو موضع قرب مكة ، وكان يقول : لو أنا هبطنا عسفان لرأت قريش أنا قد جئنا مكة . ثم إنه لم يلق كيداً ، لا هو ولا أصحابه ، فرجع إلى المدينة .

وبعد عدة أيام من عودته أغار عُيَيْنة بن حصن الفَزارى فى جمع من

غَطَفان على عشرين ناقة حلوباً للنبي كانت ترعى بالغابة ، (وهو موضع على بريد من المدينة جهة غَطَفان) وفيها رجل من غفار ومعه امرأته ، فقتلوا الرجل وأخذوا المرأة والنياق . حدث هذا في الصباح الباكر ، وكان سَلَمة ابن عمرو بن الأكوع الأسلمى قد خرج يريد الغابة متوشحاً قوسه وسهامه ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله ومعه فرس له يقوده . فما أن علا ثنيّة الوداع إذ رأى بعض خيول القوم وقد استاقوا الإبل ، فاعتلى صخرة ناحية جبل سَلْع ليُسْمِع المدينة وصاح بأعلى صوته : واصباحاه ! ثم امتطى فرسه وأقدم يعدو نحوهم وكان مثل السبع ، حتى لحق بهم ، وجعل يرميهم بالسهام وهو يقول :

خُذْها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرُّضَّع(١)

فإذا ارتدت الخيل نحوه ، انطلق هارباً بأقصى ما يستطيع وهو يرميهم بسهامه ليردهم عنه ، وكانت الخيل إذا دخلت بعض المضايق بين الجبال تحايل حتى يعلو الجبل ويلحقهم فيلقى عليهم الحجارة .

ثم إن صياح ابن الأكوع بلغ محمداً فصرخ بالمدينة : الفَزَع الفَزَع ! فترامت إليه فرسان المسلمين سراعاً كأنهم على أجنحة الريح يتسابقون لنصرته ، فكان المقداد بن الأسود أول من انتهى إليه من الفرسان . فما أن تجمع إليه ثمانية فيهم أبو قتادة وأبو عياش ، حتى أمَّر عليهم سعد بن زيد وأمرهم بالخروج فوراً في طلب القوم حتى يلحق بهم . وقال لأبي عياش : يا أبا عياش ، لو أعطيت فرسك لرجل هو أفرس منك . فقال أبو عياش : يا رسول الله أنا أفرس الناس . وأطلق لفرسه العنان فما جرى به إلا خمسين ذراعاً حتى سقط ، فأعطى محمد فرسه لمعاذ بن ماعص . وتلاحقت الخيل تجد في أثر القوم .

وتبعهم محمد على رأس جماعة من المسلمين واستخلف على المدينة ابن

---

(١) أى يوم هلاك اللئام .

أم مكتوم . فإذا بهم يرون فى بعض الطريق قتيلا عليه بُرْدُ أبى قتادة ، فاسترجع الناس وقالوا : قُتِل أبو قتادة . فقال محمد : ليس بأبى قتادة ولكنه قتيل قتله أبو قتادة ووضع عليه بُرْدَه لتعرفوا أنه صاحبه . واستطاع الفرسان أن يستنقذوا بعض النياق ، ونزل محمد بالجبل عند ماء يقال له ذو قَرَد ، ولحقه الناس فأقام يوماً وليلة . وذبح لكل مائة بعيراً وشوى له بلال من الكبد والسنام .

فلما أصبحوا أردف محمد سَلَمة وراءه على بعيره ووجهوا راجعين إلى المدينة . فلما كان بينهم وبينها قريب من ضَحْوة ، نادى رجل من الأنصار كان لا يُسْبَق : ألا من مسابق ؟ ألا رجلٌ يُسابق إلى المدينة ، وأعاد ذلك مراراً ، فرد عليه سَلَمة وهو خلف محمد على بعيره : أما تُكرِم كريماً ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سلمة لمحمد : يا رسول الله بأبى أنت وأمى خلِّنى فلأسابق الرجل . قال : إن شئت . فوثب سلمة عن الناقة ثم جرى خلف الرجل فلحقه وضرب بين كتفيه بيده وقال : سبقتك والله . وضحك الرجل وقال : أظن ذاك . وهكذا كانت حياتهم مع محمد ، سهلة طبيعية فيها إخاء ومودة .

فلما قدموا المدينة أقبلت على محمد امرأة الرجل الغِفارى الذى كان يرعى النياق وهى على ناقة من نياقه ، وأخبرته كيف حدثت الغارة ، فلما فرغت قالت : يا رسول الله إنى قد نذرت الله أن أنحر هذه الناقة إن نجانى الله عليها .

فتبسَّم محمد وقال : « بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجَّاك بها ثم تنحرينها ، إنه لا نَذْر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين . إنما هى ناقة من إبلى ، فارجعى إلى أهلك على بركة الله » .

وفى تلك الأثناء أى فى أعقاب غزوة الخندق التى ألب فيها يهود خيبر العرب على المسلمين وجمعوا لهم هذا الجمع الكبير ابتغاء استئصال شأفتهم ،

لم ينس محمــد بطبيعة الحال أنه من الضرورى لردع هؤلاء أن يقدم المسلمون على عمل يشعرونهم به أنهم لهم بالمرصاد .

كان سلاّم بن أبى الحُقَيْق التاجر اليهودى ، فيمن حزّب الأحزاب على محمد ، فجاءت الخزرج تستأذن محمداً فى قتله ، ذلك أن الأوس هم الذين قتلوا من قبل كعب بن الأشرف اليهودى ، وكانت الأوس والخزرج تتصاولان تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غناء عن الرسول إلا وقالت الخزرج : والله لا يذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله . فلاينتهون حتى يفعلوا مثلها . وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك .

فلما أرادت الخزرج أن تصنع صنيعاً مشابها لصنيع الأوس إذ قتلت ابن الأشرف ، تذكروا أبا رافع سلاّم بن أبى الحقَيْق ، وكان تاجراً ثرياً مشهوراً بأرض الحجاز يعيش فى قصر له فى أرض خَيْبر . فاستأذنوا محمداً فى قتله فأذن لهم ، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة . فخرج إليه خمسة رجال من بنى سلمة ، فأتوه حتى قاموا على بابه فاستأذنوا ، فخرجت إليهم امرأته فأخبروها أنهم أناس من العرب يلتمسون الميرة ، فأدخلتهم عليه فى غرفة بأعلى الدار ، فأغلقوا الباب وابتدروه بسيوفهم فقتلوه .

وفى هذه السنة ، أى السنة السادسة من الهجرة ، كثرت السرايا وكثرت المناوشات . بعث محمــد فى ربيع الأول سرية على رأسها عكاشة بن محصن فى أربعين راكباً ليغير على بنى أسد . وكانوا لا يكفون عن التعرض بالإيذاء للمسلمين الذين يمرون بديارهم . غير أنهم علموا بمقدمه فهربوا ؛ فلم يجد أحداً غير رجل نائم ، فأمنه ليدلهم على مواشى القوم ، فدلهم عليها فاستاقوها ، وهى مائة بعير وقفلوا راجعين إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد .

وفى ربيع الأول بلغه أن جماعة بذى القصة ، وهى موضع على أربعة وعشرين ميلا من المدينة فى طريق الربذة ، يريدون الإغارة على

مواشي المسلمين التي ترعى بالهيفاء قرب المدينة . فأرسل لهم محمد بن مَسْلمة فى عشرة من المسلمين ، وصلوا ديارهم ليلا . وكان القوم قد علموا بهم فكمنوا لهم حتى إذا ما نام المسلمون هجموا عليهم يرمونهم بالسهام ، فوثبوا يريدون أسلحتهم ، إلا أنهم غلبوا فقتلوهم إلا محمد بن مسلمة ، تركوه ظناً منهم أنه قتل . فعاد إلى المدينة وأخبر محمداً خبر أصحابه ، فأرسل إليهم فى ربيع الآخر من نفس السنة أبا عبيدة بن الجرّاح ليقتص منهم ، فوجدهم قد تشتتوا فاستاق مواشيهم .

وفى ربيع الآخر أيضاً أرسل زيد بن حارثة لبنى سليم ، وكانوا من المتحزبين فى غزوة الخنـــدق ليغير عليهم فى الجموم ، فلما بلغ منازلهم وجدهم قد تفرقوا ، غير أنهم وجدوا امرأة هناك فدلتهم على مواشيهم فاستاقوها وأسروا بعض الرجال .

ثم إنه بلغ النبى فى ذلك الحين أن قافلة لقريش أقبلت من الشام ، فأرسل زيد بن حارثة لاعتراضها ، فتمكن منها وأخذها جميعاً وأسر حرّاسها وفيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت محمد ، فاستجار بزينب فأجارته ، وردّ محمد عليه كل تجارته لم يفقد منها شيء ، فعاد إلى مكة وأدى لكل ذى حق حقه ، ورجع إلى المدينة فأسـلم فرد عليه محمد زوجه كما سبق بيانه .

وفى جمادى الآخرة أرسل محمد زيد بن حارثة أيضاً فى خمسة عشر رجلا ليغيروا على بنى ثعلبة الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة ، فأقدموا عليهم وهم فى الطرف ، وهو ماء على ستة وثلاثين ميلا من المدينة فى طريق العراق ، فخيل لهم أنهم طليعة جيش كبير ، ففروا وتركوا مواشيهم فاستاقها المسلمون ورجعوا .

وفى رجب من نفس هذه السنة أيضاً ، أرسل زيد بن حارثة للانتقام من بنى فزارة لتعرضهم له وهو راجع بتجارة من الشام . وفى شعبان أرسل

عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة من الصحابة لغزو بنى كلب فى دومة الجندل ، وقال له إن هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم . فساروا حتى نزلوا بديارهم فدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع أسلم رئيسهم الإصبع بن عمرو النصرانى ، وأسلم معه جمع من قومه ، فتزوج عبد الرحمن ابنته تماضر .

وفى شعبان أيضاً أرسل علىّ بن أبى طالب فى مائة من الصحابة لغزو بنى سعد بن بكر بفدك ، وهى قرية على بعد ست ليال من المدينة من جهة خيبر . وذلك لأنه بلغه أنهم يجمعون الجيوش لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين فى نظير تمر يعطونه من خيبر . وبينما المسلمون فى طريقهم أسروا رجلا من بنى بكر كان يريد خيبر ، فطلبوا منه أن يدلهم على مواشى القوم وهو آمن ، فدلهم عليها فاستاقوها وهرب الرعاة وحذّروا قومهم فتفرقوا فزعاً وفرقاً . وعاد المسلمون بغنيمتهم الكبيرة ، خمسمائة بعير وألف شاة .

وبلغه أن بنى المصطلق يجمعون الجموع لحربه بقيادة الحارث بن أبى ضرار ، فخرج إليهم فى سبعمائة من المسلمين ، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة فى رواية ، أو أبا ذر الغفارى ، أو نُمَيْلة بن عبد الله الليثى فى رواية أخرى . وحمل لواء المهاجرين أبو بكر الصديق ، ولواء الأنصار سعد بن عُبادة ، وسار إليهم حتى لقيهم عند ماء يقال له المُرَيْسيع من ناحية قديد إلى الساحل . فلما دنا منهم أمر عمر بن الخطاب فنادى فى الناس أن قولوا : لا إله إلا الله ، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم . فأبوا ، فتراموا بالسهام ، ثم أمر محمد رجاله فحملوا حملة شديدة ، فلم يفلت منهم رجل إلا أسر أو قتل . وكان شعار المسلمين يومئذ : يا منصور أمِت أمِت ! قتل منهم عشرة وأسر سائرهم . ولم يقتل من المسلمين غير رجل واحد يقال له هشام بن صبابة ، أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه من العدو ، فقتله خطأ . وسُبيتْ نساؤهم وذراريهم وفيهم جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار . وغنم المسلمون مواشيهم ، فكانت الإبل ألفى بعير ، والشاء خمسة آلاف شاة .

ثم ورد القوم على الماء ومع عمر بن الخطاب أجير له من غِفار يقال له جهْجَهاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجهاه وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء فتقاتلا ، فصرخ الجهنى : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجهاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبىّ ابن سلول فقال : أوَقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ! والله ما أعِدُّنا وجلابيب[1] قريش هذه إلا كما قال الأول : سمِّن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلّ . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير دارِكم .

فسمع زيد بن أرقم هذا القول ، وكان عند عبد الله بن أبىّ ، فمشى إلى محمد فأخبره وعنده عمر بن الخطاب ، فقال عمر : مُرْ به عبّاد بن بشر فليقتله . فقال محمد مقالة صدْق : فكيف ياعمر إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن أذّن بالرحيل . وذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

فلما علم عبد الله بن أبىّ أن زيد بن أرقم أبلغ محمداً مقالته ، مشى إليه فحلف بالله ما قلتُ ما قال ولا تكلمت به . وكان عبد الله فى قومه شريفا .

فقال من حضر من الأنصار : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوْهَمَ فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . وذلك حدباً منهم على ابن أبىّ ودفاعاً عنه .

فلما سار المسلمون لقى أسَيْد بن حُضَير محمداً فقال : يا رسول الله ، والله لقد رحلت ساعة لم تكن ترحل فى مثلها ؟

فقال : أوَما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : أى صاحب يارسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبىّ . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إل المدينة

(١) جلابيب قريش أى المهاجرين وهو لقب أطلق على من أسلموا وهاجروا ؛ لقبهم به مشركو مكة كناية عما كانوا يلتحفون به من أزر غلاظ .

أخرج الأعزُّ منها الأذلّ . قال أسَيْد : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلْكاً .

ثم مشى محمد بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، واستمر فى مسيره حتى أصبح ، وقضى جزءاً من النهار حتى آذتهم الشمس ، ثم توقف فلم يلبث الناس أن وجدوا مسّ الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان من حديث عبد الله بن أبىّ . وبعد أن استراح الناس ، استأنف المسير .

ثم إنه نزل فى عبد الله بن أبىّ قوله تعالى : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذل ولله العزّةُ ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »[1] .

عندئذ مشى عبد الله بن عبد الله بن أبىّ ، وقد اعتقد واعتقد الناس بعد نزول هذه الآية أن محمداً سوف يأمر بقتل عبد الله بن أبىّ ، ووقف بين يدى محمد فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبىّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبىّ يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار .

فقال محمد : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا . ثم إنه استطاع بهذه السياسة المثلى أن يحمل الخزرج أنفسهم ، على ما كان عبد الله بن أبىّ فيهم من الشرف ، يعاتبونه ويعنفونه هم أنفسهم إذا ما أحدث حدثاً يغضبه . فلما أثمرت هذه السياسة نظر معلم المسلمين الأول إلى عمر بن

---

(١) المنافقون ٨ .

الخطاب وقال : كيف ترى يا عُمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لى لأرْعِدَت له آنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : قد والله علمتُ لأمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى .

ثم إن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ تصدى لأبيه لما بلغ المسلمون مشارف المدينة عائدين من غزوتهم هذه عند مضيق المدينة وقال : قِفْ فوالله لا تدخلها حتى يأذَن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . فلما جاء محمد استأذنه فى ذلك فأذن له .

وكانت جُوَيرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه فيمن أصيب يومئذ من السبايا . فلما قسم السبايا على أصحابه وقعت جُوَيرية بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس بن شَمَّاس قالت عائشة : « فكاتبته[1] جويرية على نفسها ، وكانت امرأة حلوة حسناء لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه . فأتت رسول الله تستعينه فى كتابتها . فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت . فدخلتْ عليه فقالت : يا رسول الله ، أنا جُويرية بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسى فجئتك أستعينك على كتابتى . قال رسول الله : فهل لك فى خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابك وأتزوجك ، قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت . وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله قد تزوج جويرية بنت الحارث فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأطلقوا السبايا التى بأيديهم فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها » .

وكانت عائشة بصحبة محمد فى هذه الغزوة ، ذلك أنه كان إذا أراد السفر أقْرَع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فخرج سهم عائشة

---

(١) كاتب العبد على نفسه : كتب مع آسره كتابا اتفق فيه على ثمنه فإذا دفعه صار حرا .

فى هذه الغزوة . غير أنها تخلفت فى بعض الطريق وعاد الجيش كله ما عدا عائشة ، إذ وُجِدَ هودجها خالياً لا أحد به . ثم إنها وصلت فى اليوم التالى ورآها الناس وهى تدخل عليهم المدينة على بعير صَفْوان بن المُعطّل ، وكان فتى جميلا مكتمل الرجولية . فلما رأى المنافقون وذوو النفوس الضعيفة عائشة تدخل عليهم المدينة فى وضح النهار مع صفوان وقد تخلّفت عن الركب ليلة كاملة ، أرجفوا بحديث الإفك والسوء ، وكان جديراً بهم أن يترفقوا بها وبنبيهم ، ويتحققوا من سبب تخلفها قبل أن تنطلق ألسنتهم بالإفك الذى انطلقت به ، ولكنها النفس الإنسانية إذا ضعفت وتحاقرت وانزلقت إلى دركات الضياع ، أمعنت فى الآخرين هدماً وتخريباً إرضاء لنزعاتها الخسيسة . عجب وأى عجب ألا يفلت من براثن مثل هذه النفوس رجل كمحمد وزوجه .

ونحن على أية حال لسنا جديرين باتخاذ موقف الدفاع عن عائشة طالما أن الله سبحانة وتعالى تكرّم عليها وعلى نبيه وأنزل آيات بينات تقطع ألسنة السوء وتؤكد براءتها . وفى هذا الكفاية كل الكفاية ، وإليك القصة كما روتها عائشة . قالت :

«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقْرَع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كان غزوة بنى المصطلق أقْرَع بين نسائه ، كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهن معه ، فخرج بى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان النساء إذ ذاك يأكلْنَ العُلَق[1] لم يهجهن اللحم فيثقلن ، وكنت إذا رُحِّل[2] لى بعيرى جلست فى هودجى ، ثم يأتى القوم الذين كانوا يُرَحِّلون لى فيحملوننى ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه ويضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

---

(١) العلق : جمع علقة ، وهى كل ما يتبلغ به ، أى كل ما يكتفى به .

(٢) رحل البعير : أعد عليه الهودج .

فلما فَرَغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك وجّه قافلا ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ، ثم أذَّنَ مُؤذِّنٌ في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقدلي فيه جزَع ظفار[1] فلما فرغت انسَلّ من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت إلى الرّحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل ، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه ألتمسه حتى وجدته ، وجاء القوم خلافي الذين كانوا يعدّون لي البعير ، وقد كانوا فرغوا من إعداده ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشُكّوا أني فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به .

فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس . فتَلَفّفْتُ بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو افتُقِدْتُ لرجع الناس إليّ . فوالله إني لمضطجعة إذ مرّ بي صفوان بن المُعَطّل السُّلَمي ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليّ ، وقد كان يراني قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، فلما رآني قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأنا متلففة في ثيابي . قال : ما خلّفك يرحمك الله ؟ فما كلمته . ثم قرّب إليّ البعير فقال : اركبي . واستأخر عني .

فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس ، فوالله ما أدْركنا الناس وما افتُقِدت حتى أصبحت ، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي ، فقال أهل الإفك ما قالوا ، وارتجّ العسكر ، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك .

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن مرضت مرضاً شديداً ، ولم يبلغني من ذلك شيء . وقد انتهى حديث الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى

---

(١) الجزع : الخرز ، وظفار مدينة باليمن .

أبوَيّ ، لا يذكرون لى منه قليلا ولا كثيراً ، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض لطفه بى . فقد كنت إذا اشتكيت مرضاً رحمنى ولطف بى ، فلم يفعل ذلك بى فى شكواى هذه ، فأنكرت ذلك منه ، وكان إذا دخل علىّ وعندى أمى تمرِّضنى قال : كيف تيكم ؟ لا يزيد على ذلك .

وظل الحال كذلك حتى حزنت فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لى : يا رسول الله ، لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فرضتنى . قال : لا عليك . فانقلبت إلى أمى ولا علم لى بشيء مما كان ، حتى نَقِهتُ من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنّا قوماً عرَباً لا نتّخذُ فى بيوتنا هذه الكُنُف[1] التى تتخذها الأعاجم نعافها ونكرهها ، إنما نخرج فى فُسَح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن فى كل ليلة فى حوائجهن ، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مِسْطح ابنة أبى رُهْم بن المطلب ، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثَرَتْ فى مرطها (جلبابها) فقالت : تَعِس مِسْطح . ومِسْطح لقب واسمه عوف . فقلت : بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدراً . قالت : أوما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك . قلت : أوَقد كان هذا ؟ قالت : نعم . والله لقد كان . فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت ، فوالله مازلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيَصْدع كبدى . وقلت لأمى : يغفر الله لك ! تحدّث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : أى بنية خففى عليك الشأن فوالله لقلّ ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثَّرْن وكثر الناس عليها .

وكان رسول الله قد قام فخطب الناس ولا علم لى بذلك . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون

---

(١) جمع كنيف .

عليهم غير الحق ، والله ما علمتُ عليهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى .

وكان كِبْرُ ذلك عند عبد الله بن أبىّ بن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مِسْطح وحمنة بنت جَحْش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ، وأما حَمْنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تُضَارُّنى لأختها فَشَقِيَت بذلك .

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك المقال ، قال أُسَيْد بن حُضَير : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تُضْرَب أعناقهم .

فقام سعد بن عُبادة ، وكان قبل ذلك يُرى رجلا صالحاً فقال : كذبت لعمر الله ما تُضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . فقال أسيد بن حضير : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتساور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل علىّ فدعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيراً ، ثم قال : يا رسول الله أهلُك وما نعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . وأما علىّ فإنه قال : يا رسول الله إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها تصدقك . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بُرَيْرة يسألها . فقام إليها علىّ فضربها ضرباً شديداً ويقول : اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله !

ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى أبواى وعندى امرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا عائشة ، إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده . فوالله إن هو إلا أن قال لى ذلك فارتفع دمعى حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوى يجيبان عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلما .

وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنا من أن ينزل الله فى قرآناً يقرأ به ويصلى به ، ولكنى كنت أرجو أن يرى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه شيئاً يكذب الله به عنى لما يعلم من براءتى ويخبر خبراً ، وأما قرآن ينزل فى فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك . فلما لم أر أبوى يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالا : والله ما ندرى بما نجيبه . ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام . فلما استعجما على استعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى . ثم التمست اسم يعقوب أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » . فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ووضعت وسادة من أدم (جلد) تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت وما باليت ، قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .

ثم سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس وإنه ليتحدر من

وجهه مثل الجُمَان (اللؤلؤ) فى يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة ، قد أنزل الله عز وجل براءتك . قلت : الحمد لله .

ثم خرج إلى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسَبُوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم »[١] . إلى قوله تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[٢] .

ثم إنه نزلت بهذه المناسبة أيضاً عقوبة رمى المحصنات :

« والذين يرمون المحصَنَات ثم لم يأتوا بأربعة شُهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون »[٣] .

وبعد أن انتهى محمد من خطابه فى الناس وأسمعهم القرآن ، أمر بمسْطَح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحَمْنة بنت جحش ، وهم الذين أفصحوا بالفاحشة فضُرِبَ كلٌّ منهم ثمانين جلدة .

وقال قائل من المسلمين فى ضربهم :

لقد ذاق حسان الذى كان أهله وحمنة إذ قالوا هجيراً ومِسْطَحُ[٤]
تعاطوا برجم الغيب زوج نبيِّهم وسخطة ذى العرش الكريم فأترِحوا[٥]

(١) النور ١١ .
(٢) النور ١٦ — ١٩ .
(٣) النور ٤ .
(٤) الهجير : فاحش القول .
(٥) أترحوا : أحزنوا ، من الترح .

وآذوا رسولَ الله فيها فجُلِّلوا مَخازِى تبقى عُمَّوها وفُضِّحوا
وصُبَّت عليهم مُحْصَدات كأنها شآبيب قَطْرٍ فى ذُرا المزْن تسْفَح

ثم إن النبى عفا بعد ذلك عن الذين أرجفوا بحديث الإفك . واسترد حسان منزلته عنده ، وعادت عائشة إلى مكانتها التى كانت تنزلها من قلبه الكبير ، وجرت الحياة فى مجاريها كما كانت من قبل وكأن شيئاً لم يحدث .

واعتذر حسان مما قال فى شأن عائشة بأبيات منها :

فان كنت قد قلت الذى قد زعمتم فلا رفعتْ سوطى إلىّ أناملى
فكيف وودّى ما حييت ونصرتى لآل رسول الله زين المحافل
وإن لهم عزاً ترى الناس دونه قصاراً وطال العزُّ كلَّ التطاول

وفى شوال أرسل محمد كُرْز بن جابر الفِهْرى إلى ذلك الرهط من من عُكْل وعُرَيْنة الذين قتلوا راعيه واستاقوا إبله . وقصة ذلك أن جماعة من عُكْل وعُرَيْنة أتوا وأسلموا بين يديه ، ثم اشتكوا إليه من أنهم أناس أهل ضرع وليسوا أهل ريف فأضرهم هواء المدينة . وكانوا سقاماً مُصْفَرَّة ألوانهم عظيمة بطونهم . فأمر لهم بقطيع صغير من الإبل وراع ، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبان الإبل وأبوالها . فلما بعدوا عن المدينة بعض الشىء قتلوا الراعى واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم . فبعث إليهم كُرْز بن جابر فى عشرين فارساً فقبضوا عليهم وردوهم إلى المدينة . فأمر بمسامير فأحميت فكواهم وقطع أيديهم وأرجلهم وفقأ أعينهم وألقاهم فى الحرّة حيث قتلوا الراعى ، حتى ماتوا . أما أنه فقأ أعينهم فلأنهم فقأوا عينى الراعى ، والعين بالعين والسن بالسن .

(١) المحصدات : السيور الشديدة الفتل والشآبيب جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . والمزن : السحاب .

الفصل السادس عشر

غزوة الحُدَيْبِيَّة

لا مُشاحة فى أن حجَّ البيت الحرام ركن أساسى من أركان الدين الإسلامى . بل هو ركنه الركين ، والحق أن المسلمين لم يفرطوا فى التمسك بهذا المبدأ من أول عهدهم بالإسلام ، ولم يتصوروا فى أى وقت من أوقات كفاحهم أن الدين الإسلامى يمكن أن يتأسس ويستقر له قرار بدون الكعبة بيت أبيهم إبراهيم . غير أن مشركى قريش وقفوا للمسلمين بالمرصاد يمنعونهم من اتخاذ الكعبة بيتاً لعبادتهم ، متصورين أن فى سماحهم للمسلمين بهذا الأمر اعتداء على حقوق آلهتهم وأصنامهم .

ولكن ما بال المسلمين وقد انقضى الآن ست سنين على هجرتهم من مكة ، لا يتخذون خطوة إيجابية فى سبيل تحقيق هدف الدين الأسمى وهو الحج إلى بيت الله الحرام ؟ .

لم يقصِّر المسلمون فى الحقيقة فى التفكير فى هذا الواجب المقدس ، وإنما كانت تشغلهم أحداث خطيرة مرت بهم فى تلك الفترة السابقة ، هى التى أخرتهم حتى الآن عن المطالبة بهذا الحق ، أى حقهم فى الحج إلى البيت الحرام ، وعاقتهم عن العمل الإيجابى لبلوغ هذا الهدف . ثم إن المسلمين فضلا عن تلك المشاغل الخطيرة التى انشغلوا بها ، وتلك الأحداث القاسية التى مرت بهم ، لم يكونوا فى موقف القوة الذى يسمح لهم بالمطالبة بهذا الحق والدفاع عنه .

كان اتخاذ الكعبة قبلة من أهم الأمور التى وجه الله أذهان المسلمين إليها بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة ، حتى يظلوا دائماً متطلعين إليها ، وحتى لا يُنسيهم بُعدهم عنها واجبهم المقدس إزاءها . فقد نزلت فى غضون

السنة الثانية من الهجرة الآية الكريمة : « قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فلنُوَلِّينَّك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره »(١) . وفى هذا تأكيد للمسلمين من ربهم بأن الكعبة مطلب من مطالب الدين الذى لا بد أن يحققوه . وأنها القبلة التى لا بد للمسلمين من أن يتخذوها على مدى الأعصر والأزمان طالما كان هناك مسلمون على الأرض يقيمون شعائر الإسلام .

ولقد خاطب القرآن الكريم المسلمين فى مواضع متفرقة منه وذكّرهم بفضل البيت العتيق وبواجبهم نحوه .

« ومن حيث خرجتَ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام »(٢) .

« ولا يجرمنَّكم شنآنُ قوم أن صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا »(٣) .

« وما لهم ألا يعذِّبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إنْ أولياؤه إلا المتَّقون ولكن أكثرهم لا يعلمون »(٤) . ثم آية الحج :

« إن أول بيت وضع للناس لَلَّذى ببكة مباركاً وهُدىً للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين »(٥) .

انقضى الآن ست سنين أو نحو ذلك على خروج محمد وأصحابه مهاجرين من مكة ، وأصبحت الظروف فى ذلك الوقت تشير إلى أن المسلمين أصبحوا فى وضع حسن جداً يؤهلهم لاتخاذ خطوة جادة فى سبيل المطالبة بهذا الحق . فأولا ، بيَّنت الأحداث السابقة أن قريشاً لم تعد تقدم على المسلمين بتلك الجسارة التى سيطرت عليها فى أوائل الصراع المسلح . ولم تعد تتملكها هذه الرغبة الجامحة فى الانتقام من محمد والمسلمين كسابق عهدها . وهذا الموقف

---

(١) البقرة ١٤٤ .
(٢) البقرة ١٤٩ .
(٣) المائدة ٢
(٤) الأنفال ٣٤
(٥) آل عمران ٩٦ - ٩٧ .

لم يحدث فجأة ، وإنما حدث نتيجة لمقدمات أدت إليه . فقد انتصر المسلمون على قريش انتصاراً حاسماً فى بدر . ثم انتصروا عليهم مرة أخرى فى أحد فى أول النهار . وتعلم قريش جيد العلم أنها لم تنتصر بعد ذلك على المسلمين إلا لأنهم أتوا فعلة خرقاء هى التى أدت إلى هزيمتهم . ولذلك فنحن لا نعجب أن نرى قريشاً وقد تراجعت عن لقاء المسلمين فى الموعد الذى ضربه أبو سفيان للقاء فى بدر العام التالى لأحد . ثم إنهم خرجوا للمسلمين فى أكبر جمع من العرب فى غزوة الأحزاب ، وكانوا يظنون أنهم سيستأصلون محمداً والإسلام . فارتدوا عن المدينة خائبين فزعين هاربين مذعورين فى ليلة عاصفة شاتية هوجاء . بعد ذلك حدثت مذبحة بنى قريظة فأفزعت اليهود والعرب أجمعين . ثم خرجت جيوش المسلمين وسرايا استطلاعهم ، طوال السنة السادسة من الهجرة تؤدب العرب فى طول الحجاز وعرضه ، بل نراها قبل ذلك قد تجاوزت الحجاز إلى دومة الجندل على مشارف الشام . وكل هذا يبين بجلاء أن قريشاً لم تعد الآن فى مركز القوة الذى يسمح لها بأن تتعنت تعنتها السابق مع المسلمين ، كما يبين من ناحية أخرى أن المسلمين هم الذين أصبحوا فى المركز الأفضل ، وأنه قد آن الأوان وتهيأ الجو الصالح تماماً لهذه الخطوة التى كان لا بد للمسلمين من أن يتخذوها ويسيروا إلى مكة لحج البيت الحرام وأداء ركن ركين من أركان الدين .

خرج النبى فى ذى القعدة على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه معتمراً لا يريد حرباً . وخرجت معه فى هذه السفرة من أزواجه أم سلمة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم فى رواية ، أو نميلة بن عبد الله الليثى فى أخرى . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه ، فخرج معه قليل منهم وتخلف معظمهم . وكان يرمى من ذلك إلى تأكيد عزمه على الخروج حاجاً لا غازياً ولا متعرضاً لأحد بحرب . فسار بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، ليس معهم من

السلاح غير سيوفهم وسهامهم ، وساق معه الهدى (وهى المواشى الذبيحة المهداة إلى الحرم) . فلما أتى ذا الحليفة أحرم بالعمرة ليعرف الناس أنه خرج زائراً للبيت ومعظماً له ، وألبس الهدى الشعار الدال على أنه هدى تمييزاً له ، وبعث عيناً له من خزاعة يتجسس له الأخبار ، وكانت خزاعة موضـــع سره من أهل تهامة . فأتاه عينه وهو بغدير الأشطاط وأخبره بأن قريشاً جمعت له الجموع ، وأنهم سوف يقاتلونه ويصدونه عن البيت ويمنعونه .

قال لأصحابه : أشيروا أيها الناس على ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين (أى سلبوا ذراريهم) .

قال أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه . قال : امضوا على اسم الله .

ولما علم محمد بخروج خالد بن الوليـــد على رأس مائتى فارس من فرسان مكة للقائه ومنعه من التقدم صوب مكة قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فتقدم له رجل من أسلم . فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة بين الشعاب ، فاجتازه المسلمون بصعوبة ومشقة ، حتى خرجوا إلى سهل مستو فاتجهوا ذات اليمين فى طريق يؤدى إلى ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة . ولما رأى خالد بن الوليد ما صنع المسلمون قاد فرسانه راجعين إلى مكة .

ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت القصواء ، ناقة محمد ، فظن الناس أنها حرنت وبركت بدون سبب ، فقال محمـــد : ما حرنت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . ثم أمر الناس بالنزول . فقيل له : يا رسول الله ما بالوادى ماء ينزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته

فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به فى بئر من تلك الأبيار التى كانت هناك وغرزه فيه فظهر الماء .

وبينما هم كذلك جاءه بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه خزاعة وكانوا موضع سره فى تهامة كما قلنا ، مشركهم ومسلمهم لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة . وأخبروه أن قريشا قد خرجت له ، معهم النساء والأطفال ، وأنهم مانعوه وصادوه عن مكة .

فقال : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فإن شاءوا هادنتهم مدة ، ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أنتصر وشاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد استراحوا ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى (أى حتى يضرب عنقى) ولينفذن أمر الله .

ثم إن بديل بن ورقاء رجع إلى قريش وبلغهم أن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً للبيت معظماً له . فاتهموه واتهموا من كانوا معه وأغلظوا لهم القول حتى نكسوا جباههم وطأطأوا رءوسهم ، ثم قالوا لهم : وإن جاء ولا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا تحدث بذلك عنا العرب .

ثم بعثت قريش إليه عدة رسل آملين أن يردوه عنهم بالحسنى أو يحصلوا منه على شروط تحفظ لهم ماء وجههم أمام العرب . فبعثوا له الحليس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه محمد مقبلا ، وكان يعرف أنه ممن يغالون فى تعبدهم قال : إن هذا من قوم يتألهون (يتنسكون ويتعبدون) فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى رجع إلى قريش ولم يصـــل إلى محمد إعظاماً لما رأى ، وأخبرهم بما كان من أمره . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابى لا علم لك .

فغضب وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاهدناكم ، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذى نفس الحليس

بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قالوا : مه ! كف حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم إنهم كلموا بعد ذلك عروة بن مسعود الثقفى أن يذهب إلى محمد يفاوضه ، فقال : يا معشر قريش إنى قد رأيت ما يأتى منكم من بعثتموه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد (وكان عروة ابن سبيعة بنت عبد شمس) وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج عروة حتى أتى محمداً وجلس بين يديه ، فقال له مثل ما قال لبديل . فقال عروة : يا محمد أجمعت أوشاب الناس (أى خليطاً متفرقاً من الناس) ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل[1] ، وقد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء (أى أصحاب محمد) قد انكشفوا عنك غداً .

وهنا انفعل أبو بكر وقال : امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ؟ قال عروة : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر . قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك .

وكان عروة إذا حدث محمداً تناول لحيته ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأسه فى حديد الحرب . وقد أغاظه ما يفعل عروة ، فكان كلما تناول لحية محمد يقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تصل إليك . فيقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك ! .

---

(١) العوذ المطافيل هى النياق دوات اللبن ومعها أولادها ، وهذ كناية عن النساء معها الأطفال .

فتبسم محمد ، فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هـــذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أى غدر[1]! وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟

ثم إن محمداً لم يزد شيئاً فى حديثه مع عروة عما كلم به من سبقه من رسل قريش إليه ، وأكد له أنه لم يأت يريد حرباً . فقام من عنده ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا تزاحموا على وضوئه يحملونه إليه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه قط مثل محمد فى أصحابه ! ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم .

وطالت المباحثات وطال الأخذ والرد . فبعث محمد خراش بن أمية الخزاعى إلى قريش وحمله إلى مكة على بعير له يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، ويحاول إقناعهم ، غير أنهم عقروا الجمل وأرادوا قتل المبعوث ، فمنعهم الأحابيش وخلوا سبيله .

وكانت قريش قد بعثت نحواً من أربعين أو خمسين رجلا منهم ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر المسلمين ، وليأسروا لهم أحداً من أصحابه ، فأخذهم المسلمون أخذاً وأسروهم ، لم ينج منهم غير رجل واحد . فلما أتوا بهم إلى محمد عفا عنهم وخلى سبيلهم ، مع العلم أنهم كانوا رموا فى عسكره بالحجارة والسهام . ومما لاشك فيه أن هذا التصرف الحكيم دليل على رغبته الأكيدة فى مسالمة قريش ، وفيه إفصاح تام عما عقد عليه العزم من المهادنة فى سبيل أداء هذا الواجب الدينى . وهو إذ فعل ذلك أضعف مركز قريش كثيراً عند حلفائها وعند العرب أجمعين ، وأبطل حجتها فى استخدام القوة إذا ما فكرت فى استخدامها .

---

(١) وكان المغيرة قد صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ثم أسلم ، فقال له النبى : أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء

ثم إنه عمد تأكيداً لموقفه هذا إلى أن يرسل لقريش واحداً من كبار صحابته القرشيين . فاستدعى عمر بن الخطاب ليقوم بهذه المهمة . فقال عمر : يا رسول الله إنى أخاف قريشاً على نفسى وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان .

فبعث النبى عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يؤكد لهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء لهذا البيت معظماً لحرمته حاجاً .

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى يبلغ رسالة محمد ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن محمد ما أرسله إليهم به ، فقالوا لعثمان : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطالت المفاوضات وطال احتباس قريش لعثمان عندها ، فبلغ المسلمين أنهم قتلوه . فقال عندئذ محمد : لا نبرح حتى نقاتل القوم .

وجمع الناس ودعاهم إلى البيعة فبايعوه تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان . ويقال إن البيعة كانت على الموت فى رواية ، وعلى ألا يفروا فى رواية أخرى . ولم يتخلف عن البيعة غير رجل واحد هو الجد بن قيس أخو بنى سلمة . وقد أخبرنا جابر بن عبد الله أنه رآه يومذاك لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها من الناس . وكان أبو سنان الأسدى أول من بايع الرسول بيعة الرضوان . وفى هذه البيعة نزل قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »[1] .

أما النتيجة التى أدت إليها بيعة الرضوان ، فهى إفهام قريش بطريقة

---

(١) الفتح ١٨ .

لا لبس فيها أن المسلمين سوف لا يتراجعون ، وأنهم لا بد حاصلون من قريش على ما يريدون وإلا فلا سبيل غير السيف . ومن ثمه سارعت قريش إلى إرسال مبعوث لإجراء صلح مع محمد يكون فيه حفظ لكرامة قريش ، فاختارت قريش سهيل بن عمرو وبعثته لمحمــد وقالوا له : ائت محمداً وصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً .

وعاد عثمان بن عفان بعد أن مهد للصلح . ونحن نعلم أن محمداً كان قد قال : لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . إذن فمما لا شك فيه أن عثمان بن عفان كان مزوداً بتفويض من محمد يسمح له بكثير من حرية المفاوضــة على أساس يكون فيه حفظ لماء وجه قريش ، وصيانة لحق المسلمين فى الحج إلى بيت الله الحرام . ومما لا نزاع فيه أن كلا الطرفين كان حريصاً أشد الحرص على عدم إشعال نار الحرب فى الأشهر الحرم ، إلا إذا اضطرته الظروف اضطراراً إلى ذلك . ولكن تدلنا جميع الملابسات على أن كلا الطرفين كان مستعداً لتقديم تنازلات للطرف الآخر .

ثم إن سهيل بن عمرو خرج يريد محمداً . فلما رآه محمد مقبلا أيقن أن قريشاً قد أرادت الصلح وقال : لقد سهل لكم من أمركم . وانتهى سهيل إلى محمد وطال الحديث بينهما . واتفقا أخيراً حول عدة نقاط . منها أن يرجع المسلمون عامهم هذا ثم يأتون العام القادم ، وأن من جاء إلى المسلمين من قريش مسلماً يردونه . ومن جاء إلى قريش من المسلمين مرتداً لا يردونه . وكان المسلمون لا يشكون فى الفتح وفى أنهم سوف يطوفون حول الكعبة ويقومون بشعائر الحج . وذلك لرؤيا رآها النبى وأخبرهم بها قبل مجيئهم من المدينة . فلما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا تحيروا من أمرهم وداخلتهم الشكوك . حتى لقد وثب عمر بن الخطاب فزعاً مرتاعاً فأتى أبا بكر فقال :

يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر الزم أمره ولا تخالفه فإنى أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم إن عمر بن الخطاب لم يقتنع بهذا فأتى محمداً فقال : يا رسول الله ألست برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى .

وكان عمر يقول بعد ذلك : ما زلت أصوم وأتصدق وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ ، مخافة كلامى الذى تكلمته ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا محمد على بن أبى طالب فقال : اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم . فقال محمد : اكتب باسمك اللهم . فكتبها . ثم قال اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال محمـــد : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . ثم كتب ما تصالحا عليه وهو أولا : وضع الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . وثانياً : أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وثالثاً : أن يرجع محمد من غير عمرة عامه هذا ، ثم يأتى العام المقبل فيدخل مكة هو وأصحابه بعد أن تخرج منها قريش ثلاثة أيام ، ليس معهم من السلاح غير السيوف فى القراب والأقواس . ورابعاً : أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيـــه .

ولقد دخلت خزاعة فى عقد محمد وعهده . ودخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم . وتم الصلح . ولكن المسلمين لم يرتاحوا له كل الراحة وظلوا فى حيرة من أمرهم بعض الوقت غير قادرين تماماً على استيعاب ما حدث ، إذ أن فى عودتهم من غير أن يطوفوا بالبيت إخلافاً للرؤيا التى حدثهم عنها نبيهم فى المدينة ، ولكن الحقيقة أن محمداً لم يحدثهم أنه رأى فى رؤياه أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، وإنما رأى أنهم داخلون مكة فحسب ، فأقنعهم بهذا التفسير ، وإن ظلوا ذاهلين غاضبين غير مرتاحة أنفسهم ، وأذهانهم لا يزال يتردد فيها : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟

وبينما هم يكتبون كتاب هذه الهدنة إذ أقبل عليهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى قيد من حديد كان أبوه قد وضعه فيه خشية أن يفلت إلى المسلمين . فلما رأى سهيل ولده مقدماً قام وأخذ بتلابيبه وضربه على وجهه . وقال : يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل سهيل ينتر أبا جندل بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وأبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى . فكان هذا أيضاً مما زاد من ألم الناس وحيرتهم .

فقال محمد : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

أما عمر بن الخطاب فوثب إلى أبى جندل يمشى إلى جنبه وهو يقول : اصبر أبا جندل . ثم إنه كان يدنى قائم السيف منه لعله يأخذ السيف فيضرب أباه ، ولكنه لم يفعل . فكان عمر يقول : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية .

فلما فرغ من كتابة عهد الهدنة أمر محمد المسلمين أن يقوموا فينحروا الهدى ثم يحلقوا . فلم يقم منهم أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم

منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس ، وقال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا . فقالت : يا رسول الله اعذرهم فقد حملت نفسك أمراً عظيماً فى الصلح ، ورجع المسلمون من غير فتح فهم لذلك مكروبون ، ولكن اخرج يا رسول الله وابدأهم بما تريد فإذا رأوك فعلت اتبعوك .

فخرج لم يكلم أحداً فنحر هديه ودعا حالقه فحلقه . فما أن رآه المسلمون يفعل حتى تواثبوا على الهدى فنحروه وحلقوا وهم فى غم أشد من غمهم السابق لأنهم تأخروا عن طاعته .

وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى حكمة محمد وإلى أن ربه سوف لا يخذله ، وأنهم سوف يحضرون العام القادم ويطوفون البيت الحرام فى أمن واطمئنان . وزاد اطمئنانهم وأدخل السكينة على قلوبهم نزول سورة الفتح وهم فى طريق عودتهم إلى المدينة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً »(١) . ثم إن مهاجرة جاءتهم هى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط أخت عثمان بن عفان لأمه ، فطلب المشركون ردها عليهم ، فأنزل الله فى سورة الممتحنة قوله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم »(٢) .

عندئذ لم يعد مفر من استبقاء القرشيات إذا هاجرن وهن لا يبغين من هجرتهن شيئاً غير الإسلام . فكانت المرأة المهاجرة تستحلف أنها ما خرجت

(١) الفتح ١ — ٢ . (٢) الممتحنة ١٠ .

رغبة بأرض عن أرض ولا من بغض زوج ولا لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين ، وما خرجت إلا حبا لله ولرسوله . ومتى حلفت بذلك فإنها لا ترد ، ويعطى لزوجها المشرك ما أنفقه عليها ، وبعد ذلك يجوز تزويجها لمسلم .

وفى أعقاب عودة المسلمين إلى المدينة فر أيضاً رجل مسلم من قريش هو أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفى ، فأرسلت قريش إلى النبى رجلين فى طلبه فأتياه فقالا : العهد الذى جعلت لنا . فدفعه إلى الرجلين وأمره بالرجوع معهما فقال أبو بصير : يا رسول الله أتردنى إلى الكفار يفتنونى عن دينى بعد أن خلصنى الله منهم ؟ فقال : إن الله جاعل لك ولإخوانك مخرجاً . فلم يجد الرجل بداً من الإذعان والسير مع الرجلين . فلما بلغا ذا الحليفة نزلوا يأكلون من تمر كان معهم . فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً . فاستله الآخر فقال : أجل والله إنه لجيد ولقد جربت به ثم جربت . فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه . فلما أمكنه منه ضربه حتى قتله وفر الآخر . ورجع أبو بصير إلى المدينة فقال لمحمد : يا نبى الله قد أوفى الله ذمتك ، قد رددتنى إليهم ثم أنجانى الله منهم . فقال النبى : ويل أمه ! مسعر حرب لو كان له أحد ؛ فلما سمع أبو بصير النبى يقول ذلك فهم أنه سيرده إليهم . فخرج حتى أتى ساحل البحر عند مكان تمر به قوافل الشام وأقام به .

ثم إن أبا جندل بن سهيل بن عمرو هرب من مكة ولحق به ، واجتمع إليهم كل من أسلم بمكة ، وانضم إليهم جماعة من الأعراب حتى اجتمعت منهم عصابة قوية . عمدت إلى قوافل تجارة قريش فى ذهابها إلى الشام أو إيابها منه تهاجمها وتقتل الرجال وتأخذ الأموال . فلما ضجت قريش من أعمالهم استغاثوا بمحمد وسلموا بإبطال الشرط الذى عقدوه معه برد من جاءه منهم مسلما . فقبل منهم ذلك . وكفت هذه العصابة عن قريش . وانزاح عن المسلمين شرط من الشروط التى كانت تؤلمهم .

قال أبو بكر : ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية . والحق

أننا إذا نظرنا فى هذه الغزوة وفى الصلح الذى عقده محمد ، ذلك الصلح الذى قصر رأى المسلمين وقتذاك عن إدراك ما ينطوى عليه ، لوجدنا أن الخطة التى رسمها وانتهجها وحقق ما يريد منها ، إنما كانت خطة بارعة جداً . نستبين من الخطوات التى اتبعها أنه كان يدرك تماماً أن أسهم الإسلام فى ارتفاع ، وأن أسهم قريش فى نزول . ثم إنه أدرك أيضاً أن قريشاً لم تعد تتملكها تلك الرغبة المجنونة المحمومة ضده ، وأنه إذا ما أتاها فى الأشهر الحرم وظل خارج مكة ، ولمح إليها بالصلح لأسرعت وأجابته إليه . وهذا ما حدث فعلا .

والحق أن محمداً استفاد فوائد كبيرة جداً من هذا الصلح . أولا ، حصل على إقرار من قريش بحقه وحق المسلمين فى اتخاذ البيت الحرام بيتاً لهم هم أيضاً ، وبحقهم فى إتيانه ليطوفوا حوله ويؤدوا شعائر دينهم فى حرية وأمن . وهذه خطوة كبيرة جداً فى سبيل تدعيم الإسلام فى جزيرة العرب . وثانياً ، كان فى هذا الإقرار سند كبير لمحمد فى مخاطبة قبائل العرب ودعوتها للإسلام بطريقة أنسب . فأى شيء الآن يمنع قبائل العرب من الدخول فى الإسلام وقد قرب جداً إلى مفاهيمهم بعد أن سلمت قريش بحق المسلمين فى أداء فرائض دينهم فى الكعبة ؟ أما مسألة الأصنام وتشبث هؤلاء الأعراب بها ، فإن الإسلام كان قد أضعف هذا الوهم بدرجة كبيرة ، وبدد كثيراً من التصورات التى كانت تسيطر على خيال هؤلاء الأعراب حول قوة هذه الأصنام ، إذ هاهو محمد لا يكف منذ حوالى عشرين سنة عن سبها وعن تسفيه أحلام عابديها ، وهى بعد لم تصبه بسوء ، بل على الضد ، يكثر أعوانه وينتصر فى حروبه . فإذا ما رأت قبائل العرب الآن أن قريشاً سدنة البيت وحجابه قد قبلوا أن يدخل المسلمون البيت ويطوفوا به ويؤدوا فيه شعائر دينهم ، وهم الذين يعيبون الأصنام ويسبونها ، أفلا يكون فى ذلك إيحاء لهم بأن قريشاً قد بدأت تتخاذل أو أنها تخاذلت فعلا ؟

ومصداق هذا كله ما أنزل الله على نبيه وهم فى طريقهم من الحديبية إلى المدينة من آيات بينات : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً »(١) إلى أن قال : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا »(٢) .

ثم إن محمداً بدأ بعد هذه الهدنة فى إرسال مبعوثيه إلى الملوك والأمراء هنا وهناك ، فى جزيرة العرب وخارجها ، وكأنه قد أيقن فعلا ورأى رؤيا صدق أن دينه قد استقر نهائياً ، وأن مسألة إقناع بقية العرب ودخولهم فيه لم تعد أكثر من مسألة وقت لا غير .

---

(١) الفتح ١ — ٣ .
(٢) الفتح ٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل التاسع عشر

دعوة الملوك والأمراء للإسلام

بعد أن عقد محمد عهد الحديبية مع قريش أمن بذلك كيد العرب وحربهم ، لأن أحداً من العرب غير قريش لم يكن في مقدوره أن يجمع الجموع ضده كما تفعل قريش . ولم يكن يملك المنزلة الدينية التي تؤهله لأن يتصدى لمن يعتدى على حرمات الدين . فإذا كانت قريش قد تراجعت هذا التراجع وسمحت لمحمد الذى يسب آلهتها وآلهة العرب ويعيبها ، ولا يكف منذ حوالى عشرين سنة يدعو لهدمها وعبادة رب واحد هو الله . إذن فأى من العرب بعد ذلك يتصدى لمحمد ، وبأية روح أو دافع يقف ضده إذا كانت قريش ذاتها قد صالحته وهادنته ؟ لا أحد على وجه الإطلاق . ولذلك بدأ محمد ، وكأن دينه قد ظهر على أديان العرب كلها ، يتطلع إلى رحاب العالم الفسيح ، وبدأ يضع الخطط الجديدة على هذا الأساس .

لذلك نراه — انطلاقاً من هذا المفهوم — قد أعد بعد عودته مباشرة من غزوة الحديبية مبعوثين يرسلهم إلى الملوك والأمراء والرؤساء في شبه الجزيرة العربية وخارجها ، يدعوهم للإسلام ويخبرهم بأنه نبي مرسل أرسله الله ليبلغ دينه الحق للناس كافة . غير أن كتاب السيرة يختلفون في تحديد الفترة التي أرسل فيها مبعوثيه . فمنهم من يقول بأنه أرسلهم دفعة واحدة بعد غزوة الحديبية في أواخر سنة ست من الهجرة . ومنهم من يقول بأنه أرسلهم الواحد إثر الآخر منذ ذلك التاريخ وعلى فترات متقطعة حتى وفاته . والأرجح أنه أرسلهم متفرقين . ونحن نعلم على أية حال أنه أرسل رسلا إلى نجاشى الحبشة ، وإلى هرقل إمبراطور الروم ، وإلى كسرى الفرس ، وإلى

المقوقس حاكم مصر ، وإلى أمير بصرى ، وإلى الحارث بن أبى شمر ، وإلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وإلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان ، وإلى هوذة بن على ملك اليمامة . وهؤلاء هم الذين بلغنا من كتاب السيرة القدماء أنه أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام . وإليك الكتب التى أوردها كتاب السيرة ننقلها كما جاءت فى كتاباتهم . ولقد اتخذ محمد عند ما شرع فى إرسال هذه الرسائل خاتماً من الفضة نقش عليه « محمد رسول الله » .

أرسل أول رسله عمرو بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة ، وكانت علاقات المسلمين به حسنة كما نعلم ، ودفع إليه كتابين ، أحدهما يدعوه الإسلام والآخر يفوضه فى تزويجه من أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت من مهاجرات المسلمين إلى الحبشة ، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش فارتد هناك عن الإسلام وتنصر .

أما كتابه إلى النجاشى فهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة . سلام . أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة والطاعة ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » . فجامله النجاشى ورده رداً جميلا .

أما كتابه إلى قيصر الروم هرقل فدفعه إلى دحية الكلبى ، وأمره أن يدفعه إلى والى قيصر على بصرى ليوصله إليه ، وفيه يقول : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ،

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (الفلاحين ، أى الرعايا) « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

فلما وصل هذا الكتاب إلى قيصر ، وكان وقتئذ بالشام بعد حربه مع كسرى واسترداده الصليب الأعظم الذى كان استولى عليه الفرس ، أمر بعض أتباعه أن ينظر له أحداً من قوم هذا الرجل الذى يدعى النبوة فيجيئه به . وكان أبو سفيان فى ذلك الوقت فى تجارة لقريش بالشام فأتوه به فى جمع من أصحابه ، ودار بينهما حديث نورده بنصه كما أورده الكتاب القدماء لا ننقده ولا نزيد عليه ولا ننتقص منه .

فلما انتهوا إلى مجلس قيصر قال : أيكم أمس به رحماً ؟ فقال أبو سفيان أنا . قال هرقل : أدنوه منى . ثم أجلسه بين يديه ، ثم أمر أصحابه فأجلسهم خلفه ، وقال : إن كذب فردوا عليه .

ولقد قال أبو سفيان فيما بعد إنه كان يعلم أن أصحابه مشركى قريش ما كانوا ليردوا كلامه ويكذبوه ، ولكنه كان يستحى إذ هو رجل سيد فى قومه أن يكذب ، فيتحدث بذلك أصحابه فى مكة ، فلم يكذب ..

فلما طلب منه هرقل أن يحدثه فى شأن هذا الرجل الذى يدعى النبوة ، زهد أبو سفيان فى ذلك مصغراً له من أمره ، غير أن هرقل لم يلتفت إلى شيء من ذلك ، وأمره أن يخبره عما يسأله عنه .

قال هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ قال : من أشرفنا نسباً .

قال : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟ قال : لا .

قال : فأخبرنى هل له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه عليه ؟ . قال : لا .

قال فأخبرنى عن أتباعه ، من هم؟قال : الأحداث والضعفاء والمساكين ، فأما أشرافهم وذوو الأنساب منهم فلا . قال : فأخبرنى عن صحبه أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه ؟ . قال : ما صحبه رجل ففارقه .

قال : فأخبرنى عن الحرب بينكم وبينه ؟ قال : سجال يدال علينا وندال عليه .

قال : فأخبرنى هل يغدر ؟ قال : لا ونحن منه فى مدة ولا نأمن غدره فيها (وهنا أراد أبو سفيان أن يغمزه فلم يلتفت إليه هرقل) .

قال : زعمت أنه من أمحضكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبى ، لا يأخذه إلا من أشرف قومه . وسألتك : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به ؟ فقلت : لا . وسألتك : هل كان له من ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ فقلت : لا . وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الأحداث والضعفاء والمساكين . وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويكرمه أم يقليه ويفارقه ؟ فزعمت أنه قل من يصحبه فيفارقه . وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه . وسألتك كيف الحرب بينكم وبينه ؟ فزعمت أنها سجال يدال عليكم وتدالون عليه . وكذلك يكون حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة . وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر . فلئن كنت صدقتنى ليغلبن على ما تحت قدمى هاتين .

ثم إنه أمر أبا سفيان أن يلحق بشأنه . فقام أبو سفيان وهو يضرب إحدى يديه على الأخرى ويقول : يا عباد الله لقد أمر أمر ابن أبى كبشة ، وأصبح ملوك بنى الأصفر يخافونه فى سلطانهم .

وأرسل الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى ، فبينا هو فى طريقه تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فى قرية من عمل البلقاء بالشام فسأله أين يريد فقال الشام . قال : لعلك من رسل محمد ؟ قال : نعم .

فأمر به فضربت عنقه . وهو المبعوث الوحيد الذى قتل من مبعوثى محمد ، وقد حزن عليه حزناً شديداً .

وبعث شجاع بن وهب إلى أمير دمشق الحارث بن أبى شمر عامل هرقل بكتاب فيه « باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث ابن أبى شمر ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق . وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » . فلما قرأ الحارث الكتاب غضب ورمى به وقال : من ينزع منى ملكى ؟ وأراد أن يرسل جيشاً لحرب محمد والمسلمين ، وقال للمبعوث : أخبر صاحبك بما ترى . غير أن قيصر لم يأذن له بذلك ، وكتب إليه يثنيه عن هذا العزم ، فصرف الحارث شجاع ابن وهب بالحسنى .

ووجه حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من قبل هرقل وهو بالإسكندرية : « باسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد . فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

فلما قرأ المقوقس الكتاب قال لحاطب : إنى أسألك عن كلام فأحب أن تفهم عنى . قال : هلم . قال : أخبرنى عن صاحبك أليس هو نبى ؟ قال حاطب : بلى ، هو رسول الله . قال المقوقس : فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها ؟ قال حاطب : عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله ؟ قال : بلى . قال : فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ، ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا ؟ فقال : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم .

ثم إنه رده رداً جميلا وأخبره أنه يعلم أن نبياً آن أوانه ولكنه ينتظر ظهوره على ما يعتقد فى الشام . وأرسل معه إلى محمد هدية هى جاريتان قبطيتان ، إحداهما مارية التى تسرى بها محمد فولدت له ابنه إبراهيم ، والأخرى سيرين التى وهبها محمد لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن . وكان فى جملة الهدية بغلة بيضاء اسمها الدلدل لم يكن بجزيرة العرب بغلة فى مثل بياضها ، وحمار اسمه اليعفور ومقدار من المال وبعض خيرات مصر ، وغلام أسود خصى اسمه مأبور . وكان مأبور يدخل على مارية كعادة أهل مصر ، فجعل بعض الناس يتكلم فى ذلك وهم لا يعلمون بأنه خصى ، فأمر رسول الله على بن أبى طالب بقتله ، فوجده خصياً فتركه .

ووجه عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإن تسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس » ، فلما قرأ المترجم الكتاب لكسرى غضب غضباً شديداً حين بدأ محمد بنفسه ، وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه وأمر بمبعوث محمد فأخرج . وأرسل إلى باذان وهو نائبه على اليمن : أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به . وفى هذا التصرف دليل وأى دليل على أن كسرى كان يجهل تماماً مقدار القوة التى كان قد وصل إليها الإسلام فى ذلك الوقت . أما محمد فإنه عند ما بلغه أن كسرى مزق كتابه قال : « مزق الله ملكه » . ولقد تمزق فى عدة سنين بعد ذلك .

وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا

فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول . من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن عليه الجزية. فلما قرأ الكتاب أسلم وكتب فى جوابه : أما بعد يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين . فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه . وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلى فى ذلك أمرك . فكتب إليه يقول : « باسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك . فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإنى أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح لنفسه وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً ، وإنى شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

وبعث عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عمان بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما فإن ملككما زائل وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » .

سأل عبد بن الجلندى عمرو بن العاص عما يأمر به محمد وعما ينهى عنه ، فقال : يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان والزنا وشرب الخمر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . فقال عبد : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ، ولو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به . ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه يصير تابعاً . قال عمرو : إن أسلم أخوك ملكه

رسول الله على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم . فقال عبد : إن هذا لخلق حسن . وما الصدقة ؟ فأخبره عمرو بما فرض الله من الصدقات فى الأموال . ولما ذكر المواشى قال ياعمرو : يؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه ؟ قال : نعم . فقال عبد : والله ما أرى قومى على بعد دارهم وكثرة عددهم يرضون بهذا . ثم نهض عبد فأوصل عمراً لأخيه جيفر فتكلم معه عمرو كلاماً ألان قلبه حتى أسلم هو وعبد .

وبعث سليط بن عمرو العامرى بكتاب إلى هوذة بن على ملك اليمامة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هوذة بن على : سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » . فلما قرأ الكتاب جاء فى رده : «ما أحسن ماتدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى فاجعل لى بعض الأمر أتبعك » . فلما بلغ محمد رده هذا قال : لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه : فلم يلبث أن مات بعد أن انصرف محمد من فتح مكة .

وكان محمد يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

الفصل الثامن عشر

غزوة خَيْبَر

نعلم مما سبق أن يهود خيبر كانوا أكثر المتحمسين لتجميع القبائل ضد المسلمين وأكثر الدعاة فى شبه جزيرة العرب ضد محمد وضد الإسلام ، ونعلم أنه كان من نتيجة سعيهم هذا أن تجمعت الأحزاب فى غزوة الخندق ، وأقدمت جموع على المدينة لا قبل للمسلمين بها ، ربما كان من شأنها أن تستأصل شأفتهم تماماً ، لولا حكمة محمـــد وحكمة رجاله ، والعاصفة الهوجاء التى هبت فى تلك الليلة فأدخلت الرعب فى قلوب الأحزاب فارتدوا عن المدينة بما يشبه المعجزة ، فسلم المسلمون من مكر اليهود .

ثم إننا نعلم أيضاً أن بنى قريظة وهم يهود المدينة جيران المسلمين وحلفاؤهم الذين اعتمد المسلمون عليهم فى حماية جانب من المدينة ، قد قلبوا للمسلمين فى أحلك ساعات الحصار ظهر المجن وانحازوا للأحزاب ، ولولا لطف الأقدار وحدوث تلك العاصفة التى اقتلعت خيام الأحزاب وكفأت قدورهم فانخلعت لها قلوبهم قبل أن تنفذ خيانة بنى قريظة لربما تغير وضع المعركة تغيراً كاملا وشاملا . لذلك كان لزاماً على محمد أن يعاقبهم على هذه الخيانة . والحق أن بقاء قلة متعصبة خائنة مفسدة وأى مفسدة لجسم الأغلبية وشوكة دائمة فى جنبها . ولا مرية فى أن سياسة استئصال هذه الأقلية سياسة حكيمة جداً ، مبررها الحفاظ على حياة الأغلبية التى هى أحق بالبقاء آمنة مطمئنة فى أرضها ووطنها .

تطهرت المدينة من هذه الأقلية المفسدة ، ولكن يهود خيبر هناك فى شمال غربى المدينة على مسافة تبعد مئة وخمسين كيلومتراً أو أكثر قليلا يهددون المسلمين من الشمال ، وعلى الأخص لأن يهود خيبر إذا اجتمعوا

مع غطفان التى لا تبعد ديارها كثيراً عنهم ، أصبحوا قوة كبيرة تهدد المسلمين تهديداً فعلياً .

أما النتيجة الطبيعية التى اتجهت إليها الأحداث بعد عهد الحديبية وتأمين المسلمين لحدودهم الجنوبية ، فكانت على الضرورة استغلال هذا الظرف المواتى والقضاء على هذا العدو الرابض هناك يؤلب العرب ويكيد الإسلام . فلم يكد النبى يرجع من الحديبية فى أواخر ذى الحجة من سنة ست من الهجرة ، وأوائل المحرم من سنة سبع ، حتى أمر أصحابه بعد راحة قايلة للتجهز للخروج إلى خيبر . فسار إليهم فى النصف الثانى من المحرم سنة سبع ، وكان عند ما استنفر الناس للخروج معه وجاء الذين تخلفوا عن الحديبية أفهمهم أنهم لا يخرجون معه فى هذه الغزوة إلا رغبة فى الجهاد لا طمعاً فى الغنيمة ، وأنه لن يعطيهم منها شيئاً . فخرج معه مئتان زيادة عمن كانوا معه فى غزوة الحديبية ، فأصبحوا جميعاً ألفاً وستمائة مقاتل ، منهم مائة فارس ، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فى رواية أو نميلة بن عبد الله الليثى فى رواية أخرى .

سار محمد بجيشـــه حتى نزل به بواد يقال له الرَّجيع . وهو واد يقع بين خيبر وغطفان ، وقصد من ذلك أن يقطع بينهما الاتصال فيحول بين غطفان أن تمد خيبر . ولقد تحقق له ما أراد فعلا ، إذ أن غطفان كانت قد همت بالخروج ليساعدوا أهل خيبر ، فما أن ساروا قليلا حتى سمعوا حساً نخافوا على أموالهم وأهاليهم ، فرجعوا على أعقابهم وتخلوا عن نصرة أهل خيبر نجاة بأنفسهم وأموالهم .

وكان محمد إذا غزا قوماً لا يغير عليهم يوم وصوله ديارهم ، بل كان ينتظر حتى يصبح . فإن سمع أذاناً أمسك عن الإغارة عليهم ، وإن لم يسمع أذانا أغار . وصل جيش المسلمين خيبر ليلا فبات الجيش حتى أصبح ، فلم يسمع أحد أذاناً . فركب محمـــد حماره . ويقال إنه كان على فرس

لا على حمار فى ذلك اليوم ، وركب الناس وتقدموا نحو حصون اليهود . وقد استقبلهم عمال خيبر وهم خارجون من الحصون بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا محمداً والمسلمين صاحوا قائلين : محمد والخميس[1] ! وعادوا هاربين ، فقال محمد : الله أكبر خَرِبَت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين .

أما حصون خيبر فكانت ثلاثة مجموعاتٍ من الحصون منفصلا بعضها عن بعض : حصون النطاه وهى ثلاثة : حصن ناعم ، وحصن الصعب ، وحصن قلة ؛ وحصون الكتيبة وهى حصنان : حصن أبى ، وحصن البرىء ؛ وحصون الشق وهى ثلاثة : حصن القموص ، وحصن الوطيح ، وحصن السلالم .

والحق أن يهود خيبر كانوا أقوى طوائف اليهود فى بلاد العرب وأكثرهم نفوذاً ومالا وسلاحاً .

بدأ المسلمون الهجوم على حصن ناعم ، فعسكروا بعيداً عن مرمى السهام ، وأمر النبى بأن يقطع نخلهم حتى يفت إهلاك المال فى عضدهم ، فقطع المسلمون حوالى أربعمائة نخلة ، فلما لم يستسلم اليهود ، ورأى المسلمون أنهم صمموا على الجلاد والحرب ، أمر محمد المسلمين بالكف عن تقطيع النخيل . وكان شعار المسلمين يوم خيبر : يا منصور أَمِتْ أمتْ !

وكان اليهود قد أدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصنى الوطيح والسلالم ، وأدخلوا ذخائرهم فى حصن ناعم ، والمقاتلة وأهل الحرب فى حصن آخر . بدأ الهجوم على حصن ناعم بالمراماة بالسهام ، وكان لواء المسلمين فى اليوم الأول بيد رجل من المهاجرين فلم يصنع شيئاً ، وقتل فى ذلك اليوم محمود ابن مسلمة أخو محمد بن مسلمة إذ ألقيت عليه رحى من داخل الحصن فقتلته : وكان محمد يصحب فى كل يوم جماعة من المهاجرين ويخلف على العسكر أحد المسلمين . ومرت الأيام والحصن منيع واليهود مستقتلون فى

---

(1) الخميس : الجيش الكبير .

الدفاع عنه . حتى إذا كانوا فى الليلة السابعة أسر عمر بن الخطاب — وهو حارس الجيش يومئذ — يهودياً كان خارجاً فى جوف الليل من الحصن لأمر يريده ، فأتى به إلى محمد . فلما أدرك الرجل الرعب ورأى الموت بعينيه قال : إن أمنتمونى أدلكم على أمر فيه نجاتكم . فلما أمنوه أخبرهم أن أهل هذا الحصن قد خارت قواهم وأدركهم الملال والتعب من المحاصرة ، وأنه تركهم وهم يبعثون بأولادهم إلى حصن الشق لأنهم عقدوا العزم على الخروج فى الغداة للقاء المسلمين . وقال لهم إنه إذا كتب لهم الغلبة على أهل الحصن فإنه سوف يدلهم على مخزن بالحصن فيه منجنيق ودبابات[1] ودروع كثيرة وسيوف تساعدهم على فتح بقية الحصون .

وكان محمد فى خلال الأيام السابقة قد أخذته الشقيقة ، وهى صداع نصفى كان يصيبه بعض الأحيان ، فأعطى الراية لعدد من الصحابة ، فأعطاها يوماً لأبى بكر فقاتل ورجع ، وأعطاها لعمر فقاتل ورجع دون فتح الحصن . وفى ذلك اليوم سأل عن على بن أبى طالب ، وكان يومئذ أرمد العينين ، فاستدعاه وأعطاه الراية وقال له : « اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك » . قال على : على ما أقاتل الناس ؟ قال : « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

فخرج على يصول ويهرول هرولة نحو الحصن والمسلمون يتبعون أثره حتى ركز رايته فى كومة من الحجارة تحت الحصن . فلما دنا المسلمون من الحصن خرج إليهم اليهود يقاتلون أشد قتال ، حتى لقد ضرب رجل منهم على بن أبى طالب ضربة هائلة طار على أثرها ترسه من يده ، فأسرع على وتناول بابا تترس به عن نفسه ، فلم يزل الباب بيده حتى انهزم اليهود ،

---

(١) الدبابة آلة يتخذها المحاربون فى حصار الحصون ، يدخلون تحتها ويتقدمون إلى الحصن فى حمايتها فينقبون فيه ثغرة يدخلونه منها .

فجعل الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل الحصن . وقتل فى هذه الموقعة الحارث بن أبى زينب قائد الحصن . كما قتل مَرْحَب أيضاً وكان أشجع اليهود ، وكان قد خرج من الحصن وهو يرتجز :

قد علمت خيبرُ أنى مَرْحبُ   شاكى السلاح بطل مجرَّبُ
أطعن أحياناً وحيناً أضربُ   إذا الليوث أقبلتْ تحَـرَّبُ
إنَّ حِمايَ للحِمى لا يُقرَبُ   يُحْجِمُ عن صولتى المجرِّبُ

وجعل يقول : هل من مبارز ؟ فقال محمد : من لهذا ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور والثائر ، قتلوا أخى بالأمس . فقال : قم إليه ، اللهم أعنه عليه .

فلما دنا أحدهما من الآخر اعترضتهما شجرة ، فجعل كل منهما يلوذ من صاحبه بها ، كلما ضرب ضربة اقتطع بسيفه جزءاً منها حتى صارت بينهما كالرجل القائم ليس فيها غصن واحد . فحمل مرحب على محمد بن مسلمة وضربه بسيفه فاتقاه بالدرقة فعض سيفه فيها فعاجله محمد بن مسلمة وضربه حتى قتله .

وعاد محمد وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى ماض   حلو إذا شئت وسمٌّ قاض

ويقال إن محمد بن مسلمة قطع رجلى مرحب فقال له : أجهز على . فقال : لا ، ذق الموت كما ذاقه محمود بن مسلمة . فمر به على بن أبى طالب وقطع رأسه ، فاختصما فى سلبه إلى محمد ، فأعطى محمد بن مسلمة سيفه ورمحه ومغفره وبيضته . وكان على سيفه :

هذا سيف مرحبْ   من يذقه يعطب

فلما قتل مرحب خرج أخوه ياسر وهو يقول : هل من مبارز ؟ فخرج له الزبير بن العوام ، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابنى يارسول الله . فقال : بل ابنك يقتله إن شاء الله . فالتقيا فقتله الزبير

والحق أن اليهود قاتلوا قتالا مريراً ودافعوا عن حصونهم دفاعاً لاهوادة فيه ، غير أنهم انهزموا وتوالى سقوط الحصون فى أيدى المسلمين .

فبعد أن سقط حصن ناعم ، وكانت فيه ذخيرة اليهود الحربية . وحصن الصعب بن معاذ ، وكان فيه غنائم كثيرة من الطعام والمؤن وعلائف الدواب . تحولت اليهود إلى قلعة الزبير فحاصرهم محمد ثلاثة أيام ، لم تلن لهم فيها قناة ، فأتاه رجل من اليهود يقال له عزال وقال له : يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة وتخرج إلى أهل الشق ، فإن أهل حصون الشق قد هلكوا رعباً منك ؟ .

فلما أمنه على أهله وماله قال اليهودى : إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم ما بالوا بك ، فإن لهم تحت الأرض جداول ماء يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم . فقطع عنهم محمد هذه الجداول . فخرجوا مضطرين وقاتلوا أشد قتال ، ثم استسلموا بعد أن قتل نفر من المسلمين وقتل عشرة من اليهود ، وكان هذا الحصن آخر حصون النطاة . وتحول المسلمون بعد ذلك إلى حصون الشق ، فبدأوا بحصن أبى ، وقام محمد بنفسه على رأس المهاجرين الذين هاجموا قلعة يقال لها سموان فقاتل قتالا شديداً ، فخرج منها رجل اسمه عزول فدعا إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ووقع السيف من يده ، وفر اليهودى راجعاً إلى القلعة فلم يمهله الحباب وأسرع إليه وضربه ضربة أطار بها عرقوبه . ثم برز منهم رجل آخر فتقدم له رجل من المسلمين فقتله اليهودى ، فنهض إليه أبو دجانة ففتك به فتكاً شديداً وأخذ سلبه . بعد ذلك أحجم اليهود عن البراز فكبر المسلمون . واقتحموا يقاتلون وأمامهم أبو دجانة بعمامته الحمراء ، عصابة الموت ، يذلل لهم الطريق بسيفه البتار حتى دخلوا القلعة ، فوجدوا فيها أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً كثيراً .

وكان المسلمون إذ طال الحصار قد أصابتهم مجاعة شديدة حتى لقد أكلوا

الحمير ، فنهاهم محمد عن أكلها . فلما فتحت بعض الحصون تهافتوا على الطعام أول شيء .

روى عبد الله بن مغفل المزنى أنه أصاب فى خيبر جراب شحم ، فاحتمله على عنقه إلى حيث رحله وأصحابه ، فلقيه صاحب المغانم الذى جعل عليها ، فأخذ بناصية الجراب وقال : هلم حتى تقسمه بين المسلمين . فقال : لا والله لا أعطيك إياه . وأخذ الرجلان يتجاذبان الجراب حتى رآهما محمد وهم يصنعان ذلك فتبسم ضاحكاً وقال لصاحب المغانم : خل بينه وبينه . فانطلق به عبد الله إلى رحله وأصحابه فأكلوه .

ويروى لنا أبو اليسر كعب بن عمرو ، طرفاً من أخبار هذا الجوع الذى أصاب المسلمين فى أثناء حصارهم خيبر . قال : إنى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من اليهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يطعمنا من هذه الغنم ؟ فقلت : أنا يا رسول الله . قال : فافعل . فخرجت مسرعاً مثل الظليم (ذكر النعام) فلما نظر إلى رسول الله صلى عليه وسلم مولياً قال : اللهم أمتعنا به . فأدركت الغنم وقد دخلت أولها الحصن ، فأخذت شاتين من أخراها فاحتضنتهما تحت يدى ، ثم جئت بهما مسرعاً كأنه ليس معى شيء حتى ألقيتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فذبحوهما فأكلوهما .

وكان أبو اليسر من آخر أصحاب النبي موتاً . وكان إذا حدث هذا الحديث بكى ثم قال : أمتعوا بى لعمرى ! حتى كنت من آخرهم .

لما بدأت الحصون تقع فى أيدى المسلمين فر المقاتلون من اليهود إلى حصن النزاة بالشق وتمنعوا به أشد الامتناع ، فزحف إليهم النبي وأصحابه فتراموا بالسهام ؛ ورمى يومئذ محمد بيده الكريمة ، حتى أصاب سهم من سهامهم بنانه . وحمى الوطيس واشتد القتال واقتحم المسلمون الحصن وأخذوا اليهود أخذاً باليد .

وتحول محمد وأصحابه إلى يهود الوطيح والسلالم ، حصنى أبى الحقيق ، فتحصن اليهود أشد تحصن واستماتوا فى الدفاع ، وكان كل من انهزم من النطاة قد جاء إليهم ، فتجمعوا فى حصن القموص والكتيبة والوطيح والسلالم . وكانت حصوناً منيعة جداً ، وامتنعوا عن الخروج منها . فهمّ محمد بأن ينصب المنجنيق عليهم ليضربهم به . فلما أيقنوا بذلك وبأنهم هالكون وأن المسلمين قد حصروهم ولن يرجعوا عنهم ، وكان الحصار قد دام أربعة عشر يوماً حول هذه الحصون جهد فيها اليهود ، نزل ابن أبى الحقيق إلى محمد فصالحه على حقن دمائهم وعلى أن يتركوا جميع ما كان لهم من الأرض والأموال والسلاح والمواشى ، ولا يخرجون إلا بما يحمل الإنسان على ظهره . فرضى بذلك محمد ، واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يخفوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد . فرضوا بذلك .

وتم الصلح .

غير أنهم أخفوا مَسْكاً (جلداً) فيه مال وحلى لحيي بن أخطب ، كان قد احتمله معه إلى خيبر عند ما أجليت بنو النضير من المدينة ، فقال محمد : وأين مسك حيي الذى جاء به من النضير ؟ قال ابن أبى الحقيق : أذهبته النفقات والحروب . فقال محمد : العهد قريب والمال أكثر من ذلك . ثم إنه دفعه إلى الزبير بن العوام فعذبه حتى أقر بأنه كان رأى حيياً قد دخل خربة يطوف بها ، وأشار إلى وضع بالحصن . فلما نقبوا فيه وجدوا المسك ، وكان فيه أساور ودمالج وخلاخيل وأقراط وخواتم من الذهب ، وعقود من الزمرد وغير ذلك .

تحلل عندئذ محمد من العهد الذى عقده معهم ، ذلك أنهم نكثوه بأنفسهم فلم يصبح لهم عنده ذمة ولا عهد ، فقتل ابنى أبى الحقيق ، وكان أحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب ، وسبى نساءهم وأبناءهم وقسم أموالهم .

ولما أراد إجلاءهم طلبوا منه أن يبقيهم فى ديارهم وأراضيهم يعملون

فيها مزارعة بالنصف مما خرج منها ، فأقرهم على ذلك خشية أن يصيب هذه الأموال الكثيرة أضرار إذا ما تولاها المسلمون وهم على غير معرفة بإدارتها ؛ غير أنه اشترط عليهم أن يخرجهم منها فى أى وقت شاء ، فارتضوا ذلك : ثم إنه أرسل إلى يهود فدك إنذاراً بأن يشهدوا شهادة الحق أو يسالموا أموالهم . فلما لم يجدوا فى أنفسهم قدرة على قتال المسلمين ، وكانوا قد رأوا ما حدث ليهود خيبر ، تصالحوا على البقاء فى ديارهم والعمل فى أراضيهم مزارعة بالنصف فى كل ما خرج منها . فكانت فدك خالصة لرسول الله وحده ليس للمسلمين فيها شيء لأنها لم تؤخذ عنوة ولا حارب فى سبيلها أحد . كذلك صالح يهود تيماء ، وهى قرية على ثمانى مراحل من المدينة ، على دفع الجزية . ثم إنه انتهز فرصة القضاء على هؤلاء اليهود الأقوياء للتخلص أيضاً من يهود وادى القرى ، فمر عليهم وهو فى طريق عودته إلى المدينة وعرض عليهم الاستسلام فأبوا فقاتلهم ، فما كان منهم إلا الاستسلام والإذعان للصلح . وبذلك انكسرت شوكة اليهود نهائيا من جزيرة العرب .

وكان فى خيبر وحدها أربعون ألف نخلة للمسلمين نصف ثمارها ، حتى لقد قال ابن عمر : ما شبعنا تمراً حتى فتحنا خيبر . وقالت عائشة عند فتحها : الآن نشبع من التمر .

قسم محمد الغنائم على المسلمين فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً ، وأعطى للعبيد والنساء الذين شهدوا خيبر نصيباً غير محدد . روت فتاة من بنى غفار قصة ذهابها مع محمد فى هذه الغزوة قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال : على بركة الله . فخرجنا معه.وكنت فتاة حديثة السن فأردفنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيبة رحله ، فوالله لنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا

بها دم منى ، وكانت أول حيضة حضتها ، فتقبضت إلى الناقة واستحييت ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بى ورأى الدم قال : « مالك ؟ لعلك نفست » . قلت : نعم . قال : « فأصلحى من نفسك ثم خذى إناء من ماء فاطرحى فيه ملحاً ثم اغسلى ما أصاب الحقيبة من الدم ، ثم عودى لمركبك » .

واستطردت تقول لمن تحدث : « فلما فتح الله خيبر أعطانا رسول الله من الغنيمة ، وأخذ هذه القــلادة التى تزين عنقى فأعطانيها وعلقها بيده فى عنقى ، فوالله لا تفارقنى أبداً » . وظلت القلادة فى عنقها حتى ماتت ، ثم إنها أوصت أن تدفن معها تيمنا بها .

كانت صفية بنت حيى بن أخطب زوجة ابن أبى الحقيق فى جملة السبايا الذين سباهم المسلمون من خيبر ، وقد وقعت فى نصيب دحية الكلبى . وكانت صفية سيدة قريظة والنضير ، وكانت فتاة قريبة عهد بعرس ، فجاء رجل من المسلمين إلى محمد فقال : يا نبى الله أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة والنضير ، وهى ما تصلح إلا لك . قال : « ادعوا بها » . فلما نظر إليها النبى قال لدحية : « خذ جارية من السبى غيرها » . ثم إنه أعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها . وكانت صفية تقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبغض الناس إلى ، قتل زوجى وأبى ، فما زال يعتذر إلى ويقول : إن أباك ألب على العرب وفعل ما فعل ، حتى ذهب ذلك من نفسى . ثم إنه بنى بها وهم عائدون إلى المدينة فى سد الصهباء ، وهو موضع بينه وبين خيبر مرحلة .

وكانت التى جملتها إليه ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك . ولقد بات بها فى قبة ، وبات أبو أيوب متوشحا بسيفه يحرسه ويطيف بالقبة حتى أصبح . فلما رآه مكانه قال : « ما لك يا أبا أيوب ؟ » قال : خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وأهلها ، وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك .

وكان النبي إذا ركب بعيره يحوّى لها وراءه بعباءة ثم يجاس فيضع لها ركبته فتضع صفية رجلها عليها حتى تركب .

غير أن محمداً لم يسلم من مكائد اليهود وغلهم وضغينتهم وجسارتهم وهو فى أوج انتصاره . إذ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وبنت أخى مرحب بعد الصلح شاة مشوية مسمومة . وسألت أى عضو أحب إلى النبي فقيل لها الذراع . فأكثرت فيها السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم حملتها إليه ، فوضعتها بين يديه . فتناول الذراع ولاك منها مضغة فلم يسغها فقال لأصحابه : « أمسكوا فإنها مسمومة » . فأمسكوا ، ولكن كان بشر بن البراء ابن معرور قد بلع لقمته فمات منها لساعته . فاستدعى المرأة وقال لها : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً فسيطلعك الله عليه ، وإن كنت كاذباً أريح الناس منك . فخلى سبيلها ولم يعرض لها بشر .

وقام فاحتجم[1]. غير أن الألم ظل يعاوده ، حتى إذا كان فى وجعه الذى توفى فيه بعد ذلك بثلاث سنين قال : « ما زلت أجد من الأكلة التى أكلت من الشاة يوم خيبر معاودة للألم حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى »[2] . لهذا يرى المسلمون أنه مات شهيداً .

وفى أثناء إقامتهم بخيبر أو بعد ذلك فى رواية أخرى ، رجع المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة بعد أن قضوا هناك عشر سنين ، وفيهم جعفر بن أبى طالب والأشعريون ، أى أبى موسى الأشعرى وقومه . وقد فرح محمد برجوعهم فرحاً عظيماً ، وأعطى للأشعريين من غنائم الحصون المفتوحة صلحاً ، وكان معهم أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان التى كان محمد قد تزوجها وهى فى الحبشة ، زوجه إياها النجاشى نفسه بكتاب كتبه إليه ومهرها أربعة آلاف درهم . وفى قدوم جعفر قال محمد : « والله ما أدرى بأيهما أفرح ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » .

---

(١) الاحتجام هو جذب دم المريض بآلة كالكأس توضع على جسم المريض فتمص الدم .
(٢) الأبهر : وريد العنق ، ويراد بانقطاع الأبهر الهلاك .

الفصل التاسع عشر

عمرة القضاء

لما رجع محمد من خيبر إلى المدينة أقام بها شهرى ربيع وجمادين ورجب وشعبان ورمضان وشوالا . على أن هذه الأشهر لم تمض وادعة هنيئة ، فقد كانت جزيرة العرب تغلى كالمرجل ، وكان محمد لا يكف عن إرسال السرايا فى تلك الأثناء إلى هنا وهناك . فأرسل سرية أبى بكر الصديق إلى بنى فزارة ، وسرية عمر بن الخطاب إلى تِرْبَة من أرض هوازن وراء مكة بأربعة أميال ، وسرية عبد الله بن رَوَاحة إلى يسير بن رِزَام اليهودى ، وسرية بشير بن سعد إلى فَدَك ، وسرية أبى حَدْرَد إلى الغابة ، وغير ذلك من السرايا .

ثم إنه خرج فى شهر ذى القعدة ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون فى العام السابق ، معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها . ويقال لهذه العُمْرة أيضاً عمرة القِصَاص لأن قريشاً صدته عنها فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست عند ما أراد العمرة ، فاقتص منهم فدخل مكة فى ذى القعدة من سنة سبع فى الشهر الحرام الذى صدوه فيه . وفى ذلك أنزل الله تعالى : « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُمات قصاص »[1]. ويقال لها أيضاً عمرة القضية ، وهى من المقاضاة التى كان قاضاهم عليها على أن يرجع عنهم عامه هذا ، ثم يأتى فى العام المقبل ، ولا يدخل مكة إلا بالسيوف فى أجربتها ، وألا يقيم بمكة أكثر من ثلاثة أيام فقط .

وهذه العمرة هى المذكورة فى قوله تعالى فى سورة الفتح : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين

---

(١) البقرة ١٩٤ .

رءوسكم ومقصرين لا تخافون »[١] . وهى أيضاً الموعود بها فى قول النبى لعمر بن الخطاب حين قال له : ألم تكن تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا . قال : فإنك آتيه ومطوف به .

خرج محمد لقضاء هذه العمرة فى ألفين من أصحابه ، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارى . وساق أمامه فى هذه العمرة ستين بدنة . وسار يلبى والمسلمون معه يلبون . ومضى أمامهم محمد بن مسلمة على رأس مائة فارس حتى إذا ما بلغ مر الظهران وجد نفراً من قريش ، فسألوا محمد بن مسلمة فعلموا منه أن محمداً سيصل هذا المكان بالغد ؛ فلما رأوا سلاحاً كثيراً يتقدم المسلمين مع بشير بن سعد ، رجعوا مسرعين إلى قريش فأخبروهم بأمر السلاح الذى أحضره محمد وبأمر الخيل ، ففزعت قريش لأن العهد الذى قطعوه مع محمد فى الحديبية كان يقضى بدخول المسلمين مكة بسلاح المسافر لا غير ، أى بالسيوف فى أجربتها .

بعثت قريش عندئذ مكرز بن حفص بن الأحنف فى نفر من قريش يستطلع لهم من محمد الخبر ويسألوه لماذا يغزوهم ، فلقوه ببطن يأجج فى أصحابه ، والهدى والسلاح قد تلاحقوا ، فقالوا : يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم ألا تدخل عليهم إلا بسلاح المسافر السيوف فى القراب . فقال : إنى لا أدخل عليهم بسلاح . فقال مكرز بن حفص : هذا الذى تعرف به ، البر والوفاء . وأما حمل النبى للسلاح فلم يكن على التأكيد للغدر بقريش ، وإنما كان احتياطاً مشروعاً خشية أن تغدر قريش به فيكون السلاح قريباً منه .

ترك محمد السلاح خارج الحرم ، والهدى بذى طوى ، وخرج وهو على ناقته القصواء وأصحابه محدقون به يلبون وهم متوشحون بالسيوف حتى دخلوا

---

(١) الفتح ٢٧

مكة وهم يصيحون : لبيك لبيك . وعبد الله بن رواحة يرتجز بشعره ويقول وهو آخذ بزمام القصواء :

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهمام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

أما أهل مكة فخرجوا منها كارهين أن يروا محمداً والمسلمين يطوفون بالبيت . طاف محمد وقد اضطبع بردائه[1] وأخرج عضده اليمنى ، وذلك حتى يرى المشركون معنى الفتوة ، وقال : « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » . واستلم الركن الأسود ثم هرول ، أي أسرع في مشيته ، حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود ، فقالت قريش ، وكانت تنظر من فوق أبي قبيس : ما يرضون بالمشي ، أما إنهم لينفرون نفر الظباء !

وكان المسلمون كلما هرول النبي هرولوا خلفه ، وكلما مشى مشوا خلفه . فعل ذلك ثلاثة أطواف فكانت سنة . وفي غمرة هذه الحماسة الشديدة همّ عبد الله بن رواحة وهم بأن يصيح في وجه قريش صيحة الحرب ، فمنعه عمر ، وقال له محمد : مهلا يابن رواحة ، وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده . فنادى بها عبد الله ابن رواحة بأعلى صوته ، والمسلمون يرددون هذه الصيحة ، فتجاوبت بها أصداء مكة جميعاً ، والمشركون وجوم كأن على رءوسهم الطير .

ولما أتم محمد الطواف بالكعبة ، انتقل ومن خلفه المسلمون إلى الصفا والمروة ، فركب بينهما سبعاً كما كان يفعل العرب ، ثم نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه ، وبذلك تمت فرائض العمرة . وفي اليوم التالي أصبح فدخل الكعبة ومكث بها حتى صلاة الظهر ، وأمر بلالا أن يعلوها ليؤذن

---

(١) أ أدخل بعضه تحت عضده وجعل طرفه على منكبه .

للصلاة ، فقام بلال وأذن للصلاة بين أصنام الكعبة . وصلى محمد والمسلمون فيها . فلما رأى المشركون ذلك وسمعوا بلالا يؤذن اغتاظوا أشد الغيظ حتى لقد قال عكرمة بن أبي جهل : لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول ! وقال صفوان بن أمية : الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا . وقال خالد بن أسيد : الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت . وأما سهيل بن عمرو وعدد من أصحابه فإنهم غطوا وجوههم لما سمعوا بذلك .

وفى أثناء إقامته بمكة بعث جعفر بن أبى طالب يخطب له ميمونة بنت الحارث فزوجه إياها العباس بن عبد المطلب ، ذلك أن ميمونة كانت قد جعلت أمرها إلى أختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمرها إلى زوجها العباس ، فزوجها من محمد وأصدقها عنه أربعمائة درهم . ويقال بأنه لما انتهت إليها أخبار خطبة محمد لها وهى راكبة بعيراً قالت : الجمل وما عليه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيها نزلت الآية : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين »[1] . وقد تزوجها محمد وهو محرم ودخل بها وهو حلال بعد مغادرته مكة بمكان يقال له سرف .

أقام محمد وأصحابه بمكة ثلاثة أيام ، فلما أتى الصبح من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، وهو فى مجلس من الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة ، فصاح حويطب : نناشدك الله والعقد أن تخرج من أرضنا ، فقد مضت الثلاث . فقال سعد بن عُبادة : كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا بأرض آبائك والله لا يخرج . وقال محمد لسهيل وحويطب : « إنى قد تزوجت منكم امرأة فما يضر أن أمكث حتى أدخل بها ونصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا » . فقالا : نناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا .

---

(١) الأحزاب ٥٠ .

عندئذ أمر أبا رافع فأذن بالرحيل . وبينما ركب المسلمين يغادر مكة تبعت النبي عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب ، وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة ونادته : يا عم ياعم . فتناولها على فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك . ثم إن علياً وزيداً وجعفراً اختصموا ، كلهم يريد أن يكفلها ، فحكم بها النبي لجعفر ، ثم زوجها لسلمة بن أبي سلمة بعد أن رفض جعفر أن يتزوجها ، إذ كانت ابنة أخيه من الرضاعة . وكان النبي يقول لسلمة : هل جزيت أبا سلمة ، ذلك أنه هو الذى زوجه بأمه أم سلمة ، لأنه كان أكبر من أخيه عمر بن أبي سلمة .

الفصل العشرون

إسلام خالد بن الوليد وصاحبيه

عمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة

كان لمقدم محمد إلى مكة معتمراً فى غزوة الحديبية ، والصلح الذى عقدته معه قريش على أن يدخل مكة فى العام المقبل معتمراً على رأس المسلمين ، أثر بالغ فى نفوس الكثيرين من قريش ، وعلى الأخص فى نفوس أولئك الذين رأوا بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أن الإسلام غالب ، وأن محمداً لا محالة منتصر على قريش ، ذلك بأن إقرار قريش لمحمد وأصحابه بحقهم فى الكعبة وسماحهم لهم بالدخول إلى حرمها وإقامة شعائر دينهم فيها ، فضلا عن إقامتهم بمكة ثلاثة أيام تهجرها فيها قريش ، كان الدليل الأكبر على أن قوة قريش قد اضمحلت فعلا إلى جانب قوة الإسلام المتزايدة التى لم يعد لأحد قبل بها .

والدليل على ذلك تلك البلبلة التى أصابت نفراً من دهاة قريش ، على رأسهم عمرو بن العاص ، الذى يروى لنا بنفسه صورة من هذه الحيرة التى خيمت على أفكارهم فاضطربت لها نفوسهم أشد اضطراب . كان يقول : كنت للإسلام مجانباً معانداً . حضرت بدراً مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحُداً فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت . فقلت فى نفسى : كم أدبر وأحارب ؛ والله ليظهرن محمداً على قريش . فلحقت بمالى بالرهط (موضع) وأقللت من لقاء الناس .

فلما حضر الحديبية وتم الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعت قريش إلى مكة ، جعلت أقول : يدخل محمد العام المقبل مكة بأصحابه ، فما مكة بعد الآن بمنزل لى ولا الطائف ، ولا شيء خير من الخروج

والهجرة ، وأنا بعد ناء عن الإسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم .

فقدمت مكة وجمعت رجالا من قومى ، وكانوا يرون رأيى ويسمعون منى ويقدمونى فيما نابهم ، فقلت لهم : كيف أنا فيكم ؟ قالوا : ذو رأينا ومدرهنا (أى المدافع عنا فى يمن نفسه وبركة أمره) . قلت : تعلمون والله أنى لأرى أمر محمد أمراً يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنى قد رأيت رأياً . قالوا : وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشى فنكون معه ، فإن ينتصر محمد كنا عند النجاشى . وإنا إن نكن تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد ، وإن تنتصر قريش فنحن من قد عرفوا . . . إلى آخر القصة .

هذه صورة من اليأس الذى خيم على أفكار صناديد قريش وذوى الرأى فيها بعد صلح الحديبية . إذن لم يكن غريباً أن يخلو رجل مثل خالد بن الوليد إلى نفسه ليمعن النظر فى مجريات الأمور ، وفى هذا الحدث الذى يحدث فى بلاد العرب ، ويحاول مستعيناً بشرف نفسه وعلوها أن يعقد مقارنة بسيطة بين ما يدعو إليه محمد وبين الدين الذى تدين به قريش ، ويستعلى بروحه الكبيرة ويخلصها مما طبعته فيها تقاليد الجاهلية القبلية ، تلك التقاليد التى كانت من أكبر أسباب النزاع الذى قام فى قريش بين محمد وساداتها الآخرين .

واستدار العام ونفذت قريش صلح الحديبية ودخل محمد وأصحابه مكة فى عمرة القضاء . كل هذا يحدث والأفكار تدور فى رأس الكثيرين من سادة قريش وذوى الرأى فيها حتى استبان لهم الحق من الباطل . وها هو خالد بن الوليد بن المغيرة فارس قريش المعلم وبطلها لم تفارق صورة المسلمين وهم يطوفون حول الكعبة خياله ، ولم تنزع من قلبه ، ولا فارقت الأفكار التى كانت تدور برأسه ذهنه . فلم يكد يخرج المسلمون من مكة بعد عمرة القضاء حتى بلغ اليقين عند خالد برسالة محمد مبلغاً لم يعد اخفاؤه أمراً ممكناً ، فخرج إلى منتدى قومه ووقف على رءوس الأشهاد يقول :

« لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لُبٍّ أن يتبعه » .

فابتدره عكرمة بن أبى جهل قائلا : لقد صبوْت يا خالد . قال : لم أصبوْ ولكنى أسلمت . قال عكرمة : والله إن كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت . قال : ولم ؟ قال عكرمة : لأن محمداً وضَعَ شرف أبيك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ماكنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد . أما رأيت قريشاً يرون قتاله ! قال خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها . لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق .

ثم إن خالداً أرسل إلى النبى أفراساً وبعث إليه بإقراره بالإسلام . فلما بلغ أبا سفيان إسلام خالد ، بعث إليه وسأله فى هذا الأمر ، فأقر خالد بإسلامه ، فغضب أبو سفيان غضباً شديداً وقال : واللات والعُزّى لو أعلم أن الذى تقول حق لبدأت بك قبل محمد . قال خالد : فوالله إنه لحق على رغم من رغم . فقام له أبو سفيان محتداً ، فحجز بينهما عكرمة بن أبى جهل وقال : مهلا يا أبا سفيان . فوالله لقد خفتُ للذى خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه . أنتم تقتلون خالداً على رأى رآه وهذه قريش كلها تبايعت عليه . والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم .

ويقول خالد : فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصاحب إلى رسول الله ؟ فلقيت صفوان بن أميـــة فقلت : يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف ؟ فأبى أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً . فافترقنا وقلت : هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبى جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية . فقال لى مثل ما قال صفوان .

فأمرت براحلتى فركبتها وخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة

فقلت : إن هذا لى صديق ، فلو ذكرت له ما أرجو . ثم ذكرت من قتل من آبائه ، فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما على وأنا راحل من ساعتى . فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزل ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب[1] من ماء لخرج ، وقلت نحواً مما قلت لصاحبى ، فأسرع الإجابة ، فقلت له : إنى غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى بفج مناخة . فاتعدت أنا وهو يأجج ، إن سبقنى أقام وإن سبقته أقمت حتى يأتى .

فمشينا ليلتنا حتى إذا طلع الفجر التقينا بيأجج ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة فوجدنا عمرو بن العاص بها ، فقال لنا : مرحبا بالقوم . فقلنا : وبك . فقال : إلى أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم . قال : وذاك الذى أقدمنى .

فسرنا معاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركائبنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا . فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله فلقينى أخى الوليد بن الوليد فقال : أسرع فإن رسول الله قد أخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظركم .

فأسرعنا المشى وأقدمنا عليه ، فما زال يتبسم إلى حتى وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : تعال . ثم قال : « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير » . قلت : يا رسول الله إنى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفر لى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الدلو العظيمة .

« الإسلام يجب ما كان قبله » . قلت : يا رسول الله على ذلك . قال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله » .

ثم تقدم عثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص فبايعا رسول الله . ثم قال : والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه . وكان قدوم هؤلاء الثلاثة فى صفر من سنة ثمان . وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة ، وأصبح فتح مكة أمراً لم يعد يشك فيه أحد .

الفصل الحادى والعشرون

سرية مؤتة

استمر القتال بين المسلمين والمشركين منذ أن بدأ بعد الهجرة إلى المدينة . وكان إذا توقف حيناً عاد ثانية ليشب أعنف وأضرى مما كان . ولقد استأنف النبى بعد عودته من عمرة القضاء إرسال السرايا المقاتلة ، فبعث عمر بن الخطاب إلى هوازن ، وأبا بكر إلى بنى كلاب ، وغالب ابن عبد الله الليثى إلى بنى عواد ، وابن أبى العوجاء السلمى إلى بنى سليم ، وكعب بن عمرو الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام . غير أن أشهر السرايا التى بعثها فى تلك الفترة ، كانت سرية زيد بن حارثة إلى أرض البلقاء من أطراف الشام ، وكانت فى ثلاثة آلاف مقاتل .

نعلم أن محمداً أرسل بعد صلح الحديبية رسلا إلى الملوك والأمراء فى خارج جزيرة العرب وفى داخلها يدعوهم إلى الإسلام . وكان الحارث بن عمرو الأزدى مبعوثه إلى ملك بصرى . فلما بلغ الحارث مؤتة لقيه شرحبيل ابن عمرو الغسانى فقتله . وكان الحارث المبعوث الوحيد الذى قتل من مبعوثى محمد ، فشق ذلك على نفسه ، وانتهز فرصة سانحة ليجهز فيها جيشاً برسله للانتقام من أهل مؤتة . غير أنه يقال فى رواية أخرى إن بعثة هذه السرية كان انتقاماً لسرية كعب بن عمرو الغفارى التى أرسلها إلى ذات أطلاح من أرض الشام يدعو أهلها إلى الإسلام فقتلوه ومن معه ، لم ينج منهم غير رجل واحد جريح ، تحامل على نفسه حتى عاد إلى المدينة وأخبر محمداً الخبر .

جمع محمد فى جمادى الأولى من سنة ثمان ثلاثة آلاف من خيرة المسلمين وأمّر عليهم زيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب فجعفر بن

أبى طالب على الناس ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن قتل فليرتض المسلمون من بينهم رجلا فيجعلوه عليهم » .

ثم آن أوان الرحيل وأخذ الناس يودعون الأمراء ، فلما ودعوا عبد الله ابن رواحة بكى ، فقالوا : ما يبكيك يابن رواحة ؟ قال : أما والله ما فى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً »(١) . فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود ؟ !

فقال المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

فأنشد عبد الله بن رواحة :

لكننى أسـأل الرحمن مغفـرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا(٢)
أو طعنة بيدى حران مجهـزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبـدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشـدا

ثم قـال :

فثبت الله ما آتـاك من حسن ... تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أنى ثابت البصـر
أنت الرسول فمن يحـرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر

ثم خرج الجيش وخرج محمد معه يشيعه حتى إذا ودعهم وانصرف ، قال ابن رواحة :

خلف السلام على امرئ ودعته ... فى النخل خير مشيع وخليـل

ومضى الجيش إلى وجهته حتى إذا بلغ تخوم البلقاء من أطراف الشام لقيته جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها موتة ، وعندها التقى الجمعان ودارت رحى المعركة . ويقال بأن جموع الروم والعرب الموالين لهم بلغت ثلاثمائة ألف

---

(١) مريم ٧١ . (٢) الفرغ : السعة . (٣) الحران : الشديد .

فى رواية ، ومائتى وخمسين ألفاً فى رواية ، وأقل المقلين جعلها مائة وخمسين ألفاً . غير أن هذا العدد مبالغ فيه جداً على أية حال ، وإن كانت جموع الروم والعرب أكثر كثيراً من جموع المسلمين . ذلك أن شرحبيل كان قد علم بمقدم المسلمين فأعد جيشاً كبيراً من العرب ، وكتب إلى عاهل الروم فأمده بجيش كبير آخر .

قال أبو هريرة وكان فى الجيش : شهدت مؤتة فلما دنا منا المشركون رأينا ما لا قبل لأحد به من العدة والسلاح والخيل والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصرى ، فقال لى ثابت بن أرقم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ قلت : نعم . قال : إنك لم تشهد بدراً معنا ، إنا لم ننصر بالكثرة .

غير أن الناس لما أيقنوا أن جموع المشركين تفوق جمعهم أضعافاً مضاعفة ، جعلوا يتشاورون فى أمرهم ، فقال قائل نرسل إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . غير أن عبد الله بن رواحة شجع الناس وقال : يا قوم والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا بكثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين ، إما ظهور وإما شهادة .

فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة ، وتقدموا للحرب .

ثم التقى الجيشان واقتتل الناس قتالا شديداً ، فقاتل زيد بن حارثة براية الرسول حتى مزقته رماح الأعداء . فنزل جعفر عن فرس له شقراء كان يركبها وذبحها[1] ، ثم تناول راية محمد وقاتل القوم حتى قتل ، وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وبارد شرابها

---

(١) جوّز العلماء قتل الحيوان خشية أن ينتفع به العدو ، وكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر حيوانا فى الإسلام لهذا الغرض .

والروم روم قد دنا عـــذابها كافرة بعيـــدة أنســابهـــا
على إن لاقيتهـــا ضرابها

ويقال بأن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقطعت ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه حتى قتل . وكان ابن ثلاث وثلاثين سنة عندئذ ، وفى رواية ابن إحدى وأربعين سنة ، وربما هذا أصح . وقد روى ابن عمر أنه وقف على جعفر بن أبى طالب وهو يومئذ قتيل فعدد به خمسين بين ضربة وطعنة ليس منها شيء فى ظهره . ويقال أيضاً إن رجلا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين .

فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى متردداً بعض التردد وهو يقول :

أقسمت يا نفس لتنزلنـــه لتـــنزلن أو لتـــكرهنـــه
إن أجلب الناس وشـــدوا الرنة مالى أراك تكرهـــين الجنه[1]
قد طال ما قد كنت مطمئنـــة هل أنت إلا نطفة فى شـــنه[2]

ثم قـــال :

يا نفس إن لا تقتـــلى تمـــوتى هذا حمام الموت قـــد صليت
ومـــا تمنيت فقـــد أعطيت إن تفعلى فعلهما هـــديت[3]

ثم نزل عن فرسه فأتاه ابن عم له بعرق من لحم وقال : شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت . فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ، ثم سمع ضربات السيوف وجلبة المعركة فقال : وأنت فى الدنيا ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه ثم تقدم ، فقاتل حتى قتل .

عندئذ أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى العجلان فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل .

---

(١) أجلب الناس : تجمعوا من كل جهة للحرب . الرنة : الصيحة الشديدة .
(٢) الشنة : القربة الصغيرة القديمة كناية عن الجسم .
(٣) فعلهما : أى فعل زيد وجعفر .

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، وكان قد خرج مع الجيش متطوعاً ليدل بذلك على حسن إسلامه ، وكان حديث عهد بالإسلام . فلما تناول الراية عمل بالحكمة الإلهية القائلة : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[1] . ذلك أنه أيقن تماماً بأن المسلمين سوف يهلكون عن آخرهم إن هم استمروا فى قتال عدو يفوقهم أضعافاً مضاعفة لا قبل لهم بها .

استلم خالد الراية عند المساء لما قتل ابن رواحة فى أواخر ساعات القتال . فبات ليلته وهو يفكر فى مكيدة حربية يوهم بها العدو أن مدداً قد وصل إلى المسلمين . فلما أصبح جعل مقدمة الجيش مؤخرة ، ومؤخرته مقدمة ، وميمنته ميسرته ، وميسرته ميمنة . ونجحت الخطة إذ أنكر العدو ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم فى اليوم السابق ، وظنوا أن مدداً قد جاءهم ، ففت ذلك على أية حال فى عضدهم لما شهدوا من ضراوة المسلمين فى القتال على قلة عددهم فى اليوم السابق ، فأحجموا عن مبادأتهم بالقتال ، واستطاع خالد بحكمته ومهارته الحربية أن يناور مناورة باسلة وينسحب بجيش المسلمين شيئاً فشيئاً داخل الصحراء . كل هذا من غير فرار حتى لا يطمع فيهم العدو ، ومن غير قتال حتى لا يهلك أصحابه ويقحمهم فيما لا طاقة لهم به . فلما توغل فى الصحراء ، ارتد المشركون ، ورجع المسلمون سالمين إلى المدينة ، لم يقتل منهم غير ثمانية فى قول ، واثنى عشر فى قول آخر . وهذا ولا شك أمر عظيم جداً ، ذلك أن جيشين متعاديان فى الدين ، أحدهما فئة قليلة تقاتل فئة كثيرة ، فلا يقتل من الفئة القليلة إلا هذا العدد فحسب . وفى هذا دليل على ما ذهبنا إليه من أن عدد المشركين لم يكن بمثل تلك الكثرة التى حدثنا عنها كتاب المغازى . وربما لم يشترك فى القتال ذلك اليوم كل جموع المشركين ، لأنها لو اشتركت كلها لكان تصديق ذلك عسيراً .

لما بلغت المدينة أنباء عودة الجيش وعلم النبى بمقتل أصحابه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، وكانوا من

---

(١) البقرة ١٩٥ .

أعز أصحابه على نفسه ، حزن حزناً شديداً حتى إنه لم يتمالك عبرات أن تتحادر على خديه . توجه بنفسه إلى بيت جعفر بن أبى طالب . وكانت زوجته أسماء بنت عميس قد قامت بشئون البيت فعجنت وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم ، فقال : ائتنى ببنى جعفر . فلما أتته بهم شمهم وذرفت عيناه ، فاضطربت أسماء وقالت : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ! ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم . فقامت تصيح واجتمع إليها النساء ، وخرج محمد إلى أهله فقال : « لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم » .

ولما دنا الجيش من المدينة خرج المسلمون للقائه ، وأسرع الصبيان فى أعقابهم ، وأقبل محمد على دابة مع القوم ، ونظر إلى الناس فقال : خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر . فأتوا له بعبد الله بن جعفر فحمله بين يديه ، والناس يصبون على الجيش التراب ويقولون : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ! فقال محمد : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » . ثم إنه أثنى على مهارة خالد .

ولقد صدق قوله هذا كل الصدق ، فقد كروا بعد ذلك بأقل من عشر سنين على أكبر إمبراطوريتين فى العالم ، فما هى إلا أعوام تعد على أصابع اليد الواحدة حتى كان ملك الروم والفرس كأمس الذاهب .

وفى أعقاب سرية مؤتة ، بعث محمـــد فى جمادى الآخرة سرية فى ثلاثمائة من الأنصار ، والمهاجرين إلى ذات السلاسل من مشارف الشام فى بلى وعبد الله ومن يليهم من قضاعة . ويقول بعض رواة السيرة إن هذه السرية وجهت إلى جمع من قضاعة بلغ الرسول أنهم تجمعوا فى ديارهم وراء وادى القرى ليغيروا على المدينة ، ويقول آخرون إنه أرسل عمرو بن العاص ليستنفر هؤلاء العرب إلى الإسلام . وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بنى بَلِىّ . وقصد من تأمير عمرو بن العاص أن يتألف بذلك قلوبهم .

سار عمرو على أية حال يقود رجاله حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له السلاسل — وبه سميت هذه السرية بذات السلاسل — خاف كثرة عدوه فبعث إلى محمد يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين من المهاجرين الأولين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبى عبيدة حين وجهه : « لا تختلفا » .

فلما قدم أبو عبيدة على عمرو بن العاص ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لى ، فقال له أبو عبيدة : لا ولكنى على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه .

وكان أبو عبيدة رجلا ليناً سهلا هيناً عليه أمر الدنيا ، فلما أصر عمرو ابن العاص على أنه الأمير وأن أبا عبيدة مدد له ، قال أبوعبيدة : يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لى « لا تختلفا » وإنك إن عصيتنى أطعتك . فقال له عمرو : فإنى أمير عليك وإنما أنت مدد لى . فامتثل أبو عبيدة للأمر ، وصلى عمرو بن العاص بالناس ، وتولى أمر الجيش فى كل صغيرة وكبيرة . حتى لقد قيل إنه لما أراد رجال من الجيش إيقاد نار فنعهم عمرو ، وأنكر ذلك عليه عمر بن الخطاب ، قال له أبو بكر : إنما بعثه رسول الله علينا رئيساً لمعرفته بالحرب أكثر منا فلا تعصه ، فامتثل للأمر .

والحق أن عمرو بن العاص كان داهية من كبار الدهاة الذين لا يتكرر مثلهم كثيراً . فقد وطىء بلاد بلى ودوخها ، وكان كلما انتهى إلى موضع قيل له إن به جمعاً ، لم يجد به داعياً ولا مجيباً ، ذلك أن الأعراب كانوا إذا سمعوا بمقدمه تفرقوا ، وظل على هذه الحال حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلى وعذرة وبلقين . وأخيراً التقى بجمع صغير ، فما أن دار القتال ساعة وحمل عليهم المسلمون حتى انهزم الأعراب وتفرقوا فى الصحراء .

وأقام عمرو بجيشه أياماً بتلك البلاد لا يسمع بجمع لهم ولا مكان صاروا فيه حتى يهاجمهم . وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم فينحرون ويأكلون .

ولم يكن شيء أكثر من ذلك ، أى لم تكن هناك غنائم تقسم ، فقفل راجعاً بالجيش ظافراً .

ومن طريف ما يروى أن عمرو بن العاص احتلم وهم فى الطريق فى ليلة باردة كأشد ما تكون من البرد . فلما أصبح أشفق على نفسه أن يغتسل فى هذا البرد فتيمم وصلى بالناس صلاة الصبح . فلما عادوا إلى المدينة وجلسوا إلى محمد يحدثونه عن غزوتهم ، وأخذ يسألهم عن أنباء سفرتهم كعادته إذا أرسل سرية هنا أو هناك ، أخبروه بما كان من عمرو بن العاص عند ما منعهم من إيقاد النار ، ونهيه لهم عن اتباع العدو ، وكانوا يريدون اقتفاء أثره فرفض ، ثم صلاته جنباً . فلما سأله النبى عن ذلك قال : منعتهم من إيقاد النار لئلا يرى العدو قلتهم فيطمع فيهم ، ونهيتهم عن اتباع العدو خشية أن يكون له كمين ، أما صلاتى جنباً فوالذى بعثك بالحق لو أنى اغسلت لمت ، لم أجد برداً قط مثله ، وقد قال تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً . »[1] فضحك النبى عندئذ ولم يقل شيئاً .

وفى رجب من نفس السنة أى سنة ثمان من الهجرة ، بعث النبى سرية إلى شاطىء البحر عدتها ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار بقيادة أبى عبيدة ابن الجراح . وفى شعبان أرسل أبا قتادة بن ربعى الأنصارى إلى خضرة وهى أرض محارب بنجد على رأس عشرين مقاتلا أو نحو ذلك للإغارة على غطفان . وفى رمضان سار بنفسه على رأس أكبر جيش عرفه المسلمون حتى ذلك الحين ، ووجه إلى مكة .

---

(١) النساء ٢٩ .

الفصل الثانى والعشرون

غزوة الفتح الأعظم

فتح مكة

لم يعرف أحد محمداً إلا صادقاً صغيراً وكبيراً ، وإلا وفياً بعهده صغيراً وكبيراً ، وإلا براً بأهله وبالناس جميعاً صغيراً وكبيراً . فأى شيء حدث الآن ليخرج على رأس أكبر جيش إسلامى عرف حتى ذلك الحين ليغزو مكة ، وعهد الحديبية لم تنقض مدته بعد ؟ أينقض محمد العهد ؟

نعلم مما سبق أنه جاء فى صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل ، ومن شاء أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل . فدخلت خزاعة فى عقــد محمد وعهده ، ودخل بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم . غير أن بنى بكر بعد نحو سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً ، هاجموا خزاعة ليلا عند ماء يقال له الوتير ، وهو قريب من مكة ، فأعانتهم قريش بالخيل والسلاح وقاتلوا معهم ظناً منهم أن الليل من شأنه أن يخفى هذا العمل القبيح .

عندئذ خرج بُديل بن ورقاء فى نفر من أصحابه حتى قدموا على محمد فى المدينة ، وأخبروه بما أصيب منهم ، وما كان من مناصرة قريش لبنى بكر عليهم . وأنشده عمرو بن سالم أبياتاً من الشعر يستنصره بها على بنى بكر ، قال :

يا ربِّ إنى ناشــد محمــداً	حِلْفَ أبيــه وأبينــا الأتلدا
قــد كنتم ولداً وكنــا والداً	ثُمَّتَ أســلمنا فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصــراً أبدا	وادعُ عبادَ الله يأتوا مــددا
فيهم رسول الله قــد تجــرَّدا	إن سيم خَسْفاً وجهُــه تربَّدا
فى فَيْلَقٍ كالبحر يجرى مزبدا	إنَّ قريشاً أخلفوك المَوْعِدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا　　وجعلوا لى فى كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا　　فهم أذل وأقل عددا
هم بيتونا بالوتير هجدا　　وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال عندئذ محمد : نصرت يا عمرو بن سالم .

أما السبب الذى أدى إلى نشوب هذا القتال فيرجع إلى خصومات ومشاحنات وقعت بين خزاعة وبنى بكر قبل الإسلام . فيقال إن رجلا من بنى الحضرمى اسمه مالك بن عبَّاد من حلفاء الأسود بن رزْن كان قد خرج تاجراً . فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة على بنى الأسود بن رزن الدئلى . وهم مفخر بنى كنانة وأشرافهم . سلمى وكلثوم وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم .

وجاء الإسلام وهم على هذا الحال . فلما كان يوم الحديبية دخل بنو بكر فى عقد قريش . ودخلت خزاعة فى عقد محمد ، وكانت الهدنة ، وعند ذلك اغتنمها بنو الديل من بنى بكر . وخزاعة مطمئنة ، وأرادوا أن يصيبوا منها ثأراً . فخرج نوفل بن معاوية الديلى فى قومه وهو يومئذ سيدهم وقائدهم . ولكن لم تكن كل بنى بكر تتبعه . فبيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير فأصابوا منهم رجلا واقتتلوا . ثم إن قريشاً أمدت بنى بكر بالسلاح . وقاتل معهم جماعة من قريش بالليل وهم مستخفون حتى ساقوا خزاعة إلى الحرم . حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء بمكة . وإلى دار حليف لهم يقال له رافع .

ثم إن القوم خرجوا راجعين إلى مكة . فلقوا أبا سفيان عند مكان يقال له عسفان . وكانت قريش قد شعرت بنقضها للعهد وتخوفت مغبة ذلك ، فأرادت منه أن يطلب من محمد أن يشد لهم العقد ويزيد فى المدة . فلما لقى أبو سفيان بديلا قال له : من أين أقبلت يا بديل ؟ فقال : سرت فى خزاعة

فى هذا الساحل فى بطن هذا الوادى . غير أن ذلك لم يقنع أبا سفيان ، فما شك فى أنه أتى محمداً ، فقام إلى حيث بركت ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى ، وهو من علائف يثرب فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وقدم أبو سفيان على محمد فى المدينة ، وكان طبيعيا أن يذهب إليه فى دار ابنته أم حبيبة . فلما هم بأن يجلس على فراش النبى طوته ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ فقالت : هو فراش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه . فقال : يا بنية والله لقد أصابك بعدى شر ! وخرج .

ثم إنه أتى النبى وطلب منه أن يشدد العقد ويزيدهم فى المدة . فسأله محمد : ولذلك قدمت ؟ هل كان من حدث قبلكم ؟ فقال أبو سفيان : معاذ الله ! نحن على عهدنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل . فلم يزد محمد عندئذ على ذلك شيئاً ، وظل صامتاً .

فلما رأى أبو سفيان أن النبى لم يجبه إلى طلبه ، ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم محمداً ، فلم يقبل . فأتى عمر بن الخطاب ، فقال عمر : أنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله لو لم أجد إلا النمل لجاهدتكم به . فخرج من عنده وذهب إلى على بن أبى طالب فوجده مع زوجته فاطمة بنت محمد ، وعندهما الحسن وكان لا يزال غلاماً . فقال : يا على إنك أمس القوم بى رحماً وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لى إلى محمد . فقال على : ويحك أبا سفيان ! والله إذا عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة فقال : يا بنت محمد هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ فقالت :

والله ما بلغ بُنيَّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير[1] أحد على النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت فانصحني . قال : والله ما أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . فقال : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فدخل أبو سفيان على محمد فقال : يا محمد إني قد أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أن يخفرني أحد ولا يرد جواري . فما كان من النبي إلا أن قال : أنت تقول يا أبا حنظلة . عندئذ خرج أبو سفيان لتوه وقفل راجعاً إلى مكة .

فلما قدم مكة قالت له قريش : ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟ قال : لا والله لقد أبى علي ، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوماً لملك عليهم أطوع منهم له ، غير أن علي بن أبي طالب قد قال لي : التمس جوار الناس عليك ولا تجر أنت عليه وعلى قومك ، وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها ألا تُخفَر جواره . فقمت بالجوار ثم دخلت على محمد فذكرت له أني أجرت بين الناس وقلت : ما أظن أن تخفرني . فقال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة . فقالوا : رضيت بغير رضى ، وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً ، وإنما لعب بك علي لعمر الله ! ما جوارك بجائز وإن إخفارك عليهم لهين .

ثم قام فدخل على هند زوجته ، فلما حدثها بما صنع قالت : قبحك الله من وافد قوم ! فما جئت بخير .

---

(١) نحن نعلم أنه إنما يجير على المسلمين أدناهم ، وقد قبل الرسول جوار ابنته زينب عندما أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع وقبل جوار غيرها ، ولكن مفهوم كلام فاطمة هنا يعني أن المراد بقبول جوار أدنى المسلمين هو جواره في فرد واحد أو نفر يسير ، أما من يجير عدداً كبيراً من غزو الإمام إياهم فليس له ذلك .

لم تمض أيام حتى بدأ النبي يعد عدته للغزو ، فأمر عائشة أن تجهز للسفر وأن تخفي ذلك . فبينما هي في دارها وعندها حنطة تنسف وتنقى إذ دخل عليها أبو بكر ، فقال لها : يا بنية لم تصنعين هذا الطعام ؟ فسكتت . فقال : أيريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو ؟ فصمتت . فقال : يريد بني الأصفر — أي الروم — ؟ فصمتت ، قال : فلعله يريد أهل نجد ؟ فصمتت . قال : فلعله يريد قريشاً ؟ فصمتت .

فلما دخل محمد قال له : يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً ؟ قال : نعم . قال : فلعلك تريد بني الأصفر ؟ قال لا . قال : أتريد أهل نجد ؟ قال : لا . قال : فلعلك تريد قريشاً ؟ قال : نعم . فقال أبو بكر : يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة ؟ قال : ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب ؟

ثم إنه أذن في الناس بالغزو وأمرهم بالتجهز ، واستنفر الأعراب الذين حول المدينة وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة . فقدمت جموع من قبائل غفار ومزينة وأشجع وجهينة ، غير أنه أخفى عن الناس مقصده حتى لا يشيع الخبر فيبلغ قريشاً فتتجهز للقائه ، وكان لا يريد حرباً في مكة ، بل يريد أن يبغت قريشاً من غير حرب ولا إراقة دماء ولا مساس بحرمتها . فكان يدعو ربه قائلا : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها .

غير أن حاطب بن أبي بلتعة وهو من أوائل المهاجرين ومن أصحاب الرسول في بدر ، قد سارع في لحظة من تلك اللحظات التي تضعف فيها النفوس ، وكتب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه أن محمداً قد نفر ، إما إليكم ، وإما إلى غيركم ، فعليكم الحذر . ودفع بالكتاب إلى امرأة قيل إنها من مزينة ، وقيل إنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه ضفيرتها وخرجت به إلى مكة .

غير أن محمداً علم بأمر هذا الكتاب ، فبعث في أثرها على بن أبي طالب ،

والزبير بن العوام ، وقال لهما : أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم . فخرجا وراءها حتى أدركاها في بعض الطريق ، فاستنزلاها من فوق بعيرها وفتشا عن الكتاب في الرحل فلم يجدا فيه شيئاً ، فقال لها علي : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض ، فأعرض ، فحلت ضفائر رأسها واستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فرجعا به .

استدعى النبي حاطبا فقال له : يا حاطب ما حملك على هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت امرءاً ليس لي في قريش من أصل ولا عشيرة ، ولي بين أظهرهم ولد وأهل ، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام .

فقال محمد : أما إنه قد صدقكم . فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال : أنقتل رجلا من أهل بدر ؟ وعفا عنه .

وأنزل الله في حاطب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل »(١) إلى آخر القصة .

وفي العاشر من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، خرج النبي على رأس جموع غفيرة من المسلمين يريد مكة ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم . وكان كلما تقدم نحو مكة انضمت إليه جموع جديدة من سائر

---

(١) الممتحنة ١ .

قبائل المسلمين الذين استنفرهم للخروج معه ، حتى أربى الجيش على عشرة آلاف مقاتل أو نحو ذلك . وسار الناس وهم صائمون حتى إذا بلغوا الكديد أجهدهم الصوم . فقال بعضهم لمحمد إن الناس قد اشتد عليهم الصوم ، وإنما ينظرون كيف فعلت . فدعا بماء فشرب وهو على ناقته والناس ينظرون ، يعلمهم بذلك أنه قد أفطر . فأفطر المسلمون .

وما أن بلغوا الجحفة حتى لقيهم العباس بن عبد المطلب مهاجراً بعياله ، وكان حتى ذلك الحين لا يزال مقيماً بمكة متولياً سقاية الحاج والنبي راض عنه . ويقال بأنه كان قد أسلم سراً . وممن اتى الرسول أيضاً فى تلك الأثناء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية ، إذ كانا قد خرجا من مكة أيضاً للقائه فلقياه بنيق العقاب والتمسا الدخول عليه . ولعله كانت قد بلغت قريشاً أنباء الزحف الإسلامى ، فخرج هؤلاء يطلبون الأمان من محمد قبل أن تدهم مكة جيوشه فلا يكون لهم عذر بعد ، وكانا ممن أساء إليه من أهله فى أثناء إقامته بمكة يدعو الناس إلى دين الحق . فلما التمسا الدخول عليه كلمته زوجه أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك . قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال[1] .

فلما بلغهما أنه رفض لقاءهما قال أبو سفيان وكان معه بنى له : والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما سمع محمد بذلك ، تجلت العاطفة العربية الجياشة إزاء الأهل والأقرباء بأجلى معانيها . فضلا عما عرف به من البر بأهله ، فرق لهما وأذن لهما فدخلا عليه وأسلما ، وأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذر إليه مما كان قد مضى من فعاله ، وعفا عنهما .

لما انتهى محمد إلى مر الظهران نزل فيه فأقام ، وأغلب الظن أنه أراد

---

(١) وهو الذى قال له بمكة : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك .

أن يستأخر بعض الوقت عن الوصول إلى مكة لعل أهلها يقدمون عليه ويستأمنونه ويدخلون فى الإسلام ، فلا يدخل مكة عنوة ، فيقتل الأهل ويستباح الحـــرم .

روى بعض الصحابة من أخبار تعايشهم فى تلك الأيام ما يدلك على روح البساطة والصفاء النفسى الذى انطبع به هذا المجتمع . روى جابر أنهم عندما نزلوا بمر الظهران أخذ الناس يجتنون الكباث وهو ثمر الأراك[1] ، وكان النبى يقول لهم : عليكم بالأسود منه فإنه أطيب . فقالوا : يا رسول الله أكنت ترعى الغنم ؟ قال : نعم ، وهل من نبى إلا وقد رعاها . وكان الرجل منهم إذا أصاب حبة طيبة منها قذفها فى فيه ، وكانوا ينظرون إلى دقة ساقى ابن مسعود وهو يرقى الشجرة ويضحكون ، فقال لهم محمد : تعجبون من دقة ساقية ؟ فوالذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد !

وكان ابن مسعود إذا اجتنى شيئاً جاء به وخياره فيه إلى النبى . قال فى ذلك :

هذا جناى وخيـــارى فيـــه   إذ كل جـــان يده إلى فيـــه

وروى أنس بن مالك أنه وجماعة من أصحابه أثاروا أرنباً وسعوا إلى اصطياده فأدركها أنس فأتى بها إلى أبى طلحة فذبحها ، وبعث إلى محمد بوركها فقبله . وكان عليه الســـلام سمحاً جواداً كريماً رقيقاً مع أصحابه ، يقبل منهم الهدية مهما صغرت ومهما قلت قيمتها ويكافىء عليها .

ولما خيم الظلام فى تلك الليلة أمر محمد أصحابه فأوقدوا نيراناً لم ير أحد مثلها من قبل . ويقال إنهم أوقدوا عشرة آلاف نار ، وذلك حتى يرهب قريشاً فتأتى طائعة مختارة بدون حرب ، وتظل مكة حراماً كما كانت ، وكما ابتغى لها أن تكون .

والحق أن قريشاً كانت قد انهزمت فعلا ولم يعد من شيء إلا أن تستسلم ،

---

(١) ضرب من الشجر ترعاه الماشية ، له ثمر كعناقيد العنب .

ولكن بصورة تحفظ لها ماء وجهها على الأقل . لقد أضعفها عهد الحديبية كما قلنا ، بل إنه أفصح عن ضعفها الشديد إزاء محمد . ثم هزت عمرة القضاء هيبتها ، وأخيراً ضعضعتها سفارة أبي سفيان عند ما أراد أن يشد العقد ويزيد من مدة الحديبية ، فعاد خائباً خاسراً مرفوضاً طلبه . عندئذ كانت قريش في واقع الأمر قد نزلت إلى الحضيض . كل هذا كان من شأنه أن يشير بوضوح إلى أن نهاية قريش قد أصبحت محتومة ، وأن دخول محمد على رأس المسلمين مكة أصبح أمراً لا يُشك فيه ، وكان العباس بن عبد المطلب عند ما رأى تلك النيران وقدر قوة المسلمين ، قد دخل في روعه أن مكة هالكة لا محالة إن هي لم تستأمن النبي . وهذا أمر لم يكن يرتضيه العباس ولا ابن أخيه .

قال العباس : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر .

وهنا يروى لنا العباس كيف استأمنت قريش ، يقول : جلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت : لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان[1]، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . فيقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب . فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم . قال : ما لك فداك أبي وأمي !

---

(١) وكان أبو سفيان قد خرج من مكة مع حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار لعلهم يجدون خبراً أو يسمعون من المسافرين شيئاً .

قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس . فقال : واصباح قريش والله ! فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . فركب خلفى ورجع صاحباه . وكنت كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلى . فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه . فقلت : يا رسول الله إنى قد أجرته . ثم جلس رسول الله فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة دونى رجل . فلما أكثر عمر فى شأنه قلت : مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف . فقال : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ! وما بى أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب . فقال محمد : « اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به » .

فذهبت به إلى رحلى فبات عندى ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » فقال : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد !

قال : « ويحك ! يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » . فقال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه فإن فى النفس منها حتى الآن شيئاً !

فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ؟

فشهد شهادة الحق فأسلم .

فقال العباس للنبى : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . فقال أبو سفيان : وما تسع دارى ؟ فقال : « ومن دخل الكعبة فهو آمن » . قال : وما تسع الكعبة ؟ فقال : « ومن دخل المسجد فهو آمن » . قال : وما يسع المسجد ؟ فقال : « ومن أغلق عليــه بابه فهو آمن » . فقال أبو سفيان : هذه واسعة .

فلما سار أبو سفيان أمر محمد العباس أن احبس أبا سفيان عند مضيق الجبل حتى ينظر إلى المسلمين . ولقد أراد من ذلك أن يرى أبو سفيان بنفسه عزة المسلمين وقوتهم فيحدث قريشاً بها عند عودته فتنكسر شوكتهم نهائياً فلا يطمعون فى قتال . فصحب العباس أبا سفيان ووقف معه حيث أمره محمد ، فكان كلما مرت بهم قبيلة يسأل عنها العباس فيقول : بنى فلان ، حتى إذا مرَّ محمد فى كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين والأنصار . قال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء من قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ! قال : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : نعم إذن . قال العباس : النجاء إلى قومك .

فأسرع أبو سفيان إلى مكة وصاح بأعلى صوته فى قريش : يا معشر

قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة ، وكانت امرأة عنيدة جداً مقدامة لا تهاب شيئاً ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس[1] . قبح من طليعة قوم .

فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

قالوا : قاتلك الله ! وما تغني عنا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وتقدم جيش المسلمين نحو مكة ، حتى إذا وصل إلى ذى طوى ، ورأى النبي مكة هادئة مستسلمة ، وقف على راحلته وعلى رأسه عمامة من شقة برد حمراء ، قد ارتد طرفها على وجهه ، وانحنى انحناءة كبيرة خافضاً رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح ، حتى لقد كادت لحيته تمس واسطة الرحل[2] .

يا لجلال تلك اللحظات ، ويا لروعة هذا النصر .

هذه قريش تستسلم أخيراً عند قدميه ، وهذه مكة مهبط الوحي ومقر البيت العتيق تستقبله بالراحتين ، وكأنى بها ودموع الفرح على خديها ترحب بهذا القادم العظيم ، بهذا النبي الأمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وتقول له : تقدم فخذني ، أنا طوع بنانك وتحت أمرك . تقدم فاعتل شامخ أنحائي ، وتربع على قمة مجدى . أستغفر الله أن أكون إلا مدينتك ، مسقط رأسك ، ومهبط وحيك ، ومنزل سعدك .

---

(١) الحميت : وعاء السمن ، والدسم : السمين ، والأحمس : الكثير اللحم .

(٢) ما يوضع على ظهر الجمل ليركب .

اغفر لى يا أعظم البشر ، ويا أحن البشر ، ويا أرق البشر ، سابق ذنوبى ، واطلب لى من السماء العفو عن أخطائى ، والتغاضى عن جهالاتى ، والتغافل عن سفاهاتى . أنت نبيي ومعلمى وسيدى . ها أنا ذا لك فخذنى .

فرق النبي جيشه أربع فرق ليدخلها من أربع جهات . وأمر أمراء الفرق ألا يقاتلوا إلا إذا أكرهوا على القتال . فكان الزبير بن العوام أمير الفرقة التى أمرها أن تدخل مكة من جهة جبل كدى بأسفل مكة ، وسعد بن عبادة الخزرجى أمير الفرقة التى أمرها بالدخول من جهة جبل كداء بأعلى مكة ، وأبو عبيدة بن الجراح أمير المهاجرين الأولين ، ومعهم النبي ليدخلوا مكة محاذين لجبل هند ، وخالد بن الوليد أمير الفرسان ، وأمره أن يدخلها من جهة الليط حيث يقيم أشد قريش عداوة للرسول وعلى رأسهم عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية .

ويقال بأن سعد بن عبادة عند ما تأهب لدخول مكة بفرقته قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما شاع ذلك بين الناس ، أسرع عمر بن الخطاب إلى محمد فقال : يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما تأمن أن يكون له فى قريش صولة ! وعندئذ أمر محمد بالراية فأخذت من سعد بن عبادة ، غير أنه أحب ألا يغضبه ، فأعطيت لابنه قيس بن سعد بن عبادة . ثم إن محمداً نهى عند ذاك عن القتل إلا سبعة عشر شخصاً لم تدركهم رحمته على سعتها ، فأمر بقتلهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة .

أطبقت جيوش الإسلام على مكة من أربع جهاتها ، ومكة خاشعة طائعة مستسلمة ، لم يعكر صفو هذا السلم غير جماعة من المتعصبين الموغلين فى عداوتهم للإسلام ونبى الإسلام ، على رأسهم عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، فحملوا السلاح فى وجه خالد بن الوليد ، فما هى إلا ساعة حتى كان خالد قد قتل منهم اثنى عشر أو ثلاثة عشر رجلا ، ثم انهزموا شر هزيمة وفر عكرمة وسهيل وصفوان .

ولما رأى محمد تلماع السيوف وخالد مجد فى القتال قال : ألم أنه عن القتال ؟ قيل : يا رسول الله إن خالد بن الوليد قوتل فقاتل ، فقال : قضاء الله خير .

ولم يقتل من فرسان خالد غير ثلاثة منهم اثنان قتلا خطأ إذ شذا عن طريقه . وكان شعار المهاجرين يوم الفتح : يا بنى عبد الرحمن . وشعار الخزرج : يا بنى عبد الله ، وشعار الأوس : يا بنى عبيد الله .

دخل محمد بفرقته آمناً مطمئناً لم يعترضه عائق ولا مانع ، ودخلت الفرقتان الأخريان بغير قتال أيضاً . وكان دخوله مكة من أذاخر ، وكان مردفاً أسامة بن زيد ، ولقد نزل بأعلى مكة فضربت له خيمة ، فيها من زوجاته ميمونة وأم سلمة .

وكان منادى محمد ينادى فى مكة عند دخول الجيوش : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . وبعد أن استراح محمد قليلا فى خيمته ، قام بعد أن اطمأن الناس ، فسار وبجانبه أبو بكر وهو يقرأ الفتح حتى بلغ البيت العتيق ، فطاف به سبعاً وهو على ناقته . وكان فى يده محجن يلمس به الحجر الأسود . وكان حول الكعبة ثلاثمائة وستين صنما ، فضلا عن هبل بداخلها ، فجعل يشير إليها بالمحجن الذى فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . وأمر بتكسير الأصنام فألقيت إلى وجوهها وظهورها ، ودعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، وأمر بفتحها وإخراج الأصنام منها ، فلما أخرجت صورة إبراهيم وإسماعيل وفى أيديهما الأزلام قال : « قاتلهم الله ! لقد علموا ما استقسما بها قط » . وكان فى الكعبة صور فأمر عمر بن الخطاب أن يمحوها فبل عمر ثوباً ومحاها به . فدخلها وما فيها شيء منها .

فلما فرغ أتى الصفا فعلا عليه حتى نظر إلى البيت ، ثم رفع يده وجعل

يحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو ، وقد أحدقت به الأنصار . فلما رأوا ذلك قالوا فيما بينهم : أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟ فلما فرغ من دعائه قال : بماذا قلتم ؟ قالوا : لا شيء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم .

ثم إنه عاد إلى الكعبة فوقف ببابها وخطب فى الناس أول خطبة خطبها بعد الفتح ، وفيها بيّن كثيراً من الأحكام الإسلامية ، ثم قال : « يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم تلا الآية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجلعناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عنـــد الله أتقاكم إن الله عليم خبير »(١) . ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم » ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطُّلقاء .

ثم جلس فى المسجد ، وأمر بمفتاح الكعبة فأعطاه لعثمان بن طلحة لتكون له سدانتها كما كانت لأبيه ، وقال : هاك مفتاحك يا عثمان فاليوم يوم بر ووفاء . وجعل للعباس السقاية كما كانت فى يده . ودعا بلالا وأمره أن يصعد فوق الكعبة فيؤذن ، فصعد بلال وأذن :

« الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيّ على الصلاة حي على الصلاة ، حي على الفلاح حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

حدث هذا كله فى صبيحة يوم واحد ، وقضى كفاح مرير استمر أكثر من عشرين سنة على عبادة الأصنام ، ولم يعد يُنادَى من فوق الكعبة إلا باسم الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . انتصر محمد وانتصر دينه . أما قريش فوقفت مذهولة لا تملك من أمرها كثيراً ولا قليلا ، وهى تنظر إلى هذا كله

(١) الحجرات ١٣ .

مفغورة أفواه كبيرهم وصغيرهم دهشة وعجباً مما يحدث فى هذه الساعات . ولقد أخذ منظر بلال وهو يؤذن من فوق الكعبة باب رجل من قريش فهمس للحارث بن هشام مستنكراً . وكان لا يزال على شركه : ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ فقال الحارث : دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره . أما المسلمون فإنهم لم يزالوا ذلك اليوم فى تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا .

ثم إن الناس توافدوا يبايعون محمداً على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه محمد قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه . فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال : أسلم . فأسلم ، ففرح كثيراً بإسلامه ، وجاء رجل يبايعه وهو يرتعد خوفاً ووجلا فقال له : « هون عليك فإنى لست ملكاً ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » .

فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء . وكانت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان فيهن متنقبة وجلة تخفى حديثها خشية أن يعاقبها بما صنعت بحمزة يوم بدر . فلما دنين منه ليبايعهن قال : « بايعننى على ألا تشركن بالله شيئاً » . فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال . ثم قال : « ولا تسرقن » فقالت : والله إنى كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة . وما كنت أدرى أكان ذلك علينا حلالا أم لا ؟ فقال أبو سفيان وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل . وعندئذ عرفها محمد فقال « وإنك لهند بنت عتبة » قالت : نعم . فاعف عما سلف عفا الله عنك . ثم قال : « ولا يزنين » . فقالت هند : يا رسول الله وهل تزنى الحرة ؟ ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » فقالت : قد ربيناهم صغاراً أفنقتلهم كباراً ؟ فأنت وهم أعلم ! فضحك عمر بن الخطاب حتى بدت نواجذه . ثم قال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » ،

فقالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل . ثم قال : « ولا يعصيننى » فقالت : فى معروف . فقال عندئذ لعمر بن الخطاب « بايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » . فبايعهن عمر وكان محمد لا يصافح النساء ، ولا يمس إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه .

أما الذين أهدر محمد دماءهم ، فقد ضاقت بهم الأرض على سعتها ، فها هى عشرة آلاف سيف ممدودة إليهم يجد أصحابها كل الجد فى طلبهم . فأين النجاء ، وكيف المفر ، وإلى أين ؟ لقد فروا فى كل وجه واستخفوا هنا وهناك ، ولكن على الرغم من أن هذا النفر من الناس قد آذوا الرسول أشد الإيذاء فى شخصه أو فى دينه أو ارتكبوا من الجرائم ما لم يشأ أن يغفره لهم ، فإن رحمته وبره وسعة صدره قد وسعت هذا كله ، فاستطاع معظمهم أن يستأمن منه ، ولم تعاجل السيوف غير أربعة نفر منهم فقتلوا بأعمالهم ، لم يقتل غيرهم . ومن مشاهير الذين عفا عنهم العفو الجميل سعد بن أبى سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب بن زهير .

أما سعد بن أبى سرح فكان يكتب الوحى ثم ارتد وافترى عليه كذباً فكان يقول : إن محمداً كان يأمرنى بأن أكتب عليم حكيم فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ! وكان سعد أخا عثمان بن عفان من الرضاعة ، فلما دخل محمد مكة وقد أهدر دمه ، فر إلى عثمان فأخفاه عثمان حتى هدأ الناس ثم جاء به ، يستأمن له من محمد ، وقال له : يا رسول الله قد أمنته فبايعه ، فأعرض عنه ثلاث مرات ثم قال : نعم . فلما انصرف مع عثمان قال النبى لمن حوله : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآنى قد صمت فيقتله » فقالوا : يا رسول الله هلا أومأت إلينا ؟ فقال : « إنه لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » . وأما عكرمة بن أبى جهل فكان من ألد أعداء محمد وأكثرهم إيذاء له . هرب وأراد أن يركب البحر إلى الحبشة ، فاستأمنت له زوجته وبنت عمه أم حكيم بنت الحويرث ، وكانت قد أسلمت قبل الفتح ، فأمنها محمد فخرجت فى أثره حتى لحقته

فقالت : جئتك من عند أبر الناس وخيرهم ، لا تهلك نفسك ، وإنى قد استأمنته لك ، فرجع . فلما رآه محمــد بش له وفرح ووثب قائماً وقال : مرحباً بمن جاءنا مهاجراً مسلماً . ثم إن عكرمة أسلم بين يديه وأصبح من خيرة المسلمين وأغيرهم على الإسلام .

وأما صفوان بن أمية فخرج هو الآخر يريد أن يركب البحر إلى الحبشة . فاستأمن له عمير بن وهب ، إذ جاء محمداً فقال له : يا نبيّ الله إن صفوان ابن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه فى البحر ، فأمنه يا رسول الله صلى الله عليك . فقال : هو آمن . فقال : يا رسول الله اعطنى آية يعرف بها أمانك . فأعطاه عمامته التى دخل فيها مكة . فلحقه عُمير وهو يهم بركوب البحر فقال : يا صفوان فداك أبى وأمى الله الله فى نفسك أن تُهلكها ، هذا أمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جئتك به . قال : ويلك اعزب عنى فلا تكلمنى . قال : أى صفوان فداك أبى وأمى أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك . قال : إنى أخافه على نفسى . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم . فرجع معه فقدما إلى محمد ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك أمنتنى ؟ قال : صدق . قال : فاجعلنى بالخيار فيه شهرين ، قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

أما الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية فقد استجارا بأم هانئ بنت أبى طالب . فدخل أخوها على عليها يريد قتلهما فمنعته ، وجاءت محمداً فقالت : يا نبى الله أمنّت رجلين من أحمائى فأراد على قتلهما . فقال النبى : قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء .

أما كعب بن زهير ، وهو ممن كانوا يهجون النبى ، فجاء المدينة بعد أن عاد إليها محمد ، وأسلم بين يديه وأنشده قصيدته الشهيرة التى مطلعها « بانت سعاد » التى يقول فيها :

تسعى الغواة جنابيها وقولهم ... إنك يابن أبى سلمى لمقتولُ
وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلّوا سبيلى لا أبا لكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيه مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

إلى أن قال :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

فلما قال كعب هذين البيتين ، أشار محمد إلى من معه أن اسمعوا ، ثم خلع عليه بردته تكريماً له ، وعفا عنه أجمل عفو .

أما الذين قتلوا فعبد الله بن خطل ، وكان محمد قد أرسله جابياً للصدقات وبعث معه رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له فغضب عليه غضبة فقتله ، ثم ارتد مشركاً ، وكان له قينتان[1] فكانتا تغنيان بهجاء محمد والمسلمين ، فلهذا أهدر دمه ودم قينتيه . ولقد قتل عبد الله هذا وهو متعلق بأستار الكعبة ، قتله رجلان ، وقتلت إحدى قينتيه واستؤمن للأخرى . وأما الحويرث بن نقيد ، فكان ممن يؤذون محمداً بمكة ، وهو الذى نخس جمل فاطمة وأم كلثوم بنتى محمد عندما أركبهما العباس ليلحقا بأبيهما بالمدينة فى أوائل الهجرة فسقطتا إلى الأرض . قتله على بن أبى طالب . وأما مقيس بن صُبابة فأهدر دمه لأنه قتل قاتل أخيه خطأ بعد أن أخذ الدية ثم ارتد مشركاً ، قتله رجل من قومه يقال له نميلة بن عبد الله . وهو بين الصفا والمروة .

والحق أن محمداً كان حريصاً أشد الحرص على أن تظل مكة بلداً

---

(١) القينة : المغنية .

حراماً لا يحل فيها القتل إلا لتلك الضرورات التى ارتآها ذلك اليوم . ولا لشيء غير ذلك على إطلاق القول مهما كانت الظروف . فلما قتلت خزاعة رجلا مشركاً من هذيل يوم الفتح أخذاً بثأر قديم ، قام النبى خطيباً فى الناس فقال : « يا أيها الناس ، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد[1] فيها شجراً . لم تحلل لأحد كان قبلى ولا تحل لأحد يكون بعدى . ولم تحلل لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة . ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلا لأدينه ، (أى لأدفع ديته) . فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير المنظرين ، إن شاءوا فدم قاتله وإن شاءوا فعقله (أى ديته) . » ثم دفع دية الرجل الذى قتلته خزاعة .

أقام بمكة خمسة عشر يوماً ، قضاها فى تقبل مبايعة الناس له وفى تثقيفهم فى دينهم وتبيان الأحكام لهم ، وفى إرسال السرايا إلى القبائل لدعوتهم إلى الإسلام ، وعلى الجملة فى العمل على القضاء على جميع مظاهر الشرك . أرسل خالد بن الوليد فى سرية لهدم العزى ، وكانت بيتاً بنخلة يعظمه قريش وكنانة ومضر فهدمه . وأرسل عمرو بن العاص لهدم سُواع ، وكان هيكله على ثلاثة أميال من مكة فهدمه . وبعث سعد بن زيد الأشهلى لهدم مناة ، وهى صنم لكلب وخزاعة وهيكلها بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر يهبط منها إلى قديد فهدمه .

ثم إنه أرسل أيضاً خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة بن عامر يدعوهم إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلا . ومعه قبائل من العرب وسليم بن منصور ومدلج

---

(١) عضد الشجرة أى قطعها بالمعضد وهو حديدة كالمنجل .

ابن مُرّة . فدهموا بنى جذيمة فى أرضهم . فلما رأوه أخذوا السلاح وهمّوا بقتاله . فأمرهم خالد بوضع السلاح . وقال لهم إن الناس قد أسلموا . غير أن رجلا منهم يقال له جَحدم رفض وضع السلاح وقال لقومه : ويلكم يا بنى جذيمة إنه خالد ! والله ما بعدَ وضع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً . فقال له رجال من قومه : يا جحدم ، أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وآمن الناس . ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه . ووضع القوم سلاحهم لقول خالد .

غير أن خالداً أمر بهم فكتفوا ، ثم أعمل فيهم القتل ، حتى قتل نفراً منهم . فأتى رجل وأخبر محمداً بما كان من فعل خالد ، فقال : هل أنكر عليه أحد ؟ قال الرجل : نعم أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فاشتدت مراجعتهما . فقال عمر بن الخطاب : أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى بنى حذيفة . عندئذ دعا محمد على بن أبى طالب فقال : « يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . ويقال إن خالد بن الوليد صنع هذا ليثأر لعمه الفاكهة بن المغيرة ، وكان بنو جذيمة قد قتلوه فى الجاهلية . ويقال فى رواية أخرى إنه لم يفهم أنهم أسلموا إذ قالوا : صبأنا صبأنا ، ولم يقولوا أسلمنا ، وهم يقصدون بذلك الإســـلام .

فخرج على بن أبى طالب ومعه مال جهزه به محمد حتى أتى القوم فدفع ديات من قتل منهم وعوضهم عن أموالهم ، حتى إنه كان يعوضهم عن ميلغة الكلب . حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا عوض عنه ، بقيت معه بقية من المال . فقال لهم على حين فرغ : هل بقى لكم دم أو مال لم يؤد إليكم ؟ قالوا : لا . قال : فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال

احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون .

فلما رجع وأخبر محمداً بما صنع ، قال : « أصبت وأحسنت » . ثم قام فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى إنه ليرى ما تحت مِـنْـكبَيْـه ، وقال ثلاثاً : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » .

دخل محمد مكة فى العشرين من رمضان ، وخرج منها فى الخامس من شوال لما علم بما كان من شأن هوازن وجمع مالك بن عوف سيدها الجموع لحربه ، فكانت وقعة حُنين .

الفصل الثالث والعشرون

غزوتا حُنين والطائف

أثار فتح مكة هواجس هوازن ، فتوقعت أن يدهمها محمد وجيوشه فى بلادها غازياً بعد أن تمكن له الأمر فى أم القرى . فجمع مالك بن عوف سيد هوازن أشراف قبائلها ورؤساء بطونها ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، ورجال من بنى هلال ، وتخلف من هوازن كعب وكلاب . وبعد أن تشاور هؤلاء السادة أجمعوا رأيهم على حرب النبى وأتباعه ، وعلى الخروج إليهم غازين قبل أن يدهموهم فى بلادهم .

فلما خرجت جيوش هوازن وحلفائها ، أخرج مالك بن عوف مع المقاتلة أموالهم ونساءهم وأبناءهم . فلما نزلت جموعهم بأوطاس اجتمع إليه الناس ، وكان فى جشم دريد بن الصمة ، الشاعر الفارس الشهير ، وكان قد كبر وبلغ من السن أرذله ، وإنما حملته جشم معها وهو يرعش من الكبر للتيمن برأيه لما خبر من حروب فى سابق أيامه . فلما نزل من شجاره (هودج مفتوح من أعلاه) قال : مالى أسمع رغاء[1] البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار[2] الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ، ونساءهم وأبناءهم . فقال : أين مالك ؟ فلما دعوه إليه سأله دُريد عن سبب ذلك ، فقال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فزجره دريد ، ثم قال : « راعى ضأن والله ! هل يردُّ المنهزمَ شيء ؟

---

(١) صوت الجمال . (٢) صوت الغنم .

إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك .

وتناقش الرجلان واحتدت المناقشة ، فأخذت حمية الشباب مالك بن عوف ، وكان فى الثلاثين أو دون ذلك ، فقال لدريد : إنك كبرت وكبر عقلك ! ثم قال لقومه : والله لتطيعننى يا معشر هوزان أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى . وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر . فأطاعوه ولم يستمعوا لرأى دريد .

فلما بلغت مسامع محمد ما أجمعت عليه هوازن ، بعث إليهم عبد الله ابن أبى حدرد الأسلمى ، وأمره أن يدخل بينهم ، ويقيم فيهم حتى يعلم خوافيهم ويأتيه بخبرهم . فلما رجع وأخبره بما رأى من إجماعهم على حربه ، استقر رأيه على الخروج إليهم ، فأمر المسلمين بالتجهيز للحرب وأذّن بالسير إلى هوازن .

وبينما المسلمون يتجهزون للحرب ويعدون عدتها ذكر لمحمد أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً كثيراً ، فأرسل إليه وهو يومئذ لا يزال مشركاً أن أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً . فقال صفوان : أغَصْباً يا محمد ؟ قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك . قال : ليس بهذا بأس . وأعطى للنبى مائة درع بما يكفيها من السلاح . ويقال إن النبى سأله أن يكفيهم حملها ففعل .

وخرج محمد فى جمع لم يشهد المسلمون مثله من قبل ، بلغ اثنى عشر ألف مقاتل ، منهم عشرة آلاف قدموا من المدينة فى غزوة فتح مكة ، وألفان من مكة ، مسلمين ، ومشركين ، فيهم صفوان بن أمية وغيره من المشركين . وانضم للجيش جماعة من نساء المسلمين ، وعدد كبير من نساء المشركين يرجون الغنائم ، لا يهمهم من أمر الإسلام أو المسلمين شيء ، ولا يكرهون أن تكون الدائرة عليهم . واستخلف النبى على أهل مكة عتّاب

ابن اسيد بن أبي العيص بن عبد شمس الأموى ، وهو يومئذ ابن عشرين سنة . خرج هذا الجيش من مكة فى السادس من شوال سنة ثمان ، تعجب المسلمين كثرتهم ، حتى لقد قال أبو بكر : ان نُغلَبَ اليومَ من قِلَّة ، وانتهى إلى حنين فى عاشره .

أما مالك بن عوف فسبق المسلمين إلى حنين ، وأعد هناك جيشه وتحصن فى مضايق الوادى وأحنائه . فلما أقبل جيش المسلمين يتقدمه خالد ابن الوليد على رأس بنى سليم ، وفى مؤخرته النبي ممتطياً بغلته البيضاء ، وكان ذلك فى عماية الصبح ، انقضت عليهم جموع هوازن وحملت عليهم حملة رجل واحد ، وثارت الخيل فى وجوههم وأمطرهم رماة السهام بوابل من سهامهم ، ففزعت خيل المسلمين ، وركبت الإبل بعضها بعضاً ، وارتد الرجال على أعقابهم لا يقبل أحد على أحد منهزمين من شدة المفاجأة ، وفر الرجال فى كل وجه ، وأخذت الدهشة بالكثيرين منهم كل مأخذ حتى لقد بلغ ببعضهم الفرار مبلغاً كان من شأنه أنهم لم يتوقفوا إلا فى مكة . وكان أول من انهزم بنو سليم ، ثم أهل مكة ، ثم بقية الناس .

فلما انهزم المسلمون تصور جماعة من ضعيفى الإسلام والمشركين أن الدائرة دارت على المسلمين ، وأنه لا نجاة لهم ذلك اليوم من هوازن ، فوقفوا يتفرجون وهم شامتون فرحون . فقال أبو سفيان صخر بن حرب ، وكان إسلامه لا يزال ضعيفاً والأزلام لا تزال معه يومئذ : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ! وقال أخ لصفوان بن أمية من أمه : ألا بطل السحر اليوم . غير أن صفوان ، وكان لا يزال مشركاً ، لم يعجبه ما حدث ، ولم يرضه ما يقال ، فرد على أخيه قائلا : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يملكنى رجل من قريش أحب إلى من أن يملكنى رجل من هوازن . ومرّ على صفوان رجل من قريش فقال : أبشر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجتبرونها[1] أبداً.

(١) أى لا يصلح حالهم بعدها أبداً .

فقال له صفوان مغضباً : تبشرنى بظهور الأعراب ؟ فوالله لربٌّ من قريش أحب إلى من ربٍّ من الأعراب . وقال عكرمة بن أبى جهل وكان حاضراً : أما كونهم لا يجتبرونها أبداً فليس بيدك ، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء . إن أديل عليه اليوم فإن العاقبة له غداً . فقال سهيل بن عمرو : والله إن عهدك بخلاف ما تقول لحديث . فقال عكرمة : يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة ، نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع .

أما محمد فما كان مثله لينهزم أبداً ، ولو انهزم من حوله عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفاً أو مائة ألف . انحاز ذات اليمين وهو يقول : « أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » . غير أن أحداً من المنهزمين لم يثب لرشده فى تلك اللحظات ، فقد كانت القبائل تمر عليه منهزمة الواحدة تلو الأخرى ، وكأنهم لا يسمعون ولا يرون شيئاً من هول ما أصابهم من الفزع . ولم يثبت من حول محمد غير جماعة من أهل بيته فيهم علىّ بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وأخوه ربيعة ، والفضل بن العباس ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، ورهط من المهاجرين فيهم أبو بكر ، وعمر ، لا يزيدون على مائة رجل .

ماذا إذن ؟ ألا يتوقف هؤلاء الناس ؟ أتنتصر هوازن ؟ أينهزم محمد فى ساعة من نهار ؟ أيضيع جهاد هذه السنين الطوال ؟ كلا ثم كلا !

وقف محمد فى الرّكابين وهو ممتط بغلته البيضاء ، ورفع يديه إلى الله يدعوه ويقول : « اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا » . ثم أخذ ينادى أصحابه ، ويحرضهم على القتال ، ويذكرهم بعهودهم وبيعاتهم له ، وبالجهاد فى سبيل الله ، فنادى : « يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ، الله الله الكرّة على نبيكم » . و « يا أنصار الله وأنصار رسوله ، يا بنى الخزرج ، يا أصحاب سورة البقرة » . وأمر العباس أن ينادى ، وكان

جهورى الصوت : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة (أى بيعة الرضوان) إن محمداً حى فهلمـــوا .

ثم إن الحمية أخذته ، وسيطر على جماع نفسه يقين الأنبياء ، فأخذ يركض بغلته قبل الكفار ، فتشبث العباس بن عبد المطلب بلجامها خشية أن تسرع ، وتعلق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فى الركاب فى محاولة مستميتة لمنع البغلة من اقتحام صفوف العدو الثائر فيكون ما لا تحمد عقباه ، ومحمد عليه السلام ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، مصر على النصر ، مقدم لملاقاة عدوه وهو يقول وسيفه فى يده :

أنا النـــبى لا كذب   أنا ابن عبـــد المطلب

فلما سمع الناس النداءات ، ورأوا ما رأوا من إصرار نبيهم على القتال وثباته فى مواجهة عدوه وعدوهم ، ثابوا إلى رشدهم ونزلت عليهم سكينة ، فأخذوا يوقفون جمالهم فلا يقدرون ، فكان الرجل إذا لم يقدر على إيقاف جمله الجامح ، يقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويؤم الصوت . ثم تعالت صيحاتهم من كل صوب : لبَّيْك ، لبَّيك ، ثم تجمعوا نحو الصوت ، وهدأ سيل الفرار ، ثم توقف ، ثم استل المسلمون سيوفاً كأنها الشُّهب ، وبدأ قتال رهيب . وعندئذ هدأ محمد ، ووقف فى الركابين يشرف على سير المعركة ، وقد اطمأن قلبه إلى نتيجتها عند ما رأى جلادة أصحابه فقال : « الآن حَمِى وطيس الحرب » . ثم طلب من العباس أن يناوله حفنة من الحصى ، فألقاها فى وجوه العدو قائلا : « شاهت الوجوه » ، ثم قال : « انهزموا ورب الكعبة » !

وكان رجل من هوزان يركب جملا أحمر وبيده راية سوداء فى رأس رمح طويل يتقدم هوازن ، وكان إذا أدرك مسلماً طعنه برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه من هوازن فاتبعوه . فبينما هو كذلك يُقتَل فى

الناس ، تقـــدم نحوه على بن أبي طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتى عليّ من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة فأطار قدمه بنصف ساقه .

وحميت الحرب واشتد القتال ، وبدأ المسلمون يضربون فى عدوهم ضرباً لا هوادة فيه . وكان محمد قد أذن فى الناس أن من قتل قتيلا فله سلبه . فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلا وأخذ أسلابهم . وكانت زوجته أم سليم معه تجول بين الصفوف ، وقد استلت خنجراً وحزمت وسطها ببرد. وهى يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة . فلما رآها أبو طلحة ، قال : ما هذا ؟ قالت : خنجر ، إن دنا منى بعض المشركين بعجته فى بطنه . فقال أبو طلحة لمحمد : أما تسمع ما تقول أم سليم ؟ فضحك محمد ، فقالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهل . فقال : « إن الله قد كفى وأحسن يا أم سُليم » . ومرّ محمد يومئـــذ بجماعة قد تجمعوا حول امرأة قتلها خالد ابن الوليد ، فقال « ما كانت هذه لتقاتل » ثم أمر بعض أصحابه أن يلحق بخالد بن الوليد فيقول له : « إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً »(١).

وما لبثت هوازن غير قليل حتى أدركت أن الدائرة قد دارت عليها ، وأن النصر من نصيب المسلمين حتماً ، فتخاذل المقاتلة وفر رؤساؤهم وفيهم مالك بن عوف . وما هى إلا ساعة حتى كانت جحافل المسلمين قد أطبقت على جموع هوازن وساقت الرجال مكتوفين عند نبيهم ، ومن خلفهم النساء والأطفال ، واستولت على مواشيهم وأموالهم .

لا شك فى أن المسلمين خرجوا فى هذه الغزوة تعجبهم كثرتهم ، وقد استهانوا بقلة عدوهم . غير أن أحداث المعركة أثبتت لهم أن الكثرة لا تغنى

---

(١) الذى يسير على غير هدى .

شيئاً إذا لم تكن كثرة مؤمنة بهدف مشترك . ذلك أن جموع المسلمين فى ذلك اليوم كانت تداخلها أخلاط كثيرة من مشركين وأعراب وحديثى عهد بالإسلام ، لا يهمهم كثيراً ولا قليلا نصرٌ أو هزيمة . لذلك حدثت هذه البلبلة التى كادت أن تُحدِث كارثة فى صفوف المسلمين ، لولا ثبات محمد وإيمان المسلمين صحيحى الإسلام بالهدف المشترك الذى يدافعون عنه ، فما لبثوا أن ثابوا إلى رشدهم ، وانقشعت عنهم الغمامة التى تاهوا فيها ساعة أو بعض ساعة ، وارتدوا يجاهدون فى سبيل الله ، وفى سبيل الهدف المشترك الذى تجمعوا من حوله وعاهدوا نبيهم على حرب الأحمر والأسود من الناس فى سبيله .

ولقد نزل من القرآن فى هذه الوقعة قوله تعالى : « لقد نصركم الله فى فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروْها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم »(١) .

بلغت جملة الأسرى من الرجال ، والسبايا من النساء والذرية ، حوالى ستة آلاف نسمة . وبلغت جماة الغنائم نحواً من أربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة . فجمع ذلك كله وأمر محمد بالتحفظ عليه فى وادى الجعرّانة ريثما يعود من مطاردة فلول هوازن المنهزمة والقضاء عليها . وكانت هذه الفلول قد تفرقت فرقاً ثلاثاً : فرقة منهم فيهم الرئيس مالك بن عوف لجأوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، وفرقة عسكرت بمكان يقال له أوطاس ، وفرقة صغيرة اتجهت نحو نخلة . فأرسل النبى فى آثار من توجه منهم إلى أوطاس أبا عامر الأشعرى فى جماعة فيهم أبو موسى الأشعرى ، فقاتل أبو عامر واستبسل

(١) التوبة ٢٥ — ٢٧ .

فى القتال وأثخن فى أعداء الإسلام القتل حتى قُتل ، فولى الناس أبا موسى ، فتم له النصر ، وجمع ما تبقى مع القوم من الغنائم .

وفى أثناء هذه المطاردة أدرك ربيعة بن رفيع بن أهان السلمى ويعرف بابن الدّغـنة — وهى أمه — دريدَ بن الصمة ، فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة ، وذلك لأنه كان فى شجار (ضرب من الهودج) . فلما أناخ البعير إذا بشيخ قد حطمته السنون لا يعرفه الغلام ، فقال دريد : ماذا تريد بى ؟ قال : أقتلك . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رفيع السلمى . ثم ضربه بسيفه فلم يصب منه مقتلا . فقال له دريد : بئس ما سلحتك به أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر رحلى فى الشجار ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال ! ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك ! فلما رجع ربيعة إلى أمه وأخبرها بقتله دريداً قالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

وكان المسلمون قد أصابوا نساء من سبى أوطاس لهن أزواج ، فكرهوا أن يقعوا عليهن ولهن أزواج ، فلما سألوا النبى فى ذلك نزلت الآية الكريمة : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم »[1] فاستحل المسلمون بها نساء المشركين وإن كن ذوات أزواج .

أما محمد فسار على رأس بقية الجيش إلى الطائف حيث تحصن بها أهلها ومن تجمع فيها من هوازن ، وجعل على مقدمته خالد بن الوليد . ولقد سلك طريقاً مر على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ، ثم على المليح ، ثم على بحرة الرغاة من لية حيث ابتنى بها مسجداً فصلى فيه . وأمر وهو بلية بهدم حصن هناك لمالك بن عوف فهدم . ومر ببستان لرجل من ثقيف فأرسل له إما أن تخرج إلينا ، وإما أن نُخرِّب عليك بستانك ، فأبى الرجل أن يخرج ، فأمر ببستانه

---

(١) النساء ٢٤ .

أن يُخرَّب ، فخُرِّب . ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا أهاليها ومن تجمع إليهم من هوازن قد تمنعوا فى حصنها واستعدوا لحصار طويل فأدخلوا معهم قوت سنتهم ، وكان حصن ثقيف من أمنع الحصون وأقواها . فلما عسكر المسلمون قريباً من الحصن ، رمتهم ثقيف رمياً شديداً بالسهام ، فأصيب منهم كثيرون بجراح بالغة ، فأصيب عبد الله بن أبى بكر بجرح ظل ينغر عليه حتى قتله فى خلافة أبيه ، وفقئت عين أبى سفيان صخر بن حرب ، ومات نحواً من اثنى عشر رجلا . فلما رأى ذلك محمد أمر جنده بالانسحاب بعيداً عن مرمى السهام ، فانسحبوا إلى حيث بنى مسجد الطائف فيما بعد .

وضربت فى هذا المكان الآمن خيمتان من جلد أحمر لزوجتى النبى أم سلمة وزينب . وكان النبى يقيم صلواته بين هاتين الخيمتين . غير أن ثقيفاً امتنعت عن جند الإسلام فى حصونها ، وكان خالد بن الوليد ينادى كل يوم بالبراز فلا يخرج له أحد . وذات يوم ناداه عبد ياليل رئيس ثقيف وعظيمها ، وقال : إن أحداً سوف لا ينزل إليك منا ، ولكن نقيم فى حصننا ، فان فيه من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

فلما طال أمد الحصار ، استشار النبى أصحابه ، فأشار عليه بعضهم برميهم بالمنجنيق[1] ، ويقال بأن سلمان الفارسى هو الذى أشار بالمنجنيق وعمله بيده ، وقيل هو الذى صنع دبابة[2] أيضاً . فأمر النبى بذلك فكان أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق . وفى غضون ذلك دخل جماعة من الصحابة تحت دبابة ثم زحفوا لينقبوا جدار الحصن ، فقذفهم أهل الحصن بالحديد المحمى ، واضطروهم إلى الخروج من تحتها ، ثم رموهم بالسهام فقتلوا رجلا منهم . فلما لم تجد هذه الوسائل معهم أمر النبى بأن تقطع أعنابهم ليغيظهم .

---

(١) آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة وغيرها من القذائف .

(٢) آلة تتخذ لنقب الحصون يدخل فى جوفها الجنود ويضربون فى أصل حائط الحصن حتى ينقبوه .

وهى أعناب لم يكن بجزيرة العرب مثلها . فلما انقض الناس عليها يقطعونها ، ناداهم أهل ثقيف : لا تفسدوا الأموال فإنها لنا أو لكم . ثم إنهم ناشدوا النبى بالله وبالرحم أن يتركها فتركها .

وكان منادى النبى ينادى « بأن من خرج إلينا فهو آمن » فخرج إليه جماعة ، علم منهم أن بالحصن فى الحقيقة موءن كثيرة تكفى أهل الطائف مدة طويلة ، فلما رأى امتناع ثقيف ، استشار نوفل بن معاوية الديلى فى المقام أوالانصراف ، فقال : يارسول الله ، ثعلب فى جحر ، إن أقمت أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن بالرحيل ، وذلك بعد حصار استمر نحواً من شهر . فلما سمع عيينـــة بن حصن بذلك قال : أجل ، والله مجدة كراماً . فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ! أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جئت تنصره ؟ فقال : إنى والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أطؤها لعلها تلد لى رجلا ، فإن ثقيفاً مناكير (أى ذوى دهاء) . وفى هذا القول دليل على الخطر الذى كان يتعرض له هذا الجيش على ضخامته ، وذلك لاحتوائه عدداً كبيراً من أمثال هذا الضعيف الإسلام ، فضلا عن المشركين .

رجع النبى معتمراً إلى الجعرانة حيث كان قد ترك السبى والغنائم ، فأحصى ذلك كله وخمسه (أى فصل الخمس لنفسه حسب الشرع) ووزع ما بقى على أصحابه حسب ما ترآى له . وبينما هو فى الجعرانة أدركه وفد هوازن وقد أسلموا وشهدوا شهادة الحق وقالوا له : يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا من الله عليك . وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد فقال : « يا رسول الله إنما فى الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ، ولو أنا ملحنا لابن أبى شمر الغسانى أو النعمان بن المنذر ، ثم أصابنا منهما مثل الذى أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما . وأنت رسول الله خير المكفولين » . فقال :

« نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ » . فقالوا : يا رسول الله خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا ؟ بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا . فقال : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أبنائنا ونسائنا ، فإنى سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

فلما صلى بالمسلمين قاموا فقالوا ما أمرهم به ، فقال : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » . وعندئذ وافق المهاجرون والأنصار على التنازل عن حقوقهم فى النساء والذرية . غير أن عدداً من رؤساء قبائل الأعراب لم يوافقوا ، فنهض الأقرع بن حابس فقال : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيينة بن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا . وقال العباس بن مرداس السلمى : أما أنا وبنو سليم فلا . غير أن بنى سليم خالفوه وقالوا : بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال العباس لهم : وهنتمونى . فلما رأى محمد تمسك بعض الناس بحقهم فى السبى قال لهم : « من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ستة فرائض[1] من أول غنيمة نصيبها . فرُدوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم . » فردّوا النساء والأبناء .

فلما رد السبى قام النبى فركب دابته ، فتدافع من حوله الأعراب وتزاحموا وجعلوا يهتفون به أن اقسم علينا غنيمتنا ، وكأنهم خشوا أن يرد إلى هوازن الأموال كما رد إليهم النساء والأطفال ، وألحّوا فى السؤال وأفرطوا فى تزاحمهم حتى دفعوه إلى شجرة فانتزعت رداءه ، فوقف وصاح بهم مغضباً : « رُدُّوا علىّ ردائى أيها الناس ، فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عندى عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً » . وقام فأخذ من سنامة بعير وبرة فجعلها بين

---

(١) الفريضة : الحصّة المفروضة .

إصبعيه ثم رفعها فقال : « أيها الناس والله ما لى من غنيمتكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمس ، والخُمس مردود عليكم . فإن الخيانة فى المغانم عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة » . وشرع فى قسمة الغنائم فأصاب الرجل أربعة من الإبل ، وأربعون شاة ، والفارس ثلاثة أمثال ذلك . وعندئذ قال رجل من المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فغضب النبى حتى احمر وجهه وقال : ويحك من يعدل إذا لم أعدل ؟ فقام عمر وخالد بن الوليد وقالا : دعنا يا رسول الله نضرب عنقه . فقال : لا لعله أن يكون يصلى . فقال خالد : وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال : إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم .

وقد يكون السبب الذى ألجأ جفاة الأعراب إلى هذا التكالب أن محمداً آثر أناساً فى القسمة من رؤساء القبائل وأمرائهم ، أراد أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام بالمال . فأعطى أناساً من ضعيفى الإسلام ، منهم أبو سفيان وابناه معاوية ويزيد ، أعطى كلا منهما أربعين أوقية من الذهب ومائة من الإبل ، وأعطى حكيم بن حزام مثل ما أعطى لأبى سفيان . وأعطى كلا من عُيينة بن حصن والعباس بن مرداس مائة من الإبل . ثم إنه أعطى لغيرهم ممن لم يسلموا بعد ليحبب الإسلام إلى قلوبهم ، فأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاء كان يراه يرمقه فقال له : هل يعجبك هذا ؟ فقال : نعم . قال : هو لك . ثم إن مالك بن عوف سيد هوازن ، وفد عليه تائباً طائعاً مسلماً . فرد عليه أهله وأعطاه مائة من الإبل ، وكان قد قال لوفد هوازن عند ما علم منهم أن مالكاً لا يزال مقيماً بالطائف : « أخبروه إنه إن أتانى مسلماً رددت إليه أهله وأعطيته مائة من الإبل » .

والحق أن جفاة الأعراب لم يكونوا وحدهم الذين لم يدركوا المقصد من إعطاء أمثال هؤلاء أكثر من غيرهم . فإن الأنصار قد غضبوا فى أنفسهم عند ما لم يقسم لهم شيئاً . وتحدث بعضهم إلى بعض : أما من قاتله

فيعطيه ، وأما من لم يقاتله فلا يعطيه ؟ ! وغضب بعضهم ، وقال : إن هذا لهو العجب ، يُعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ! وقال من قال منهم : لقى والله رسول الله قومه ! .

ثم إن سعد بن عبادة مشى إليه ، وقال له : يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد غضبوا فى أنفسهم . فقال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شىء . فقال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومى . فلما رأى منه ذلك أمره بأن يجمع له الأنصار فى حظيرة كانت هناك .

فلما اجتمعوا خرج إليهم ، وقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » . قالوا : بلى . ثم قال : « ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ وبماذا نجيبك ؟ المن لله ولرسوله . قال : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفاً فأمّناك ، ومخذولا فنصرناك » . فقالوا : المن لله ولرسوله .

فقال : « أغضبتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لُعَاعة[1] من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

لم يتمالك القوم أنفسهم فبكوا حتى بللوا لحاهم وقالوا : رضينا بالله رباً ورسوله قسماً . ثم انصرفوا وتفرقوا .

---

(١) اللعاعة : القليل من كل شىء .

ومما لا شك فيه أن محمداً استطاع فى كل هذه الظروف والملابسات التى أحاطت بهذه الغزوة ، بما أوتى من شجاعة ، وحسن سياسة ، وحكمة ، ونورانية ، أن ينتصر فى جميع الحالات ، وأن يتألف قلوب الناس أجمعين ، كل حسب الطريقة المثلى التى تؤثر فى نفسه .

ومن أطرف ما يروى أنه بينما محمد مقيم فى الجعرانة ظفر المسلمون برجل من بنى سعد بن بكر يقال له نجاد ، كان محمد قد أمرهم بالقبض عليه لحدث أحدثه . فلما ساقوه وأهله إليه ، ساقوا معه الشيماء بنت الحارث وهى من بنى سعد بن بكر أيضاً . فلما عنفوا عليها فى السوق قالت لهم : تعلمون والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة . فلم يصدقوها حتى مثلت بين يديه فقالت : يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة . فقال لها : « إن تكونى صادقة فإن بك منى أثراً لا يبلى » . فكشفت عن عضدها وقالت : نعم يا رسول الله ، وأنت صغير عضضتنى هذه العضة . فلما تيقن من صدقها ، حنا عليها وبسط لها رداءه أن تجلس ، وقال : « سلى تعطى واشفعى تشفعى » . ثم قال لها : « إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن امتعك وترجعى إلى قومك فعلت » . قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى . ففعل .

ولما فرغ من تقسيم الغنائم وحل المشكلات واسترضاء الأنصار وتأليف قلوب الناس إلى الإسلام ، خرج من الجعرانة معتمراً وأمر بأن يحبس جزء من الغنائم لم يوزع بناحية مرّ الظهران . والظاهر أنه إنما استبقى بعض الغنائم ليوزعها على الأعراب فيما بين مكة والمدينة فى أثناء عودته ، ليتألف به قلوبهم إلى الإسلام . ثم إنه لما انتهى من عمرته خرج راجعاً إلى المدينة ، واستخلف على مكة عتاب بن أسيد الأموى ، وخلف معه معاذ بن جبل ليفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن . وكان قد وكل إليهما هاتين المهمتين قبل خروجه إلى هوازن .

الفصل الرابع والعشرون

غزوة تبوك

كان طبيعياً بعد أن فتح المسلمون مكة ، واستتب لهم الأمر فيها ، ودخل البيت الحرام فى حوزتهم ، وطهروه من رجس الأوثان والأصنام ، أن يلى ذلك خطوة أساسية فى تحديد علاقة المشركين بهذا البيت ، فنزلت الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا (العام التاسع الهجرى) وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم »[1] . قالت عندئذ قريش إن المتاجر والأسواق سوف تنقطع عنهم أيام الحج ، وأنهم سيحرمون من المغانم التى كانوا يصيبون منها . ثم إنه نزل فى أعقاب ذلك الأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[2] .

من هنا اتجه محمد إلى غزو الروم ، أولا لأنهم أقرب الناس إليه من أهل الكتاب . وثانياً ، لأنهم أولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين »[3] .

وكان محمد قلّما يفصح عن الجهة التى يقصدها فى سابق غزواته ؛ وذلك حتى يأخذ عدوه على غرّة . إلا ما كان من غزوة تبوك . فإنه أفصح

---

(١) التوبة ٢٨ . (٢) التوبة ٢٩ .

(٣) التوبة ١٢٣ .

عنها للناس ، وبين لهم مقصده تماماً ، وذلك لبعد الشقة ، وشدة الزمان فى ذلك الوقت ، وكثرة العدو وقوته ، حتى يتأهب الناس للأمر عن بينة ويستعدوا له ويوطدوا العزم على ما هم مقبلون عليه . ثم إنه أمرهم بالجهاد ، وحثهم على التجهز لملاقاة الروم ، واستنفر المسلمين من الأعراب ومن أهل مكة وغيرها . وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدْب من البلاد وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ذلك الوقت فى ظلالهم وبين أموالهم . ولذلك سمى جيش العسرة ، ومع ذلك اجتمع له ثلاثون ألفاً من المسلمين ، خرجوا معه يضحون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

واقع الأمر أن معظم الناس خرجوا مع النبى عن إيمان صادق ورغبة حقيقية فى الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا نفقة عظيمة وخرجوا بأنفسهم . من هؤلاء أو على رأس هؤلاء عثمان بن عفان ، إذ حمل ألف دينار من ماله وجاء محمداً فصبها فى حجره ، فسر كثيراً وأخذ يقلبها بين يديه وهو يقول : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » . هكذا أقدم المسلمون الأصلاء على الجهاد ، كل بما يقدر عليه من النفقة ، فضلا عن التضحية بالذات . ولم يبق غير سبعة نفر من فقراء المسلمين لم يجدوا من الدواب ما يحملهم ، فلما لم يجدوا عند النبى ما يحملهم عليه ، انصرفوا وهم يبكون ، فسموا بالبكائين . وهؤلاء وأمثالهم هم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون »[1] .

وفى حين كان هذا موقف معظم المسلمين الذين آمنوا عن صدق بالله

---

(١) التوبة ٩١ — ٩٢ .

وبرسوله وبما فرض عليهم من جهاد ، كان جماعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يثبطون الناس عن الخروج . فكان جماعة من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الخروج في هذه الغزوة ، فأرسل إليهم محمد طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، فأحرق طلحة عليهم البيت . وكان الضحاك بن خليفة في البيت ففر من ظهر البيت فانكسرت رجله ، وأفلت أصحابه . وفي ذلك قال الضحاك .

كادت وبيتِ الله نـــار محمـــد	يشيط بها الضَّحــاك وابن أبيرق
وظلت وقد طبقت كِبْسُ سويلم	أنوء على رجل كسيراً ومــرفق
ســلام عليكم لا أعــود لمثلهـــا	أخاف ومن تشمل به النار يحرق

ومن الناس من تعلل بأسباب سخيفة واستأذن النبي في التخلف ، مثل الجد بن قيس أحد بني سلمة ، ذلك أن محمداً سأله : « يا جد هل لك العام في جِلاد بني الأصفر ؟ » فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجلٌ أشد عُجْباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر . فأعرض عنه وقال : « قد أذنت لك » . ثم نزل في الجد قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[1] .

وكان قوم من المنافقين يقول بعضهم لبعض لا تنفروا في الحر ، زهادة منهم في الجهاد ، وشكا في الحق ، وإرجافاً بالرسول ، فأنزل الله فيهم قوله : « وقالوا لا تنفروا في الحرّ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون »[2] .

وقال جماعة من المنافقين : أتحسبون جلاد بني الأصفر (الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً ، والله كأنكم بهم غداً مقرنين في الحبال . فلما علموا

---

(١) التوبة ٤٩ .

(٢) التوبة ٨١ — ٨٢ .

أن قولهم هذا بلغ مسامع محمد جاءوا إليه يعتـــذرون : فقال أحدهم : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فنزل فيهم قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين »[١] .

ثم إن محمداً كان إذا جاءه أحد من المنافقين مستأذناً فى عدم الخروج معه أذن له حتى يتخفف منهم . فلما جاءه نفر من الأعراب من بنى غفار ليأذن لهم فى التخلف ، وهم يعتذرون إليه ، لم يعذرهم الله ، فنزل فيهم قوله : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم »[٢] .

ومن الناس من تخلف من غير شك ولا ارتياب ، وكانوا نفر صدق لم يتهموا فى إسلامهم ، وإنما أبطأت بهم النية ، فكانوا يؤجلون خروجهم يوماً بعد يوم حتى تأخروا ولم يعد لحاقهم بالجيش ممكناً . من هؤلاء كعب ابن مالك بن أبى كعب أخو بنى سلمة ، ومرارة بن ربيع أخو بنى عمرو بن عوف ، وهلال بن أمية أخو بنى واقف ، وأبو خيثمة أخو بنى سالم بن عوف . أما أبو خيثمة فلحق بالجيش ، وأما الثلاثة الآخرون فقد ندموا ندماً شديداً وتابوا إلى الله حتى تاب عنهم ، وقد خاصمهم محمد والمسلمون بعد عودتهم ، وظلوا فترة لا يكلمهم أحد حتى ضاقت عليهم الأرض ، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »[٣] .

فلما تجهز هذا الجيش وهو أكبر جيوش المسلمين حتى ذلك الحين ، وأخطرها شأناً ، إذ اتجه الإسلام عندئذ إلى خارج بلاد العرب ، وإلى جلاد

---

(١) التوبة ٦٥ — ٦٦ .   (٢) التوبة ٩٠ .   (٣) التوبة ١١٨ .

إمبراطورية هي في واقع الأمر أكبر قوة في الدنيا في ذلك الوقت ، خرج به محمد في شهر رجب من السنة التاسعة الهجرية ، وضرب عسكره على ثنية الوداع ، وهي هضبة مشرفة على المدينة على طريق مكة ، وضرب عبد الله بن أبيّ عسكره على حدة بجبـــل ذباب ، إلا أنه تخلف عن اللحاق بهم في طائفة من المنافقين وأهل الريب ، عندما سار الجيش إلى مقصده .

استخلف محمد على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى في قول ، أو سباع بن عُرْفُطة في قول ، وخلف على بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم . وهنا انتهز المنافقون هذه الفرصة وأرجفوا بعلى فقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له وتخففاً منه . وعند ذاك أخذ على سلاحه ثم خرج حتى لحق بابن عمه وهو نازل بالجرف ، فأخبره بما قالوا ، فقال : «كذبوا ، ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى في أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدى » .

ثم سار النبي بالجيش ميمماً شطر الشام ، وأعطى لواءه الأعظم أبا بكر الصديق . ولا مرية أن في إعطائه لواءه الأكبر لأبى بكر الصديق ، وتخليفه على بن أبي طالب على أهله إشارة لطيفة لا تخفى على اللبيب ولا يفوت مفهومها الحصيف . أما الرايات ففرقها على ثلاثة ، أعطى الزبير بن العوام راية المهاجرين ، وأسيد بن حضير راية الأوس ، والحباب بن المنذر راية الخزرج .

وكان المسلمون في أثناء مسيرهم يبلغون الرسول كلما عرفوا بتخلف رجل له شأن فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول لهم : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقـــد أراحكم الله منه » . وكان أبو خيثمة قد تخلف ، وأبطأ بأبي ذر بعيره . أما أبو خيثمة فإنه رجع إلى أهله في يوم حار بعد أن سار المسلمون أياماً ،

فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى بستانه ، وقد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت ماء وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل بستانه ورأى ما صنعت له امرأتاه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ! ما هذا بالنصف . والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهيئا لى زاداً . فجهزاه فركب بعيره وسار حتى لحق النبى بتبوك . فلما أقبل سلم عليه فقال له : « أولى لك يا أبا خيثمة ! » ثم إنه أخبره خبره ، فقال خيراً ، ودعا له بخير .

أما أبو ذر الغفارى فقد انتظر بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره ثم خرج فى أثر المسلمين ماشياً . وبينا هم فى بعض منازلهم نظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله إن هذا الرجل ماش على الطريق . فقال : « كن أبا ذر » فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر . فقال : « يرحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » .

ولما انتهى إلى تبوك أرسل إلى يوحنا بن رؤبة أمير أيلة (العقبة) أن يذعن أو يغزوه ، فأتاه طائعاً مذعناً وتصالح على إعطاء الجزية . وأتاه أيضاً أهل جرباء وأذرح (من قرى جنوب الشام) وأعطوه الجزية . ولقد كتب ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة : سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » . ثم إنه فرض على كل من وصل سن البلوغ منهم فى السنة ديناراً ، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار .

وجاءه أهل أذرح وجرباء فكتب لهم كتاباً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لأهل جرباء وأذرح ، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ، ومائة أوقية طيبة ، وأن الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ، ومن لجأ إليهم من المسلمين » .

وأثناء مقامهم بتبوك ، أرسل خالد بن الوليد إلى أكَيْدر بن عبد الملك ، وهو رجل من كندة كان ملكاً على دومة الجندل . فأتاه خالد ابن الوليد فى خيل المسلمين فوجده يصيد البقر الوحشى ومعه نفر من أهل بيته فيهم أخوه حسان ، فهاجمهم خالد وأسر أكيدر وقتل أخاه حساناً ، وكان عليه قباء[1] من ديباج مخوَّص بالذهب ، فاستلبه خالد وبعث به إلى محمد قبل قدومه . فلما رآه المسلمون جعلوا يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه ، فقال لهم : « أتعجبون من هذا ، فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » . ويروى أن خالد بن الوليد عاد ومعه ثمانمائة من السَّبى ، وألف بعير ، وأربعمائة درع ، وأربعمائة رمح . أما أكيدر فأسلم .

أقام محمد بتبوك بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ولم يلق حرباً من أحد . فلما استشار أصحابه فى مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها من ديار الشام ، قال عمر : إن كنت أمرت بالسير فسر . فقال : لو كنت أمرت بالسير لم أستشر . فقال عمر : يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بالشام أحد من أهل الإسلام ، وقد دنونا منهم ، وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا فى هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمراً . فتبع مشورة عمر ، وأذَّن مؤذنه فى الناس بالعودة ، وقفل راجعاً إلى المدينة . أما أن فكرة غزو الشام ظلت تراوده

---

(١) القباء ثوب يلبس فوق القميص .

فأمر مؤكد . ذلك أنه أعد جيشاً كبيراً بعد ذلك بإمرة أسامة بن زيد لغزو الشام ، كان على أهبة الخروج إليها عند ما قُبض ، فأنفذه أبو بكر .

ولما قارب المدينة نزل بذى أوان ، وهو مكان بينه وبين المدينة ساعة . وفيها نزل عليه الوحى فى شأن مسجد الضرار . وهو مسجد بناه اثنا عشر رجلا . وكان هؤلاء القوم قد أرادوا من النبي وهو ذاهب إلى الشام أن يصلى لهم فيه حتى يروج لهم ما أرادوا من الفساد والكفر والعناد . فعصم النبي من الصلاة فيه . وذلك لأنه كان على جناح سفر إلى تبوك . فلما عاد ونزل بذى أوان نزل قوله تعالى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسـوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم »[1] .

أما قوله « ضراراً » فلأن الذين بنوه أرادوا مضاهاة مسجد قباء ، و « كفراً » بالله لا الإيمان به ، و « تفريقاً » للجماعة عن مسجد قباء . أما قوله « وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل » وهو أبو عامر الراهب الذى هرب من المدينة على أثر هجرة محمد إليها وألب أهل مكة عليه وقدم معهم يحارب محمداً والمسلمين فى غزوة أحُد . وكان نصرانياً ، فلما لم يقدر على حرب محمد بنفسه فى بلاد العرب ، هاجر إلى بلاد الروم واستنصر قيصر على المسلمين ، وكان يكتب إلى إخوانه من المنافقين يعدهم ويمنيهم .

---

(١) التوبة ١٠٧ - ١١٠ .

فبنوا هذا المسجد وظاهره أنه للإسلام وباطنه دار حرب ومقر لمن يفد إليهم من عند أبي عامر ، ومجمَعٌ لمن هو على طريقتهم من المنافقين . وقد نهى الله رسوله عنه بقوله « لا تقم فيه أبداً » وأمره وحثه على القيام في مسجد قباء ، وهو المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم هاجر فيه محمد إلى المدينة . ثم إن محمداً دعا مالك بن الدُّخْشُم ، ومعن بن عَدِيّ — أو أخاه عاصم — وأمرهما بأن يحرقا هذا المسجد ، فحرقاه بالنار ، وتفرق عنه أهله .

الفصل الخامس والعشرون

وفود العرب وإسلامهم

بدأ العرب بعد فتح مكة يراجعون أنفسهم ، وينظرون للإسلام نظرة جديدة . فأى شيء إذن بعد أن أسلمت قريش وهم سدنة البيت الحرام وحجابه وحفظته وسادة الناس وأعلمهم بدين العرب ؟ أى شيء بعد أن يهجر هؤلاء دين الآباء والأجداد إلى دين محمد . إلا أن يكون نبياً حقاً ؟ ولا عجب فإن العرب كانوا ينتظرون فتح مكة وهم يقولون : اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي حقاً . فلما انتصر على قريش وفتح مكة وحطم أصنام الكعبة وطهرها من الشرك وأسلم أهلها ، بادرت قبائل العرب إليه تعلن إسلامها . ويقول الله تعالى فى ذلك « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً . فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » (١) .

بدأت وفود القبائل تقدم على محمد فى أواخر السنة الثامنة بقدوم وفد تميم ، ثم تزايدت بعد ذلك . وكانت وفود القبائل تبايعه على الإسلام ، وتشهد بين يديه شهادة الحق . وتلقى إليه بأزمة قيادتها فى أمور دينها ودنياها . ومما يجدر بنا ذكره هاهنا أن محمداً . كان على الرغم مما عرفت جزيرة العرب فى ماضى تاريخها الطويل من ممالك وملوك وأمراء أقوياء ، أول عربى استطاع أن يوحد قبائل العرب جميعاً ويخضعهم تحت راية واحدة ، ويجمع صفوفهم فى دولة لها نظم وشرائع يخضعون جميعاً لها ، ويوجههم من ثمة نحو هدف مشترك . ولا غرو فإنه أسدى للإنسانية بهذا الصنيع مأثرة لا تنسى ، إذ جمّع هؤلاء الأقوام الأشداء ، وأطلقهم إلى رحاب العالم الفسيح ، بعد أن هداهم وهذبهم وبلور صفاتهم العليا فى بوتقة واحدة ،

---

(١) النصر ١ — ٣ .

ونهاهم عن مناقصهم ومثالبهم ، فكونوا دولة الإسلام فى القرون الوسطى لتصبح فى أيام عزها وسطوتها ومجدها ، نوراً أشرق على الظلمات التى كانت تعمر وجه الأرض فى ذلك الزمان .

تدلنا الحقيقة التاريخية الماثلة أوضح دلالة على أن فتح مكة كان فى واقع الأمر كما قدمنا الخطوة الحاسمة التى دت مباشرة إلى دخول العرب فى أدين الإسلام . ذلك أنه لم يقع بعد فتح مكة .من الأحداث ما يدعو جميع قبائل العرب لأن تتدفق طائعة مختارة على محمد لتبايعه على الإسلام ، وإن كان لإسلام ثقيف وغزوة تبوك أثر مساعد ولا شك فى هذا الموقف .

ونحن إذا حاولنا استعراض الغزوات التى غزاها محمـــد والسرايا التى أرسلها هنا وهناك بعد فتح مكة ، إذن لازددنا يقيناً بهذه الحقيقة . فإن غزوتى حنين والطائف لم تكونا بينه وبين سائر العرب ، بل كانتا بينه وبين هوازن وثقيف . أما غزوة تبوك فكانت ضد قبائل صغيرة فى شمالى بلاد العرب ، بعيدة عن الأحداث التى كانت تجرى من قبل . ثم إنه لم يقع فيها قتال ، وإن كان لضخامة الجيش الإسلامى أثر كبير فى النفوس . أما السرايا التى أرسلها بعـــد فتح مكة فقليلة نلخصها فيما يأتى : بعث فى أواخر سنة ثمان سرية بقيادة قيس بن سعد فى أربعمائة مقاتل ليدعو صداء وهى قبيلة تسكن اليمن إلى الإسلام ، فجاءت وفود صداء وأسلمت . وأرسل فى أعقاب ذلك بشر بن سفيان العدوى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ الصدقات فمنعه جيرانهم بنو تميم ، فأرسل لهم عيينة بن بدر فى خمسين فارساً ، فأسر منهم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً . ثم بعث الوليد بن أبى معيط لأخذ صدقات بنى المصطلق ، فتوهم أنهم ممتنعون ، فلما علم محمد بذلك أرسل لهم خالد بن الوليد ، فسار إليهم فى عسكره حتى أتاهم فلم ير منهم إلا الطاعة . وبعث علقمة بن مجزر فى ثلاثمائه مقاتل لجمع من الأحباش بلغه أنهم تجمعوا فى جزيرة إزاء جدة للإغارة عليها . وفى ربيع الأول من

السنة التاسعة أرسل على بن أبى طالب فى خمسين فارساً لهدم الفلس (صنم لطيء) فسار إليه فهدمه وأحرقه . وفى رمضان من السنة العاشرة أرسل على بن أبى طالب أيضاً إلى بنى مذحج وهم قبيلة يمانية يدعوهم للإسلام فقاتلهم حتى قبل رؤساؤهم الإسلام .

وبعث خالد بن الوليد فى ستة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران فأسلموا بغير قتال . وبعثوا بوفدهم للدخول فى الإســلام . وبعث على ابن أبى طالب إلى همدان ، فلما قرأ عليهم كتاب محمــد أسلموا جميعاً ولم يقاتلوا .

وكان النبي يبقى رؤساء القبائل إذا ما أسلموا فى مناصبهم ، فكانت هذه السياسة الحكيمة سبباً كبيراً فى إقدام الكثيرين منهم على الإسلام طائعين مختارين . بعد ما تبين لهم الحق من الباطل .

يتضح لنا إذن من استعراض الأحداث التى وقعت فيما بين فتح مكة ، وقدوم وفود العرب من مختلف أنحاء الجزيرة يمثــلون مئات الآلاف من المقاتلين المبرزين ، طائعين مختارين ، أن الأثر الأكبر لهذا التصرف كان نتيجة لما أحدثه فتح مكة وإسلام قريش من أثر عميق فى نفوس العرب أجمعين .

أما الكلام فى ذكر كل ما وقع من أحداث ومناقشات وروايات تتعلق بعشرات من الوفود فأمر يطول شرحه . ولذلك سوف نقتصر هنا على ذكر جملة من الأحداث الشهيرة . والوقائع اللطيفة التى ذكرت بهذه المناسبات .

ذكرنا فيما سبق أن عيينة بن بدر أسر من تميم أحد عشر رجلا وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً . فقدم رؤساؤهم بسببهم ، وفيهم عُطارد بن حاجب بن زرارة ، والزِّبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم ، والأقرع بن حابس وغيرهم . فلما دخلوا المسجد نادوا النبى من وراء حجراته أن اخرج إلينا يا محمد نفاخرك . فإن مدحنا زين وإن ذمنا

شين ، فقال النبي « ذاك الله عز وجل » ، ثم إنه تأذى من صياحهم ، وفيهم نزلت الآية « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم »[١] . فلما خرج إليهم تعلقوا به وقالوا : يا محمد جئنا نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقال : « ما بالشعر بعثنا ولا بالفخار أمرنا » . ثم أذّن بلال لصلاة الظهر ، فصلى ثم جلس إليهم ، وأذن لخطيبهم وشاعرهم .

فقام عُطارد بن حاجب بن زرارة فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضل والمَنّ وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالا عظاماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدة . فمن مثلنا فى الناس . ألسنا رؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكن نخشى من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك . أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا . ثم جلس .

فقال محمد لثابت بن قيس بن شمَّاس أخى بنى الحارث بن الخزرج : « قم فأجب الرجل فى خطبته » .

فقام ثابت فقال : الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خيرته رسولا ، أكرمه نسباً ، وأصدقه حديثاً ، وأفضله حسباً ، فأنزل عليه كتاباً وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله فى العالمين . ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرمُ الناس أحساباً ، وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعالا ، ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ؛ فنحن أنصار الله ووزراء رسوله ،

---

(١) الحجرات ٤ — ٥ .

نقاتل الناس حتى يؤمنوا . فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبداً . وكان قتله علينا يسيراً . أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثم قام شاعر تميم الزبرقان بن بدر فقال ما قال ، ثم أمر الرسول شاعره حسان بن ثابت أن يرد عليه فأجابه حسان . فلما فرغ حسان قال الأقرع ابن حابس : وأبى إن هذا لمؤتى له ! لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا . ثم أسلم القوم فرد عليهم النبى أسراهم وأجزل لهم العطاء . وأقاموا عنده مدة يتعلمون القرآن ويتفقهون فى الدين ثم عادوا فأسلمت تميم .

وفى رمضان من سنة تسع قدم وفد ثقيف . وكان عروة بن مسعود أحد سادتها قد قدم قبل ذلك وأسلم بين يدى محمد ، واستأذنه أن يعود إلى قومه ليهديهم إلى الإسلام . فخاف عليه لما عرف فيهم من نخوة الامتناع ، وقال له : « إنهم قاتلوك » غير أن عروة أجابه بقوله : يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبصارهم . وكان فيهم محبباً مطاعاً . فأذن له فرجع إلى ثقيف ، ودعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه . فلما أصبح قام فوق علية له يؤذن للصلاة ، فتحققت عند ذاك نبوءة النبى إذ لم يطق قومه ذلك فرموه بسهام فقتلوه . فلما جاءه أهله قال لهم وهو يسلم الروح : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها إلى . فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم . وطلب منهم أن يدفنوه مع هؤلاء الشهداء ففعلوا .

ثم إن ثقيفاً أقامت بعد مقتل عروة شهراً ، ثم ائتمروا فيما بينهم وانتهوا إلى أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا . وذلك أن مالك بن عوف النصرى سيد هوازن ، كان قد أسلم بعد غزوة حنين وأمّره محمد على قومه . فكان يغزو بلاد ثقيف ويضيق عليهم حتى صاروا لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم . ثم إنهم أجمعوا على أن يرسلوا كبيرهم

عبد ياليل إلى محمد ليعرض عليه صلح ثقيف ويأخذ منه كتاباً . غير أنه رفض خشية أن يصيبه ما أصاب عروة من قبل ؛ فأرسلوا معه خمسة آخرين ، فيهم عثمان بن أبى العاص وكان أصغرهم سناً .

فلما دنوا من المدينة قابلوا المغيرة بن شعبة وهو يرعى ركاب أصحاب الرسول ، فأسرع إلى المدينة ليبلغ النبى بمقدم وفد ثقيف ، فلقيه أبو بكر الصديق فأخبره عن ركب ثقيف وأنهم قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم الرسول شروطاً ويكتب لهم كتاباً فى قومهم . فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك لا تسبقنى إلى رسول الله حتى أكون أول من يحدثه . ودخل أبو بكر فأخبره بقدومهم . وعاد المغيرة فرد ركائبهم إلى المراح ، وعلّمهم كيف يحيون النبى بتحية الإسلام ، غير أنهم كانوا قوماً عنيدين فلم يحيوه إلا بتحية الجاهلية .

ضربت لهم قبة فى ناحية من المسجد حتى يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا ، فتلين قلوبهم . وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذى يقوم بينهم وبين محمد بالمفاوضات ، وهو الذى يأتيهم بطعامهم ، إلا أنهم كانوا لا يأكلون منه شيئاً حتى يأكل خالد منه قبلهم . وكان من ضمن شروطهم على محمد أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى عليهم أشد الإباء ، فما برحوا ينتقصون من هذه السنين حتى سألوه شهراً واحداً بعد عودتهم إلى أهاليهم حتى يتألفوا سفهاءهم ، فأبى عليهم أن يدعها مدة محددة .

ثم إنهم سألوه أيضاً ألا يصلوا ، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ؛ فقال « أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك ، وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه . » فقالوا : سنؤتيكها وإن كانت دناءة . كذلك اشترطوا ألا يُجنَّدوا ، ولا تؤخذ عشر أموالهم ، ولا يجبوا ، ولا يستعمل عليهم غيرهم . فأجابهم محمد إلى ذلك ، وكان يقول « سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا . » فلما أسلموا وكتب لهم كتاباً ، أمر عليهم عثمان بن أبى العاص :

وكان أصغرهم سناً . ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن . ذلك أنهم كانوا يتركونه فى رحالهم إذا أتوا محمداً ، فإذا رجعوا وسط النهار قام هو فجاءه فسأله عن العلم واستقرأه القرآن ، فإن وجده نائماً ذهب إلى أبى بكر الصديق ، فلم يزل كذلك حتى تعلم كثيراً من أصول الإسلام ، وأحبه الرسول حباً شديداً . ومن وصاياه لعثمان قوله : « يا عثمان تجوز فى الصلاة ، وخفّف عن الناس ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة » .

فلما فرغ القوم من أمرهم استأذنوا النبى أن يسبقوا رسله الذين سيهدمون الربة إلى قومهم . واتفقوا فيما بينهم ، خشية ما قد يحدث من رد فعل عند الناس أن يكتموا أمرهم حتى يتأكدوا من قبول الناس الإسلام . فلما سألوهم : ما وراءكم ؟ أظهروا الحزن وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظ غليظ قد ظهر بالسيف ، يحكم ما يريد ، وقد دوّخ العرب . قد حرم الربا والزنا والخمر ، وأمر بهدم الربة . فنفر الناس وقالوا : لا نطيع لهذا أبداً . وتأهبوا للقتال ومكثوا على ذلك يومين أو ثلاثة ، ثم ثابوا إلى رشدهم وعلموا أنه لا طاقة لهم بحرب محمد ، فرجعوا عن غيهم وأنابوا وقالوا للوفد : ارجعوا فشارطوه على ذلك وصالحوه عليه . فقال الوفد : فإنا قد فعلنا ذلك ووجدناه أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم . وقد بورك لنا ولكم فى مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه ، فافهموا ما فى القضية واقبلوا عافية الله . قالوا : فلم كتمتمونا هذا أولا ؟ قالوا : أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان . ثم إنهم أسلموا جميعاً .

وبعد أيام قدم عليهم رسل محمد على رأسهم خالد بن الوليد ، وفيهم أبو سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، فعمدوا رأساً إلى اللات ليهدموها . فخرجت ثقيف عن بكرة أبيها : رجالها ونساؤها والصبيان لم يبق فيها أحد منهم ، وكان عامتهم يظنون أنها لا تُهدم ، وأنها سوف تمتنع على الهدم .

فلما تقدم المغيرة بن شعبة وفي يده المعول لهدمها قال لأصحابه : والله لأضحكنكم من ثقيف . وهوى بالمعول فضرب ضربة ثم سقط على الأرض وقام يركض برجله . فصاح أهل الطائف صيحة واحدة وفرحوا فرحاً شديداً وقالوا : أبعد الله المغيرة قتلته الربة ! وقالوا لأصحابه : من شاء منكم فليقترب منها .

فقال لهم المغيرة : والله يا معشر ثقيف إنما هي حجارة وطين ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه . ثم ضرب الباب فكسره ، وعلا سورها وعلا معه الرجال من أصحابه ، وهووا عليها بمعاولهم يهدمونها حجراً حجراً حتى سووها بالأرض . وكان أبو سفيان يقول كلما ضربها المغيرة بالفأس : واهاً لك ! آهاً لك ! حدث هذا وثقيف مبهوتة كأن على رؤوسهم الطير .

وأتى وفد بني حنيفة ، وكان معهم مسيلمة بن حبيب الملقب بالكذاب ، إلا أنهم خلفوه في رحالهم عند ما دخلوا على محمد في المسجد . فلما أسلموا ذكروا مكانه فقالوا : يا رسول الله إنا قد خلّفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركائبنا يحفظها لنا ، فقال : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » وأمر له بمثل ما أمر لأصحابه . فلما انصرفوا وعادوا إلى اليمامة فسر مسيلمة قوله محمد « أما إنه ليس بشركم مكاناً » على أنه دليل على أنه أشرك معه في النبوة . وأخذ من ثمة يسجع لقومه السجعات مضاهاةللقرآن . وكان فيما يقول : لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق(1) وحشا(2) . ولقد صدقته بنو حنيفة وشاع أمره بينهم وشاعت تقليداته للقرآن حتى لقد كان المار بديارهم يسمع ببعض مساجد بني حنيفة قراءة ما أنزلها الله على محمد كقول مسيلمة : والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً . والخابزات خبزاً . والثاردات ثرداً . واللاقمات لقماً . ولا عجب فأمر مسيلمة وارتداد بني حنيفة معروف . وقد قتله في حروب الرِّدة زيد بن الخطاب .

---

(١) الصفاق : جلدة البطن . (٢) الحشا : ما في جوف البطن .

ومن الوفود وفد نصارى نجران . وكان محمد قد كتب إلى أسقف نجران كتاباً « باسم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران ، فإنى أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، أما بعد فإنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام » . فلما قرأ الأسقف هذا الخطاب ذعر وفزع فزعاً شديداً ، واستشار مستشاريه ، وقر الرأى على إرسال وفد لمحمد . فأتاه وفد نجران من ستين راكباً ، ودخلوا عليه المسجد وهم يلبسون ثياب الحرير مختمين بالذهب ، وقدموا له بسطاً فيها تماثيل ومسوحاً[1] فلم يقبل البسط وقبل المسوح . ولما جاء وقت صلاتهم صلوا فى المسجد مستقبلين بيت المقدس . فلما أتموا صلاتهم دعاهم النبى للإسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قبلكم . فقال : « يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولداً » . قالوا فمن مثل عيسى لا أب له ؟ وما تقول فيه ؟ فقال : « ما عندى فيه شىء يومى هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله فى عيسى » .

فأنزل الله فى ذلك سورة آل عمران ، فلما أصبح الغد قرأ عليهم « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »[2] . فأبوا أن يقروا بذلك ورفضوا الإسلام ورضوا بالجزية ، وكانت ألف حلة فى صفر ، وألف حلة فى رجب ، مع كل حلة أوقية من ذهب . ثم طلبوا منه أن يرسل معهم أميناً فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ، فلذلك سمى أمين هذه الأمة .

(١) المسح : الثوب من شعر .
(٢) آل عمران ٥٩ — ٦١ .

وقدم وفد بنى عامر وفيهم عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، وحيان ابن سلمى ، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء قومهم ودهاتهم . وكان بنو عامر قد أجمعوا على الإسلام وقالوا لعامر : يا عامر إن الناس قد أسلموا فاسلم ، غير أن العزة أخذته وغره بالله الغرور فقال : والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش . فلما جلسوا إلى محمد قال عامر : يا محمد ما تجعل لى إن أسلمت ؟ فقال « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر : أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك . قال : « ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل » . فقال : أنا الآن فى أعنة خيل نجد ، اجعل لى الوبر[1] ولك المدر[2] . فلم يقبل محمد ، فانصرف عنه عامر غاضباً وهو يقول : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا . فقال محمد : اللهم اكفنى عامر بن الطفيل .

فلما خرجوا ثارت حمية عامر فقال لأربد : يا أربد نعود إلى محمد فأشغله بالحديث وأنت فاضربه بالسيف ، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب ، فسنعطيهم الدية . ثم إنهما قفلا راجعين إليه ، فقال له عامر : يا محمد قم معى أكلمك . فقام معه إلى الجدار ووقف يكلمه ويقول له : يا محمد صادقنى ، فيقول له : « لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » . ثم إن أربد حاول عندئذ أن يستل السيف ، غير أن شجاعته خانته ، ففطن محمد إلى ما يريد أربد فانصرف عنهما.

فلما تنحيا ، قال عامر لأربد : أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل أخوف على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً .

فقال أربد : لا أبا لك ! لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

(١) البدو . (٢) المدن والقرى .

ثم إن وفد بنى عامر خرجوا عائدين إلى بلادهم . وبينما هم فى بعض الطريق أصيب عامر بالطاعون فى عنقه فنزل فى بيت امرأة من بنى سلول ، غير أنه كره أن يموت فى بيت سلولية للؤمهم ، فخرج من بيتها ، فوثب على فرسه وأخذ رمحه وأقبل يجول وهو يرغب أن يموت موتة الفرسان ، لا حتف أنفه وهو يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية ! ولم يزل كذلك حتى سقط عن فرسه ميتاً .

أما أربد فإنه لما عاد إلى بنى عامر سألوه : ما وراءك يا أربد ؟ فقال : لا شيء والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله الآن . ثم إنه خرج بعد ذلك بيوم أو يومين ومعه جمل له يريد بيعه ، فانقضت عليهما صاعقة فأحرقتهما . أما بنو عامر فقد أسلموا . ولقد أنزل الله تعالى فى عامر وأربد قوله « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وساربٌ بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »[1] إلى قوله « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال »[2] .

وقدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن قومه بنى سعد بن بكر ، وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ودخل المسجد ومحمد جالس فى أصحابه . وكان ضمام رجلا جلْداً أشعر ذا غديرتين ، من أهل البادية جهورى الصوت لا يُفقه ما يقول ، فأقبل يقول : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال محمد : « أنا ابن عبد المطلب » .

فقال : يابن عبد المطلب إنى سائلك ومغلظٌ عليك فى المسألة فلا تغضبَنّ فى نفسك . قال : « لا أغضب فى نفسى فسل ما بدا لك » .

---

(١) الرعد ١٠ – ١١ .　　(٢) الرعد ١٣ .

فقال : أنشدُك إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟ قال : « اللهم نعم » .

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تصلى هذه الصلوات الخمس ؟ قال : « نعم » .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ، الزكاة ، والصيام ، والحج ، وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها . حتى إذا فرغ قال : فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص . وعاد إلى قومه فأخبرهم بما أمرهم به وما نهاهم عنه ، فأسلموا وبنوا المساجد وأذنوا بالصلاة .

وقدم وفد طى وفيهم زيد الخيل ، وهو زيد بن مهلهل بن زيد ، وسمى زيد الخيل لخمس أفراس كن له ، وكان من أحسن العرب وسيماً طويلا . فأسلموا بين يدى محمد وحسن إسلامهم ، وقد قال محمد فى زيد الخيل : « ما ذكر رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون مايقال فيه ، إلا زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل الذى فيه » . وسماه زيد الخير .

ومن الوفود وفد كندة ، قدم فى ثمانين راكباً ، فدخلوا على النبى مسجده وعليهم جُبَبُ الحبرة قد كففوها بالحرير ، فقال لهم : « ألم تسلموا ؟ » قالوا : بلى . قال : فما بال الحرير فى أعناقكم ؟ فشقوه منها فألقوه . ثم قال له الأشعث بن قيس : يا رسول الله نحن بنو آكل المُرار ، وأنت ابن آكل المُرار . فتبسم وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب ، وربيعة ابن الحارث » . وذلك أن العباس وربيعة كانا تاجرين إذا سألهما أحد من العرب ممن أنتما ، قالا : نحن بنو آكل المرار ، يريدان الانتساب إلى كندة ليعزا فى تلك البلاد ، لأن كندة كانوا ملوكاً ، فاعتقدت كندة أن قريشاً منهم لقول العباس وربيعة « نحن بنو آكل المرار » . ثم إن محمداً قال لهم :

«لا ، نحن بنو النضر بن كنانة لا نتهم أمنا بالفجور ، ولا نتفى من أبينا» .

وقدم عليه كتاب ملوك حمير ورسلهم بإسلامهم فى أثر عودته من تبوك ، وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال . والنعمان قيل ذى رعين ، ومعافر . وهمدان . وبعث إليه زرعة ذو يزن بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله .

فكتب إليهم كتاباً : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، والنعمان قيل ذى رعين ، ومعافر ، و همدان ، أما بعد ذلكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبرنا ما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم النبى صلى الله عليه وسلم وصفيه وما كتب على المؤمنين فى الصدقة ، من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وعلى ما سقى الدلو نصف العشر ، وأن فى الإبل فى الأربعين ابنة لبون ، وفى ثلاثين من الإبل ابن لَبُون ذكر ، وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل عشر من الإبل شاتان ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين تبيع جذع[1] أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة[2] وحدها شاة ، إنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له .

ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمة الله وذمة رسوله ، وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم .

ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُرَد عنها ، وعليه الجزية

---

(١) الجذع من الحيوان الصغير . (٢) السائمة : الماشية التى ترسل لترعى .

على كل حالم ذكر وأنثى حر أو عبد دينار وافر من قيمة المعافر أو عوضه ثياباً ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

أما بعد ، فإن رسول الله محمداً النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن : أن إذ أتاك رسُلي فأوصيكم بهم خيراً ، معاذ بن جبل ، وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعُقبة بن نمر ومالك بن مُرَّة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي ، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبنّ إلا راضياً .

أما بعد فإن محمداً يشهد أنه لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك بن مرّة الرهاوى قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيراً ، ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم ، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته ، وإنما هي زكاة يُزكّى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل . وإن مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب فآمركم به خيراً ، وإنى قد أرسلت إليكم من صالح أهلي وأولى دينهم وأولى علمهم ، فآمركم بهم خيراً فإنهم منظور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

الفصل السادس والعشرون

أبو بكر أميراً على الحج

حدث فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام . وهى الفترة التى استقر فيها الدين الجديد بعد فتح مكة وإسلام قريش وثقيف ومعظم قبائل الحجاز . وانتهت المواقع الحربية الكبيرة . وبدأت وفود القبائل ترد على المدينة خاضعة لحكم الإسلام . تطور هام جداً فى تحديد علاقة الإسلام النهائية بالمشركين فى جزيرة العرب . وكان المشركون حتى هذه السنة ، أى السنة التاسعة الهجرية ، لا يزالون أحراراً كاملى الحرية فى الحج إلى بيت الله الحرام ، وإقامة شعائرهم الوثنية فى حماية العهد العام الذى قطعه محمد للجميع بألا يُصَدّ عن البيت العتيق أحد جاءه ، وألا يخاف أحد فى الأشهر الحرام ، فضلا عن العهود التى كانت بينه وبين بعض قبائل المشركين إلى آجال مسماة . وكان حج أبى بكر بالناس فى هذه السنة حداً فاصلا بين الإسلام والوثنية فى جزيرة العرب من جميع الوجوه ، وعلامة واضحة على الطريق الذى انبغى للعرب أن يسلكوه .

بعث محمد أبا بكر الصديق فى أخريات ذى القعدة للحج بالناس . فخرج من المدينة على رأس ثلاثمائة من حجاج المسلمين ، ومعه من الهدْى عشرون بدنة أهداها النبى وخمس أهداها هو . غير أنه حدث بعد أن خرج أبو بكر بقليل أن نزل على النبى صدر سورة براءة ، وفيه تحديد كامل وشامل وتام لعلاقة المسلمين بالمشركين فى جزيرة العرب . فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر ؟ فقال : « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » .

ودعا علىّ بن أبى طالب فقال : « اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذّن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : ألا إنه لا يدخل الجنة كافر ،

ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته » .

فخرج على بن أبي طالب على ناقة محمد العضْبَاء ، حتى أدرك أبا بكر ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور .

فلما كان يوم النحر واجتمع الناس بمنى ، تقدم علىٌّ فقرأ على الناس صدر سورة براءة : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مُخزِى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتمُّوا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهُر الحرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصدّوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين »(١) .

---

(١) التوبة ١ — ١٣ .

الفصل السابع والعشرون

حجة الوداع

ما إن آذنت شمس السنة العاشرة الهجرية بالمغيب حتى كانت جزيرة العرب عن بكرة أبيها تدين بالإسلام . وكان طبيعياً وضرورياً أن يحج رسول الله بالمسلمين ليأخذوا عنه مناسك الحج . ولقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع ، لأن النبي ودع الناس فيها ولم يحج بعدها ، وسميت حجة الإسلام أيضاً لأنه لم يحج من المدينة غيرها ، وسميت حجة البلاغ كذلك لأنه بلغ الناس شرع الله في الحج قولا وفعلا ، ولم يكن قد بقي في ذلك الوقت من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه وعلمه للناس . فلما بين لهم شريعة الحج ومناسكه ليأخذوها عنه نزل عليه وهو واقف بعرفة قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »(1) .

لما ترامت الأنباء بأن النبي خارج للحج أقبلت عشرات الألوف من المسلمين من كل حدب وصوب على المدينة يريدون الخروج معه لقضاء هذه الفريضة التي فرضها عليهم الله . فتجمع في المدينة نحو من مائة ألف أو أكثر ، وضربوا خيامهم حولها انتظاراً للخروج في صحبة نبيهم ، وفي الخامس والعشرين من ذي الحجة من السنة العاشرة أذن النبي بالخروج ، فركب ناقته القصواء ، ومعه نساؤه كل منهن في هودجها ، وسار على رأس هذا الجمع الذي لم تشهد جزيرة العرب مثله من قبل ، واستخلف على المدينة أبا دجانة .

فلما بلغوا ذا الحليفة أقاموا ليلتهم ، ولما أصبحوا صلى بهم الصبح ،

---

(1) المائدة ٣ .

ثم دعا بناقته فأشعرها فى صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم وقلدها نعلين ، وتولى إشعار بقية الهدْى وتقليده غيره . ثم أحرم وأحرم المسلمون ، ثم ركب راحلته حتى إذا استوت به البيداء أهلّ بالحج (مفرداً أو مقروناً بعمرة فى قول البعض) فقال : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لك ، لا شريك لك » . ولبى الناس ، وكان يدعو ربه ويكرر الدعاء فى أثناء مسيره فيقول : « اللهم اجعله حجا لا رياء فيه ولا سمعة » . ولما بلغوا سرف (مكان فى الطريق بين المدينة ومكة) قال لهم : « من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عُمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا » .

وفى اليوم الرابع من ذى الحجة وصل الركب الكبير إلى مكة فحل[1] كل من لم يكن معه هدى ، وحل نساؤه بعمرة . ودخل النبي مكة ضحى ذلك اليوم من الثنية العليا وهى ثنية كداء ، وهو على ناقته القصواء ومن تحته رحل رث عليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم . فلما بلغ باب بنى شيبة ورأى بيت الله الحرام رفع يديه وقال : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرّفه وعظّمه ممن حجه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابة وتعظيماً وبراً » . فلما أتى الكعبة طاف بها سبعاً ، رَمَل ثلاثة ومشى أربعة ، وصلى ركعتين عند مقام إبراهيم ثم قرأ : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »[2] . ثم استلم الحجر الأسود ، أى قبّله ، ثم قرأ : « إن الصفا والمروة من شعائر الله »[3]. ثم قال : « نبدأ بما بدأ الله به » فصعد على الصفا وهو راكب راحلته ، فنظر إلى البيت وكبر ثم قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده . أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم سعى بين الصفا والمروة سبعاً ، وكان إذا رقى المروة قال كما قال على الصفا . فلما

---

(١) أى خرج من إحرامه وجاز له ما كان ممنوعاً .

(٢) البقرة ١٢٥ . (٣) البقرة ١٥٨ .

كان السابع عند المروة قال : أيها الناس إنى لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ولجعلتها عمرة ، فمن لم يكن معه هدى فليحل وليجعلها عمرة . فأحل كل من لم يكن معه هدْى وقصروا ، وحل نساء النبى وحلت ابنته فاطمة ، ولم يبق على إحرامه إلا كلُّ من كان معه هدى .

ولما كان يوم التروية ، الثامن من ذى الحجة ، ذهب النبى والمسلمون إلى منى وأهلوا بالحج ، وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلا بعد الفجر حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة له من شعر فضربت له بنَمِرة . وسار وقريش لا تشك فى أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت تصنع قريش فى الجاهلية ، غير أنه تجاوزها حتى جاء عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنَمِرة . ولما مالت الشمس أمر بالقصواء فرُحِّلت ، وركبها حتى أتى بطن الوادى ، فوقف هناك يخطب فى الناس خطبة الوداع ، وكان يلقيها بصوت جهورى قوى ، ويرددها من بعده ربيعة بن أمية بن خلف . قال :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير » .

« أما بعد أيها الناس . اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا » .

« أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . إن ربا الجاهلية

موضوع ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود (قصاص) وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية » .

« أيها الناس : إن الشيطان يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » .

« أيها الناس إن النسىء[1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان » .

« أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكن عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة . فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن[2] وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفاراً

---

(١) تأجيل شهر من الأشهر الحرام إلى السنة التالية ، وذلك أنهم كانوا إذا استطالوا الأشهر الحرام وتعجلوا الحرب أجلوا المحرم وحرموا صفرا من عامهم المقبل .

(٢) أ تحبسوهن وتضيقون عليهن .

يضرب بعضكم رقاب بعض فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله ، وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال وهو يرفع إصبعه السبابة إلى السماء ثم يشير بها إلى الناس : « اللهم اشهد اللهم اشهد اللهم اشهد » ثلاث مرات .

وكان ربيعة بن أمية بن خلف يردد بعده مقطعاً مقطعاً ، وهو يسألهم بين هذا وذاك سؤالا ليحتفظ بيقظتهم ، فيأمر ربيعة أن اسألهم هل تدرون أى يوم هذا . فيقول ربيعة : إن رسول الله يقول : هل تدرون أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر . فيقول النبي ويردد بعده ربيعة : « إن الله قد حرم عليكم دماءكم . . . » ثم يقول لربيعة : « قل هل تدرون أى بلد هذا ؟ » فينادى فيقول الناس : البلد الحرام . فيقول مقطعاً آخر من خطبته ويردده بعده ربيعة . وهكذا حتى انتهى من خطبته .

وفى ذلك اليوم وبعد أن ألقى خطبة الوداع نزل عليه قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(١) . فلما سمعها أبو بكر تحادرت على خديه الدموع ، فقد أحس عند ذاك قلبه أن أجل النبي قد حان وأنه سيلقى ربه عن قريب .

غادر النبي بعد ذلك عرفات وقضى ليلته بالمزدلفة ، ثم قام فصلى الفجر حتى إذا تبين له الصبح ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله عز وجل وكبره وهلله ووحده عملا بقوله تعالى : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام »(٢) . ولم يزل واقفاً هناك حتى أضاء الصبح ثم رحل عنه قبل أن تطلع الشمس . ثم توجه إلى منى وهو لا يزال يلبى حتى رمى جمرة العقبة ، وهو يكبر مع كل حصاة ، ثم قطع التلبية مع آخر حصاة . وكان يقول للناس : « لتأخذوا مناسككم فإني لا أدرى لعلى لا أحج بعد حجتى هذه » . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين ناقة بيده ، وذلك مناسب لعمره . ثم أعطى علياً فنحر بقية

---

(١) المائدة ٣

(٢) البقرة ١٩٨ .

الهدْى وجملته مائة وأشركه فيه ، ثم حلق وأتم حجه . وأمر بأن يؤخذ من كل ذبيحة قطعة فتوضع سوياً فى قدر فتطبخ ، ليأكلوا منها ويشربوا مرقها . وقسم لحومها وجلودها على الناس .

ثم لبس ثيابه بعد أن رمى الجمرات ونحر هديه وحلق وطيبته عائشة ، وذلك قبل أن يطوف بالبيت . ثم ركب وأتى البيت الحرام فطاف به سبعاً وهو راكب ، وصلى الظهر . ولم يطف بين الصفا والمروة هذه المرة ، واكتفى بطوافه الأول . ورجع إلى منى فمكث بها ليالى أيام التشريق يرمى الجمرة إذا زالت الشمس ، كل جمرة بسبع حصيات ، ويكبر مع كل حصاة . فلما كان ثالث أيام التشريق ، ركب والمسلمون معه . وغادر منى إلى المحصب وهو واد بين مكة ومنى فصلى العصر به . ثم ركب إلى البيت فطاف به طواف الوداع . ثم خرج من أسفل مكة من الثنية السفلى أى من كُدًى ، وقفل راجعاً إلى المدينة .

الفصل الثامن والعشرون

أهل البيت

زوجات النبي وخطيباته وسراريه وأولاده

يختلف كتاب السيرة فى تحديد عدد زوجات النبي ، فقال بعضهم إنهن خمس عشرة امرأة ، وقال آخرون ثمانى عشرة امرأة . أما ما لا خلاف فيه فهو أنه دخل بإحدى عشرة امرأة ، توفيت اثنتان فى حال حياته ، ومات عن تسع ، ولم يتزوج غير بكر واحدة .

تزوج خديجة بنت خويلد وهو فى الخامسة والعشرين وهى فى مثل هذه السن أو أكبر قليلا ، وإن اختلفت أقوال كتاب السيرة كثيراً فى تحديد عمر كل منهما عند الزواج .

وكانت قد تزوجت قبله برجلين ، الأول منهما عتيق بن عائذ بن مخزوم ولها منه ابنة ، والثانى أبو هالة التميمى فولدت له هند بن أبى هالة الصحابى . وهى أم أولاده ما عدا إبراهيم ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت فى السنة العاشرة من مبعثه ، وهو ابن خمسين سنة .

وبعد وفاة خديجة بقليل تزوج عائشة بنت أبى بكر التيمية وهى بنت سبع سنين ، ولم يدخل بها إلا بعد الهجرة وهى بنت تسع سنين . ولم يتزوج بكراً غيرها . ويقال بأنها أسقطت منه ولداً سماه عبد الله ، ذلك أنها كانت تكنى بأم عبد الله . وقيل إنما كانت تكنى بعبد الله ابن أختها أسماء من الزبير بن العوام .

وتزوج قبل الهجرة أيضاً سودة بنت زمعة العامرية ، وكانت قبله زوجة

السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو . مات عنها زوجها مسلماً بعد رجوعه وإياها من أرض الحبشة .

وتزوج بعد الهجرة حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية ، وكانت قبله زوجة خنيس بن حذافة بن عدى ، مات عنها مؤمناً .

وتزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية ، وكانت قبله زوجة لابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد .

وتزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية ، وكانت قبله زوجة لعبيد الله بن جحش بن رئاب ، مات بأرض الحبشة نصرانياً ، فبعث إليها عمرو بن أمية الضمرى فخطبها عليه وزوجها منه عثمان بن عفان وكان لا يزال مهاجراً بالحبشة ، وأصدقها عنه النجاشي أربعمائة دينار .

وتزوج زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمته ، وكانت قبله زوجة مولاه زيد بن حارثة فطلقها . وهي التي تولى الله عقد زواجها . وكانت أول نسائه لحوقاً به ، وأول من عمل لها النعش ، صنعته أسماء بنت عميس على طريقة أهل الحبشة .

ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وهي من بني عبد مناف ، ويقال لها أم المساكين ، وكانت قبله زوجة عبد الله بن جحش بن رئاب قتل يوم أحُد ، ولم تلبث عنده إلا قليلا حتى توفيت .

وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجت قبله رجلين أحدهما ابن عبد ياليل الثقفي . ويقال إنها هي التي وهبت نفسها ، والأصح أنه خطبها ، وكان السفير بينهما أبو رافع .

وسبى جويرية بنت الحارث المصْطلقية يوم المريسيع ، فأعتقها وتزوجها . ويقال بل قدم أبوها ، وكان ملك خزاعة ، فأسلم ثم تزوجها منه . وكانت قبله زوجة ابن عمها صفوان بن أبي الشفر .

وسبى صفية بنت حيي بن أخطب من يهود بني النضير وهي يومئذ

عروس لكنانة بن أبي الحقيق ، فأعتقها وجعل عتقها صداقها وتزوجها .

اجتمع عنده من زوجاته تسع نساء في وقت واحد . هن من ذكرن آنفاً فيما عدا خديجة ، وزينب بنت خزيمة . وهن اللائي توفى عنهن ، وهن حرام على الناس من بعده بالإجماع المحقق ، وعدتهن بانقضاء أعمارهن عملا بالآية « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً »(١) .

أما القول بأنه اجتمع عنده إحدى عشرة امرأة ، فيراد به أولاء التسع ، وسريتاه مارية القبطية ، وريحانة اليهودية .

أما اللائي تزوجهن ولم يدخل بهن فليس عليهن إجماع من كتاب السيرة . نذكر منهن عمرة بنت يزيد الغفارية ، وكان بها برص عند ثديها . فلما جردها من ثيابها ورأى هذا البرص ، أمرها أن تلبس ثيابها ثم ردها إلى أهلها ، وأوجب لها الصداق وحرمت على غيره .

ثم الشنباء وقد قاومته عند ما أدخلت عليه فتركها ينتظر بها اليُسر ، فلما مات ابنه إبراهيم على بغتة قالت : لو كان نبياً لم يمت ابنه ، فطلقها وأوجب لها الصداق وحرمت على غيره . أما العالية بنت ظبيان فطلقها قبل أن يحرم الله نساء النبي . ثم أميمة أو أمينة وهي امرأة من بني الجَوْن ، رفضته لما دخل عليها وقال لها : « هبي لي نفسك » فقالت : وهل تهب الملكة نفسها لسوقة ؟ فأهوى بيده عليها لتسكن ثائرتها فقالت : أعوذ بالله منك . فقال : « عُذْتِ بعظيم ، الحقي بأهلك » . وتزوج قتيلة بنت قيس أخت الأشعث بن قيس ، وزعم بعض كتاب السيرة أنه تزوجها قبل وفاته بشهرين . وزعم بعض آخر أنه تزوجها في مرضه ، ولم تكن قدمت عليه ولا رآها . وزعم غيرهم أنه أوصى أن تخيَّر قتيلة فإن شاءت يضرب عليها الحجاب وتُحرَّم على المؤمنين . وإن شاءت فلتتزوج من تشاء ، فاختارت

---

(١) الأحزاب ٥٣ .

الزواج فتزوجها عكرمة بن أبي جهل . وذكر كتاب السيرة غير أولاء عدة نسوة أخر .

ثم إنه خطب عدة نسوة ولم يعقد عليهن . خطب أم هانئ فاختة بنت أبي طالب ، فاعتذرت إليه بأن لها صبية صغاراً فعذرها . ويروى أن ليلى بنت الخطيم أقبلت إليه وهو مول ظهره إلى الشمس فضربت منكبه ، فقال : « من هذا » قالت : أنا بنت مطعم الطير ، ومبارى الريح ، أنا ليلى بنت الخطيم ، جئتك لأعرض عليك نفسي ، تزوجني ؟ قال : « قد فعلت » . فرجعت إلى قومها فقالت : قد تزوجت النبي ، فقالوا : بئس ما صنعت ، أنت امرأة غيرى ورسول الله صاحب نساء تغارين عليه ، فيدعو عليك ، فاطلبي منه فسخ الخطبة ، فلما طابت منه ذلك فعل . وخطب ضباعة بنت عامر من ابنها فسكت عن إجابته إذ كانت قد طعنت فى السن ، فسكت عنها . وخطب صفية بنت بشامة العنبرى ، وكان أصابها فى سبى ، فخيرها فقال : « إن شئت أنا وإن شئت زوجك » فقالت : بل زوجى ، فأطلقها ازوجها ، فلعنتها بنو تميم . وخطب حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب فوجد أباها أخاه من الرضاعة . أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب .

أما من تسرى بهن فاثنتان على التحقيق ، هما مارية القبطية المصرية ، وريحانة اليهودية ، قيل من بنى قريظة وقيل من بنى النضير . أما مارية فأهداها له المقوقس أسقف الأسكندرية ونائب إمبراطور الروم على مصر . وأهدى له معها أختها سيرين التى وهبها لحسان بن ثابت ، وغلاماً يدعى مأبور كان خصـيـاً ، وكان يدخل على مارية وشيرين بلا إذن كما جرت العادة فى مصر . وكانت مارية جميلة بيضاء أعجب بها النبى وأحبها وحظيت عنده ولا سيما بعد أن ولدت إبراهيم . أسكنها فى مال له بالعالية من أموال بنى النضير ، وكان يأتيها هناك ، فولدت منه غلاماً سماه إبراهيم . ولقد سر سروراً كبيراً عند ذلك وقال : « أعتقها ولدها » . وكان ميلاد

إبراهيم والحظوة التي نالتها مارية عنده سبباً في تألب نسائه عليه وتآمرهن عليها ، مما أدى إلى تنغيص حياته في أخريات أيامه . جاءته مارية يوماً وهي تحمل إبراهيم على عاتقها فقال : « يا عائشة كيف ترين الشبه ؟ » قالت : أنا وغيري ما أرى شبهاً . فقال : « ولا اللحم » قالت : لعمري من تغذى بألبان الضأن ليحسنن لحمه . وكان قد اشترى لمارية شاة لبوناً لتغذى منها الصبي . ثم إنهن أكثرن الكلام في حق مارية واتهمنها مع مأبور ذلك القبطي الذي جاء معها من مصر ، وكان يزورها ويختلف إليها ويدخل عليها بلا إذن .

فلما كثر القيل والقال واستاء محمد من هذا الوضع ، نادى علياً وقال له : « خذ هذا السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله » . فامتثل علي للأمر ، ولكنه استأذنه : أكون في أمرك لا يثنيني شيء حتى أنفذ ما أمرتني به ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال : « بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » .

فانطلق علي متوشحاً السيف فوجد مأبوراً عند مارية فاستل السيف ، فلما رآه مأبور خشيه وأدرك ما يريده ، فرمى بنفسه على الأرض وشال رجليه ، فإذا به خصي أمسح ليس له ما للرجال لا قليل ولا كثير . فتركه علي ورجع إلى محمد فأخبره فقال : « الحمد لله الذي صرف عنا أهل البيت » .

ثم إن مارية كانت سبباً في إشعال فتنـــة في بيت محمد ، بسبب ما حدث بينها وبين حفصة ذات يوم . ولقد زادت هذه الفتنة اشتعالا غيرة عائشة من زينب بنت جحش ، وغيرة بقية زوجاته من عائشة ، وغيرتهن جميعاً من مارية . وذلك أن حفصة ذهبت يوماً إلى أبيها تزوره ، فلما عادت وجدت محمداً في حجرتها ومعه مارية . فانتظرت حتى يخرجا ، وطال انتظارها والغيرة تمزق قلبها ، فلما خرجت مارية دخلت حفصة مغضبة

على محمد فقالت : لقد رأيت من كان عندك ، والله لقد سبتني ، ما كنت لتصنعها لولا هواني عليك . وأدرك محمد ما قد يحدث إشاعة ما حدث بين زوجاته من فتنة ، فأقبل على حفصة يلاطفها ويترضاها حتى لقد حلف لها أن مارية عليه حرام إن هي لم تذكر لأحد مما رأت شيئاً . فوعدته بالكتمان ، غير أنها لم تستطع أن توفي بهذا الوعد ، فباحت بالسر لعائشة ، وهذه أشارت إليه بأنها علمت من حفصة قصة ما حدث . فغضب وطلق حفصة ثم راجعها إكراماً لأبيها . وفي ذلك نزل قوله تعالى : « وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير » (١) .

ولم تنته الفتنة عند هذا الحد ، بل لقد تجاوزت حدود ما كان يحدث بين محمد وأزواجه من قبل كثيراً . وتطور الأمر حتى لقد صارحنه بأنه لا يعدل بينهن ، وتطاولت زينب بنت جحش على عائشة أمامه ، وكررن الشكوى من قلة النفقة وخشونة العيش . فلما أكثرن من لجاجتهن ورأى أنهن مثابرات على هذه اللجاجة ، قرر أن يهجرهن شهراً وأن يهددهن بالطلاق إن لم يثبن إلى نفوسهن ويعدن إلى رشادهن . وانقطع في مشربة بجوار المسجد كان يرقى إليها على جذع من جذوع النخل . غير أنه عفا عنهن أخيراً وعادت حياته معهن إلى سابق عهدها . ونزل في ذلك قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً »(٢) .

أما أولاده فكلهم من خديجة فيما عدا إبراهيم من مارية القبطية . ولدت له خديجة القاسم وهو أكبر ولده مات قبل النبوة ، ثم عبد الله ويقال له الطيب والطاهر ، مات بعد النبوة . وقد ماتا طفلين رضيعين .

---

(١) التحريم ٣ .

(٢) الأحزاب ٢٨ — ٢٩ .

فلما مات عبد الله قال العاص بن وائل : قد انقطع نسله فهو أبتر . فأنزل الله على نبيه قوله : « إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر »[1] . أى أن مبغضك هو الأبتر من كل خير . وولدت له خديجة من البنات زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة . زينب أكبر بناته وفاطمة أصغرهن وأحبهن إلى قلبه ، تزوجت زينب قبل الهجرة أبا العاص ابن الربيع فولدت له علياً وأمامة ، وهى التى يذكر أنه كان يحملها فى الصلاة ، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها . وأغلب الظن أن ذلك كان بعد موت زينب سنة ثمان من الهجرة . وقد تزوجها على بن أبى طالب بعد وفاة فاطمة .

أما رقية فكان قد تزوجها ابن عمها عتبة بن أبى لهب ، وتزوج أختها أم كلثوم أخوه عتيبة بن أبى لهب . غير أنهما طلقاهما قبل أن يدخلا بهما بغضة فى النبى حينما ثار النزاع بينه وبين عمه أبى لهب ، ونزل قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد »[2] . ثم تزوج عثمان بن عفان رقية ، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة ، ويقال إنهما أول من هاجر إليها . ثم رجعا إلى مكة ، وهاجرا إلى المدينة . وولدت له رقية ابنه عبد الله ، حتى إذا بلغ ست سنين نقره ديك فى عينه فمات ، وبه كان يكنى ، ثم اكتنى بابنه عمرو . وتوفيت رقية يوم التقى الجمعان فى بدر سنة اثنين من الهجرة ، وهى التى جاء البشير بالنصر زيد بن حارثة فوجدهم قد ساووا على قبرها التراب . وكان عثمان قد تخلف عن بدر بأمر محمد ليقوم بتمريضها ، فضرب له بسهمه وأجره . ثم زوجه بأختها أم كلثوم أيضاً ، ولهذا كان يقال له ذو النورين . وماتت أم كلثوم عند عثمان فى شعبان سنة تسع ولم تلد .

---

(١) الكوثر ١ — ٣ . (٢) المسد ١ — ٥ .

وتزوج فاطمة ابن عمها عليّ بن أبي طالب في صفر سنة اثنتين ، فولدت له الحسن ، والحسين ، ويقال ومحسن ، وأم كلثوم ، وزينب . وقد تزوج عمر بن الخطاب في أثناء ولايته بأم كلثوم بنت عليّ وأكرمها إكراماً زائداً . فلما قتل عمر تزوجها ابن عمها عون بن جعفر ، فلما مات تزوجها أخوه محمد ، فمات عنها ، فتزوجها أخوهما عبد الله بن جعفر فماتت عنده .

أما إبراهيم فمن مارية القبطية . ولدته في ذي الحجة سنة ثمان . ومات وهو ابن ثمانية عشر شهراً . فلما مات أرسل محمد علي بن أبي طالب إلى أمه مارية وهي في مشربة لها ، فوضعه علي في قفة ووضعه بين يديه على الفرس ، ثم جاء به إلى أبيه ، فغسله وكفنه وخرج به وخرج الناس معه ، فدفنه في الزقاق الذي يلي دار محمد بن زيد ، وسوى على قبره التراب ، ثم رشه بالماء ، ثم بكى وقال : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يغضب الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون » .

ومما يؤثر عنه أنه لما كسفت الشمس ذلك اليوم ، فقال الناس كسفت لموت إبراهيم ، قام فخطب فيهم فقال في خطبته : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

الفصل التاسع والعشرون

مرض النبي ووفاته

عاد النبي من حجّة الوداع إلى المدينة راضى النفس مرضياً . فها هم عشرات الألوف من المسلمين صادق الإسلام يصاحبونه إلى حج البيت الحرام ، وها هي قبائل العرب فى كل أنحاء الجزيرة قد طأطأت الرؤوس ودانت بدين الحق ، واستتب الأمر للدين الجديد ، ولم يعد ليخشى من شيء على دينه ، وهذه الألوف المؤلفة التي جمّع قلوبها الإسلام تلتف من حوله وتدين بتعاليمه وتجاهد فى سبيل نصرته بمالها ودمها .

كان الإسلام عندئذ قد استقر استقراراً نهائياً فى جزيرة العرب ، وإن تخلل هذا الاستقرار ارتداد قبيلة هنا أو عصيان قبيلة هناك ، ذلك أن قوة الإسلام كانت قد طغت وغلبت ولم يعد لأحد قِبَل بمعارضتها أو صد تيارها الجارف . عندئذ كان طبيعياً أن يتطلع محمد إلى ما وراء حدود جزيرة العرب . وكان طبيعياً أن يتطلع إلى الشام بالذات . ونحن نعلم مما سبق أنه عند ما خرج فى غزوة تبوك إنما كان يريد الشام ، ولكنه عاد بدون قتال ومن غير أن يتجاوز حدود جزيرة العرب إلى أرض الشام ، مكتفياً بمصالحة بعض الأمراء على الجزية ، وأجل هذا الغزو إلى فرصة أخرى . فأى شيء إذن يمنع جيوش الإسلام الآن ، وقد اختلف الوضع اختلافاً كبيراً جداً عما كان عليه فى أواخر السنة التاسعة الهجرية ؟ لقد أسلمت جزيرة العرب الآن عن بكرة أبيها ، وأصبحت جميع قبائلها وفيها من جنود الله عشرات الآلاف ، بل مئات الآلاف ناصراً وموزراً ومعيناً . لم يعد من شيء فى واقع الأمر ليحول دون تنفيذه لأوامر ربه عملا بآية القتال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون

دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون(١)»

جهز محمد جيشاً كبيراً فيه كبار المهاجرين الأولين ، وأمّر عليه أسامة ابن زيد بن حارثة ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين . فتجهز أسامة والمسلمون وتجمعوا وخيموا بالجرف على فرسخ من المدينة استعداداً لإيذان الرسول لهم بالمسير . وانصاع المسلمون كبيرهم وصغيرهم لأوامر نبيهم وقائدهم الأعلى ، إلا أن بعض أصوات ارتفعت عندئذ بالطعن فى إمارة أسامة لصغر سنه . فخرج النبي إليهم وخطب فيهم فقال : « إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلى ، وإن هذا لمن أحب الناس إلى بعده . » .

وفى تلك الأثناء وقبل أن يأمر الجيش بالمسير بدأ مرضه الذى قُبض فيه . ويختلف كتاب السيرة فى تحديد المكان واليوم الذى بدأ فيه المرض ، ولكن اختلافهم لا يتعدى أياماً . والمؤكد أنه مرض فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة الهجرية ، وتوفى فى أوائل ربيع الأول ، ولم يطل به المرض أكثر من عشرة أو ثلاثة عشر يوماً ، ولا خلاف على أنه توفى يوم الاثنين . وكان حينئذ قد أتم عشر سنين فى المدينة ، وبلغ من العمر ثلاثاً وستين سنة .

أرق فى ليلة من أواخر شهر صفر ، فخرج من جوف الليل إلى بقيع الغرْقد حيث مدافن المسلمين ، واصطحب معه أبا مويهبة ، فقال له : « يا أبا مويهبة إنى أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى » . فلما وقف بين أظهرهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة أشد من الأولى » .

---

(١) التوبة ٢٩ .

وفى الغداة انطلق فصلى على شهداء أحُد ، ثم أقبل على دار عائشة وهو يشعر بصداع شديد ، ووجدها هى الأخرى تعانى صداعاً وتقول : وا رأساه ! فقال لها : « بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! » .

ثم أقبل عليها يداعبها فقال : « وما عليك لو متّ قبلى فوليت أمرك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك ؟ فقالت ترد عليه دعابته : والله إنى لأحسب لو كان ذلك لقد خلوت ببعض نسائك فى بيتى من آخر النهار . فضحك .

وظل أياماً بعد ذلك يؤم المسلمين فى الصلاة ، ويقاوم المرض بقدر ما يستطيع . وكان يطوف على نسائه كعادته ، حتى إذا كان يوماً فى بيت ميمونة اشتد به الوجع فاجتمع إليه أهله . ولما تشاوروا فى علاجه وكان قد أغمى عليه ، قال عمه العباس : إنا لنرى برسول الله ذات الجنب فهلموا فلنلده[1]. فقاموا فلدوه ، فلما أفاق قال : « من فعل هذا ؟ » . قالوا : عمك العباس تخوف أن يكون بك ذات الجنب . فقال : « ما كان الله ليسلطها على ، لا يبقى فى البيت أحد إلا لددتموه إلا عمى العباس » . فلد أهل البيت كلهم حتى ميمونة وكانت صائمة ، وهو ينظر إليهم .

ثم إنه استأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة ، فأذن له ، فتحامل على نفسه وخرج مستنداً إلى العباس وعلى وهو يجر رجليه جراً لا يقوى على المسير . فلما دخل بيت عائشة واشتد به وجعه قال : « صبوا علىّ سبع قرب من آبار شتى لعلى أعهد إلى الناس » . فأجلسه نساؤه فى طست لحفصة وصببن عليه مياه القِرَب السبع حتى أشار إليهن بيده أن كفى . ثم عصب رأسه بخرقة وخرج إلى الناس فصلى بهم ، ثم حمد الله وأثنى عليه واستغفر للناس ودعا لهم ثم قال : « يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم عيبتى التى أويت إليها ، فأكرموا كريمهم

(١) اللد : هو صب الدواء بالمسعط فى أحد شقى الفم .

وتجاوزوا عن مسيئهم . أيها الناس ، إن عبداً من عباد الله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » . وهنا فطن أبو بكر لما يعنى فبكى وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا . فقال : « على رسلك يا أبا بكر » ، ثم استطرد يقول : « انظروا إلى هـذه الأبواب الشارعة فى المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبى بكر ، فإنى لا أعلم أحداً عندى أفضل فى الصحبة منه » .

ثم إن الوجع والحمى اشتدتا به بعد ذلك حتى لقد شعر بالعجز عن الصلاة بالناس ، فلما أذّن بلال للصلاة ، أمر أن يصلى أحد بالناس ، وكان عنده نفر من المسلمين فيهم عبد الله بن زمعة ، فخرج فإذا عمر فى الناس وأبو بكر غائب ، فقال لعمر : قم يا عمر فصل بالناس . فلما كبّر عمر وسمع النبى صوته الجهورى ، قال : « فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون » . فبعث الناس إلى أبى بكر فجاء وصلى بالناس . وفى هذا إشارة يستبان منها أنه كان يفضل أبا بكر لخلافته وإن لم يشأ أن يوصى بذلك صراحة حتى يظل الأمر شورى بين المسلمين فى مستقبل عهودهم .

حدث هذا على الأرجح فى يوم الأربعاء أو الخميس السابق على وفاته . والظاهر أنه وجد خفة بعد أن صلى أبو بكر بالناس صلاة أو صلاتين ، فخرج متحاملا على العباس ورجل آخر فدخل المسجد ، فلما رآه أبو بكر أراد أن يتأخر فأومأ إليه أن لا يتأخر ، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه ، فصلى أبو بكر وهو قائم مقتدياً به ، والناس يصلون بصلاة أبى بكر . وهذه آخر صلاة صلاها مع الناس .

وحدث فى أثناء ذلك اليوم الذى اشتد عليه فيه المرض أن قال لأصحابه وفيهم عمر : « ائتونى أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً » . فقالوا : ما شأنه أهَجَر ؟ أى هل اختلف كلامه وتغير واختلط بسبب المرض . وقال عمر :

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . وتنازع القوم فهذا يقول قول عمر ، وذاك يقول بل يكتب لنا ما أراد ، حتى إذا كثر لغطهم قال لهم : « قوموا عنى » ، وعاوده الإغماء .

ثم إنه انقطع عن الناس قبل وفاته ثلاثة أيام كوامل ، لا يقوى على الخروج ، وهى الجمعة والسبت والأحد . وكانت حمّاه شديدة ، وكان وجعه أشد ، فضلا عن إغماء كان يعاوده بين الحين والحين . وكان إذا أفاق أقبل على من حضر عنده ينصحهم فيقول : « الله الله فيما ملكت أيمانكم ، ألبسوا ظهورهم وأشبعوا بطونهم ، وألينوا لهم القول » أو يقول لابنته فاطمة ولعمته صفية : « يا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمة رسول الله ، اعملا لما عند الله ، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئاً » . ومما كان يردد فى أثناء تلك الصحوات قوله : « أحسنوا الظن بالله » . ومن آخر ما تكلم به فى أيامه هذه قوله : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يبقين دينان بأرض العرب » .

ولما أفاق مرة فى اليوم السابق على وفاته لم ينس أمر ستة دنانير كانت كل ما بيده عندما دهمه المرض ، وكان قد أعطاها لعائشة لتتصدق بها ، فسألها : « ما فعلت الستة ؟ » . قالت : ما تزال عندى . فأمرها بإحضارها فوضعها فى كفه وقال : « ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وعنده هذه ؟ » . ثم قسم خمسة منها على خمسة بيوت من فقراء الأنصار وأمرها أن تنفق الدينار الباقى وقال : « الآن استرحت » .

وفى صبيحة يوم الاثنين أفاق إفاقة حسنة من غمرة ذلك الوجع الذى أصابه . فتحامل على نفسه حتى باب الحجرة وكشف سترها ونظر إلى المسلمين وهم يصلون صلاة الصبح ساعتئذ خلف أبى بكر ، فهم المسلمون أن يتركوا صلاتهم لفرحهم به ، وهمّ أبو بكر أن يتأخر ليخلى له مكانه ، فأشار إليهم أن يمكثوا كما هم وأرخى الستار . فكان آخر العهد به . لم يكن أحد يدرى أنها صحوة الموت ، بل ظنوا أنه برئ من علته فاغتبط أهله

وفرح المسلمون . وأقبل أبو بكر بعد الصلاة منشرحاً فقال لعائشة : ما أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قد أقلع عنه الوجع ، وهذا يوم بنت خارجة ، يعني إحدى زوجتيه ، وكانت تسكن بالسُّنْح شرق المدينة . ثم ركب على فرس له وذهب إلى منزله .

وما هي إلا لحظات حتى انتابت النبي سكرات الموت ، فكان يغشى عليه ساعة ويفيق ساعة ، وعائشة آخذة به في حضنها ورأسه الشريف على صدرها حيناً ، وحيناً على فخذها . فكان إذا أفاق أشخص بصره إلى سقف الحجرة وقال : « اللهم الرفيق الأعلى » . ومن آخر ما نطق به يومذاك قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » حتى جعل يُغَرْغِرُ بها وما يفصح بها لسانه . وكان إلى جواره قدح فيه ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول : « اللهم أعني على سكرات الموت » . وبينا هو يعاني هذه السكرات وهو مسند رأسه إلى صدر عائشة دخل عبد الرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك ، فلما رأته ينظر إلى السواك ، وهي تعرف أنه يحبه قالت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أي نعم . فلينته له فأمره إمرارة على فيه . ثم أخذ يدخل يده في قدح الماء فيمسح بها وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله إن للموت لسكرات » . ثم نصب إصبعه اليسرى وجعل يقول : « في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى » . ومالت يده في الماء .

قُبِض النبي والشمس بعد لا تزال تعتلي كبد السماء ، في حوالي الظهر أو بعد ذلك بقليل . أما عائشة فإنها من حداثة سنها حينذاك وضعت رأسه على وسادة وقامت تضرب صدرها وتلطم وجهها مع النساء . وجعلت فاطمة تبكي وتقول : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ينعاه ، يا أبتاه من ربه ما أدناه .

وتناقل الناس خبر موت النبي ، فاجتمعوا في المسجد ، بعضهم هنا يقول مات ، وبعضهم هناك يقول لم يمت ، وآخرون لا يحيرون قيلا ولا

قالاً ، قد أخرسهم المصاب . أما عمر بن الخطاب فانتابته حالة ذعر شديد وذهول ، فأخذ يتوعد من قال مات بالقتل والضرب ، ويقول : لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات ، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عِمران ، فلبث عن قومه أربعين ليلة ، وإنى والله لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات .

وفى تلك الأثناء وصل أبو بكر ، فدخل على النبى فكشف عنه الثوب ونظر إليه وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انحنى عليه من قبل رأسه فقبل جبهته ثم قال : وا نبياه ! ثم رفع رأسه وانحنى مرة ثانية وقبل جبهته ثم قال : وا صفياه ! ثم رفع رأسه وانحنى مرة ثالثة وقبّل جبهته ثم قال : وا خليلاه ! مات رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وخرج إلى المسجد فوجد عمر بن الخطاب لا يزال فى ذهوله ، يقول للناس : إن رسول الله لا يموت حتى يُفْنِى المنافقين . فأسرع أبو بكر يتخطى رقاب الناس حتى أتى المنبر ، فأمر عمر أن اجلس فجلس ، ثم نادى الناس فجلسوا وأنصتوا ، فقال بعد أن تشهد : أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، قال الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتِل انقلبتم على أعقابكم »[1] .

فلما تلى أبو بكر هذه الآية أفاق الناس من ذهول الصدمة التى تلقوها عند خبر وفاته ، وكأنهم كانوا لا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية ، وراحوا هنا وهناك يتلونها ويترحمون . أما عمر فقال : هذه الآية فى القرآن ؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم . وقد قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « إنك ميت وإنهم ميتون »[2] . وقال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »[3] . وقال : « كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك

(١) آل عمران ١٤٤ . (٢) الزمر ٣٠ .
(٣) القصص ٨٨ .

ذو الجلال والإكرام »[١] . وقال « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة »[٢] .

وتحقق الناس من موت النبي ، فعاد أسامة بن زيد بجيشه المعسكر فى أطراف المدينة ، وركز رايته عند باب عائشة حيث يرقد محمد مسجى فى فراش الموت . وما لبث الناس ساعة بعد أن هدأت الجلبة والبلبلة التى حدثت فى أعقاب الوفاة ، حتى بدأ صراع على السلطة .

تجمع الأنصار حول سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا سعداً . فلما علم عمر بأمرهم اجتمع إلى أبى بكر ، واجتمع إليهما المهاجرون ، وتخلف على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، ومن تخلف معهم فى بيت فاطمة . وانطلق عمر وأبو بكر على رأس المهاجرين إلى سقيفة بنى ساعدة خشية أن يتفاقم الأمر إذا قرّ رأى الأنصار على أمر لم يجمع عليه المسلمون ، ورسول الله لا يزال فى بيته لم يفرغ من جهازه ودفنه .

وبينما وفد المهاجرين منطلق صوب سقيفة بنى ساعدة لقيهم رجلان صالحان فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قالوا : نريد إخواننا من الأنصار . فقالا : لا عليكم إلا تقربوهم واقضوا أمركم يامعشر المهاجرين . فقال عمر : والله لنأتينهم .

فلما جاءوهم فى السقيفة وجدوهم مجتمعين حول سعد بن عبادة ، وهو مريض قد التف فى ثوبه . فلما جلسوا قام خطيب الأنصار فأثنى على الله وقال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا ، وقد بدرت بادرة منكم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويمنعونا من الأمر .

---

(١) الرحمن ٢٦ — ٢٧ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

فلما سكت همّ عمر بأن يتكلم فخشى أبو بكر حدته فبادره قائلا : على رسلك يا عمر . فامتثل عمر لما يعلم من حكمة أبى بكر ووقاره ، وفضّل السكوت ، فقال أبو بكر : أيها الناس ، نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب ، وأمسهم رحماً برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقُدّمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان »[1] . فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفىء ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعاً . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش ، فنا الأمراء ومنكم الوزراء » .

عندئذ قام الُحباب بن المنذر منفعلا فقال : أنا جُذَيلها المُحكَّك وعُذَيقها المرَجَّب ، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش .

فقال عمر لمالك : ما يعنى : أنا جُذيلها المحكّك وعُذيقها المرَجّب ؟
قال : كأنه يقول أنا داهيتها .

وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشى العقلاء مغبة الاختلاف ، فنادى عمر بأعلى صوته : ابسط يدك يا أبا بكر . فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وهو يقول : ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا جميعاً » . فما أن رأى ذلك الناس ، وقد وعوا ما قال عمر وأدركوا مغزاه حتى أقبلوا على أبى بكر يبايعونه .

فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء اجتمع الناس فى المسجد وتمت بيعة العامة من المهاجرين والأنصار جميعاً . وكان ذلك قبل تجهيز الرسول .

حث عمر أبا بكر على أن يصعد المنبر ، ولم يزل به حتى صعد ، ثم

---

(١) التوبة ١٠٠ .

تكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنى قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت ، وما وجدتها فى كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنى كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا ، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هو به هدى رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه .

فقام الناس فبايعوا أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة .

ونهض أبو بكر فوق المنبر فحمد الله وأثنى عليه وألقى فى الناس خطاباً يعتبر دستوراً ينبغى أن يأخذ به الحكام فى كل زمان ومكان ، قال :

« أما بعد ، أيها الناس فإنى قد وُلّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقوّمونى ، الصّدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أزيح علّته إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

فلما تمهدت الخلافة وتوطدت واستقر أمر المسلمين واطمأنوا على إجماع كلمتهم ولمّ شملهم ، وحسناً ما صنعوا ، شرعوا من ثمة فى تجهيز النبى . وكانوا قد شغلوا بالبيعة بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء . تشاوروا فى أين يدفن ؟ واستقر رأيهم على دفنه فى المدينة . ثم تشاوروا فى أى مكان يدفن بالمدينة ؟ واتفقوا على دفنه حيث قُبض بناء على مقالة

أبي بكر أنه سمعه يقول : ما قُبض نبيّ إلا دُفن حيث يُقْبض . أما كيفية دفنه فقد استقر الرأى على أن تكون إما على طريقة أهل مكة وإما على طريقة أهل المدينة أيهما استخارها الله . فأرسل العباس رسولين أحدهما لأبي عبيدة بن الجراح وكان يضرح كحفر أهل مكة ، والثانى لأبى طلحة زيد ابن سهل وكان يلحد لأهل المدينـــة ، فوجد الثانى صاحبه فجاء ولحد له كأهل المدينة .

واجتمع الناس لغُسْله ، فقام به أهله ، عمه العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل ، وقُثَم ابنا العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وصالح مولاه . فلما هموا بغسله نادى أوس بن خولى الأنصارى الخزرجى وكان بدرياً ، أن يا على ننشدك الله وحظنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأدخله علىّ فحضر الغسل ولم يلِ من غسْله شيئاً . أسنده على إلى صدره وعليه قميصه لم يجردوه منه ولم ير أحد منه ما يُرى من الميت ، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه ، وعلى يغسله ، وأسامة بن زيد وصالح مولاه يصبان الماء . وكانوا يغسلونه بالماء والسِّدْر . ثم جففوه ، ثم صنع به ما يصنع بالميت ، ثم أدرجوه فى ثلاثة أثواب يمانية بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة .

فلما فرغوا من تكفينه وضعوه على شفير قبره ، ثم صلى عليه أهل بيته ، ثم دخل أبو بكر وعمر والمسلمون فصلوا عليه لا يؤمهم أحد فى صلاتهم هذه . ثم دخل الرجال أفواجاً حتى فرغوا ، ثم دخل النساء أفواجاً فصلين عليه ، ثم أدخل الصبيان فصلوا ، ثم أدخل العبيد فصلوا ، وكانوا يدخلون من باب ويخرجون من الباب الآخر . ثم دفن فى حوالى منتصف الليل من ليلة الأربعاء . وولى دفنه وقبره أربعة ، على ، والعباس ، والفضل ابن العباس ، وصالح مولاه . لُحِد له كما قدمنا وبنى فوقه باللبن ثم أهالوا التراب .

وارتد محمد إلى أمنا الأرض ، التى منها أتينا وإليها نعود . أما إذا كان كل إنسان فى هذه الدنيا إنما يخلّف من بعده أثراً ، قد يزول بعد لحظات أو أيام أو سنين أو آلاف السنين ، كلٌ حسب ما أوتى من قوة عقلية وقدرة نفسية ، وما ترك للأجيال من بعده ، فإن الأثر الذى خلفه محمد رسول الله ، ذلك النبى الأمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، سوف يبقى خالداً على الدهر ، وعلامة على الطريق فى حضارة الإنسان . فإلى الفصل التالى .

الفصل الثلاثون

أثر الإسلام فى الحضارة

ظهر محمد فى أوائل القرن السابع الميلادى ، فى عصر كان عالم الحضارة قد انحدر فيه إلى أقصى دركات الانحدار ، وأسس ديناً ودولة ، فكان الدين لله والدولة للجميع . وانتصر المسلمون فى حروبهم الأولى على أكبر إمبراطوريتين فى العالم المعروف فى ذلك الوقت ، وأقاموا دولة كبرى كان أهم خصائصها أنها دولة علمية حمت جميع رعاياها بغض النظر عن معتقداتهم الدينية أو سلالاتهم ، واستطاعت بفضل المفاهيم التى أرساها مؤسسها الكريم أن تضع أصول حضارة مميزة الطابع يحق لنا أن نسميها بالحضارة الإسلامية العلمية ، وهى حضارة حققت فى واقع الأمر إنجازات علمية ضخمة جداً يدين لها عالم الحضارة فى كل مكان .

ولما كانت دولة الإسلام هذه قد تأسست فى واقع الأمر على أشلاء الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية من حيث رقعة الأرض التى اكتسبتها ، وعلى بقايا الحضارة العلمية القديمة التى عرفها حوض البحر الأبيض المتوسط ، والتى قوضتها الدولة الرومانية أولا ، ثم آباء الكنيسة المسيحية ثانياً ، كان لزاماً علينا إذا أردنا أن نتكلم عن الدور الذى أداه الإسلام للحضارة الإنسانية ، أن نلم ولو على عجل بالحالة التى أحدثتها الإمبراطورية الرومانية أولا ، ثم المسيحية ثانياً ، فى عالم الحضارة القديم ، وكيف انهارت هذه الحضارة القديمة ، وكاد كل أثر لها أن يزول ويضيع تماماً لولا ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلامية التى انطبعت بطابع علمى أصيل ، وأخذت على عاتقها انتشال العلوم القديمة من وهدة الضياع التى ألقتها فيها المسيحية ،

وكيف وضعت علوم جديدة كانت الأساس الذى بنيت عليه الحضارة الحديثة فى أوربا .

وأعتقد أنه ينبغى لنا قبل أن نتكلم فى أثر الرومان والمسيحية فى الحضارة أن نذكر باختصار كيف انتقلت الحضارة القديمة من الشرق ومصر خاصة إلى اليونان ، وكيف طبعوها باسمهم ، حتى نستطيع — اعتماداً على أوثق المراجع الحديثة — أن نصحح بعض الأوضاع العجيبة التى سادت قروناً طويلة فى هذا الشأن . ذلك لأن معرفتنا الصحيحة بهذه الحقائق ضرورة قومية لا ينبغى الاستهانة بها . وفضلا عن هذا فقد حاول كتاب الغرب بكل طاقتهم أن يعمموا القول بأن الحضارة اليونانية حضارة نابعة من الوسط اليونانى وحده ، وأنها لم تتأثر بمؤثرات خارجية ، وعملوا من ثمة إلى ربطها بحضارة غربى أوربا متناسين حضارة الإسلام باعتبارها دوراً من أدوار الحضارة مميزالطابع ، وعندئذ يكونون فى ظنهم وتحقيقاً لإسرافهم فى وطنيتهم العمياء وغرورهم ، قد تمكنوا من الادعاء بأن أوربا لا تدين لحضارة أخرى خارجية غير حضارتها هى التى نشأت على الأرض الأوربية . وهذا منهج وإن ساد فى عصر الاستعلاء الأوربى فى القرن التاسع عشر ، فقد بدأ ينهار تحت وطأة البحوث الجديدة ، وعلى الأخص تلك التى ساعدت عليها المستكشفات التى عثر عليها المنقبون فى خلال ذلك القرن فى حفائر مصر القديمة وبلاد ما بين النهرين . ولا عجب أن نرى أكبر كاتب غربى معاصر فى تاريخ العلم يهزأ من هذا المنهج فيقول : « إنه من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق ، لأن المعجزة اليونانية سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من البلدان . أما العلم اليونانى فكان إحياء أكثر منه اختراعاً . وكفانا (أى الغربيين) سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهلينى مستطاعاً بدونها »[1] .

G. Sarton : Introduction to the History of Science vol. I. P. 17. (١)

والحق أن العالم اليونانى لم ينتعش إلا بعد هجرة اليونان إلى وادى النيل كما يقول الأستاذ ملهود . ليس هــذا فقط ، بل إن معظم المآثر العلمية اليونانية لم تتحقق فى بلاد اليونان ، وإنما حققها علماء من أصل يونانى تعلموا فى الجامعات المصرية وعاشوا فى الأسكندرية ، وكتبوا مؤلفاتهم فيها ، مثل إقليدس ، وبطلميوس ، وديوفانتس وغيرهم . وقصة هذا كله أن مصر عند ما سمحت لليونان بدخول معاهدها العلمية ، كانت فى آخر عهودها بالاستقلال . فلما قضى على استقلالها فى أعقاب السماح لليونان بالهجرة إليها ودراسة علومها ، لم يكن هناك فى واقع الأمر مصريون قادرون على الدفاع عن علومهم . وأما اليونان أنفسهم فدخلوا دنيا العلم المصرى وكأنها لم يعد لها صاحب فنسبوه إلى أنفسهم .

غير أن الحقيقة التى لا زالت تثير فكر الباحث فى أصول الحضارة اليونانية ، إنما تنحصر فى عجزه عن التمييز تمييزاً نهائياً بين ما هو يونانى أصلى ، وما هو مصرى ، أو بابلى ، أو شرقى عموماً . والسبب فى ذلك كما قال الأستاذ تشارلز سنجر : « إنه لم يصلنا إلا نادراً اسم مستكشف أو مخترع من علماء الحضارات القديمة فيما عدا الحضارة اليونانية فقط ، لأن طابع الإنتاج الثقافى للعصر السابق كان جماعياً لا فردياً . وعلى هذا كان الحظ حليف علماء المدن اليونانية عند ما وضعوا أيديهم على هذا الإرث الشرقى الذى لا صاحب له ، وأنهم كثيراً ما يثيرون شكاً مريباً حول إخفاء الدين الذى فى عنقهم للحضارات القديمة . ومن سوء الحظ أن ضاعت الأخبار والمؤلفات التى يمكن الاعتماد عليها فى تحديد أصول العلم اليونانى ، مثل تاريخ الرياضيات ليوديموس تلميذ أرسطو . ثم إن اليونان عند ما ورثوا هذه المادة العلمية طبعوها بطابعهم الفردى وبطريقتهم الشخصية . ولقد أشار البعض إلى خلقهم المركز حول ذواتهم . وهذا أمر لاحظه اليونان أنفسهم . لقد كانوا يفكرون باعتبارهم أفراداً لا جماعة . ولذلك فإن العلوم التى

ورثوها من الحضارات القديمة انقلبت فى أيديهم من علوم جماعية لا صاحب لها بذاته ، إلى علوم أصبحت تعرف بأسمائهم ، وهذا طابع احتفظت به حضارتهم منذ ذلك الحين »(١) .

مثال ذلك ما أحيط به أبقراط فى عالم الطب حتى أواخر القرن التاسع عشر . لقد سمى هذا الطبيب الشهير بأبى الطب ، وظل هذا اللقب يتناقل عبر العصور حتى عصر قريب جداً ، عند ما اكتشف المنقبون عن الآثار المصرية القديمة فى أواخر القرن التاسع عشر بردية مصرية ، فيها بحث طبى كامل ، هو عبارة عن دراسة تشريحية لجسد الإنسان من قمة الرأس إلى أخمص القدمين . وعندئذ بدأت منزلة أبقراط تتراجع كثيراً ، بل كثيراً جداً ، من رأس القائمة فى عالم البحث الطبى العلمى ، إلى مجرد منتصف القائمة بيننا وبين الطبيب المصرى الذى كتب هذه الرسالة الطبية فى مصر القديمة . ونحن على أية حال لا تعوزنا أمثلة أخرى ، ولكن نكتفى بهذا القدر فى هذه العُجالة .

بدأ الرومان فى خلال القرن الأول قبل الميلاد يستولون على عالم الحضارة القديم فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، حتى تم لهم إخضاع هذا العالم إخضاعاً نهائياً لسلطانهم . أما إذا نظرنا فى العلم اليونانى القديم الذى تركزت فيه جميع الجهود العلمية السابقة التى خلفتها حضارة مصر القديمة ، وحضارة بلاد ما بين النهرين ، لعلمنا أنه كان قد فقد عندئذ نضارته ، وبدا فى أواخر القرن الثانى الميلادى وكأنه يحتضر .

واقع الأمر أن الرومان بغطرستهم الوطنية ، ونظام استعبادهم البغيض ، وقسوتهم ، وظلمهم ، واضطهادهم وكبحهم للشعوب التى حكموها والتى كانت موئل الحضارة القديمة ، قد حطموا فيها روح الخلق والابتكار ، والشعور بالاستعلاء ، وقضوا بهذا على شعوب البحر المتوسط وعلى رغبتها

---

(١) Ch. Singer : Greek Science and Modern Science P. 9

فى التطلع إلى ما هو أحسن . والحق أن تلك الرغبة الجامحة التى تتملك الشعوب فى بعض الفترات التاريخية وتدفعها إلى النهوض والاستعلاء والعظمة ، لا تظهر إلا فى عصور الرخاء والحرية والنجاح والمثل الأعلى . أما هذه الشعوب أى شعوب شرقى البحر المتوسط التى كانت تحمل الحضارة القديمة وتحافظ عليها وتنميها وتطورها ، فأصبحت تحت عسف الحكم الرومانى الغشيم مخذولة بائسة منكودة لا حول لها ولا قوة . ومن ثمة خبت فيها تلك العزيمة الجبارة والرغبة الجامحة التى سيطرت عليها فى الماضى ودفعتها للاستعلاء ، بل كادت تنطفىء شعلتها التى تلاعبت بها تلك الرياح العاصفة التى هبت عليها من روما . وبهذا حطمت روما حضارة العصور القديمة — ولو عن غير قصد منها — ولم تعوض عالم الحضارة عنها شيئاً . وإنها لحقيقة تاريخية ذات بال ، هى أن الرومان لم يكونوا فى الحقيقة مؤهلين للعلم . فروما لم تكن فى أى من عصور ازدهارها مركزاً من مراكز الثقافة العلمية ، مثل أثينا ، أو الأسكندرية ، أو بغداد ، أو القاهرة ، أو قرطبة ، أو باريس ، أو أكسفورد .

ضعف العلم اليونانى بالتدريج ، واختتم بطلميوس وجالينوس فى القرن الثانى الميلادى قوته الابتكارية ، ولم يظهر بعدهما عالم يونانى واحد نستطيع أن نصفه بأنه كان ذا أثر فى تاريخ العلم . وظل العلم اليونانى ينحدر فى خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين فى ظل الحكم الرومانى . ولم تستطع روما بكل جلالها وبعظيم إمبرطوريتها أن تعوض عالم الحضارة عنه شيئاً كما قلنا . يقول الأستاذ دامبير قولة صدق : « ابتعدت الفلسفة والعلوم فى ذلك العصر شيئاً فشيئاً عن أن تكون طبيعية وتجريبية ، وارتبطت شيئاً فشيئاً بالأفكار الغامضة . ذلك أن الأفلاطونية الجديدة قد تبنت وامتصت كل خرافة شعبية وكل ما يتعلق بالتنجيم والشعوذة والسحر ، وكل ميل نحو الباطنية والتصوف ، مما أصبح يبشر بعصر انحلال قريب » . أما الضربة القاضية فجاءت على أيدى رجال اللاهوت المسيحى .

ونحن إذا نظرنا فى انتشار المسيحية ، وفى الآثار التى أحدثتها فى عالم الحضارة ، إذن لعلمنا أولا أن هذا كله لم يحدث مباشرة بعد ظهور المسيح عليه السلام . ذلك أن المسيحية لم تنتشر فوراً ، وإنما انتشرت ببطء شديد وبالتدريج ، وفى خلال ثلاثة قرون ، لم يكن للمسيحيين فيها قوة مادية تذكر . فقد اعتبرتهم سلطات الإمبراطورية الرومانية طوال هذه القرون طائفة منبوذة خارجة على القانون ، ولاحقتهم بألوان من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل حتى أوائل القرن الرابع الميلادى . فحتى سنة ٣٠٣ م . كان لا يزال الإمبراطور ديوكلشيان يصدر الأوامر بتدمير كنائس المسيحيين وحرق كتبهم . غير أنه حدث تغير شامل فى موقف السلطات الرومانية من المسيحيين فى عهد الإمبراطور قسطنطين الأكبر . فقد أصدر الإمبراطور فى السنة التالية لجلوسه على العرش (٣١٣ م) مرسوماً يأمر فيه بالتسامح مع المسيحيين : « نقرر أنه من الأوفق لحكم العقل ألا يحرم أحد من الارتباط بشعائر المسيحيين أو أى شعائر دينية أخرى يقوده إليها عقله . وبناء على ذلك فإن ممارسة الشعائر الدينية جميعاً بحرية وعلنية أصبح ممنوحاً للجميع بما فيهم المسيحيون ، ذلك أنه من الأفضل لاستقامة الأمور ولاستتباب الهدوء الذى ننشده لحكمنا ، أن يُسْمح لكل فرد وبناء على اختياره أن يعبد ربه »

غير أن الأمور لم تستتب للمسيحية بمجرد ظهور هذا المرسوم ، ذلك أن الإمبراطور قسطنطين نفسه لم يعتنق المسيحية إلا فى أواخر حكمه ، أى بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة ، وظلت الدولة الرومانية دولة وثنية . ثم جلس على عرش الإمبراطورية إمبراطور وثنى هو جوليان الذى ظل يحارب المسيحية حتى أواخر عهـــده فى سنة ٣٦٣ م ، ويحاول جاهداً إعادة الوثنية وإحياء الفلسفة القديمة . ثم تمكنت المسيحية بعد ذلك إبتداء من عهد الإمبراطور ثيودوسيوس (المتوفى فى سنة ٣٩٥ م) وأصبحت ديناً رسمياً للدولة الرومانية .

وكان هذا الإمبراطور نفسه الذى مكن للمسيحية ، أول من اعتصرته السلطات الإكليروسية وأخضعته لحكمها ، ومن ثمة فتح الباب على مصراعيه لسيطرة رجال الدين المسيحى سيطرة تامة على مجريات الأمور فى الإمبراطورية فأخضعوا السلطات الحاكمة وشعوب الإمبراطورية للعقائد اللاهوتية التى استمدوها من الكتاب المقدس . وبدأ من ثمة مع ميلاد القرن الخامس الميلادى عصر عجيب لم يشهد التاريخ البشرى له مثيلا ، انطبع بطابع نسيج وحده من النظريات التحكمية ، والعقائد الغريبة اللاعقلية التى أخذ آباء الكنيسة المسيحية ورجال اللاهوت — بعد أن تمكن لهم سلطان دينى ودنيوى باخضاع الأباطرة لهم — يفرضونها فرضاً على الجماهير ، بقوة الإقناع تارة وبقوة السلاح أخرى ، وبالتعذيب والإحراق والشنق ومختلف وسائل الاضطهاد فى معظم الأحيان .

تناول آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت المسيحى نصوص الكتاب المقدس ، وآمنوا أول شيء بأن هذه النصوص لا يمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأنها بكل ما تحمل من تفسيرات حرفية إنما تعبر تعبيراً صادقاً وحقيقياً عما تشير إليه وما تخبرنا به صراحة ، وأن الكتاب المقدس قد حوى بين دفتيه كل ما يمكن للإنسان أن يعرفه أو يبتغيه سواء فى هذه الدنيا أو فى الآخرة . ومن ثمة وضعوا نظرياتهم اللاهوتية وبنوا عقائدهم الدينية على هذا الأساس . وانتهوا إلى أن هذه النظريات والعقائد المستمدة من النصوص الصريحة للكتاب المقدس ، هى وحدها التى ينبغى للناس أن يؤمنوا بها ، وأن الذين يعارضونها أو يشكون فى صحتها إنما يستحقون اللعنة والعذاب والهلاك ، وبرروا لأنفسهم اتخاذ أقصى ضروب القهر والتنكيل بمن يعارضهم ، مستمدين هذا التبرير من نظرية توهموها هى أنهم طالما كانوا الممثلين لله فى الأرض ورعاة كنيسته ، فلماذا لا يقلدونه إذ يعذب المارقين من دينه تعذيباً أبدياً فى مدته رهيباً فى قسوته ، ويفعلون بعباده كما يفعل هو بهم .

ثم إن هؤلاء اللاهوتيين اعتقدوا أنه من واجبهم المقدس ، وانطلاقاً من إيمانهم بكتاب الله وأوامره ، وباعتبارهم ممثلين لله فى الأرض ، أن يعملوا بكافة الوسائل على فرض هذه المعتقدات التى استمدوها من الكتاب المقدس ، وآمنوا بأنها كلمة الله النهائية فى كل شئون الإنسان والكون . فما هى إذن طبيعة النظريات والأصول التى وضعها علماء اللاهوت المسيحى والتى بنى عليها هؤلاء التقاة الورعون هذا النسيج كله ؟ ثم ما هى طبيعة النظريات والأصول الإسلامية التى بشرت بمبادئ وعقائد جد مختلفة ، كان لها الأثر الأكبر فى وضع حد لعصور الظلام فى القرون الوسطى ، وفى إرساء قواعد الحضارة الحديثة العلمية ؟

الأصل الأول[1] الذى حدثنا عنه علماء المسيحية هو المعجزات وخوارق العادات ، بمعنى أن الدليل الذى قدمه المسيح على صدقه هو ما كان يصنع من الخوارق والمعجزات ، وهى كثيرة جداً تفيض بها صفحات الأناجيل . ومن ثمة جُعلت هذه الخوارق والمعجزات دليلا على صحة الدين للآتين من بعده . ولما كانت خوارق العادات أموراً مخالفة لقوانين الطبيعة وسنن الكون وشرائعه ، فإنها كانت من ثمة مضادة لكل علم من العلوم التى اكتشف العلماء قوانينها الطبيعية كالفلك مثلا ، وهى علوم لا بد فيها ما يخالف هذه الخوارق . ومن هنا وقف هذا الأصل عائقاً كبيراً جداً فى وجه العلوم وصدها عن الانطلاق فى مجراها الطبيعى . وبرر لرجال اللاهوت المسيحى مواقفهم المعروفة ضد العلم ، والتى لم يتنازلوا عنها تنازلا نهائياً إلا فى أواخر القرن التاسع عشر .

أما الإسلام فليس فيه ما يجعل من المعجزات دليلا على صحة الدين ؛ ولا يعول فى الدعوة إلى الحق على غير الدليل ، وليس فيه من معجزة على صدق مؤسسه سوى القرآن . ولقد تمسك نبى الإسلام تمسكاً شديداً بأنه

---

(١) راجع الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده .

ليس له معجزات غير القرآن . ومصداق ذلك ما أفصح عنه فى كثير من المواقف . احتاج جيش المسلمين فى يوم حار إلى ماء للشرب وكان النبى على رأس هذا الجيش ، فلما أمطرت السماء وارتوى الناس ، زعم بعضهم أنها معجزة . ولكن محمداً نهاهم عن مثل هذه التهويمات ، ورفض هذا القول وقال بمنتهى البساطة : « إنها سحابة مارة » . ولما كُسفت الشمس يوم وفاة ولده إبراهيم ، قال الناس إنها إنما كُسفت حزناً عليه ، وظنوا أن كسوفها معجزة ، ولكن النبى هنا أيضاً نهاهم عن مثل هذا التفكير وخطب فيهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

والأصل الثانى من أصول المسيحية هو السلطة الدينية لرؤساء الدين على المؤمنين فى عقائدهم وما تكنه ضمائرهم . جاء فى الإصحاح السادس عشر من إنجيل متى : « أعطيك مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السماوات وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات » . وجاء فى الإصحاح الثامن عشر من نفس الإنجيل : « الحق أقول لكم : كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء . »

من هنا تأسست فى المسيحية طبقة رجال الدين التى تتدرج فى نظام هرمى من أصغر القسس إلى الحبر الأعظم المعصوم من الخطأ ممثل المسيح فى العالم وهو البابا . وهذه الطبقة من رجال الدين فى المسيحية ركن ركين من أركانها ، ذلك أنها موكول إليها أمر المسيحيين فى دنياهم وأخراهم ، ترشدهم وترعاهم وتفرض عليهم ما تراه ضرورياً لحفظ الدين وحفظ أرواحهم ذاتها من الهلاك . معنى هذا أن الشخص فى المسيحية إنما يصير مسيحياً من خلال التعميد وبقول القسيس له إنه أصبح مسيحياً . كذلك يستطيع القسيس أن يحكم على شخص بأنه لم يعد مسيحياً فيصير كذلك .

وإذن فالشخص فى المسيحية ليس حراً كامل الحرية الشخصية فى اعتقاده بما يرشده إليه عقله ، بل إن كونه مسيحياً أو غير ذلك مربوط بما يتفوه به رئيسه الدينى . ولقد جرت المسيحية على هذا الأصل طوال تاريخها ، ولم ينازع فيه بعض النصارى إلا أخيراً . والحق أن الشعوب المسيحية تحملت نتيجة لهذا الاعتقاد آلاماً تفوق الوصف[1] أحدثها كثير من البابوات والأساقفة والقساوسة وقضاة محاكم التفتيش طوال قرون عديدة لم تنته إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وذلك بما وضعوا من نظريات دينية وعلمية وهمية فرضوها فرضاً على المؤمنين ، وتصدوا لمن قاومها من العلماء بالحديد والنار .

ثم إنه سار إلى جانب هذه السلطة الدينية المسيحية غير المحدودة على ضمائر الناس ومكنونات نفوسهم ، سلطة مدنية أخرى استمدت شرعيتها من نصوص الكتاب المقدس التى جاءت على لسان القديس بولس . يقول القديس فى رسالته إلى أهل رومية : « باركوا على الذين يضطهدونكم ، باركوا ولا تلعنوا » . ويقول فى نفس الرسالة : « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة » . ولا يخفى بطبيعة الحال ما كان لمثل هذه التعاليم من آثار وخيمة .

يقابل هذه التعاليم فى الإسلام تعاليم واضحة جداً تحث الناس على عدم الخضوع للسلاطين إذا رأوا أنهم لم ينهجوا السبيل القويم فى حكم الناس بما جاء فى القرآن والسنة . ولا عجب إذن أن نسمع أبا بكر أول خليفة للمسلمين يقول للناس فى أول خطبة له بعد أن ولوه شئونهم : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » . ويأتى من بعده عمر بن الخطاب فيؤكد هذه الروح فيقول : « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً

---

(١) راجع A. D. White : A History of the warfare of Science with Theology in Christendom.

فليقوّمه » . فيقوم له رجل من عامة الناس فيقول له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوّمناه بسيوفنا » .

ولقد وقف الإسلام على طرفى نقيض مع المسيحية هنا أيضاً . فليس فى الإسلام سلطة دينية ، ولا رجال دين ، ولا أحد على الإطلاق بين الإنسان وخالقه . فليس لأحد سلطان على عقائد الناس ولا سيطرة على إيمانهم ، ذلك أن أحداً لا يمكن أن يعرف دخائل الناس إلا الله . ولقد نهى رسول الإسلام عن أخذ الناس بالشبهات ، ويؤثر عنه قوله إنه لم يؤمر بأن يفتش عما فى قلوب الناس . وجاء فى الحديث قوله : « إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يبعثنى بالرهبانية المبتدعة » . والإيمان فى الإسلام يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده . وليس لأحد فى الإسلام مهما علت منزلته ، على آخر ، مهما انحطت منزلته ، إلا حق النصيحة والإرشاد . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[1] . ويقول : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[2] . ويقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون »[3] .

المسلمون إذن يتناصحون ويقيمون أمة تدعو إلى الخير ، وأما المتفقهون فى الدين فليس لهم على الأمة الإسلامية إلا الدعوة والتذكير والإنذار والتحذير بالمعروف ، وليس لأحد من الناس أياً كان أن يكشف عن عورة أحد أو يتجسس عليه فى عقيدته . ولا ينبغى للمسلم أن يتلقى عقيدته أو يأخذ أصولها عن أحد إلا عن كتاب الله الذى هو القرآن ، ثم سنة رسوله .

أما خليفة المسلمين فرجل منهم ينتخبونه بالشورى ، ليس معصوماً ،

(١) آل عمران ١٠٤ . (٢) العصر ٣ .
(٣) التوبة ١٢٢ .

ولا هو مهبط الوحي ، ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة ، يطيعه المسلمون ما دام على محجة الصواب ونهج الكتاب والسنة ، فإذا انحرف انبغى لهم أن يكونوا له بالمرصاد يقوّمون عوجته ويردونه إلى الصواب ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فإذا لم يرعوِ فلهم أن يسحبوا عنه بيعتهم ويستبدلوه بغيره .

والأصل الثالث للمسيحية هو ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أى التجرد من الدنيا والانقطاع للآخرة . جاء فى الإصحاح السادس من إنجيل متى قوله : « لاتقدرون أن تخدموا الله والمال . . . لذلك أقول لكم لاتفكروا فى حياتكم ، وفيما تأكلون ، وفيما تشربون ، ولا تفكروا فى أبدانكم ، وفيما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ . . ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه تزاد لكم . . . فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفى اليوم شره » . وجاء فى الإصحاح التاسع عشر من نفس الإنجيل : « الحق أقول لكم إنه لأيسر للجمل أن يدخل فى ثقب إبرة من أن يدخل الرجل الغنى مملكة السماء » . وجاء فى الإصحاح العاشر : « لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم . . . ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا إلخ » . وفى الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى أيضاً حث صريح على الرهبانية وترك الزواج إطلاقاً ، يقول : « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يقبل فليقبل » .

أما النتائج المباشرة لمثل هذه التعاليم التى تلقاها آباء الكنيسة الأوائل باعتبارها أوامر لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فكانت عجيبة جداً . فقد شاع فى طول عالم النصرانية وعرضه روح تهدف إلى ترك الدنيا وما فيها والانقطاع إلى الآخرة ، حتى لقد شاع القول بأنه طالما سيهلك هذا العالم ويزول ، فلماذا إذن التفكير فيه وفى أموره ؟ . ثم إنه ساد جو عجيب

من الزهد . ويدلنا التاريخ على كثيرين من القديسين الذين تركوا أجسادهم نهباً للحشرات والهوام تديناً . ولا عجب فقد امتنع بعضهم عن الاستحمام أو غسل الأيدى والأطراف طوال حياته . وشاع المثل القائل بأن القذارة من الإيمان ، وظلت البيوت فى أوربا تبنى بدون حمامات حتى القرن العشرين ، ولسنا نعلم أن أحداً فى العالم المسيحى الأوربى نادى بأن النظافة من الإيمان قبل جون وزلى فى أواخر القرن الثامن عشر .

ومن ناحية أخرى وبناء على النص السابق ذكره الذى يتحدث عن الخصيان الذين خصوا أنفسهم ، تكونت فى أعقاب انتشار المسيحية جماعات دينية يعرفها التاريخ من رجال خصوا أنفسهم اختياراً عملا بهذا النص .

ثم إننا لا ينبغى أن ننسى أنه لما كان الهم الأكبر للمسيحيين فى هذا العصر العجيب قد وُجّه للعبادة وللعمل على انتظار ملكوت السماء دون أى شيء آخر ، كان لزاماً على عالم كهذا أن ينظر نظرة شك إلى العلم والعلماء . وإننا لنقع على نصوص صريحة تقف حجر عثرة ضد العلم والعلماء ، أدت فى النهاية إلى وقوف عالم النصرانية كله موقفاً عدائياً من العلم . جاء فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس فى الإصحاح الثالث : « لا يخدعن أحد نفسه . إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلا لكى يصير حكيماً . لأن حكمة هذا العالم هى جهالة عند الله لأنه مكتوب الآخذ الحكماء بمكرهم . وأيضاً الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة . إذن لا يفتخرن أحد بالناس » . وجاء فى هذه الرسالة أيضاً : « اختار الله جهلاء العالم ليخزى الحكماء . واختار الله ضعفاء العالم ليخزى الأقوياء » . وجاء فى الرسالة إلى كولوسى : « انظروا ألا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة وبغرور باطل حسب تقليد الناس حسب أركان العالم وليس حسب المسيح » وفى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس : « يا تيموثاوس احفظ الوديعة معرضاً عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الإسم » .

وبناء على هذا كله شاع فى عالم المسيحية المثل القائل بأن « الجهالة أم التقوى ورأس العبادة » . وبرر آباء الكنيسة وزعماء اللاهوت المسيحى الحرب ضد العلم والعلماء مما سيأتى بيانه فيما بعد . ولا ينبغى إذن والحال كذلك أن نستغرب قول القديس أوغسطين : « أى شأن لى فى أن أعرف إذا كانت السماوات كرة تتضمن الأرض ، معلقة فى وسط الكون ، أم أنها تشرف مرتكزة عليها من كلا الجانبين » . أو قول القديس أمبروز : « إن البحث فى الطبيعة ومركز الأرض أمور لا تساعدنا فى آمالنا فى الحياة الأخرى » أو موقف البابا جريجورى الأكبر الذى كان من أكبر المتحمسين المفسرين للمثل الكنسى القائل بأن « الجهالة أم التقوى ورأس العبادة » والذى كان يباهى بأنه لا يعبأ بقواعد الكتابة ، والذى نجح فى استئصال شأفة كل أثر للعلوم من إيطاليا .

وبينما كان هذا هو موقف المسيحية من هذه الدنيا ، كان الإسلام على نقيض ذلك تماماً . فقد حض الإسلام المؤمنين على أن يتمتعوا بهذه الدنيا وبطيبات ما رزقهم الله . ويؤثر عن النبى قوله : « سنتى الصلاة والنوم والإفطار والصوم فمن رغب عن سنتى فليس منى » . وقوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . هذا فضلا عن أحاديث نبوية كثيرة تحض على العلم وتشيد بالعلماء كقوله عليه السلام : « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » . و « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » . و « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . و « من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » . و « اطلب العلم ولو فى الصين » . و « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ، ولمداد ما جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء فى سبيل الله » .

وكان طبيعياً أن يشيع فى عالم الإسلام نتيجة لهذه المفاهيم التى تحض على الإقبال على الدنيا بأقصى ما يستطيع الإنسان ، وعلى التمتع بما فيها من

طيبات ، المثلان : « النظافة من الإيمان » و « الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة » وأن يحاول الناس من ثمة بلوغ أقصى درجات الرقى ، وأن يحصلوا أقصى ما يستطيعون من علم . وكان نتيجة ذلك انقلاب جذرى فى عالم الحضارة أدى إلى أسعد النتائج .

والأصل الرابع الذى تمسك به علماء اللاهوت المسيحى والذى يعنينا فى هذه الدراسة هو أن الكتاب المقدس قد حوى كل ما يحتاج إليه البشر فى المعاش والمعاد ، وأن الله لم ينزل على أنبيائه ورسله وحياً يقتصر على هداية البشر إلى الدين فحسب ، وإنما أنزل عليهم كل ما أراد أن يعلمه البشر من شئون الكون ، وأن الكتاب المقدس يحوى من المعارف الدينية والدنيوية كل ما قدر الله للبشر أن يعرفوه . إذن فجميع ما جاء فى الكتاب المقدس من شئون السماء وما فيها ، والأرض وما بجوفها وما عليها ، وما ذُكر فيه من تاريخ الأمم والشعوب ، ينبغى أن يكون فى الدرجة الأولى ما يُعوَّل عليه المؤمنون ، والمصدر الذى يستمدون منه كل علومهم التى يحتاجون إليها ، لأن الكتاب المقدس صدق ولأن الله لم ينزل على رسله وأنبيائه هذه التعاليم هباء . ومن هنا عمد آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت بعد أن قضوا قضاء مبرماً على كل أثر للعلم اليونانى القديم سواء فى الجغرافيا أو الطب أو الفلك أو غير ذلك ، وحرموه بتاتاً ، إلى وضع علوم جديدة فى الجغرافيا والطب والفلك والجيولوجيا والتاريخ والحيوان إلخ ، واستمدوا أسسها مما جاء فى الكتاب المقدس وفرضوا هذه العلوم على عالم النصرانية فى القرون الوسطى ، وصارعوا العلم والعلماء الذين رجعوا إلى العلوم الدنيوية أو نظروا نظرة حرة فى الكون صراعاً شديداً استمر حتى أواخر أواخر القرن التاسع عشر وتجلى بصورة أو بأخرى(١) .

---

(١) يقع القارئ على شرح واف ومفصل لجميع النظريات والعلوم التى وضعها آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت فى القرون الوسطى ولمراحل الصراع بين اللاهوت المسيحى والعلم فى هذه العصور وحتى أواخر القرن التاسع عشر فى كتاب الأستاذ الكبير أندرو ديكسون وايت : **A History of the warfare of Science with Theology in Christendom**

أما الإسلام فليس فى نصوصه ولا فى روحه شيء يمنع المسلمين من حرية النظر فى الكون وكيف خلق وكيف تسير شئونه . وقد حث الإسلام المسلمين على العلم وعلى التفاضل بالعلم فى قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ثم إن علماء الإسلام اتفقوا على أنه إذا تعارض الدليل العقلى القطعى مع ظاهر الشرع غير القطعى ، وجب تفضيل الدليل العقلى والأخذ به . ومن هنا اتسع المجال أمام العلماء ووجدوا مجالا فسيحاً لتأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . وبهذا لم يبق من عقبة فى سبيل العقل لينطلق إلى أقصى حدوده باحثاً عن الحقيقة . والحق أن شيئاً من مثل هذه التهويمات التى أشاعها رجال الكنيسة فى القرون الوسطى لم يقف أمام العقل الإسلامى ولم يصده عن الانطلاق ، فاعتمدت حضارة الإسلام أول ما اعتمدت على العقل ، وعلى العلم ، وعلى ما تثبته التجربة ، فكانت بحق حضارة علمية فى المقام الأول .

نضرب هنا مثلا نبين به كيف نظر كل من المسيحيين والمسلمين إلى حقائق الأشياء ، وكيف تصرف كل فريق إزاء النصوص المقدسة . وضع الراهب المصرى قزماس فى القرن السادس الميلادى نظرية فى جغرافية الكون استمدها من الكتاب المقدس ، وقيل فى ذلك الوقت إنها نظام كامل مفصل عن الكون . ولقد قبلت نظرية قزماس كما لو كانت وحياً منزلا ، واعتبرها اللاهوتيون فى الشرق والغرب حصناً حصينا من حقائق الكتاب المقدس . ومما جاء فى هذه النظرية أن الملائكة لا يدفعون الأجرام السماوية ويجذبونها لتنير الأرض فحسب ، وإنما يفتحون ويقفلون طاقات السماء أيضاً ليندفع منها الماء على الأرض ليرويها . واعتمد قزماس فى هذا القول على نص سفر التكوين القائل : « انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء »[1] . وهذا مثال من نوع التفكير الذى سيطر على عقول علماء اللاهوت المسيحى

---

(١) سفر التكوين : ٧ : ١٢ .

وجعلهم يستمدون العلم من ظاهر نصوص الكتاب المقدس ونتيجة لتفسيرها تفسيراً حرفياً لا غير . والحق أنهم تمسكوا بالتفسير الحرفي لنصوص الكتاب المقدس فى مختلف مجالات العلوم التى استخرجوها من هذا الكتاب ، وأكدوا صحتها ، وظلوا يتمسكون بها قروناً طويلة ويصدون بها كل علم حقيقى بالحديد والنار ومحاكم التفتيش ، وما أدراك ما محاكم التفتيش .

ضربت هذا المثل بالذات لأن فى القرآن آية مشابهة لهذا النص الذى استشهد به قزماس هى قوله تعالى : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر »[1] لنرى كيف وقف المسلمون منها ، وكيف استطاعوا أن يقرروا الحقيقة العلمية اعتماداً على المبادئ السابق ذكرها ، من غير أن يحدث صراع بين علماء الدين المسلمين حول تفسير الآية والحقائق التى قال بها العلماء . فبينما قال قوم إن الله خلق فى السماء جبالا من برد وبحاراً ، قال آخرون إنه قد يراد هنا الحقيقة وقد يراد المجاز . فإذا كان يراد الحقيقة يكون إذن فى السماء كظاهر الآية أبواب تغلق وتفتح ، وأما إذا أريد الاستعارة فيكون ذلك بمثابة قول القائل فى المطر الوابل : « جرت ميازيب السماء وفتحت أفواه القرب » . وهؤلاء لا يستبعدون أن يكون هذا هو المراد[2] . ومن هنا استطاع جغرافيو العرب أن ينطلقوا بحرية فى تقرير الحقيقة العلمية كما ثبتت لهم . فقالوا إن الأنهار تبتدئ من الجبال وتنتهى إلى البحار فى جريانها ، وإلى البطائح والبحيرات ، وتسقى فى ممرها المدن ، والقرى ، والسوادات ، وما يفضل من مائها ينصب إلى البحار ، ويختلط بماء البحر ، ثم يصير بخاراً ويصعد فى الهواء ، وتتراكم منه الغيوم ، وتسوقه الرياح إلى رؤوس الجبال والبرارى ، ويمطر هناك ويسقى البلاد ، وتجرى الأودية والأنهار ، ويرجع إلى البحار من الرأس ، وذلك دأبها فى الشتاء والصيف[3] .

---

(١) القمر ١١ .   (٢) انظر تفسير الفخر الرازى .

(٣) رسائل إخوان الصفا : رسالة الجغرافيا .

انطبع تاريخ المسيحية من ثمة طوال قرون بطابع الإصرار العنيد على تفسير نصوص الكتاب المقدس تفسيراً حرفياً لا غير . وكانت حجتهم فى ذلك أن الله لم يكلم موسى بالمجاز ولا بالاستعارة . وأدى هذا الموقف غير المرن إلى أوخم النتائج بالنسبة لتقدم العلوم . وأما تاريخ الإسلام فانطبع بطابع النظر العقلى فى حقائق الأشياء ، وبالعمل على التوفيق بين ما يتوصل إليه العلماء من حقائق وبين ظاهر النص الدينى ، كما رأينا فى المثال السابق ، وهو مثال واضح جداً . ويكشف لنا هذا المثال بجلاء عن حقيقة هامة جداً ، هى أن فارقاً جوهرياً فى الرجال ذاتهم الذين قادوا المسيحية ، والرجال الذين قادوا الإسلام ، كان من أهم العوامل التى أدت إلى وقوف هؤلاء أو أولئك هذه المواقف المختلفة .

يتبين جلياً مما سبق أن المبادئ والمفاهيم التى سيطرت على دنيا المسيحية وحكمتها ، كانت مخالفة للمبادئ والمفاهيم التى سيطرت على دنيا الإسلام وحكمتها ، بل لا نكون مغالين البتة إذا قررنا أن مفاهيم الإسلام كانت على طرفى نقيض مع مفاهيم المسيحية . ومما لا مرية فيه ولا نزاع من حوله ، أن كلا من هذه المفاهيم والتطبيقات أحدث أثراً واضحاً جداً فى مجرى التاريخ الحضارى للإنسانية كلها . نشأت الحضارة وتطورت فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وتوالت دوراتها فى مصر القديمة ، وبلاد ما بين النهرين ، واليونان ، إلى أن توقفت بعد انتشار المسيحية ، ثم استأنفت المسير بقدوم العرب وانتشار حضارة الإسلام حتى استقرت فى الأندلس وصقلية تحت الحكم العربى الإسلامى ، ثم انتقلت إلى غربى أوربا .

أما ما يهمنا فتلك الفترة التى توقفت فيها الحضارة نتيجة لانتشار المسيحية ، ثم الفترة التى تلتها بظهور الدور العربى الإسلامى من الحضارة ، وكيف كان هذا الدور فى واقع الأمر الأساس الذى بنت عليه أوربا حضارتها الحديثة .

كانت النتيجة الطبيعية لسيطرة رجال الدين المسيحى على مقدرات

الإمبراطورية الرومانية ، وحصولهم على هذا السلطان الديني والدنيوى ، مع عدم قدرتهم على النظر نظرة عقلية فى نصوص الكتاب المقدس التى فسروها تفسيراً حرفياً لا غير ، أن يحدث صراع عنيف بين الدين الذى يمثله هؤلاء الرجال الأتقياء الورعون الجامدون ، والعلم الذى يمثله الفلاسفة والعلماء الذين ينظرون فى الكون والطبيعة نظرة حرة ، ويبحثون بحثاً علمياً لا يمكن أن يتوافق منهجه مع التفسيرات الحرفية لنصوص الكتاب المقدس .

عند ما استقر للمسيحية سلطان القوة المادية وخضع أباطرة الرومان أخيراً لسلطان الكنيسة ، لم يستطع آباء الكنيسة الأوائل وعلماء اللاهوت فيها أن يدركوا معنى العلم أو الفلسفة ، ولم يسيطر على أذهانهم إلا فكرات استمدوها من النصوص الدينية ، هى أن هذا العالم سوف لا يلبث أن يهلك ويزول ، وأن أعمال الفلاسفة والعلماء باطلة ، وأن الجهالة أم التقوى ورأس العبادة . ومن ثمة أمعنوا فى القضاء على كل مظاهر العلم القديم والفلسفة ، وغالوا فى اضطهاد العلماء والفلاسفة . وبدأ عصر عجيب انهارت فيه كل أسس الحضارة القديمة التى بذل فى وضعها قدماء المصريين والبابليين واليونان آلافاً من السنين .

وبدأت الكنيسة عملية تخريب هذا العلم القديم الذى سموه آنذاك بالعلم الوثنى ، وثارت فى طول العالم المسيحى وعرضه موجة عارمة محمومة من الاضطهاد والبطش ضـــد العلماء وكلامهم الباطل الدنس كما قال القديس بولس ، وضد العلم الكاذب الاسم كما وصفه أيضاً . أحرق الأسقف ثيوفيل بطريق الأسكندرية فى سنة ٣٩٠ م . جزءاً من مكتبة الأسكندرية ، وفى سنة ٤١٥ م . انقض جماعة من الرهبان على العالمة الجليلة هيباشيا ابنة الفلكى ثيون وآخر أستاذة للطب والرياضيات بجامعة الأسكندرية ، وجردوها من ثيابها وقادوها مكشوفة العورة إلى كنيسة فى الأسكندرية ومزقوا جسدها إرباً . وكان هذا العمل كما يذكر المؤرخون بتحريض من كيرلس بطريق الأسكندرية الذى كان يغار من شعبيتها ، والذى أراد أن يضع حداً للعلم

الوثنى فى مدينته . وفى سنة ٤٨٩ م هاجر جماعة من العلماء إثر موجة من الاضطهاد إلى فارس فسمح لهم الإمبراطور الفارسى باللجوء إليها وأكرم وفادتهم ، وظلت موجات الاضطهاد ضد العلم والعلماء تتكرر حتى شهدت أرض أوربا فى القرن السادس آخر فلاسفتها بوثيوس (٤٨٠ — ٥٢٤ م) وهو يعدم بتهمة المروق من الدين والهرطقة . وكان كل اضطهاد من هذا القبيل يبعد عن دنيا المسيحية عدداً من أحسن الرجال الذين كانوا يقتلون أو يفرون إلى الشرق ، ليحل محلهم على رأس المجتمع أجهل الرجال وأسوأ المثل[1] ، وأما النهاية فجاءت على يدى الإمبراطور جوستنيان الذى أمر فى سنة ٥٢٩ م . بإغلاق أكاديمية أفلاطون بأثينا ، وكانت حينئذ آخر معقل للعلوم الدنيوية فى العالم المسيحى الرومانى كله .

ولقد قصد بهذا العمل بطبيعة الحال القضاء على آخر أثر للعلوم والفلسفة القديمة ، أو العلوم والفلسفة الوثنية كما سماها رجال الكنيسة آنذاك . وظلت أوربا منذ ذلك الوقت وحتى مقدم المسلمين إلى أسبانيا وصقلية بلا مدرسة واحدة فى أى جزء من أجزائها غير المدارس الدينية . وبذلك « لم تتخرب روما وأثينا باعتبارهما السياسى والاجتماعى فقط ، وإنما بادت أيضاً السلالة اليونانية التى أخرجت الفنانين والعلماء والفلاسفة ، والسلالة الرومانية التى أخرجت المحامين والإداريين ولم يعد لها وجود »[2] .

وعند هذا الحد من التخريب غرقت أوربا فى عصور ظلامها الدامس ، واقتصرت جميع الكتابات فى عصور الظلام هذه على النظريات التى استمدها علماء اللاهوت من الكتاب المقدس ، أو على الأمور والاحتياجات الدينية ، فكانت المدارس الأسقفية مثلا تلقن أبسط قواعد الرياضيات اللازمة للتجارة ، أو للمحاسبة ، أو لتحديد مواعيد الاحتفالات الدينية لا غير .

(١) G. Sarton : Ancient Science and Modern Civilization P. 115

(٢) W. C. Dampier : A History of Science and its Relationship to Philosophyaud Reli gion P. 6.

ماتت الحضارة القديمة وتلاعبت بها رياح الكنيسة ، وحرمت دراسة العلوم الدنيوية فى طول العالم المسيحى وعرضه ، وحل محلها العلوم التى استمدها علماء اللاهوت من نصوص الكتاب المقدس ، فوضعت علوم جديدة ، جغرافية ، وطبية ، وفلكية ، وجيولوجية ، وحيوانية ، وتاريخية ، إلخ . وتنافس علماء اللاهوت المسيحى فى استخراج كنوز الكتاب المقدس العلمية كما صور لهم فكرهم الدينى ولنضرب الآن مثلاً نستعين به على فهم الطريقة التى تناول بها آباء الكنيسة العلم ، نستقيه من بين أمثلة كثيرة ضربها الأستاذ أندرو ديكسون وايت .

اختمرت فى عقول الفلاسفة مع تقدم الحضارة وارتقائها ، وبخاصة فلاسفة اليونان فكرات حول كرية الأرض . ولقد اتجه بعض آباء الكنيسة من أصحاب العقول الأقوى والأرجح إلى الأخذ بهذا الرأى . غير أن الغالبية العظمى منهم فزعت فى الحال من هذا الاتجاه ، ولاح لهم أن هذا الرأى مفعم بأشد المخاطر التى تهدد الكتاب المقدس . وما كان ذلك بغير شك إلا تفسيرهم الحرفى للكتاب المقدس لاغير . وكان يوسابيوس القيصرى من أوائل الذين هاجموا هذا الرأى ، إذ سعى آخذاً بنصوص العهد الجديد التى تشير إلى قرب فناء العالم ، إلى القضاء على هذه الفكرة من طريق تحقير الدراسات العلمية . فنراه إذ تحدث عن الباحثين فى العلم يقول : « إننا لا نهتم بمثل هذه الأمور التى يستحسنها العلماء لجهلنا بها ، وإنما احتقاراً لشأنها ، إذ هى أمور بائرة عديمة الجدوى ، وإنما نحن نتجه بأرواحنا إلى أمور أعم نفعاً » . وتكلم بازيل القيصرى عن هذه الفكرة فأعلن أنه « لا يعنينا كثيراً ولا قليلا أن تكون الأرض كرة أو أسطوانة أو قرصاً مسطحاً أو مقعراً كالمروحة » . وأشار لكتانشيوس إلى فكرات الذين يدرسون الفلك على أنها « قبيحة عديمة المعنى » وعارض نظرية كرية الأرض باعتبارها مناقضة للكتاب المقدس ومنافية للعقل . واستغل القديس يوحنا كريسستوم نفوذه فى معارضة هذا المعتقد العلمى . كذلك لم تكن معارضة أفرايم كيرلس أكبر آباء الكنيسة

السورية القديمة الذى اشتهر بأنه « قيثارة الروح القدس » أقل حماسة .

غير أن المتعصبين للعلم الكتابى ، أى لعلم الكتاب المقدس ، وعلى الأخص كبار الآباء والأساقفة مثل ثيوفيل الأنطاكى فى القرن الثانى ، وكليمنت السكندرى فى القرن الثالث ، وغيرهم فى القرون التالية ، لم يكتفوا بمجرد معارضة الفكر العلمى الذى وصموه بأنه نظرية وثنية قديمة ، وإنما استمدوا من كتبهم المقدسة نظرية مسيحية جديدة ، أضاف إليها هذا الأب فكرة ، وذاك فكرة أخرى ، حتى اكتملت قسماتها . فقد تناولوا بقايا المأثورات القديمة المختلفة التى ذُكرت فى الآية السابعة من الإصحاح الأول من سفر التكوين ، وأصروا على الأخذ بهذا البيان الجلى الواضح الذى ذكره السفر المقدس ، الذى يبين لنا أن الأرض غطيت عند خلق الكون بقبة صلبة هى « السماء » . وأضافوا إلى هذه الآية الآيات الأخرى المذكورة فى سفرى أشعياء والمزامير ، والتى تقضى بأن السماوات منبسطة « كسرادق » أو « كخيمة للسكن » . وإذن يكون العالم بناء على هذا التصور بمثابة منزل ، الأرض طابقه السفلى ، والسماء سقفه . ذلك السقف الذى يعلق فيه الواحد القهار الشمس لتحكم النهار والقمر والنجوم لتحكم الليل . وهذا السقف أيضاً بمثابة أرضية للطابق الذى فوقه ، ومن ثمة يكون صهريجاً كبيراً ، وصفه أحد اللاهوتيين بأنه « يشبه حوض الحمام » وهو يحتوى « المياه التى توجد فوق القبة الزرقاء »[1] وهى المياه التى يطلقها الله وملائكته على الأرض من خلال « طاقات السماء »[2] . ثم إنهم لما أرادوا تفسير حركة الشمس استشهدوا بفقرات مختلفة من سفر التكوين امتزجت بتأملات غيبية مختلفة ، وظنوا أنها دليل قاطع من الكتاب المقدس على أن الأرض لا يمكن أن تكون كرية الشكل .

غير أن فكرة كرية الأرض لم تمت تماماً ، وإنما ظلت أصداؤها تتجاوب فى جنبات الكنيسة وظل بعض آباء الكنيسة يجنحون إلى الاعتقاد

---

(١) فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد . سفر التكوين ١ : ٧ .

(٢) سفر التكوين ٧ : ١٢ .

بها . ولكن هنا أيضاً أقام اللاهوتيون الدنيا وأقعدوها حول فكرة القول بالسكان الذين يقطنون الجانب المقابل لنا من كرة الأرض على افتراض أنها كرة . تساءل لكتانشيوس « أيوجد فعلا إنسان فقد الشعور بحيث يعتقد بإمكانية وجود بشر تكون مواطئ أقدامهم أعلى من رءوسهم ؟ وأن النباتات والأشجار تنمو إلى أسفل ؟ وأن المطر والثلج والبرد تتساقط على الأرض من أسفل إلى أعلى ؟ ثم استطرد يقول : « إنى لفى حيرة من أمر هؤلاء الذين إذا أخطأوا مرّة استمروا فى غيهم مدافعين عن الباطل بباطل آخر ! » .

أما المدافع الأكبر عن المعتقد الكنسى الصحيح الذى قرره آباء الكنيسة وآمنوا به فالقديس أوغسطين . لقد حارب القديس أوغطسين على الرغم من أنه جنح بعض الشيء إلى الاعتقاد بكرية الأرض ، فكرة وجود أناس يعيشون على الجانب المقابل لنا منها ، قال : « إن الكتاب المقدس لم يحدثنا عن أمثال هؤلاء من أبناء آدم » . ثم إنه أصر على أن الله العزيز القدير لا يمكن أن يكون قد قدر للبشر أن يعيشوا فى تلك البقاع ، ما دام أنهم سوف لا يرون المسيح فى أثناء عودته الثانية إلى الأرض وهو هابط من السماء . غير أنه استقى أقوى حجة استشهد بها — تلك الحجة التى تردد صداها من لاهوتى إلى آخر خلال ألف من السنين بعده — من المزمور التاسع عشر ، ومما جاء فى رسالة بولس إلى أهل رومية تأييداً لهذا المزمور ونصه : « فى كل الأرض خرج منطقتهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم » . وأصر على رأيه بعناد معتمداً على أن القديس بولس وضع برهاناً من أقوى براهينه استناداً على هذا النص الخاص بالمبشرين بالإنجيل ، وأنه أعلن قائلا بمزيد من الوضوح : « بلى إلى كل الأرض خرج صوتهم وإلى أقاصى المسكونة أقوالهم » . ومنذ ذلك الحين أكد اللاهوتيون دائماً أنه ما دام هؤلاء المبشرون لم يذهبوا إلى سكان الجانب المقابل لموضعنا من كرة الأرض ، فمعنى هذا أن هؤلاء لا يوجدون على إطلاق القول ، ومن ثمة يكون أولئك الذين يؤيدون هذه

النظرية الجغرافية « قد كذّبوا مباشرة الملك داود والقديس بولس وبالتالى الكتاب المقدس ذاته » . وبذلك فرض القديس أوغسطين على عالم النصرانية أكثر من ألف من السنين تعاليمه القائلة بأنه ما دام لم يحدث تبشير بالإنجيل فى الجانب المقابل لموضعنا من الأرض ، إذن لا يمكن أن يكون هناك بشر يعيشون فى تلك البقاع .

ويلوح أن الحقيقة العلمية إختفت تماماً تحت وطأة هذا الضغط اللاهوتى قرابة قرنين من الزمان ، غير أن كرية الأرض أصبحت فى القرن الثامن من الأمور التى يقبلها ويعترف بها جلة المفكرين من رجال الكنيسة على وجه العموم . ومع إحياء نظرية كرية الأرض ، انتعشت النظرية القائلة بالبشر الذين يعيشون على الجهة المقابلة من كرة الأرض ، غير أنها ظلت محرّمة . ذلك أنه عند ما جسر الأسقف فرجيل السالسبرجى بالقول بصحة النظرية القائلة بالبشر الذين يعيشون على الجانب الآخر من الأرض ، انزعج بونيفاس لهذه الهرطقة وأهاب بالبابا زخارى أن يساعده على مقاومة فرجيل ، فاستجاب البابا معلم المسيحية المعصوم من الخطأ لهذا النداء استجابة قوية ، واستشهد بفقرات من سفر أيوب ، وبحكم من حكم سليمان ، يناقض بها نظرية سكان الجانب المقابل لموضعنا من الأرض . وأعلن أن هذه النظرية « فاسدة مُضلّلة أثيمة مفسدة لنفس فرجيل ذاتها » . وأشار إلى عزمه على طرده من أسقفيته . وتدعم هذا الرأى اللاهوتى بمقتضى ما للبابا من عصمة أضفتها عليه وحمتها العناية القدسية . ومضى اللاهوتيون متعصبين للنظرية القائلة بأن الأرض مأهولة بالسكان من جانب واحد فقط ، حتى لقد أصبحت نظرية ثمينة عزيزة عليهم أكثر من أى وقت مضى . واشتد ساعد النظرية ولاح فى القرن الرابع عشر أن ضرورة مقاومة الفكر العلمى إنما تقتضى من رجال الكنيسة أن يعاملوا المارقين بالمخلعة والسندان . ولم تنته هذه الحرب التى استمرت اثنى عشر قرناً من الزمان إلا فى القرن السادس عشر عند ما دار ماجلان حول الأرض فعلا ، وأثبت صحة نظرية السكان

الذين يعيشون فى الجهة المقابلة من الأرض ، وشاهدهم رفاقه البحارة بأعينهم ، ثم شاهدهم فيما بعد المبشرون الأوربيون أنفسهم .

أكتفى هنا بهذا المثال الذى يبين لنا بوضوح الطريقة التى تناول بها آباء الكنيسة ، وعلماء اللاهوت المسيحى ، الحقائق العلمية التى كانت حضارة الدنيا القديمة قد بدأت تكشف عنها ، ثم أماتوها وأحلوا محلها نظريات دينية لا تمت للعلم بصلة ، استمدوها من نصوص الكتاب المقدس باعتبار أن كل كلمة فيه إنما وردت لتعبر تعبيراً صادقاً وصحيحاً وحرفياً عن الأمور التى تشير إليها . ولقد لجأ علماء اللاهوت المسيحى إلى مثل هذا التفكير الذى استخدموه هنا عند معالجتهم لمختلف العلوم الأخرى . ولا يخفى بطبيعة الحال ما فى هذا المنهج من مضار شديدة على البحث العلمى الصحيح . ولا غرابة إذن فى أن كل أثر للعلم الحق قد تبخر من الأرض المسيحية فى ذلك العصر العجيب . والحق أن أوربا لم تبدأ فى الانتعاش والتفكير الجدى فى تناول العلوم الدنيوية إلا بعد أن استتبت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا وصقلية ، وبدأت تؤثر تأثيرها الفعال فى العناصر الأوربية الممتازة التى بدأت تتأثر بها وتحاول إدخال هذه الحضارة العلمية إلى دنيا المسيحية فى أوربا .

أما الاتجاه إلى التعليم فبدأ فى الإسلام منذ أوائل الهجرة ، ذلك أن محمداً اشترط على من كان يعرف القراءة والكتابة من أسرى بدر أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة فى نظير فدائه ، وكان فداء الأسير أربعة آلاف درهم . ولقد تبلور هذا الاتجاه الحميد فى أحاديث كثيرة ذكرنا شيئاً منها فيما سبق . لذلك لم يكن غريباً أن يعمد المسلمون إلى تعليم أبنائهم القراءة والكتابة كلما سنحت فرصة إلى ذلك . ولقد أصبح الاتجاه إلى التعليم طابعاً عاماً اتجهت إليه حضارة الإسلام منذ بداياتها الأولى . والحق أن المسلمين ما لبثوا أن استقروا بعد الفتوحات الأولى حتى شرعوا يفتحون المدارس على نطاق واسع . وربما اقتصر الغرض من ذلك فى هذا

العصر المبكر على مجرد القراءة والكتابة بالقدر الكافى على الأقل للتمكن من الاطلاع على القرآن .

ثم تطور الحال الى ضرورة نشوء علوم جديدة ، فنشأت علوم اللغة والتفسير والحديث . فلما اتسعت دائرة العلوم وظهر الجديد منها على هذه الصورة ، كان طبيعياً فى بيئة تبجل العلم والعلماء أن يتسع مجال التدريس ويشمل هذه العلوم . ومن هنا بدأت نهضة أدبية كبيرة جداً فى العالم الإسلامى . ثم أخذت دائرتها تتسع شيئاً بعد شيء حتى شملت — فيما عدا علوم الدين واللغة — مختلف فروع العلوم الأخرى التى خلفتها الحضارة القديمة .

كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية الأموى أول من اتجه إلى فتح الباب الموصد ، أى الباب المؤدى الى العلوم القديمة التى سجنتها المسيحية وقضت على كل أثر لها . وكانت الكيمياء التى خلفها قدماء المصريين قد انقلبت فى أيدى اليونان والرومان إلى مجرد خرافة ووهم — انحصر فى محاولة تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة — إن لم تكن قد أصبحت فعلا من وسائل الغش والاحتيال(1) . وأصبحت من علوم السحر والتهويمات المبهمة وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالتنجيم . وهذه هى الصورة التى كانت الكيمياء قد وصلت اليها فى الأسكندرية عند ما فتحها العرب . ولقد قام فى وهم خالد ابن يزيد أن تحويل المعادن الرخيصة كالرصاص إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة أمر ممكن ، فاستدعى راهباً رومياً اسمه مارينوس كان يلم بشيء من هذا العلم ، وتعلم منه الصنعة وأمره أن ينقل ما تحت يده من كتبها إلى العربية ، فعمد إلى رجل اسمه اصطفان فنقلها ، فكان هذا أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة . ويقال إن خالد بن يزيد أمر أيضاً بنقل كتب فى الطب والفلك ، ولكن لم يصلنا منها شيء . وقيل أيضاً إنه أسس مدرسة فى

---

(1) E. J. Holmyard : Makers of Chemistry P. 56

مصر . ويلوح بأن شيئاً من كتابات خالد بن يزيد فى الكيمياء قد بقى معروفاً ومتداولا عدة قرون من بعده — وإن لم يبق منها شيء الآن — ذلك أن الأستاذ سارتون[1] ذكر أن رسالة فى الكيمياء كانت منسوبة إلى خالد بن يزيد قد ترجمت إلى اللاتينية تحت عنوان **De Compositione alchimiae** وكانت إحـــدى الكتب التى تدرس فى الغرب اللاتينى فى أواخر القرن الثالث عشر ..

هكذا بدأت أولى محاولات المسلمين نحو الاتجاه إلى العلوم القديمة والعمل على ترجمتها إلى العربية . ونحن على أية حال لا نستطيع أن ندعى أن الجهود التى بذلها خالد بن يزيد قد أحدثت أثراً استمر فى التاريخ العلمى الإسلامى . ولكنها كانت فى الحقيقة بمثابة تحسس الطريق نحو العلم ، ومحاولة لفتح الباب الموصد ، وهذا عمل فى حد ذاته عظيم ، لأن خالد بن يزيد كان وحيد زمانه بين العرب ، وإذن يكون فضله أكبر واسمه أبقى وأخـــلد .

أما البداية الحقيقية للحركة العلمية الإسلامية التى عنها استمرت هذه الحركة وازدهرت ، فكانت على يدى الخليفة العباسى المنصور ، الذى أمر فى سنة ٧٧٣ م بترجمة رسالة فى الفلك حملها إليه عالم هندى يدعى مانكا أو كانكا وفد عليه ضمن السفارة الهنـــدية ، فترجمها الفزّارى ويعقوب ابن طارق ، وسميت فى ترجمتها العربية « كتاب السند هند » . ولقد اهتم المنصور ذاته بتعلم العلوم الفلكية ، وأمر بإنشاء مدارس لتعليم الشريعة والطب . ثم انتعشت هذه الحركة فى عهد حفيده الرشيد الذى أمر بأن يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بأنواعها . وبلغ النشاط العلمى أوجه فى عصر الخليفة المأمون بن الرشيد نابغة العرب . فأخذ بيت الحكمة أو مدرسة الترجمة التى أسسها الرشيد صورة أكاديمية فى عصره ، ووضع المأمون على

---

(١) G. Sarton : Introduction to the History of Science vol' III P. 165

رأسها يوحنا بن ماسويه ، وأمر بترجمة جميع ما تصل إليه أيدى القائمين بشئون بيت الحكمة من علوم الأسبقين . ومما يدلك على مبلغ حرص المأمون على الحصول على العلوم التى خلفها اليونان أنه اشترط فى صلحه مع الإمبراطور ميشيل الثالث إمبراطور بيزنطة أن يعطيه مكتبة من مكاتب الآستانة . ولقد قامت هذه المؤسسة فى عهد المأمون الذهبى بأكبر مجهود فى ترجمة علوم الأسبقين إلى العربية . فما هى إلا سنوات قلائل حتى كانت جميع المعارف العلمية السابقة تحت أيدى العرب فى ترجمات جيدة . وكان المأمون يدفع رواتب خيالية لكبار المترجمين ، فيقال إن راتب حنين بن إسحق ، أو حُبَيْش الأعسم ، أو ثابت بن قرة كان خمسمائة دينار شهرياً . ويقال أيضاً إنه كان يجتمع كل ثلاثاء إلى أهل العلم والأدب ويوزع على المتفوقين منهم جوائز ثمينة . ولا عجب إذن أن تصبح الكتابة والاشتغال بالكتابة وبالعلم والأدب فى دولة الإسلام من أعظم المهن وأرقاها ، حتى لقد ذاع المثل القائل إن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة .

نقل العرب أهم كتب اليونان فى الرياضيات ، والطب ، والفلك ، والجغرافيا الرياضية ، ونقلوا عن الهنود كتباً هامة فى الطب ، والرياضيات ، والفلك . هذا فضلا عما نقلوا أيضاً عن اليونان والفرس والهنود من كتب الأدب والفلسفة والقصص ، ولكن نركز هنا على الكتب العلمية فحسب لأن الحضارة الإسلامية العلمية هى التى تعنينا فى المقام الأول . ولم يكد ينتصف القرن التاسع الميلادى حتى كان تحت يد العرب التراث العلمى القديم كله فى الرياضيات ، والفلك ، والجغرافيا الرياضية ، والطب ، مع كتب الكيمياء التى وجدت بالأسكندرية وترجمت أيضاً إلى العربية فى عصر سابق .

بدأ المسلمون من ثمة عصر حضارتهم العلمية ، فتناولوا هذه العلوم بمنتهى التسامح ونظروا فيها نظرة مختلفة تماماً عن نظرة آباء الكنيسة المسيحية لها ،

ذلك أن رائدهم كان العقل والتوفيق بين العلم وظاهر النصوص الدينية ، بما لا يكون من شأنه قضاء أحدهما على الآخر كما رأينا فيما سبق . ثم إن المسلمين فى هذا العصر الزاهر لم يقتصروا على تعلم هذه العلوم فحسب ، وإنما عمدوا منذ بداية عصر اشتغالهم بها إلى تعديلها وتصحيحها بالقدر الذى سمح به التقدم فى عصرهم ، فضلا عن ابتكارهم لعلوم جديدة لم يعرفها اليونان ، ولا الأقدمون من قبل ، فأخذت حضارتهم العلمية من ثمة طابعاً جديداً مميزاً ، وكانت بحق الأساس الذى ارتكزت عليه الحضارة الحديثة فى أوربا[1].

تناول المسلمون هذه العلوم بمنتهى التسامح كما قلنا ، ولم ينظروا فيها نظرة شك أو ريبة ، بل إنهم عكفوا منذ بداية اشتغالهم بها على التحقق مما جاء فيها بأنفسهم . كلف الخليفة المأمون علماءه بقياس الأرض والتحقق من صحة القياسين السابقين اللذين أجراهما فى العصر اليونانى إراتوستينس أولا ، ثم بطلميوس السكندرى ثانياً . فقام علماء المأمون فى سنة ٨٢٧ م . بقياس درجة من خط منتصف النهار ، وأجروا التجربة فى أرض سنجار بالجزيرة العراقية بين درجتى عرض ٣٥ ، ٣٦ شمالا . فإذا عرفنا كما يقول الأستاذ كراتشكوفسكى[2] أن أكثر المقاسات انتشاراً فى القرن التاسع عشر كان مقاس بيسيل الذى قدر الدرجة بمقدار ١١٠٩٣٨ متراً ، تبين لنا جلياً أن الخطأ فى مقاس العرب يقل عن الكيلومتر ، والحق أن القياس المأمونى لدرجة خط منتصف النهار كان أصح من القياسين اليونانيين السابقين وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً فيما بعد . هذا فضلا عن تصحيح المسلمين لخريطة العالم التى ورثوها عن بطلميوس ، ووضعهم خرائط جديدة ، واستعمالهم لخطوط الطول والعرض ، وتصحيحهم لكثير من مواضع المدن وأوضاع البحار

---

(١) راجع كتابنا « أثر العرب فى الحضارة الأوربية — نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة .

(١) أغناطيوس نوليانوفتش كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ص٨٣ — ٨٤ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .

والبحيرات وأطوالها وعروضها ، ثم جغرافيتهم الوصفية التي لولاها لضاع كثير جداً من معالم القرون الوسطى .

وفى الرياضيات[1] تقدم المسلمون خطوات هائلة عن رياضيات اليونان أو الهنود . ومن أهم مآثر العرب طريقة الإحصاء العشرى واستعمال الصفر لنفس الغاية التى نستعملها الآن ، ومزايا هذا النظام أنه يقتصر على تسعة أعداد فقط وصفر ، فى حين كانت الأرقام اليونانية والغربية القديمة القائمة على حساب الجمل تشتمل على عدد من الأرقام يقدر بعدد الحروف . ولا يخفى بطبيعة الحال الأثر الحاسم لهذه الطريقة فى تقدم العلوم الرياضية . ثم إن العرب طوروا مختلف فروع الرياضيات ، ووضعوا علوماً جديدة مثل الجبر وحساب المثلثات المسطحة والكروية . وأصبحت كتبهم فى هذا الميدان المعول الوحيد لعلماء أوربا فى القرون الوسطى . ولا غرابة أن يقول الأستاذ كارا دى فو إن مكتشفات المسلمين فى العلوم الرياضية إنما تكمن فى أساس الحضارة الحديثة .

وفى الفلك تقدم المسلمون تقدماً ملموساً وظهر عدد من كبار الفلكيين الذين أخذوا على عاتقهم تصحيح أخطاء اليونان منذ أوائل اشتغالهم بهذا العلم ، وعلى رأسهم أبو الوفا ، وثابت بن قرة ، والبتانى ، والفرغانى ، الذين تعلمت أوربا منهم الفلك ، وظلت أسماؤهم تردد فى قاعات العلم الأوربية قروناً طويلة استمرت حتى القرن التاسع عشر .

وفى الكيمياء كانت الطريقة التى انتهجها المسلمون أعظم العمليات فى القرون الوسطى كما يقول الأستاذ ديورانت . وكانت أهم مآثرهم فى هذا الميدان أنهم أدخلوا التجربة الموضوعية فى دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية ، وهذه خطوة حاسمة نحو التقدم عما كان عند اليونان من فروض مبهمة فى هذا الموضوع[2] . وانحصرت المبادئ الأساسية التى أرسى قواعدها

---

(١) انظر تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك للأستاذ قدرى حافظ طوقان .

(٢) **Ph. Hitti : History of the Arabs P. 380**

علماء المسلمين فى أنهم لا يقبلون شيئاً باعتباره حقيقة ، ما لم تؤيده المشاهدة أو تحققه التجربة العلمية(١) . والكيمياء فى صورتها العلمية كما يقرر الأستاذ ديورانت(٢) إنجاز حققه المسلمون ، إذ أدخلوا الملاحظة الدقيقة والتجربة العلمية المتقنة ، واخترعوا الأنبيق وأعطوه هذا الاسم (أنبيق Alembic) ، وفرقوا بين الحوامض والقلويات ، واكتشفوا العلاقة بينهما ، ودرسوا ووصفوا مئات من العقاقير . وكان جابر بن حيان أبا الكيمياء العربية والكيمياء الحديثة على السواء(٣) . وهو ذلك العالم الجليل الذى ألقى بظله على العالم فى القرون الوسطى فى الشرق وفى الغرب(٤) .

أما علم الصيدلة فاختراع عربى أصيل(٥) . والحق كما تقول الموسوعة البريطانية(٦) « أن كثيراً من أسماء الأدوية وكثيراً من تركيباتها المعروفة حتى يومنا هذا ، وفى الحقيقة المبنى العام للصيدلة الحديثة — فيما عدا التعديلات الكيماوية الحديثة بطبيعة الحال — فقد بدأه العرب » .

ونبغ المسلمون فى الطب نبوغاً عظيماً وتفوقوا فيه على اليونان وكانت كتبهم الطبية أساساً للدراسة فى جامعات أوربا عدة قرون ، وعلى الأخص كتب الرازى وابن سينا . وأما طب العيون فيكاد يكون علماً عربياً صرفاً . ولقد نبغ فى هـــذا الفرع من الطب عمار الموصلى وعلى بن عيسى ، ولقد ترجم كتاباهما إلى اللاتينية وظلا يستخدمان متنين تعليميين فى طب العيون فى جامعات أوربا المختلفة حتى بدأت نهضة طب العيون فى فرنسا فى القرن الثامن عشر(٧) . وفى الجراحة ظل الفصل الأخير الذى كتبه أبو القاسم

---

(١) E. J. Holmyard : Makers of Chemistry P. 60

(٢) W. Durant : The Story of Civilization vol. IV P. 244

(٣) Ch. Singer : A short History of Scientific Ideas P. 132

(٤) M. Meyerhof : The Legacy of Islam P. 314

(٥) G. Le Bon : La Civilisation des Arabes P. 513

(٦) Encyclopaedia Britannica vol. 18 P. 46 Edition 1911

(٧) M. Meyerhof : The Legacy of Islam P. 331

الزهراوى عن الجراحة فى كتابه التصريف أول متن تعليمى فى الجراحة فى أوربا زهاء خمسة قرون(١) .

أما علم البصريات الذى وضعه ابن الهيثم فجديد تماماً وليس له نظير بين مؤلفات اليونان جميعاً(٢) . وقد انتشر كتاب المناظر لابن الهيثم فى القرون الوسطى انتشاراً كبيراً فى خمس ترجمات لاتينية ، وعدة ترجمات إلى اللغات المشتقة من اللاتينية ، وكان أساساً للدراسة فى أوربا ، واستقى منه ونقل عنه جميع كتاب أوربا فى هذا الموضوع فى القرون الوسطى . وظل هذا الكتاب فى مستواه العلمى أسمى كثيراً — كما يقرر الأستاذ مصطفى نظيف — من كثير من الكتب العلمية التى ألفها الغربيون فى هذا الموضوع بعد القرون الوسطى ومنها بعض مؤلفات كبلر ذاته(٣) .

ثم إن المسلمين كانوا أول من استعمل الورق فى الأعمال الأدبية ، وأول من أسس صناعات للورق فى أنحاء العالم الإسلامى كله وفى صقلية وأسبانيا . وانتشرت الكتب فى كل مكان وبصورة لم يعهدها العالم من قبل ، وانتشر التعليم انتشاراً واسعاً جداً . ولا شك فى أن استعمال الورق وانتشاره بهذه الصورة فى قارات ثلاث ، وظهور أنواع جيدة رخيصة ، إنما كان بداية لعصر جديد فى تاريخ الحضارة .

كذلك كان المسلمون أول من صنع أنواعاً من السكر تتحمل مشاق الرحلات التجارية والانتقالات البعيدة ، وأول من أنشأ فى حوض البحر الأبيض المتوسط صناعات لتكرير السكر ، ومزارع لزراعة قصب السكر ، ولا يخفى بطبيعة الحال الأثر الهائل الذى أحدثه السكر فى الصيدلة وفى تركيب الأدوية ، ذلك أن عالم الحضارة القديم بما فى ذلك عالم اليونان لم يعرف غير

---

(١) Encyclopaedia Britannica : Abul - Kasim.

(٢) Ch. Singer : A Short History of Scientific Ideas 153

(٣) الدكتور مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية جزء ١ ص ٣ .

عسل النحل . والحق أن تعميم استعمال السكر ، كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انتعاش الصيدلة فى أيدى العرب .

وفضلا عن هذا كله عرف العالم فى إبان ازدهار الحضارة الإسلامية أنواعاً من المصنوعات والمنتجات المختلفة لم يكن لها نظير فى أى مكان آخر . وفى النهاية توج المسلمون عصر حضارتهم باختراعهم للبارود ، ذلك المارد الذى أحدث انقلاباً هائلا فى عالم الحضارة .

انتقلت هذه الحضارة إلى أوربا عن طريق المسلمين فى صقلية وأسبانيا على الأخص . وسوف نتكلم هنا باختصار عن المراحل التى مرت بهذه الحضارة حتى انتقلت إلى أوربا فى القرون الوسطى .

انتقلت حضارة الإسلام إلى أوربا على مراحل ثلاث . مرحلة كان التأثير فيها غير مباشر ، ومرحلة ثانية ترجمت فيها العلوم الإسلامية من العربية إلى اللاتينية ، ومرحلة ثالثة استغرقت فيها أوربا فى دراسة هذه العلوم وتدريسها وتفهمها وتعميمها حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حضارتها ، وعرف هذا العصر بعصر الاستعراب الأوربى .

بدأت المرحلة الأولى فى أعقاب الفتح الإسلامى لأسبانيا فى أوائل القرن الثامن الميلادى . ولم يكن تأثير المسلمين فى ذلك الوقت المبكر علمياً ، ذلك أن المسلمين أنفسهم كانوا حتى ذلك الوقت لم يدخلوا دنيا العلم ، وإنما كان التأثير أخلاقياً ، وعلى الأخص عن طريق مثل التسامح التى ضربها حكام المسلمين للشعوب المسيحية التى غزوها والتى كان طابعها التعصب الشديد . ثم مبادئ الفروسية العربية التى بهرت هذه الشعوب والتى نشأت عنها فيما بعد مبادئ الفروسية الأوروبية . وهنا لا ينبغى أن ننسى أيضاً مأثرة من أعظم مآثر المسلمين على أوربا فى ذلك العصر . وهى الموسيقى العربية ، والشعر العربى وهما المقومان اللذان نشأ عنهما شعراء التروبادور فى القرن الحادى عشر ليكونوا آباء للأدب الأوربى الحديث .

وفى القرن العاشر كان المسلمون قد حققوا كثيراً جداً من مآثرهم العلمية ، وكانت جامعة قرطبة الإسلامية فى الأندلس فى ذلك الوقت هى الجامعة الوحيدة فى أوربا . وكانت أسبانيا الإسلامية قد أصبحت أرض الأعاجيب حقاً من جميع نواحى النشاط الإنسانى . وكان طلاب العلم والمعرفة والرحالة يقدمون إلى أسبانيا الإسلامية من جميع أنحاء غربى أوربا . وكان كثيرون من هؤلاء الذين ألحت عليهم الرغبة فى التوجه إلى أرض العلم والفن والشعر والأدب والحضارة الراقية بأكمل معانيها من الرهبان الذين جذبتهم مظاهر القوة التى اتصفت بها أسبانيا الإسلامية ، والذين رغبوا فى أن يكتشفوا بأنفسهم أسباب عظمة المسلمين وانتصاراتهم المتوالية . ولقد عاش كثيرون من هؤلاء الرهبان بين المسلمين وتعلموا فى مدارسهم وعرفوا عن كثب أنهم قوم موحدون خيرون أتقياء فضلاء ، وليسوا هؤلاء الوحوش الذين كان يصورهم لهم رؤساؤهم .

ولا غرابة أن يدرك هؤلاء الرهبان عن حق أن المسيحية سوف لاتستطيع أن تضارع الإسلام ، أو تصل إلى مستوى يمكنها من منافسته وتحديه ، إلا إذا اتبع المسيحيون نفس الطريق الذى سار فيه المسلمون ووجدوا فيه قوتهم وعظمتهم . واقتنع هؤلاء الرهبان الذين تمردوا على تعاليم كنيستهم أن طلب العلم وحب المعرفة وضرورة الاستزادة من العلوم الدنيوية — تلك الأشياء التى كانت على طرفى نقيض مع المعتقد المسيحى السائد آنذاك — إنما هى أهم مطلب ينبغى أن تسعى إليه الشعوب المسيحية جاهدة بكل قواها . وكان الراهب جربير الذى أجلسه الإمبراطور أوتو الثالث فى عرش البابوية (٩٩٩ — ١٠٠٣) واحداً من هؤلاء الرهبان الذين تعلموا فى أسبانيا وعادوا بثورة عارمة تملأ رؤوسهم على جميع مناحى التفكير فى العالم المسيحى . ولكن كان جربير متقدماً عصره بكثير ، ولذلك لم يسلم من دسائس التعصبيين والرجعيين ، فمات مسموماً قبل أن يتمكن من تحقيق أى عمل إيجابى نحو تعميم الدراسات العلمية . ولكنه على أية حال كان بداية الطريق .

ومع مرور الزمن كثرت طبقة الرهبان الذين يطالبون بإدخال العلوم في مناهج التدريس ، والذين يعلنون العصيان على الجمود الذى انطبعت به دنياهم . وأما النتيجة الباهرة لحركة العصيان هذه التي تمت داخل جدران الكنيسة ورجالها الأفذاذ ذاتهم ، فانتهت بقبول آباء الكنيسة إدخال الفلسفة والعلوم الدنيوية إلى مناهج التعليم فى المدارس الأسقفية . ولقد أدى هذا الموقف مباشرة إلى نشوء الجامعات الأوربية . ونحن لا يسعنا هنا إلا أن نقرر أن النهضة العلمانية التي شهدها العالم اللاتيني المسيحي فى ذلك الوقت ، إنما كانت نتيجة لعمل جماعة من قساوسة الكنيسة ذاتها ، الذين تأثروا بالمسلمين والذين استطاعوا أن يحرروا أفكارهم من الجمود والتعصب والجهل الذى انطبعت به دنياهم . ثم إنه لا ينبغى لنا أن ننسى أيضاً أن الكنيسة مع قبولها مضطرة لإدخال العلوم والفلسفة فى مناهج التعليم ، قد ظلت تصارع العلم والفلسفة حتى أواخر القرن التاسع عشر . ومعنى ذلك أن العلم الذى دافع عنه وتبناه وتعلمه وعلمه جماعة من الرهبان ، ولم يروا فيه شيئاً يناقض المسيحية ، كان فى كثير من مفاهيمه لا يزال فى عقول الفئة الغالبة فى الكنيسة من الأشياء المحرمة والتي لا ينبغى للكنيسة أن تتساهل فيها . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً تملأ صفحات التاريخ الأوربى .

وعندئذ كثر الطلب على كتب المسلمين فبدأت من ثمة فى القرن الثانى عشر حركة عظيمة جداً لترجمة العلوم الإسلامية إلى العربية ، وسارت معها أيضاً حركة ترجمة علوم اليونان التي كان العرب قد ترجموها فى بداية حركتهم العلمية . ولقد ترجمت هذه الكتب اليونانية من العربية أيضاً إلى اللاتينية ، ذلك أن أوربا لم تحصل على الأصول اليونانية لهذه الكتب إلا فى القرن الخامس عشر . وعاصر هذه الحركة نشوء الجامعات الأوربية الأولى فى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا .

يخبرنا الأستاذ لكلير[1] فى كتابه القيم تاريخ الطب العربى أنه أحصى

---

(١) L. Le Clerc : Histoire de la Médecine Arabe vol. II P. 525-6

الكتب التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فلم يجدها أقل من ثلاثمائة كتاب ، مع العلم أنه لم يحص كتب الكيماويين . ويقول : وهذه كمية هائلة من الوثائق الجديدة انتشرت فى أنحاء أوربا خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فملأت بحق فراغاً كبيراً ، وحفزت على انتشار التعليم ، ولذلك لا ينبغى لنا أن ندهش من الحماسة العلمية التى صبغت القرن الثالث عشر بصبغتها ، فظهر فيه كثير من الرجال البارزين الذين تهافتوا على الاستفادة من العلم العربى . ويستطرد الأستاذ لكلير فيقول : « إن علوم اليونان عموماً كانت ممثلة فى هذه القائمة بمائة مؤلف فقط ، وعلوم العرب ممثلة بمئتين . وأمام هذه الحقائق نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها فى الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وأية فائدة جناها علماء أوربا اللاتين منها ، فكانت هذه الترجمات أداة جوهرية للتقدم وانتشاراً للعلم العربى المنتعش بجانب الغرب » .

ويقول الأستاذ سيديو[1] : « وهكذا نرى أن التأثير الذى بثه العرب فى الغرب قد عبر عن نفسه وبدت مظاهره فى جميع فروع الحضارة الحديثة . ولقد رأينا أنه قد تكون من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الأدبية والعلمية فى التاريخ ، وظهرت مصنوعات ومنتوجات متنوعة ، واختراعات ثمينة ، تشهد بالنشاط الذهنى المدهش فى هذا العصر . وجميع ذلك تأثرت به أوربا بحيث يؤكد القول بأن العرب كانوا أساتذتها فى جميع فروع المعرفة » .

وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة هامة جداً ، هى أن كتب اليونان لم تترجم فى ذلك العصر ، للاستفادة بالمادة العلميـــة التى كانت تحتوى عليها ، فإن كتب العرب كانت قد تفوقت عليها بمراحل بعيدة جداً وجعلتها غير

(١) L. Sédillot : Histoire Générale des Arabes vol. II P. 131

صالحة بالمرة ، وإنما لأن العرب مجدوا اليونان تمجيداً عظيماً ، وكانوا دائمي الإشادة بهم ، فمن هنا طلبت كتبهم وترجمت . ولا تزال الحقيقة الماثلة تخبرنا بأن كتب العرب هي التي كانت الأساس الذي اتخذه أساتذة أوربا في هذا العصر للتعليم ، والنبع الذي استقوا منه في تأليف كتبهم ، وأن الكتب التي ألفها بعض الأساتذة الأوربيين في القرون الوسطى ورجعوا في تأليفها إلى المؤلفات اليونانية فقط سقطت سقوطاً فاحشاً ولم تتخذ أساساً للتعليم . ويستبين ذلك جلياً إذا نحن عقدنا مقارنة سريعة بين العلوم التي خلفها اليونان والعلوم التي خلفها العرب .

ترجم العرب أهم كتب اليونان في الرياضيات والفلك والطب والجغرافيا . وترجموا عن الهنود أهم كتبهم في الفلك والطب والرياضيات . وترجموا بعض المباحث الكيماوية المصرية . وهـذا هو مجمل الميراث العلمي الذي ورثه العرب عن الدنيا القديمة . فإذا نظرنا في الميراث الذي خلفه العرب لأوربا ، والذي ترجم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، إذن لوجدنا أن العرب فضلا عن تصحيحاتهم لما ورثوا عن اليونان والهنود ، قد أضافوا عدة علوم جديدة لم تكن معروفة لليونان أو الهنود ، كان لها أكبر الأثر في وضع حجر الأساس للحضارة الحديثة ، وهي الجبر ، وحساب المثلثات الكروي والمسطح ، والكيمياء في صورتها العلمية ، والبصريات ، والصيدلة ، وطب العيون ، وأسس الهندسة التحليلية ، والحساب الجديد . هـذا ولا ينبغي أن ننسى الصناعات الهامة التي نشروها في ربوع إمبراطوريتهم وأدخلوها إلى أوربا ، مثل صناعة الورق ، وتكرير السكر ، والبارود . وكل هـذا ولا شك يجعل من دنيا العرب الحضارية دنيا جديدة بكامل معنى الكلمة ، وهذا أمر جعـل كثيرين من الكتاب الأوربيين يقررون بلا أدنى حرج أن حضارة الإسلام هذه كانت الأساس الحقيقي الذي ترتكز عليه الحضارة الحديثة .

وحقيقة أخرى لا ينبغي أن نهملها هي أن الأساتذة الأوربيين الذين

ظهروا فى القرون الثانى عشر ، والثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، كانوا مجرد تلاميذ وناقلين عن حضارة الإسلام ، ولم يضيفوا إليها شيئاً ، واقتصر دورهم على تفهم هذه الحضارة وتدريسها وتعميمها ، مقاومين عقلية زملائهم الرجعيين من آباء الكنيسة . والحق أن أحداً من الأوربيين لم يضف شيئاً يستحق الذكر فى تاريخ العلم قبل ليوناردو دا فنشى فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وإن فى كلمات ليوناردو دا فنشى ذاته التى لام بها إخوانه الذين لا يتجهون إلى التجديد والاعتماد على النفس لأوضح مثال ، يقول : « إنهم (أى المستعربين) يحتقروننى أنا المكتشف المخترع ، فى حين كم يستحقون هم أنفسهم من الذم والتقريع ، أولئك الذين لم يكتشفوا شيئاً قط ، وإنما عمدوا إلى إذاعة وتكرار أعمال الآخرين (أى علماء المسلمين) إن هؤلاء الذين يدرسون فقط أعمال القدماء ، ولا يتوجهون بجهودهم إلى درس أعمال الطبيعة ذاتها ، ليسوا الأبناء الأصلاء للطبيعة ، التى هى أم المؤلفين النابغين جميعاً » .

خلاصة القول أن الإسلام ظهر فى أوائل القرن السابع الميلادى فى عصر عرف فى التاريخ بعصر الظلام ، وكان من نتائج ظهوره كما رأينا أن تغيرت المفاهيم التى كانت سائدة فى عصر الظلام هذا تغيراً تاماً وشاملا ، واستحدثت دولة الإسلام حضارة علمية مميزة الطابع أنقذت الحضارة من الضياع والاندثار ، ووضعت أصول علوم جديدة ، انتقلت إلى أوربا فبددت عنها تلك الظلمات التى خيمت عليها قروناً طوالا ، ووضعت بحق حجر الأساس فى الحضارة الحديثة .

هذه إذن قصة الحضارة التى انبثقت عن هـــذا النبى الأمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، محمد بن عبد الله .

مراجع الكتاب

ابن كثير : السيرة النبوية .

ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .

إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا .

أغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم .

البخاري : صحيح البخاري .

جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث .

جلال مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوربية — نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة .

حبيب زيات الدمشقي : المرأة في الجاهلية .

عبد العزيز خير الدين : السيرة العطرة .

الفخر الرازي : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير .

قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك

محمد أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي .

محمد أحمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي .

محمد حسين هيكل : حياة محمد .

محمد الخضري : نور اليقين في سيرة سيد المرسلين .

محمد رشدي : مدنية العرب في الجاهلية والإسلام .

محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

محمود شكري الألوسي : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب .

مسلم : صحيح مسلم .
مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية .
نورى حمودى القيسى : الفروسية فى الشعر الجاهلى .
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب .

Arnold. Th. and A. Guillaume : The Legacy of Islam
Dampier W.C. : A History of Science and its relationship to Philosophy
Durant W. : The Story of Civilization
Encyclopaedia Britannica
Hitti Ph. : History of the Arabs
Holmyard E.J. : Makers of Chemistry
Le Bon G. : la Civilisation des Arabes
Le Clerc : Histoire de la Médecine Arabe
Sarton G. : Ancient Science and Modern Civilization
Sarton G. : Introduction to the History of Science
Sédillot. L. : Histoire Générale des Arabes
Singer Ch. : A short History of Scientific Ideas
Singer Ch. : Greek Science and Modern Science
White A.D. : A History of the Warfare of Science with theology in Christendom

فهرس محتويات الكتاب[1]

---

(١) نرجو ملاحظة أننا لم نشر فى هذا الفهرس إلى جميع رؤوس الموضوعات التى جاءت فى هذا الكتاب ، إنما أشرنا إلى أهمها وأشهرها فحسب .

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الأعلام

(غ)

(ف)

(ق)

(ن)

فهرس الشعوب والقبائل والفرق والطوائف

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس الأماكن والبلدان

(ن)

(هـ)

فهرس الغزوات والأيام والوقائع







م : الدجـــوى ــ القـــاهرة

ت : ٩٠٠٤٩٨ ــ ٩٢٤٢٦٨







الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة